



موسم
 الرسول المصطفى (ص)
 باصتمام: محسن أحمد الخاتمي



اسماء

الرسول المصطفى
 صلى الله عليه وسلم

وَالْقَابَهُ وَكُنَاهُ وَصِفَاتُهُ

عبد السلام بن بريكان

المجلد الثاني





اسْمَاءُ

السُّبُوْلِ الْمِصْطَفِيِّ ﷺ

وَأَلْقَابُهُ وَكُنَاهُ وَصِفَاتُهُ

اسماء الرسول المصطفى والقابه وكناه و صفاته / عباس تبریزیان، بمساعدة
هاشم الخاتمی... تهران: ژرف، ۱۳۸۱-

ج. - (موسوعة الرسول المصطفى (ص)) [ج: ۱]

ISBN: 964-6536-73-5 (دوره)

ISBN: 964-6536-64-6 (ج. ۱) - ISBN: 964-6536-69-7 (ج. ۲)

فهرستتویسی بر اساس اطلاعات فیبا.

عربی

کتابنامه.

۱. محمد(ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق. - - کلمات قصار.

۲. محمد(ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق. - - نامهها.

۳. محمد(ص)، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق. - - لقبها.

الف. خاتمی، هاشم. ب. عنوان. ج. فروست.

۲۹۷ / ۹۳

BP ۱۴۳ / ۵ / ۷۴ م

ج. ۱

۱۷۶۹۲ - ۸۱ م

کتابخانه ملی ایران



نشر ژرف

اسماء الرسول المصطفى والقابه وكناه و صفاته (جلد دوم)

عباس تبریزیان

لیتوگرافی مهرنگار

چاپ مهشید

چاپ اول ۱۳۸۱

تیراژ ۱۰۰۰ جلد

شابک ۹۶۴-۶۵۳۶-۶۹-۷

قیمت ۳۳۰۰ تومان

www.nikapub.com

نشر ژرف - تهران - خیابان فخر رازی - شماره ۱۱۱ - تلفن ۶۴۰۱۷۲۷

مَنْ كَتَبَ بِهَا بَعْدَ الْبَحْرِ الْوَادِي الْعَجْمِيًّا
بِوَسِيئَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م
مطبع دار الكتب - بيروت

اسْمَاءُ

السُّورِ الْمَصْفِيَّاتِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَالْقَابِ وَكُنَاهُ وَصِفَاتُهُ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

المجلد الثاني



(٢)

العنوان البريدي في لبنان :

بيروت - الغيري - ص . ب ٢٥ / ١٣٨

العنوان البريدي في إيران :

مشهد - ص . ب ٩١٣٧٥ / ٤٤٣٦

الفاكس : ٢٢٢٢٤٨٣ - ٥١١ - ٠٠٩٨

البريد الإلكتروني : e-mails

almawsouah @ hotmail . com

almawsouah @ yahoo . com

الموقع في الإنترنت :

www.almawsouah.org

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى : بيروت - ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م

الطبعة الثانية : طهران - ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م

حرف الخاء

الأسماء المصدرة بحرف الخاء

٢٨٤. الخاتم

تقدّم في بيان سابق الحديث عن مؤتمر الحلقة والحشر لأخذ الميثاق من الأنبياء وتقسيم أدوارهم وتعيين فترة كل نبي، فكان أهم ما صادقوا عليه هو أن يكون الرسول المصطفى ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم، على أن يقوم هو بإعلان ذلك والإفصاح عنه، بينما يعمد كل واحد من الأنبياء إلى التمهيد له وفرش الأرضية المساعدة لتحقيقه وبلورة ستراتيغيته، وذلك بتبشير أمهم بظهوره وإخبارهم بذلك، والقيام بنصرته وتعزيز موقعه، كما يقوم هو بتصديق الرسل السابقين ومنحهم المنزلة الرفيعة والتعريف بهم وتمجيدهم^(١).

بيد أنّ التوافق الموجود بين الرسل وكل ذلك التعاطف المشهود منهم بحيث يبشّر السابق بمجيء الرسول اللاحق، وهذا اللاحق يمجّد بالرسول السابق ويدعوه بالأخوة، لم يكن عبثاً ومجرد صدفة، وإنما نشأ عن تصافق وتوافق وعهود ومواثيق حتمية أخذت عليهم في ابتداء الحلقة كما أخبر بذلك الكتاب العزيز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ

(١) انظر البحار ١٥: ١٦ ح ٢٢ - ٢٥.

بِهِ وَلْتَنْصُرْتَهُ قَالَ أَقْرَزْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَزْنَا
قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾.

وبموجب ذلك التوافق وذلك الميثاق جاء النبي ﷺ وأخبر بذلك
فقال: «أنا الخاتم»^(١).

وقال أيضاً: «أنا الخاتم ختم الله بي النبوة»^(٢) وكرر القول: «لا
نبي بعدي»^(٣).

وبموجب ذلك الميثاق أخبر الرسل أمهم بما تقرّر من قبل ومهدوا له.
وأودّ أن أشير هنا إلى أنّ الخاتمية ليست هي نهاية عدد أو انتهاء أمد،
بل هي مرتبة سامية ومقام رفيع، وأهداف عالية، تتّصف بنحوٍ من الغائية
والهدفية المخطّط لها مسبقاً.

فإنّ أفضل ما تهدف إليه الخلقة هو قيام البشر أو طائفة مُعتدٍ بها
منهم بوظائفهم المطلوبة، وبلوغهم الأهداف المرسومة، والمرتبة من الرشد
بحيث يستقلّون بذلك العبء مع غياب الرسول والهادي، وفي فترة فقدان
المقوم للأمت والعيوج والمراقب لأعمال الناس على الدوام حيث لم يُعهد
ذلك في الأمم السابقة، بل كانت خاتمتهنّ إمّا الهلاك بدعاء أنبيائهم عليهم،
أو الانحراف نحو الشرك بمجرد غياب الرسول عنهم، أو التحريف
والضلال، فلم يبقَ عقيب النبي عيسى ﷺ على الإيمان إلا بعض الرهبان
المعتزلين في صوامعهم أو في قمم الجبال.

(١) آل عمران : ٨١ .

(٢) البحار ١٦ : ٣٧٤ ، نهج الإيمان : ٤١٧ .

(٣) الاستيعاب ١ : ١٤٩ .

(٤) المحاسن ١ : ١٥٩ ح ٩٧ ، الكافي ٨ : ٢٦ ، ١٠٧ ، علل الشرائع ١ : ٦٦ ، وج ٢ :

٤٧٤ ، عيون أخبار الرضا ﷺ ١ : ٢٠٩ ، الخصال : ٣١١ .

بينما كان دور النبي الخاتم هو التمهيد لتحقيق هذا الحدث الهام، وصناعة أمة لا تنحو إلى الشرك، وتظل بينهم فرقة ظاهرة على الحق ثابتة رغم مواجهة أشد المصاعب، ورغم تكالب الأعداء عليهم، ورغم الكلوم والدماء والضحايا الكثيرة التي يقدمونها.

ومن هنا يُعلم مدى أهمية دور النبي الخاتم، وتُعلم الهدفية المنشودة من وراء بعثة جميع الرسل، وتمهيدهم وتبشيرهم، ومدى صعوبة وظيفة آخرهم ﷺ وعلو مرتبته.

والأهم من ذلك هو اتساع رقعة الإيمان من بعده لتشمل جميع العالم في آخر المطاف، ويكون دينه هو الحاكم على القلوب والأبدان، بمعنى الإيمان بدعوته والاضطرار في أنفسهم إلى تصديقه ﷺ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

هذا ولكن التأمل في قوله ﷺ: «فأنا الخاتم ختم الله بي النبوة» يصيغ معنى آخر للخاتم، وهو إرادة أن وظيفته ﷺ هي وظيفة الخاتم والطابع الذي يُختم به المكاتيب والأوعية والظروف مما يصونها عن التصرف والأخذ منها أو الزيادة فيها.

٢٨٥ . خاتم الأنبياء

إذا قرئت كلمة خاتم بكسر التاء فهي تعني ما تقدّم في العنوان السابق من مرتبة الخاتمية، وختم النبوة به ﷺ، ولو قرئت بفتح التاء فقد قيل إنه يجيء بمعنى الزينة مأخوذاً من الخاتم الذي هو زينة للابسة^(٢).

وقد فسره البعض بنحو آخر، حينما ذكر ما روي عن أن الرسول ﷺ

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) مجمع البحرين ١: ٦٢٢.

قال: إنما مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله وأكمّله إلّا موضع لبنة، فجعل الناس يشيّقون ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة، ألا فكنت تلك اللبنة فقال ذلك القائل: هذا مثل نبوته ﷺ وأنه خاتم الأنبياء، وبه تتم حجّة الله على خلقه، ومثل ذلك البنيان الذي يشدّ بعضه بعضاً، وهو ناقص الكمال بنقصان بعضه، فأكمّل الله به دينه وختم به وحيه^(١).

فقد جعل ﷺ الخاتميّة هي موضع لبنة ناقصة، وبعثته هي تكميم بنيانٍ وترميمه، ونحن ذهبنا إلى وراء ذلك من معنى الهدفيّة وسمو المرتبة، ولا يخفى أن رسالة الرسول ﷺ وخاتميّته أكثر من موضع لبنة لا محالة، بيد أن الخبر ضعيف لا يعول عليه.

ومهما يكن من أمر فقد قال الله ﷻ لآدم لما أقرّ له بالربوبية: قد أوجبتُ لك يا آدم وقد زدتك فضلاً وكرامةً، أنت يا آدم أوّل الأنبياء والمرسلين وابنك محمد خاتم الأنبياء^(٢).

وقال بعض الأخبار للإمام عليّ ﷺ: وجدت في الكتب المتقدّمة وفيما عهد إلينا موسى ﷺ: إذا كان آخر الزمان يخرج نبيّ يُقال له أحمد خاتم الأنبياء لا نبيّ بعده يخرج من صلبه أئمة أبرار عدد الأسباط^(٣).

وقد توالى نعت النبيّ ﷺ بهذه الصفة على لسان الكثير من الأئمة والمشاهير، وفي كثير من الدعوات المأثورة والزيارات وغيرها وهو واضح لا يحتاج إلى النقل.

٢٨٦ . خاتم الرسل

قال السيد ابن طاووس: رأيت في صحف إدريس: قال آدم: آمنت

(١) كتاب أمثال الحديث لابن خلاد الراهمزمي : ١٠.

(٢) سعد السمود : ٣٤ ، ٣٦ ، البحار ١١ : ١٥١ .

(٣) كفاية الأثر للخزاز القمي : ١٤ .

بالله وبرسوله محمد، قال الله: قد أوجبت لك يا آدم وقد زدتك فضلاً وكرامة، أنت يا آدم أول الأنبياء والمرسلين، وابنك محمد خاتم الأنبياء والرسول^(١).

والفرق بين النبي والمرسل هو أن الرسول من ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي، والنبي ربما يسمع الكلام، وربما رأى الشخص، ولا تجتمع له الرؤية والسمع، على أن عدّة الرسل هي ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً.

وبهذا يكون معنى خاتم الرسل هو آخر من ينزل عليه الوحي وآخر من تجتمع له الرؤية والسمع، وعنده تَمَّتْ شرائع السماء، وكمل الدين، وانتهت الحجج، وانقطع العذر وتكامل العدد المقصود الذي يكمن في اكتماله أسرار خفية كما أشرنا إليه في عنوان «تمام عدّة المرسلين» فراجع.

٢٨٧ . الخاتم لما سبق

ماذا سبق، وما هو المراد بوصف الرسول المصطفى ﷺ بأنه الخاتم لما سبق والفتاح لما استقبل في الأحاديث^(٢) ؟

فقد قيل: إن ما سبق هو الوحي والرسالة، والفتاح لما انغلق، أي: فتح ما انغلق وأبهم على الناس من مسائل الدين والتوحيد والشرائع، والسبيل إلى الله^(٣).

ويوحي هذا الكلام إلى أن ما استقبل يتضمّن تغييراً هاماً جداً

(١) سعد السعود: ٣٤، ٣٦، البحار ١١: ١٥٢.

(٢) البحار ١٦: ٣٧٨.

(٣) كامل الزيارات لابن قولويه: ٣٦٨، وفي المزار للمشهدي: ٥٧ والفتاح لما انغلق، وفي يتابع المودة ٣: ٢٠٦ الخاتم لما سبق من الرسل وفاخرها، ورسوله الفاتح لما استقبل من الدعوة وناشرها.

وحدثنا خطيراً بحيث يوازي الأحداث السابقة في الأهمية، بمعنى أنه يقارب عمل جميع الأنبياء وما أسسوه وبنوه وشيدوه من الشرائع، وعمامة مساعيهم في سبيل هداية الناس وما انتشر وشاع عنهم من العلوم، فكل ذلك في جانب، وما يترتب على بعثة الرسول المصطفى ﷺ في جانب آخر.

وبهذا يُعلم أن وصف الرسول ﷺ بأنه خاتم لما سبق يشير إلى أن بعثته ﷺ هي منعطف هام جداً في حياة البشرية بحيث يغير مسيرة التاريخ وتتحقق بسببه أهداف الخلقة والتكوين، فتأمل في قول الإمام علي عليه السلام: «اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفتاح لما استقبل»^(١).

٢٨٨ . خاتم النبوة

الخاتم: هو الطابع الذي يُطبع على المكتوب ويُختتم عليه صيانة له من التصرف فيه والزيادة والنقص، وليدل على أن ما في الكتاب هو آخر ما قيد فيه، وآخر ما أريد منه.

وكذا ما كان يُطبع قديماً على الظروف والأوعية، كأوعية الطعام والمتاع، ليُعلم عدم التصرف فيها، وحصول الاطمئنان من سلامة أوزانها. والجامع أنه وسيلة لإعلان الحد والمقدار والوزن، وآخر ما وضع في المختوم، أو أخذ منه، وأنه ليس بعده شيء.

وحينما يُقال للرسول ﷺ إنه: «خاتم النبوة» فهو يعني أنه الطابع الذي طبعت به النبوة صيانة لها من تحريف المحرفين وزيادة الغالين، ونقص المتكاهلين^(٢)، وليدل على أنه آخر من شرع للناس وآخر من سن لهم السنن ووضع القوانين الشرعية، وأنه آخر نبي ورسول، وليس بعده نبي ينسخ ما

(١) نهج البلاغة ١: ١٣٠، ١٣٢.

(٢) يؤيده ما تقدم في عنوان الخاتم من قوله ﷺ: «أنا الخاتم ختم الله بي النبوة».

أتى به ويغير ما جاء به، ويُعدُّ كل من حاول الزيادة والتقيصة مفتر وكذاب. فلعلَّ ما ذكره الإمام الرضا عليه السلام في جملة خطبة خطبها قائلاً: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أخلصها له، وأدخرها عنده، وصلى الله على محمد خاتم النبوة وخير البرية وعلى آله الرحمة»^(١) يدلُّ على ذلك المعنى، ويشير إلى ذلك المفهوم.

وإن كان احتمال إرادة الطابع والختم الموجود بين كتفيه الشريفين المعروف بخاتم النبوة موجوداً، فيكون المراد أنه عليه السلام ذو خاتم النبوة، وصاحبه، ولكنَّ الأوَّل أقوى؛ لأنَّ التقدير خلاف الظاهر.

ومهما يكن من أمر فاللنقول أنَّ خاتم النبوة الذي بين كتفيه عليه السلام عبارة عن سطرين، الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله.^(٢)

٢٨٩. خاتم النبيين

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٣).

وقد قيل في تفسيره: أي وآخر النبيين ختمت النبوة به، فشريعته باقية إلى يوم الدين، وهذا فضيلة له صلوات الله عليه وآله اختص بها من بين سائر المرسلين.^(٤)

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «أنا خاتم النبيين وعليّ خاتم الوصيين»^(٥). وفي حديث آخر: «إني عند الله لخاتم النبيين»^(٦).

(١) الكافي ٥: ٣٧٣ ح ٧.

(٢) البحار ١٠: ٥.

(٣) الأحزاب: ٤٠.

(٤) مجمع البيان ٧: ٥٦٧.

(٥) البحار ١٦: ٢٢٥.

(٦) مجمع الزوائد ٨: ٢٢٣.

ويبدو أنّ هذا الاسم وهذا العنوان يدوّي في السماء، وأنّه من أوضح العناوين التي يُعرف بها الرسول ﷺ، وأقوى ميزة له؛ ولذا يروي الواقدي في خبر له أنّ النبي ﷺ قعد عند عين فنزل جبرئيل عليه السلام في ذلك الموضع وميكائيل وإسرافيل ودردائيل، فقال جبرئيل: السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا خاتم النبيين^(١)، ناهيك عن حديث: إني عند الله خاتم النبيين المار.

٢٩٠. خازن علم الله

لم أظفر بما يتضمّن وصف الرسول ﷺ بأنه خازن علم الله ﷻ، غير أنّ إطلاق ذلك على الأئمة من أهل البيت عليهم السلام متوافر وكثير، فيكون اتصاف الرسول ﷺ به بطريق أولى، وكذا إطلاقه عليه ﷺ، فإنّ علمهم من علمه، ومن مخزنه، فهو خازن علم الله لا محالة.

ومن ذلك ما روي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قولهم: «نحن خزّان علم الله»^(٢).

وفي الحديث القدسي فيما خاطب به الله ﷻ نبيّه قال: «يا محمد! إني اطّلت إلى الأرض اطّلاعة فاخترتك منها فجعلتك نبياً، ثم اطّلت ثانياً فاخترت منها علياً فجعلته وصيّك ووارث علمك، والإمام بعدك، وأخرج من أصلابكما الذريّة الطاهرة والأئمة المعصومين خزّان علمي، فلولاكم ما خلقت الدنيا ولا الآخرة ولا الجنة ولا النار»^(٣).

ويدلّ على أنّ علمهم من علمه ومن مخزنه ما ورد من قول رسول الله ﷺ: «معاشر الناس اعلّموا أنّ الله تعالى باباً من دخله أمين من النار ومن

(١) نقله في الفضائل : ٣١، والبحار : ١٥ : ٣٥١.

(٢) الكافي : ١ : ١٩٢ ح ٣، الإمامة والتبصرة : ١٣٣.

(٣) كفاية الأثر للخزّاز القمي : ٧٢.

الفرع الأكبر» فقام أبو سعيد الخدري فقال: يا رسول الله اهدنا إلى هذا الباب حتى نعرفه، فقال: «هو علي بن أبي طالب... من سرّه أن يتولى ولاية الله فليقتد بعلي بن أبي طالب بعدي والأئمة من ذريتي فإنهم خزّان علمي»^(١).

فقد جعلهم ﷺ خزّان علمه، فإذا كانوا خزّان علم الله فباعتبار أنهم خزّان علم النبي ﷺ، ومعه يقوى احتمال كونه خازن علم الله تعالى، بل يتعيّن.

والمهم أن نفهم معنى أنّه ﷺ خازن علم الله سبحانه، فإنّ الخزن هو الأذخار والكتمان؛ والعلوم منها ما لا تطيقها عقول البشر من اليوم الأوّل للخلق إلى آخرها، ومنها ما لا يطيقه ولا يتعقله أهل زمانه، ومنها ما يرتبط بمصير الأفراد وعواقبهم وما هم صائرون إليه، وما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق وإضمار العداوة للرسول ﷺ أو أهل بيته ﷺ^(٢)، والخلاصة أن علمه ﷺ هو علم ما كان وعلم ما يكون وعلوم جميع النبيين.

وما ظهر إلى الناس وما يظهر إلى قيام القائم من آل محمد سوى حرفين من العلم، بينما يحتفظ الرسول ﷺ وأهل بيته بخمس وعشرين حرفاً أو اثنين وسبعين على اختلاف الروايات^(٣)، ما عدا حرف استأثره الله لنفسه منه.

ومع احتفاظ الرسول المصطفى ﷺ بأكثر العلم وعدم إفضائه به إلا إلى صدور أمينة وهم علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته عليهم السلام يكون الرسول ﷺ قد ادخر علماً كثيراً، وكنم كل العلم الذي لا يسوغ إبداءه وإظهاره رحمةً بالأمة، وإلا فإننا نجد التأكيد في القرآن على المنافقين ونزول سورة كاملة في حقهم تُقرأ في كل جمعة على الأمة لم تنزل في حق

(١) الاستنصار للكراچكي: ٢٠، البحار ٣٦: ٢٦٣ ح ٨٤.

(٢) بكى رسول الله فقال له علي: ما يبكيك؟ قال: «ضعائن في صدور قوم يبدها لكم بعدي». تاريخ بغداد ١٣: ٣٩٨، عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ٧٢.

(٣) بصائر الدرجات: ٢٢٨ - ٢٣١، الكافي ١: ٢٣٠ ح ١ - ٣.

فرد أو فردين كعبد الله بن سلول، بل هم طائفة كبيرة ممن نافقوا وتوغلوا ووصلوا وحكموا المسلمين، ممن أبرزوا العداوة لأهل البيت ﷺ بعد الرسول ﷺ وقتلوهم وشرّدوهم كل ذلك وأمثاله مما يجري على الأمة وغيرها مما أخبر باليسير منه وأودع الباقي في صدور أمينة.

هذا بالإضافة إلى كل ما كتبه من العلوم والاكتشافات التي توصل إليها البشر اليوم وسيتوصل إليها فيما بعد وغير ذلك مما لا نعلمه ولا يخطر ببال أحد، كيف وعلي ﷺ يقول: إني لأعلم بطرق السماوات منها من طرق الأرض^(١)، ناهيك عن حال الملائكة وصفاتهم وفعالهم، والجن، وأحوال الناس وما يدخرون وما يضمرون وغيرها.

على أن صلاحية الخازن هو إغناء كل من يرجع إليه ليستفيض منه، ولذا لم يتوقف الرسول ﷺ عند سؤال سائل، ولم يتردد في إشفاء غليل مستفهم، وكذا الأئمة الكرام من بعده، فاحتفظ بهذه الإشارات والتلميحات عن علم النبي ﷺ واطلب التفصيل في محل آخر.

٢٩١. خازن الله في الأرض

خازن الأمير الذي يتولى ادّخار مال الأمير وحفظه وإنفاقه، وخازن الله هو الذي يتولى ادّخار علم الله وحكمته، ويتحتّم أن يكون قد تحمّل القسط الأوفى منه، وهو يتولى حفظه من التحريف والزيادة والنقصان والتغيير، كما يتولى إنفاقه، أي تعليم من أمر الله بتعليمه، وبما أمر الله تعليمه.

ولكن ليس لدينا نص يتضمّن وصف الرسول ﷺ وحده بذلك، وإنما ورد عن أبي عبدالله ﷺ: «إنا لخزّان الله في الأرض لسنا بمخزّان على ذهب ولا فضة، وإنّ منّا رسول الله ﷺ وعلي والحسن والحسين ﷺ»^(٢).

(١) الفضائل لشاذان : ٩٨، كشف الغمة للإربلي ١ : ١٢٨، البحار ٢٧ : ٣٨.

(٢) البحار ٢٣ : ٢٩٩، تفسير كنز الدقائق ٢ : ٤٨٤.

٢٩٢. خازن الله في السماء

قال أبو جعفر عليه السلام: «إِنَّا لَخَزَانُ اللَّهِ فِي سَمَائِهِ، وَخَزَانُهُ فِي أَرْضِهِ، لَا عَلَى ذَهَبٍ وَلَا عَلَى فِضَّةٍ، وَإِنَّ مِنَّا لِحَمَلَةَ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وعن علي بن الحسين عليه السلام: «إِنَّ مِنَّا لَخَزَانُ اللَّهِ فِي سَمَائِهِ وَخَزَانُهُ فِي أَرْضِهِ، وَلَسْنَا بِمَجْزَانٍ عَلَى ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ»^(٢).

والظاهر أَنَّ الذي يتولَّى الرسول صلى الله عليه وآله إِدْخَارُهُ فِي السَّمَاءِ لَيْسَ هُوَ الْعِلْمُ فَحَسَبَ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُدْخَرُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَتَوَلَّى إِدْخَارَهُ كُلِّ مَا يَدْخُلُ فِي حَقِيقَةِ الْعَرْشِ، وَمِنْهَا الْقُدْرَةُ، وَقَبْسًا مِنَ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَدَعَوَاتِ مُسْتَجَابَةٍ فِي حَقِّ أُمَّتِهِ وَشَفَاعَةِ الْمُدْنِيِّينَ الَّذِينَ قَصُرَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَأَقْعَدْتُهُمْ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى النِّعِيمِ، فَهُوَ صلى الله عليه وآله يَدْخُرُ قُدْرَةَ يَنْفِقُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيَبْلُغَهُمْ إِلَى مَقَاصِدِهِمْ، وَيَدْخُرُ نُورًا مِنْ نُورِ عِظَمَةِ اللَّهِ يَرَاهُ جَمِيعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا يَرَى الْأَرْضِي نُورَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَيَدْخُرُ مَجْدًا وَشَرَفًا وَسِمَاحَةً وَعِزًّا، وَعَرْشًا فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ.

٢٩٣. خاصَّة الله

الخاصَّةُ جَمْعُهَا خَوَاصٌ، خِلَافَ الْعَامَّةِ وَالْعَوَامِ، وَخَاصَّةُ الشَّخْصِ هُوَ الَّذِي يَخْصُّهُ بِنَفْسِهِ، وَخَاصَّةُ الْمَلِكِ الْمُقْرَبُونَ مِنْهُ، فَخَاصَّةُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله هُوَ الْمُقْرَبُ مِنْهُ تَعَالَى، وَغَايَةُ مَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَاهُ هُوَ أَعْمَالُهُ الْمُقْرَبَةُ مِنَ اللَّهِ، التَّمَثُّلَةُ فِي طَاعَتِهِ لِلَّهِ فِي كُلِّ مَا أَمَرَهُ وَنَهَاهَ، وَمُدَاوَمَتُهُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ سُبْحَانَهُ، وَرَدُّ الْأَبْقِيَاءِ إِلَى طَاعَتِهِ وَهَدَايَةِ خَلْقِهِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَتَعْظِيمِ حُرْمَةِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ، وَإِرْشَادِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِمْ أَحْكَامَ الدِّينِ وَمَا يَقْرَبُهُمْ مِنْ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَيُبْعِدُهُمْ عَنِ سَخَطِهِ.

فَمَا تَجَدَّ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وآله وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا تَذْكَيرًا بِرَبِّ

(١) بصائر الدرجات: ١٢٤.

(٢) بصائر الدرجات: ١٢٤.

العالمين وتمجيده وتعظيمه، وبيان شرعه وأحكامه، ووعظ الناس وإرشادهم وهدايتهم. وتقويم الأمت والعوج، ومساعدة الضعفاء، وقضاء حوائج السائلين، وإغاثة المستغيث، وإيثار الآخرين، ومن ناحية أخرى الفناء في ذات الله سبحانه، والتفاني في سبيله، حتى ختموا أعمارهم بالاستشهاد في سبيله، ولتكون كلمة الله هي العليا، فقبروا فكانوا في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وغير ذلك من آيات قربهم من الله وأنهم خاصته.

هذا بالإضافة إلى ما أخبر به الرسول ﷺ من ابتداء الخلق بهم، وتسبيحهم حول العرش، فقال: «أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره، واشتقّه من جلال عظمته، فأقبل يطوف بالقدرة حتى وصل إلى جلال العظمة في ثمانين ألف سنة، ثم سجد لله تعظيماً ففتق منه نور علي عليه السلام، فكان نوري محيطاً بالعظمة ونور علي محيطاً بالقدرة،... فنحن الأولون، ونحن الآخرون، ونحن السابقون ونحن المسبّحون، ونحن الشافعون، ونحن كلمة الله، ونحن خاصة الله، ونحن أحبّاء الله»^(١).

وقد تقدّم الكلام في أمثال ذلك في عنوان أثر الخلق وغيره .

٢٩٤. خافض الطرف

إنّ طبيعة خفض الطرف توحى إلى الحياء، وتناسب طرداً مع الإعراض عن الدنيا، وعكساً مع الإقبال عليها؛ فإنّ من أراد الشيء أطال النظر إليه. وكذا فهو يعكس رزاة العقل، ودوام التفكير والتثبّت والحلم، وسعة الصدر.

ومع الفراغ عن أنّ صفة النبي ﷺ هو الحيي كما تقدّم في عنوانه بحيث تظهر مضمراته في قسّمات وجهه الشريف، فإنّ الروايات المتضمنة

(١) البحار ٢٥: ٢٢ ح ٣٨.

لعنوان خافض الطرف ذكرت شيئاً من التفصيل، وفي بعضها: «كان رسول الله ﷺ خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة، يبدر من لقيه بالسلام»^(١) وهذا التفصيل يقرب إلى الذهن إرادة الحياء من الله سبحانه، والوحشة من تقصير أصحابه وعدم استقامتهم، وعدم فلاحه في حملهم على ذلك، وهو أصعب تكليف كلف به ﴿فَاسْتَفْتَىٰ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(٢) عرفت صعوبته من قوله ﷺ: «شئيتني سورة هود»^(٣).

وكذلك يمكن تفسير خفض الطرف بأنه إشفاقٌ وتخوفٌ من أن تُدعى له الربوبية أو شيء من ذلك كما أدعت لعيسى عليه السلام الإنيّة وثالث ثلاثة؛ حذراً من قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾^(٤).

وغايته الوقوف على عظمة الله سبحانه وأنه تعالى الملاحظ لحركاته وسكاته، فغض طرفه لعدم إمكان معاينة عظمته، بحيث تعشو عيناه فيفضهما، مما يحكي غاية الأدب والعبودية والسكينة والوقار.

وأما اكتفائه بالملاحظة فهو يحكي عن نباهة عالية ولبٌ مستيقظ بحيث تكفيه نظرة واحدة لقراءة ما حوله ومعرفة ما يريده الجاني والوافد، وما يضمّر وينوي، فلا يحتاج إلى طول التأمل، ولا يجب مشاهدة عرق السائل، ولا تخرج الطالب والمستفهم، وكذا خجل المقصّر، بل يجب الكرامة للجميع.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٣، مجمع الزوائد ٨: ٢٧٧، الأحاديث الطوال للطبراني: ٨٠.

(٢) هود: ١١٢.

(٣) الخصال: ١٩٩، الأمالي للصدوق: ٣٠٤، روضة الواعظين: ٤٧٦، المجازات النبوية: ١٦٠.

(٤) المائدة: ١١٦.

٢٩٥. خالصة الله

خالصة الرجل هم محبوه إذا خلصت مودّتهم من كل شائبة، وانتفت الوسائط والمطامع، وانعدمت المصالح الشخصية.

وخالصة الله سبحانه من بين الخلائق هم محبوه الذين خلصت مودّتهم ولم تشبها المطامع والمصالح الشخصية، بأن يكون حبّهم لأجل أن يرزقهم ويقضي حوائجهم ويرفع احتياجاتهم، ويحقّق رغباتهم، أو لأجل أن يسكنهم جنته أو يوفّقهم، أو يكفيهم عادية جهنم، وشر الأشرار، ومزاحمة المناوئين، وضراوة المستسبعين.

فكل مودّة يكون فيها شيء من ذلك لا تكون خالصة، وإنّما تكون خالصة إذا لم يشبها شيء من ذلك، وكانت محبة الله لأنّه أهل لذلك، وهو ما يعبر عنه قول الإمام علي عليه السلام: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(١).

وإذا كانت العبادة هي مظهر الولاء والحب كما هو مفروض؛ فإنّ الحبّ تارة يكون لأجل الطمع في دخول الجنة، أو لأجل الخوف من النار؛ فإذا ارتفع الطمع في دخول الجنة زال الحب، وإذا ارتفع الخوف من النار زال الحب، بينما يبقى الحب الذي لأجل أهلية المحبوب لذلك، فإنه لا يزول؛ لعدم زوال الأهلية كما هو معلوم.

ولا شك أنّ خلوص الحب لا يكون بالأدعاء، وليس يعلمه إلا العالم بالخفيّات، ولكن له علامات وشواهد كما يقال: للمحب دلائل، وهي لا تخرج من انتجاب الأشخاص، وظهور الكرامات على أيديهم، وتنامي أعمالهم، وبركة تواجدهم، وحبهم لخلق الله وعبادته، ورحمتهم بالضعفاء، وأنسهم مع الفقراء، وعبادتهم في الخلوات، والعمل بما يقولون وغير ذلك،

(١) عوالي اللثالي ١: ٤٠٤ ح ٦٣، و ج ٢: ١١ ح ١٨، البحار ٦٧: ١٨٦.

ولا شك أن أجلى مصداق لذلك هو الرسول المصطفى ﷺ كما لا يخفى على كل من طالع حياته، ونظر في حالاته، وعرف صفاته.

ونظر آدم إلى طائفة من ذريته يتلأأ نورهم يسعى قال آدم: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأنبياء من ذريتك... قال: يا رب فما بال نور هذا الأخير ساطعاً على نورهم جميعاً؟ قال: هذا محمد خالصي^(١).

ولا تنسَ شرف هذه السمة عند التسليم عليه كما ورد في بعض الزيارات: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته... السلام عليك يا حجة الله على العالمين، السلام عليك يا خالصة الله وخليله وحببيه وصفيه من الأولين والآخرين^(٢).

٢٩٦. الخبير

الخبير هو المخبر بكنه الشيء، العالم بحقيقته، وواقعه، وقد يكون بمعنى مطلق المطلع على حقيقة الأشياء سواء أخبر أو لم يخبر.

ولا شك في كون الرسول المصطفى ﷺ خبيراً بالمعنيين؛ لأنه عالم غاية العلم بما علمه الله تعالى وبصره حقائق الأمور، وهو المخبر لأُمَّته بالبعض الذي أذن له في إعلامه وبيانه والإفصاح عنه.

فهو عالم مطلع على حقائق بعض الأمور ولم يخبر عنها، وعالم مطلع على بعض الحقائق وقد أخبر عنها، وكرّر الإخبار بها حتى كان خبيراً كثير الخبر، كما أنه كثير الاطلاع.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾^(٣) فقد قيل إن المأمور بالسؤال

(١) سعد السعود: ٣٤، ٣٦، البحار ١١: ١٥١.

(٢) البحار ٩٩: ١٤٧.

(٣) الفرقان: ٥٩.

غير النبي ﷺ، والخير المأمور بالسؤال منه هو النبي ﷺ^(١).

٢٩٧. الخطيب

من المؤهلات والرهانات الحقيقية التي تؤهل الإنسان لأن يكون خطيباً بتمام معنى الكلمة، هو أن يكون مُفهِماً لمقصوده، مصوراً للوقائع، موجزاً مختصراً، ومع ذلك يجب أن يكون فطناً عارفاً بما يرغب السامع، نافذاً في النفوس، مستولياً على القلوب، عاملاً بما يقول، بصيراً بالحوادث وكل ما يدور، قادراً على ربط الماضي بالحاضر، مقتدرأ على تجديد العبر والأحداث، رامياً إلى الخير والصلاح، متجنباً آفات العجب والرياء، مغادراً لحب الظهور والاستعلاء، خالياً من العيوب والنقائص، وغير ذلك مما لا أعلمه.

هذا عن الخطيب في الدنيا، ولا شك أن الرسول المصطفى ﷺ هو الذروة في كل ما وصفناه ويزيد عليه، كيف! وهو ﴿وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾^(٢)، وقد أرسله الله ﷻ ﴿شَاهِداً وَبَشِيراً وَتَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾^(٣)، وقد أعطاه جوامع الكلم وجميع علوم النبيين، قال رسول الله ﷺ: «أعطاني الله خمساً، أعطاني جوامع الكلم»^(٤) أي سائر الكلمات الموجزة المشتملة على حكيم عظيمة ومعانٍ كثيرة.

وقد تقدم الكلام في مثل فصاحتة ﷺ وحسن صوته، وخطبته فلا نعيد.

(١) الشفاء للقاضي عياض ١: ٢٣٨، سبل الهدى والرشاد ١: ٤٥٤.

(٢) النجم: ٣-٦.

(٣) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٤) البحار ١٦: ٣١٣ ح ١، وص ٣١٧ ج ٧.

وأما الخطيب في الآخرة، فهو يحتاج إلى قدرات لا كالتي في الدنيا، ومنبراً لا كمنابر الدنيا، وإنما هو منبر مجد وعظمة وظهور ونور ونفوذ وقدرة وشفاعة وظهور حقائق ودعامة حجج وتنجز عدات وغير ذلك.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا» وفي رواية أخرى: «وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مشفعهم إذا حسبوا»^(١).

٢٩٨. خليل الله

الخلّة هي الصداقة والمحبة التي تخلّت القلب فصارت خلاله، أي في باطنه، وهي الصداقة الصادقة، والمحبة الخالصة، والمودة الراسخة^(٢).

وخليل الله هو المحب والصديق الذي كانت خلته ومحبته مقصورة على حب الله، فليس فيها لغيره متسع، ولا شركة من محاب الدنيا والآخرة، وهذه حالة شريفة لا ينالها أحد بكسب ولا بذل جهد ولا اجتهاد، فإن الطباع غالبية وصاحبها مقهور، وإنما يخص الله بها من يشاء من عباده مثل الرسول المصطفى ﷺ.

وهناك من يجعل الخليل مشتقاً من الخلّة، وهي الحاجة والفقير، فإنه يريد البراءة من الاعتماد والافتقار إلى أحد غير الله ﷻ.

هذا ما يساعد عليه التفسير اللغوي، ولكن خلة الرسول أكثر من ذلك؛ فإن محبته لله سبحانه هي أعلى مراتب الحب والود، حتى بلغ مرتبة الفناء المطلق، والتمحض التام، فاقتربت نفسه واحترقت وجداً وسكنت واطمأنت، فكانت هي هو، وهو هي حتى كانت يده يد الله ووجهه وجه

(١) سنن الترمذي ٥: ٢٤٥ ح ٣٦٨٩، الجامع الصغير ١: ٤١٢.

(٢) سنن الدارمي ١: ٢٦، نظم درر السمطين: ٤٣، الدر المنثور ٦: ٣٠١، سبل الهدى والرشاد ١٠: ٣٨٦.

الله، ولسانه لسان الله، وكلامه كلام الله، وصفاته مشتقة من صفاته، ومحاسنه من محاسنه، فلا مايز بينهما إلا الربوبية والمخلوقية والخضوع والعبودية. والنتيجة أنه مقام سام ومنصب عظيم، وارتفاع مجد.

قال السيد ابن طاووس: رأيت في صحف إدريس: ... ونظر آدم إلى طائفة من ذريته يتلأأ نورهم يسمى، قال آدم: ما هؤلاء؟ قال: هذا محمد... خليلي^(١)، وفي الحديث القدسي قال الله سبحانه محمد ﷺ: يا محمدا أنت حبيبي وخليلي وصفي وخيرتي من خلقي^(٢).

ويبدو أن هذا الاسم من الأسماء المحبوبة لابنته الزهراء عليها السلام، ولذا ورد في ابتداء زيارتها: السلام عليك يا بنت حبيب الله، السلام عليك يا بنت خليل الله...^(٣).

٢٩٩. خليفة الله في الأرض

الخليفة هو من يخلف غيره ويقوم مقامه، والذي يدبر الأمور من قبله بدلاً من تدبيره، وحينما يقال: إن الرسول المصطفى ﷺ هو خليفة الله في أرضه معناه هو المدبر للأمور، وأنه جعل إليه تدبير عباده بأمره.

قال الله ﷻ: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) يعني صيرناك خليفة تدبّر أمور العباد من قِبَلْنَا وبأمرنا.

وينبغي الالتفات إلى أنّ البحث في هذا الموضوع يستدعي نوعاً من التحذّر والحيطّة، بيد أن الخلافة بالمعنى المفهوم عرفاً كأن يموت خليفة أو

(١) سعد السعود: ٣٤، ٣٦، البحار ١١: ١٥١.

(٢) حلية الأبرار للبحراني ١: ١٥.

(٣) مصباح المتهدد: ٧١١ ح ٧٩٣.

(٤) ص: ٢٦.

ينغيب أو يعجز وينأى، فيحل محله آخر ويقوم مقامه ويخلفه، أو يجعله مجرد واجهة ومحوضاً للتشريفات كل ذلك مما يقرب من الكفر والإلحاد.

ولكن الالتفات إلى نكتة هامة قد يقرب إلى الذهن ما نرمي إليه وما نهدف إلى الاقتراب منه، وذلك أن الله ﷻ في مجده وعظمته وجبروته أجل وأعظم من أن يتولى شئون خلقه الداني المصبوغ بسواد الخطيئة، وأن يباشر تدبير أمورهم وتوافه أعمالهم، وحتى مصائرهم وعواقبهم، وكل ما يعدّ من محاسن أعمالهم لاتعدل عنده شيء، ولا تنزل عند أدنى نعمة من نعمه وإحسانه، فسبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم.

فلا يشذ عن الأذهان تفويضه أمور خلقه إلى خالصتهم ممن لم يتلبس بالذنوب والآثام، وهم أنبيأؤه الكرام وأوصياؤهم العظام بعد إعطائهم القدرة على ذلك، ومن هنا لزم أن لا تخلو الأرض من حجة، ولولاه لساخت الأرض بأهلها، فهو ممسكها ومديرها ومدبرها.

ولا شك أن أجلى مصاديقه، بل مصداقه الأوّل والآخر هو الرسول المصطفى ﷺ، وغيره قائم من قبله، مدبر بأمره، فهو المخاطب بلولاك لما خلقت الأفلاك، وخصوصاً مع الالتفات إلى فنائه ﷺ المطلق في ذات الله الذي تحدّثنا عنه مسبقاً، مما يجعل يد رسول الله ﷺ هي يد الله، ولسانه لسانه، ودعوته دعوته.

ولو صرفنا وجوه النظر عن ذلك، ودخلنا في مقولة اللطف ولزوم الإنذار والبيان، وإقامة القسط والعدل، وتصحيح الخطأ وتقويم العوج وإماتة البدعة وإظهار الحق وإرشاد الناس فتعالى الله سبحانه أن يباشر ذلك، وهو الغني عن عباده، بل استخلف خلائفه، وأمرهم بمباشرة ذلك وأمثاله بعد أن أعطاهم القدرة الكافية، ومنحهم المرتبة العالية.

وعلى هذا فمن شأن الخليفة أن يحاكي من استخلفه في صفاته وأعماله،

وعليه أن يتخلق بأخلاق الله ويريد ويفعل ما أراد الله، ويحكم ويقضي بما يقضي به الله - والله يقضي بالحق - ويسلك سبيل الله ولا يتعدها.

وبهذا لما ذكر ابن شهر آشوب ألقاب الرسول جعل منها أنه خليفة الله في الأرض^(١).

٣٠٠. خمسان الأخصيين

سئل هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً للنبي فقال: كان رسول الله ﷺ خمسان الأخصيين^(٢).

فإن هذه من صفات الرسول ﷺ البدنية، أي أنها صفة قدميه الشريفتين، فإن أخصهما وهو ما لا يصيب الأرض من باطنيهما خمسان، أي شديد الارتفاع من الأرض.

ويُذكر أن ارتفاع الأخص وشدة انحناؤه يعطي صاحبه القدرة الكافية على المشي، بحيث يجعله لا يكل ولا يعيب، فيدخل في تمامية خلقته ﷺ ومكملاتها التي أراد الله لها الكمال.

وفي مقابل الخمسان الأرح الذي لا يكون لرجله أخص وهو من يعفى في هذه الأيام عن الخدمة العسكرية نوعاً، لعدم قدرته على العدو والمشي لمدة طويلة.

ولما كان المقدّر للرسول المصطفى ﷺ أن يجوب البلاد من أجل نشر الدعوة، والتدبير لبقائها وحفظها بدفع شرور الأشرار، ومنع عادية الكفار والمنائين، كل ذلك مع التحفظ على سذاجة الحياة وترك التجملات وعدم جميع الإمكانات للنقل والانتقال والقدرة العسكرية الهائلة التي تكسب

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، وعنه في البحار ١٦: ١٠٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٣، البحار ١٦: ١٤٩.

النبي ﷺ طابعاً سلطوياً ملوكياً، كل ذلك حتم على النبي أن يكثر المشي في البلاد، وهو يؤثر الراجل الضعيف والمنعطفة دابته، وبذلك ناسب أن يكون بدن النبي ﷺ مهيباً ومكيفاً لتحمل عناء ذلك، فكان كذلك لا يكلّ في المشي ولا يعجز، بينما يعلم أصحابه كيفية المشي، فقد روي أن قوماً مشاة أدركهم فشكوا إليه شدة المشي، فقال لهم: «استعينوا بالنسل» وفي رواية «خببوا انسلوا» ففعلوا فذهب عنهم الإعياء^(١)، والخبب هو خطوات واسعة دون الركض، والنسل السرعة في المشي.

٣٠١. الخيار

أنقذ الله ﷻ برسوله ﷺ أولئك الذين أسلموا وآمنوا، من العذاب المهين وغضب الجبار بعد ما كانوا على شفا حفرة من النار، وبه ﷺ أيضاً أطفئت نائرة الحروب، وشمل الصلح الجزيرة العربية بعد تنازع وصراع دموي دائم، كما قام الرسول بانتشال الضغائن والغلّ الذي في الصدور، ونزع من المسلمين رداء البؤس والحرمان، وأرشدهم إلى الطهارة النفسية والجسدية بعد أن كانوا لا يعرفون ما النظافة وما الوضوء وما السواك وما الحمام والاستحمام، فسن لهم الوضوء كل يوم ثلاث مرات على الأقل، والغسل بعد كل جنابة وفي كل جمعة، ودلهم على ما ينفعهم، وأحلّ لهم الطبيات، ونهاهم عما يضرهم، فنجوا من الأمراض والأسقام، وعرفهم مكارم الأخلاق، وسبل التعايش السلمي، واحترام الإنسان، ذكره وأثابه.

كما شمر عن ساعد الجد لمحو الرق والاستعباد، ومهد مهاده العدل والإحسان، فما انقضت عشر سنوات من هجرته إلا وتبدّل حال المسلمين، وخرجوا ميمّاهم عليه، وانتشر منهم ذلك إلى سائر البلاد وشمل جميع أطراف الأرض المستوطنة، فصار ما جاء عنه من العلوم نواة لكل تقدم علمي زاهر.

(١) الوسائل ١١: ٤٣٨ ح ١٥٢٠٢، ١٥٢٠٥.

كما سنّ للمسلمين القوانين الاقتصادية النافعة والجزائية الرادعة لترتفع الطبقة المسحوقة والضعيفة مع عدم الإجحاف بالمرّفة، فحملهم على اقتصاد سالم وتعامل نزيه، فازدهرت على آثاره معيشتهم، وخلعوا ثياب الفقر والحِرمان، وأعقبه استتباب الأمن والسلام.

كما قام ببناء اجتماع متراصّ البنين، فأحكم بناء الأسرة التي هي النواة الأولى للمجتمع، وعزز عرى التكاتف والتعاقد بين الأرحام خاصّة، وبين المسلمين عامة، وبذلك وأمّاله مهّد أساساً رصيناً لحياة سامية طيبة، هذا بصورة كلية.

وأما بصورة جزئية لم يحلّ الرسول المصطفى ﷺ في مكان ولم يدخل منزلاً حتى يغادره عن مملوك يعتق، أو بيت يعمر بالنكاح، أو مريض يشفى، أو محتاج تُقضى حاجته، أو جاهل يُرشد، وأقلّه حلول البركة على أهله.

وأخيراً ما أشار بسيفه إلى بلاد إلا وتفتح له، فيعمّها كل ما قدمناه من وجوه الخير والصلاح، وهطلت فيها هواطل الرحمة، وغياث البركة، ومن هنا تعلم الوجه فيما جاء في مزموّر من مزامير داود عليه السلام ما نصه:

تقلّد أيها الخيار السيف؛ فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يجرون تحتك.

والخيار: هو الكثير الخير.

وأما قرن كثرة الخير مع تقلد السيف، فإن فيه إشارة إلى أنّ الموانع لنشر العدل وتعميم الدعوة كثيرة جداً، ولا سبيل إلى ذلك سوى السيف والجهاد الحق.

٣٠٢. خير أصحاب اليمين

قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قسّم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما

قسماً، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ و ﴿أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾، فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل الْقَسَمِينَ اثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فأنا من السابقين وأنا خير السابقين^(١).

وفيما تقدّم من العناوين كآثر الخلق ما فيه الإشارة إلى وجه تفضيل النبي ﷺ وتقدمه، وأما الكلام في أصحاب اليمين، فمسلّم أنهم الفائزون في سدر مخضود وطلح منضود، يعني أهل النعيم.

وتظلّ تسميتهم بأصحاب اليمين إما لأجل أنهم يعطون كتبهم بأيمانهم، وقيل: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، أو أنهم أصحاب اليمين والبركة على أنفسهم والثواب من الله سبحانه بما سعوا إليه من الطاعة وهم التابعون بإحسان.

والعلة في تخصيص خيرية النبي من بين أهل اليمين واضحة؛ وذلك فإن أصحاب الشمال لا خير فيهم حتى يكون الرسول ﷺ خير أصحاب اليمين والشمال، بخلاف أصحاب اليمين الذين رجحت كفة أعمالهم الخيرة وأتسموا بصفة الخير، صحّ بذلك أن يقيس الرسول ﷺ نفسه بهم ويقول: «أنا خير أصحاب اليمين».

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ قولنا إن الرسول ﷺ خير أصحاب اليمين كقولنا إن ليلة القدر خير الليالي، والحال أنّ الشهر لا تقاس بها.

(١) تفسير القمي ٢: ٣٤٦، تفسير مجمع البيان ٩: ٢٣٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام

للكوفي ١: ١٢٧، كنز العمال ٢: ٤٤، الدر المنثور ٥: ١٩٩، البداية والنهاية

لابن كثير ٢: ٢١٦.

٣٠..... أسماء الرسول المصطفى ﷺ

لأنها تفضل على ألف شهر، وليس فيها وجه اشتراك مع سائر الليالي سوى الاشتراك في الاسم.

٣٠٣. خير الأمم

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لَمَّا ولد رسول الله ﷺ أُلقيت الأصنام في الكعبة على وجوها... وانهزم الشيطان وهو يقول: خير الأمم، وخير الخلق، وأكرم العبيد، وأعظم العالم محمد ﷺ»^(١).

فإذا كان عنوان «خير الأمم» صفة أو اسماً لرسول الله ﷺ، بأن تجعل كلمة «محمد» خبراً لكلمة خير الأمم، ويصير المعنى خير الأمم محمد، وخير الخلق محمد وهكذا كما هو ظاهر الحديث، فلا بد من تفسير كلمة «الأمم» بأولئك الذين انفردوا بالإيمان والتوحيد بين أمة مشركة أو ملحدة، وقاموا في برهوت الكفر والإلحاد قانتين لله سبحانه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾^(٢).

وروي أن عبد المطلب يحشر أمة، وكذلك تبع وقس وغيرهما^(٣) ممن كانوا كذلك.

فالرسول هو خير الأمم، بمعنى أنه ﷺ خير من انفرد بالإيمان في برهوت الكفر وبلاد الشرك، وخير من قام من بينهم قانتاً لله، وإن كان هذا الاحتمال بعيداً، والأرجح المأنوس إلى الذهن هو إرادة أمة النبي.

ومهما يكن من أمر فإذا كان المراد أمة محمد ﷺ، وأنها خير الأمم، فإنه يخرج عن محل البحث، ويحتاج إلى تقدير كلمة «أمة» فيكون العنوان

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٢، ٢٣، البحار ١٥: ٢٧٤.

(٢) النحل: ١٢٠.

(٣) البحار ١٥: ١٨٤.

أُمَّتَهُ خَيْرَ الْأُمَمِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا مَحَلَّهُ.

وعلى الاحتمال الأول فالوجه في كونه ﷺ خير الأمم مع دخول النبي إبراهيم عليه السلام بين الأمم هو ما تقدم في العناوين الدالة على أن النبي ﷺ هو أثر الخلق وأفضل الأنبياء فلا نعيد.

٣٠٤. خَيْرِ الْأَنَامِ

الأنام: ما ظهر على الأرض من جميع الخلق، وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ هم الجن والإنس^(١).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا مجدل الأبطال، وقاتل الفرسان، ومبير من كفر بالرحمن، وصهر خير الأنام»^(٢).

وفي خبر عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «فساد الجسد في كثرة الطعام، وفساد الزرع في كسب الآثام، وفساد المعرفة في ترك الصلاة على خير الأنام»^(٣).

ومعلوم أن الصلاة على النبي ﷺ واجبة، وقد عُلِّلَ وجوبها بأن لا ينسى ذكره، ولا تدرس آثاره وما جاء به من السنن، وهذه الرواية جعلت فساد المعرفة بترك الصلاة على خير الأنام، المستفاد منه أن علة وجوب الصلاة هي عدم فساد المعرفة.

ويتيسر الجمع بين الحقين بفرض أن نسيان النبي ﷺ والغفلة عنه وعمّا جاء به هو بعينه فساد المعرفة، والتي هي معرفة الله سبحانه ومعرفة رسوله ﷺ.

(١) معاني الأخبار: ٥٨ ، والآية في سورة الرحمن : ١٠ .

(٢) معاني الأخبار: ٥٨ .

(٣) مستدرک الوسائل ١٦ : ٢١٣ ح ٣٢ .

وهنا يكمن سر خفي في التعبير بـ « خير الأنام » في هذا الخبر، وهو كما قيل: إن الوصف مشعر بالعلية، فيكون مفاده فساد المعرفة بترك الصلاة عليه؛ لأن النبي ﷺ هو خير الأنام؛ لما يترتب على الصلاة ومعرفة خير الأنام من الفوائد الكثيرة، كالرغبة في الاقتداء به، وحصول الميل إلى التطلع على ما جاء به إذا علم أنه خير الأنام، كما يقتضي إمامة العُجب من النفوس إذا عرفوا أن هناك من هو خير الأنام، وغير ذلك من الفضائل الكامنة في هذه الحقيقة.

وأما الكلام في دليل كونه خير الأنام فقد تقدّم في العناوين المتضمنة لأفضلية النبي كآثر الخلق وغيره ما فيه الكفاية.

ويبقى أن كون الرسول ﷺ هو خير الأنام هل يدل على أن جميع الأنام لا يخلون من الخير، والرسول ﷺ هو خيرهم؟ هذا يشكل قبوله وردّه، لصعوبة تصوّر خلوّ إنسان في طيلة حياته من أقل الخير، كمعونة ضعيف، أو إرشاد ضال أو غير ذلك، وإلا فلا بد من الالتزام بعدم توقّف صحة قياس النبي بغيره على وجود الخير في الباقين. ومن جملة إطلاق كلمة « خير الأنام » على النبي ﷺ، وهو كذلك، لأنه لا مانع من أن يقال: المؤمن خير من الكافر.

٣٠٥. خير الأنبياء

أنا أعتقد أن الخير المضاف مجيء من ناحية الخير المطلق، وهو الأثار والنفع والخيرات المعلولة لذلك الوجود المضاف. فحينما يكون الرسول المصطفى ﷺ خير الأنبياء فهو يعني أن ما يترتب على وجوده من النفع والآثار والخيرات أكثر مما يترتب على المضاف إليهم وهم الأنبياء عليهم السلام.

كما لا أعتقد أن المراد بالأنبياء هو العموم الأفرادي حتى تكون نسبة الخير المترتبة على وجود الرسول الخاتم أكثر من نسبة الخير المترتبة على

وجود كل واحد من الأنبياء، بل المراد هو العموم المجموعي، بمعنى أن الأثر المترتب على وجوده الشريف أكثر من الأثر المترتب على وجود مجموع الأنبياء عليهم السلام.

والداعم لذلك هو تفرع خيرات جميع الأنبياء عليهم السلام على وجوده وخيراته ويزيد عليهم، لأن وجودهم من وجوده، وخلقوا لأجله، المستفاد من مثل قوله تعالى في الحديث القدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك»^(١)، وكذا الروايات الدالة على أنه ﷺ أول مخلوق، وأنه الانفجار الأول، وأول طاقة تحررت في الكون، وإنما اشتق سائر الأنبياء والخلق منه ومن أهل بيته عليهم السلام، وتفرعوا عليهم، فقد روى أنس عن النبي ﷺ قال: «لما أراد الله أن يخلقنا تكلم بكلمة خلق منها نوراً، ثم تكلم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً، ثم مزج النور بالروح، فخلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين... فلما أراد الله تعالى أن ينشئ خلقه فتق نوري فخلق منه العرش...»^(٢).

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله تعالى خلق من نور محمد ﷺ عشرين بجزراً من نور في كل بحر علوم لا يعلمها إلا الله تعالى، ثم قال لنور محمد ﷺ انزل في بحر العز... فلما خرج من آخر الأبحر... فقطرت منه قطرات كان عددها مائة ألف وأربعة وعشرين ألف قطرة فخلق الله تعالى من كل قطرة من نوره نبياً من الأنبياء»^(٣) فخذ هذه الألفاظ ودع معانيها، لكن يمكنك أن تستلهم منها ومن أمثالها حقيقة كلمة «خير الأنبياء» وهو كافٍ في المقام.

ومهما يكن من أمر فإن رسول الله قال يوماً لسيدة النساء عليها

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٨٦.

(٢) البحار ١٥: ١٠.

(٣) البحار ١٥: ٢٩ ح ٤٨.

السلام: «يا فاطمة! منا خير الأنبياء وهو أبوك...»^(١).

ولما وُلد النبي ﷺ جاء الشيطان وقال: يا جبرئيل ما هذا؟ قال: هذا نبي قد ولد، وهو خير الأنبياء^(٢).

وتكرر أيضاً قول النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «أنا خير الأنبياء وأنت خير الأوصياء»^(٣).

٣٠٦. خير أنبياء الله

ينقل أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «من أعان عباً لنا على عدولنا... بعثه الله يوم القيامة في أعلى منازل الجنان ويقول: يا عبدي الكأسر لأعدائي الناصر لأوليائي المصرح بفضل محمد خير أنبيائي... فيقول ذلك ويبلغ الله ذلك جميع أهل العرصات»^(٤).

وإنما ذكرنا هذه الصفة مع اتحادها مع السابقة لكي نكون قد استقصينا صفاته ﷺ المنقولة جهد الإمكان.

٣٠٧. خير الباقيين عند الله

ليس الرسول المصطفى ﷺ هو خير الباقيين فحسب، بل هو خير الماضين والباقيين عند الله سبحانه كما جاء في الخبر.

وهنا يُفسر التقييد بكلمة «عند الله» كيفية اتصافه بالتفوق على من لم يوجد بعد، ولم يخلق حينها، فإن ذلك عند الله وفي علمه سبحانه الذي هو

(١) ينابيع المودة ٣: ٢٦٩ عن أبي أيوب الأنصاري، ومثله في الخصال: ٤١٢.

(٢) كمال الدين: ١٩٧.

(٣) كفاية الأثر: ٧٦.

(٤) البحار ٧: ٢٢٦ ح ١٤٣.

فوق الزمن، ويستوي المتقدم والمتأخر زماناً عنده، فيرى الجميع في عرض البعض، ويعلم حالهم وما هم صائرون إليه، فاستخبرهم وعرف خيرهم.

وأصل هذا الخبر عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: « كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى بن مريم أن قال له: ...محمد رسول الله إلى الناس... خير الماضين والباقيين عندي».

وأظن أن هذا يوحى إلى أن عدد البشر ما قبل عيسى عليه السلام وما بعده متساويان، وإن كانت الفترة التي سبقتة قد تكون أكثر من اللاحقة بأضعاف، ولكن ازدياد سكان الأرض في الفترة اللاحقة كان وما يزال باطراد مضاعف بأضعاف كثيرة.

٣٠٨ . خير البرية

لماذا الرسول المصطفى عليه السلام خير البرية؟ لأنه أكثرهم خيراً، فبأي دليل هو أكثرهم خيراً؟ بدليل أنه عظم كل خير وأشاعه، وحقر كل شر وأماته، فإذا كان الخير هو حصول الشيء على كماله وأحسن وجوهه، فالحديث الكامل والحسن هو الحديث الصادق، والرسول عليه السلام عظم الصدق وحث عليه.

وإذا كان الإنسان العالم هو الإنسان الكامل فالرسول عليه السلام عظم العلم ومجده وقال: «اطلبوا العلم ولو بالصين»^(١).

وإذا كانت الحرية هي كمال فقد جنح رسول الله عليه السلام إلى نحو الرقية واستنصافها.

وإذا كان الكمال في الطعام الطيب فقد حرم الرسول عليه السلام الخبائث وأحل الطيبات.

(١) روضة الواعظين : (١)، الوسائل ٢٧ : ٢٦ ح ٣٣١١٩ .

وإذا كانت النظافة هي كمال، فقد قال: «النظافة من الإيمان»^(١) وهكذا لم يترك كمالاً إلا أمر به، ولم يترك نقصاً إلا ونهى عنه، حتى قال: «ما أعلم عملاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد نبأتكم به وحثتكم على العمل به، وما من عمل يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة إلا وقد حذرتكموه ونهيتكم عنه»^(٢) والجنة هي الحياة الكاملة التي تجمع كل خير.

فالرسول المصطفى ﷺ خير البرية، وأكثرهم خيراً لأنه دلّ الناس على كل خير، وحذّرهم من كل شر، وكان السابق إلى كل عمل صالح وكل خير، فهو خير محض، ومعلوم أن من كان خيراً محضاً فهو خير البرية، ولا يتصور من هو أخير منه، ولذا قال الصادق عليه السلام: «ما برأ الله برية خيراً من محمد ﷺ»^(٣).

على أن ذلك لم يكتسبه بمرور أزمان وارتكاب أخطاء صارت له عبراً، بل هو مجبول عليه، مفطور على ذلك، ولذا قال الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه: «حتى بعث الله محمداً ﷺ شهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً»^(٤).

ثم إن كل ما سبق يعكس جانباً واحداً من الخير مما تقدّم فيه النبي ﷺ على غيره والجانب الآخر هو الإيمان بالله العظيم، ونزع الشرك، ومحاربة الإلحاد الذي هو ظلم عظيم وكفر بأنعم الله سبحانه، فمن أظلم عن يتنعم بنعم الله سبحانه ويأكل رزقه ويسكن أرضه، وهو يعبد رباً سواه، فهنا يتحقق الميزان الصادق الذي ذكره الله تعالى في كتابه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في آل محمد^(٥).

(١) نهج الفصاحة: ٦٣٦ .

(٢) علة الداعي: ٧٣ .

(٣) الكافي ١: ٤٤٠، البحار ١٦: ٣٦٨ .

(٤) نهج البلاغة ١: ٢٧، البحار ١٦: ٢٨٤ .

(٥) تفسير القمي: ٣٧٢، البحار ٢٣: ٣٦٩، والآية في سورة البينة: ٧ .

٣٠٩. خير البشر

بناءً على ما سبق من التحاليل اعتقد أن التساؤل عن الأمور التي يكون بها الإنسان خير البشر لا وجه له، ولكن مع ذلك يمكن وضع البصمات على بعض النقاط الهامة، وهي الإيمان والعلم والحلم واليقين والعقل والحكمة.

وآية كل ذلك هو الصبر وشدة الاحتمال فهو رأس الإيمان ومبلغ العلم والحلم واليقين، وهو رأس العقل وأساس الحكمة، وقد اكتمل كل ذلك في الرسول ﷺ، بل أودع فيه إبداعاً، فقد روي أن أمنة والدته الرسول ﷺ تحدثت عن وقائع ولادة النبي ﷺ، فكان من جملته أن قالت: رأيت شاباً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً، وأحسنهم ثياباً ما ظننته إلا عبد المطلب قد دنا مني فأخذ المولود فاستنطقه، فنطق فلم أفهم ما قال إلا أنه قال: في أمان الله وحفظه وكلاءته، وقد حشوت قلبك إيماناً وعلماً وحلماً و يقيناً وعقلاً وحكماً فأنت خير البشر^(١).

ووعظ الله سبحانه عيسى بن مريم عليه السلام فقال: يا عيسى ما أكثر البشر، وأقل عدد من صبر، الأشجار كثيرة وطبيها قليل، فلا يفرّتك حُسن شجرة حتى تذوق ثمرتها^(٢).

فهذا هو طريق الاستخبار ومعرفة حال البشر.

ولم يبلغ شدة احتمال الرسول ﷺ وكثرة صبره أحد من الناس وحتى الأنبياء، وهو القائل: «ما أودني نبي مثلما أوديت»^(٣) والقصص الواردة في صبره وشدة احتماله قد أوردنا شطراً منها فيما مضى وسنورد شطراً آخر في محاله إن شاء الله.

وبذلك أنشأ البعض في محضر رسول الله ﷺ قائلاً:

(١) كمال الدين: ١٧٦.

(٢) أمالي الصدوق: ٦٠٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢.

عليك يا خير البشر	صلى العلي ذو العلى
و الهاشمي المفتخر	أنت النبي المصطفى
وفيك نرجو ما أمر ^(١)	بك اهتدينا رشدنا

٣١٠. خير الخلائق

الخلائق جمع الخلق، والخلق هم مَنْ خَلَقَ اللهُ، والجمع يكون باعتبار الأصناف بل حتى الأجناس، فيشمل الإنس والجن والملائكة، والرسول ﷺ هو خير الخلائق، وخير من الملائكة وأفضل، بمعنى أكثرهم خيراً، وأنه أكثر وجوداً يترتب عليه الخير، بل خيره يفوق خير الجميع بمجموعهم، لأنه الغاية من الخلق، ومنه اشتق خلقهم، ومنه تعلمت الملائكة التسبيح وسائر الذكر، وهو من العالين الذين هم أعلى من الملائكة، من الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٢)، وهو أول وجود وأول طاقة تحررت، ومنه اشتق سائر الوجود، فهو أصل، وهم فرع عليه، فكل خير فيهم راجع إليه ويزيد عليهم ما تفرد به من دون واسطة أحد، وقد مر الكلام في ذلك.

وقد عرف ذلك الفضل للنبي ﷺ جميع الأمم السابقة، بمقتضى الميثاق الذي أخذ على الأنبياء ﷺ أن ينصروه وبيشروا به أممهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَكَتَبْتُمْ لَهُ قَوْلَ الْفِرْيَانِ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٣).

(١) كفاية الأثر: ١٥.

(٢) ص: ٧٥.

(٣) آل عمران: ٨١.

وحينما بُعث الرسول ﷺ ونزلت الآيات من الله ﷻ، قام اليهود وغيرهم لدحض دعوة النبي ﷺ متناسين العهد التي أخذت عليهم وعلى رسلهم ولم يفتأ الله ﷻ يُذكرهم بتلك العهود وتلك المواثيق وتلك العلائم والحجج.

قال الحسن بن علي رضي الله عنه: إن الله تعالى لما وبَّخ هؤلاء اليهود على لسان رسول الله ﷺ وقطع معاذيرهم وأقام عليهم الحجج الواضحة بأن محمداً سيد النبيين، وخير الخلائق أجمعين... فجاءوا أن كابروا فقالوا: لا ندرى ما تقول، ولكننا نقول: إن الجنة خالصة لنا من دونك ولحن أولياء الله المخلصون وعباده الخيرون، فلما قالوا ذلك قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ثم قال لهم رسول الله ﷺ بعد ما عرض هذا عليهم: لا يقولها أحد منكم إلا قد غص بريقه فمات مكانه، فلم يجسروا أن يدعوا بذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾^(١).

وبذلك انقطع عذر اليهود ودعواهم أنهم خير الخلق، ولم تبقَ هذه الدعوى إلا لرسول الله ﷺ وأهل بيته لم يجي ما يفندوها لأنها حق، ولأنهم قدّموا كل ما عندهم، ولم يترددوا في التضحية في سبيل الله سبحانه من حروب الرسول ﷺ إلى شهادة الحسين رضي الله عنه بكر بلاء، وقولهم: ما منّا إلا مقتول أو مسموم^(٢).

٣١١. خير الخلق

لا يكفّ الشيطان عن إدانة الإنسان، ودفعه إلى الشرور والآثام، وما

(١) تفسير الإمام العسكري رضي الله عنه: ١٧٩، ١٨٢، البحار ٩: ٣٢١. والآية في سورة

البقرة: ٩٤-٩٥.

(٢) كفاية الأثر: ١٦٢.

زال يدلّس له الفضائح، ويزين له فعل القبائح.

ولمّا كانت دعوة الرسول المصطفى ﷺ تتضمن التحذير الشديد من الشيطان ووساوسه وجميع الأضرار التي يمكن أن يوصلها إلى الإنسان، كما بينت طرق التخلص منه والتجنب من مضاره من الاستعاذة بالله سبحانه والاحتياز عن مواطن تواجده ومراكز قدرته فإن هذا يُعد هزيمة للشيطان وتضعيفاً له.

وأقصد بالشيطان كل القوى المعادية للإنسان التي تحاول إيراد الضرر عليه، بشتى الألوان.

وبذلك يُعدّ تجنب الإنسان كل تلك المضار هو كمال الخير، وأكثر ما يمكن أن يترتب من الخير على أحد الموجودات الخيرة.

ولهذا ورد أنه لما ولد رسول الله ﷺ ألقيت الأصنام في الكعبة على وجوهها، وانهزم الشيطان وهو يقول: خير الأمم، وخير الخلق، وأكرم العبيد وأعظم العالم محمد ﷺ^(١).

ولعلّ حقيقة هذا الكلام هي عين الأفعال والأعمال المؤدية إلى نزح الشيطان وابتعاده عن صدور الناس وليس محض الألفاظ؛ فإن أكثر أوامر النبي ﷺ ونواهيّه تصب في هذا المصّب وتؤدي إلى رجوع النفع إلى البشر، ودفع الأضرار والشرور عنهم.

ومن المعلوم أن خير الرسول ﷺ لا يتحدّد بهذا المقدار ولا أضعافه، لكننا أحببنا الإشارة إلى هذا الجانب من خيراّته لعدم الإشارة إليه في سوابقه، مع مجيء هذا الوصف في كلام أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان، فكان مناسباً، خصوصاً وأن الفضل ما شهدت به الأعداء.

(١) المناقب ١: ٢٢، ٢٣، البحار ١٥: ٢٧٤.

مَنْ يَكُنْ بِمَنْزِلَةِ ابْنِ خَيْرٍ لَمْ يَكُنْ بِمَنْزِلَةِ ابْنِ خَيْرٍ
يُؤَيِّسُكَ اللَّهُ بِسَيِّدِ الْمَرْئِيَّةِ الْمُسْتَنِي

٣١٢. خير خلق الله

لقد قيل لمعاوية ذات يوم: لو أمرت الحسن بن علي بن أبي طالب فصعد المنبر فخطب ليتبين للناس نقصه، فدعاه فقال له: إصعد المنبر وتكلم بكلمات تعظنا بها.

فقام عليه السلام فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب، وابن سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، أنا ابن خير خلق الله، أنا ابن رسول الله، أنا ابن صاحب الفضائل»^(١).

ومعلوم أن الإمام الحسن عليه السلام أراد دحض الباطل المتحمل بمعاوية وحزبه، فلم يجد لذلك خيراً من قول أنا ابن خير خلق الله، ليكون معاوية ابن شر خلق الله، وهو شر خلق الله أيضاً.

٣١٣. خير خليفة الله

قال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «قال الله تعالى: لأهدببن كل رعية دانت بطاعة إمام ليس مني، وإن كانت الرعية بنفسها برّة، ولأرحمن كل رعية دانت بإمام عادل مني وإن كانت الرعية غير برّة ولا تقية. ثم قال لي: يا علي أنت الإمام والخليفة بعدي، حربك حربي، وسلمك سلبي، وأنت أبو سبطي، وزوج ابنتي، ومن فريتك الأئمة المطهرون، وأنا سيد الأنبياء، وأنت سيد الأوصياء، وأنا وأنت من شجرة واحدة، لولانا لم يخلق الله الجنة ولا النار، ولا الأنبياء ولا الملائكة.

قال قلت: يا رسول الله فنحن أفضل أم الملائكة؟

(١) أمالي الصدوق: ٢٤٤، الخرائج والجرائح ١: ٢٣٧، مدينة المعاجز ٣: ٤١٤.

فقال: يا علي نحن خير خليفة الله على بسيط الأرض، وخيرة ملائكة الله المقربين، وكيف لا نكون خيراً منهم وقد سبقناهم إلى معرفة الله وتوحيده، فبنا عرفوا الله، وبنا عبدوا الله، وبنا اهتدوا السبيل إلى معرفة الله^(١).

وقد تضمن هذا الخبر ذكر العنوان مع ذكر علة ذلك من أن النبي ﷺ وعلياً عليهما هما العلة الغائية لخلق الخليقة وخلق الجنة والنار، وأنهما كانا خير الخلق لأنهما السابقان إلى معرفة الله بمعني السبقة، أي الزماني والكمي، كما أشار إلى مشروع الخلقة وبتدرياتها حيث أخذت الملائكة من أنوارهم المقدسة التسبيح، وتعلموا ذلك منهم، وبهم عرفوا الله سبحانه.

وتأكيداً لذلك قال الله ﷻ في كتابه إلى بني إسرائيل: إني لا أتقبل عملاً لا يعظم محمداً وعلياً وألهما الطيبين، ولم يكرم أصحابهما ومحببيهما حق تكرمهم، يا عبيد الله ألا فاشهدوا أن محمداً خير خليقتي^(٢).

٣١٤. خير السابقين

إن من غير الممكن فهم حقيقة هذا العنوان، ومن هم السابقون، وما هو سبب الأسبقية بعد اشتراك جميع السابقين في الطاعة والسبق إلى الخيرات وأسباب المغفرة وغيرها من المؤهلات التي تجعلهم من السابقين، ولا يعلمها إلا الله، ولكن يبدأ من السبق في الإيمان بالله والإقرار به يوم قال سبحانه وتعالى: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: ﴿بلى﴾، وينتهي باكتساب عوامل الرشد المجلد بعد الموت، ليسبقوا الآخرين في النشر والحشر ودخول النعيم أعلاها منزلاً، وأسمائها عرفاً.

قال رسول الله ﷺ: إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما

(١) كفاية الأثر: ١٥٨، البحار ٢٦: ٣٤٩ ح ٢٣.

(٢) تفسير الإمام العسكري ﷺ: ١٧٠، ١٧٣، البحار ١٣: ٢٤٠.

قسماً وذلك قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ فأننا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ فأننا من السابقين، وأنا خير السابقين^(١).

٣١٥. خير الناس بيتاً

روي أن رسول الله ﷺ بلغه بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال: «من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني من خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأننا خيركم بيتاً، وأنا خيركم نفساً»^(٢).

والمراد بالبيت هم أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم، والمتفق عليه بين علماء الإسلام أن منهم فاطمة الزهراء سلام الله عليها وبعليها وابناها، وأضاف البعض إليه زوجاته، ولكنه غير سديد؛ لأن المرأة تكون يوماً مع الرجل وقد لا تكون فيطلقها وتكون زوجة رجل آخر.

فقد روي في مسند أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يمرّ ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

(١) مناقب أمير المؤمنين للكوفي ١: ١٢٧، وقريب من ذلك ما في مجمع الزوائد للهيتمي

: ٢١٤، وانظر كشف الغمة ١: ١٢، وأمالى الصدوق: ٣٧٤، والبحار ١٦: ١٢٠، ٣١٥.

والآيات في سورة الواقعة: ٢٧، ٤١، ٨-١٠.

(٢) ذخائر العقبى للطبري: ١٠، ويقرب منه ما في الدر المنثور ٣: ٢٩٥.

تَطْهِيراً»^(١).

وفي حديث الكساء قالت أم سلمة: إن النبي ﷺ غشى علياً وفاطمة والحسن والحسين بكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي في البيت فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال: «أنت على مكانك، وأنت على خير»^(٢).

وعن أبي سعيد قال: نزلت هذه الآية في رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين^(٣).

وروى الهيثمي حديث «أنا خيركم بيتاً» المارجزية: «فذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»^(٤).

ثم روى بعد ذلك عن عبد الله بن عمر قال: إنا لنعوذ بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة فقال رجل من القوم: هذه ابنة محمد، فقال رجل من القوم: إن مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن، فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فجاء النبي يعرف في وجهه الغضب ثم قام على القوم فقال: «ما بال أقوال تبلغني عن أقوام» فهذا يفسر ما بلغ رسول الله ﷺ المشار إليه في الحديث الأول^(٥).

وفي حديث آخر: أتى ناس من الأنصار النبي ﷺ فقالوا: إنا نسمع من قومك حتى يقول القائل منهم إننا مثل محمد نخلة نبتت في الكبا - والكبا:

(١) مستند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، سنن الترمذي ٥: ٣١. والآية في سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) مستند أحمد ٦: ٢٩٢، سنن الترمذي ٥: ٣٠، ٣٢٨.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٩١.

(٤) مجمع الزوائد ٨: ٢١٥، والآية في سورة الأحزاب: ٣٣.

(٥) مجمع الزوائد ٨: ٢١٥.

الكناسة - فقال رسول الله ﷺ: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - قال فما سمعناه ينتمي قبلها - ألا إن الله ﷻ خلق خلقه ثم فرقهم - إلى أن قال - فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً»^(١).

ويروى عن ابن عباس قال: توفي ابن لصفية عمه رسول الله ﷺ فبكت عليه وصاحت، فأثامها النبي ﷺ فقال لها: «يا عمّة! ما يبكيك؟» قالت: توفي ابني، قل: «يا عمّة! من توفي له ولد في الإسلام فصبر بنى الله له بيتاً في الجنة» فسكتت ثم خرجت من عند رسول الله ﷺ فاستقبلها عمر بن الخطاب فقال: يا صفية قد سمعت صراخك، إن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تغني عنك من الله شيئاً، فبكت فسمعها النبي ﷺ وكان يكرمها ويحبها، فقال: «يا عمّة! أتبكين وقد قلت لك ما قلت؟» قالت: ليس ذلك أبكاني يا رسول الله استقبلني عمر بن الخطاب، فقال: إن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تغني عنك من الله شيئاً، قل: فغضب النبي ﷺ وقال: «يا بلال! هجر بالصلاة» فهجر بلال فصعد المنبر ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع، كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي فإنها موصولة في الدنيا والآخرة»^(٢).

والأخبار بهذا المعنى كثيرة جداً لا نحاول استقصاءها ليطول المقام، ولكن يستفاد من هذا النزر أمور.

١. بيت رسول الله ﷺ وأهل بيته هم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم، وهم خير بيت، وأفضل بيت على الإطلاق؛ لأن الله أذهب عنهم الرجس، ومن المعلوم أن كونهم خير بيت لا يتحقق إلا إذا كانوا مبرئين من العيوب، تاركين للذنوب، وهو ملازم للطهارة الروحية المقصود بها العصمة.

(١) مجمع الزوائد ٨: ٢١٥.

(٢) مجمع الزوائد ٨: ٢١٦.

٢. إذا كان هؤلاء نفرهم خير بيت، فلا بد أنهم خير البشر؛ لوضوح الملازمة بينهما إذ لو كان هناك بشر خير منهم لكانوا هم خير بيت.

٣. الاستفادة من الأخبار أن «البعض» المذكور في الرواية الأولى هم من قوم رسول الله ﷺ لأن في الرواية الأخرى: «إنا نسمع من قومك»، والرواية الأخيرة قريت أن هذا البعض هو عمر أو من كان بشأنه، لأن إخفاء الاسم وقول: «البعض» أو: «من قومك» إنما هو للخوف من شوكته وبطشه، ولا يتصور ذلك إلا لمن كان حاكماً مبسوط اليد، وإلا لذكر اسمه على عادة النقل.

٤. يعلم من ذلك أن العدا لأهل البيت كان في زمان رسول الله ﷺ حتى قيل ما قيل، وتعرضوا لناموس رسول الله ﷺ وشرفه، ومثلوهم بالكناسة والنتن، ولا يكون النتن إلا لشيء يمس بالشرف.

٥. من ذلك وأمثاله تعلم السبب في حبة الشيعة الإمامية لأهل البيت عليهم السلام وذلك لأنهم مطهرون أذهب الله عنهم الرجس وكل عمل باطل وقبيح، وهم خير البشر وخير بيت.

وكذا تعلم السبب في عدم حبة أعداء أهل البيت لهم وإقصائهم وقتلهم وتشريدهم على مر الزمن، فليس ذلك إلا لأنهم حملوا ذلك من أيام الرسول ﷺ، وما تحملوا بغضهم إلا لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، ولم يُعتقدوا بكلامه، ولم يصدقوا كتاب الله المصريح بإذهاب الرجس عنهم، ولا كلام النبي الصريح في أنهم خير بيت.

وهكذا تنحرف الأمم وتزيغ وتفرق، ويمزقوا كل ممزق، فاعتبر وتدبر.

٣١٦. خير الماضين عند الله

استظهرنا في عنوان «خير الباقيين» أن الماضين الذين تقدموا على

زمان النبي عيسى عليه السلام يعادلون نصف البشر لازدياد النفوس بعد تلك الفترة، وقد حدث له تعجيل أكثر في القرون الأخيرة.

وليس ذلك بللهم، والمهم أن عنوان خير الماضين يمتاز بأهمية أكثر، خصوصاً مع الالتفات إلى أن الماضين كانوا أشد إيماناً وأكثر اعتقاداً وأصلح عملاً، المستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ في جنات النعيم ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين^(١) والثلثة الجماعة المعتد بها من الناس، بينما جنح الخلف اللاحق إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً من الذنوب والآثام والظلم والتعدي وإراقة الدماء، وقتل الأبرياء، فظهر الفساد في البر والبحر.

وبذلك يكون لعنوان «خير الماضين» أهمية بالغة مع الالتفات إلى أن الكثير منهم هم من السابقين وأنهم أسسوا أساس الإيمان والاعتقاد بالله، وارسوا قواعده، غير أن المباحث السابقة تشير إلى أن كل ذلك حدث بفضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه هو المنظور في لوحة الأذهان على مر العصور والمقتدى به، لما عرفوا له من الفضل على لسان الأنبياء الذين واثقوا على التعريف به ونصرتهم، وتوسلوا باسمه حين الشدائد.

فإذا عمل عامل منهم فهو يحاول الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والاقتراب من مرتبته، والتشبه به، ويرغب أن يكون نظير قدوة الإنسانية الذي عرف الأنبياء فضله، وعرف الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أنبياءه.

فكان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى بن مريم أن قال له: محمد رسول الله إلى الناس خير الماضين والباقيين عند الله^(٢).

(١) الواقعة: ١٠، ١٤.

(٢) الكافي ٢: ١٣١، أمالي الصدوق: ٦١٢، البحار ١٤: ٢٩٧.

٣١٧. خير من يمشي على الأرض

المستفاد من بعض الأخبار أن الأرض قد تتأثر وتنفعل من تواجد بعض الأشخاص عليها وحصول بعض الأعمال على ظهرها كسفك الدم الحرام والزنا، كما قد تنهياً بفعل الخير.

ومن نافل الحكم إنكار الإنسان لما لا يدركه ولا يتعقله، فإن تقدم الزمن ما زال يجبرنا بما لم يحتمله السابقون، ومن ذلك تأثر الأرض وتحسسها لما يجري عليها من الأفعال.

ولا يتصور تردد المسلم بعد سماع قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾^(١) وبعدما عرف أن النجم عبارة عن كرة كأرضنا، فإن السجود من فعل من يتحسّس ويعقل.

ولا تظنن أن سكون الأرض واستقرارها في مدارها واستجابتها ومطاوعتها لبعض الأفعال من الأخذ والعطاء، والتحرك والفوران عبث، إنما هي قوانين تعقلها وتضطرها كما يعقل العقل البشري.

ولا شك أن خير من يمشي على الأرض هو أكثرهم خيراً، ولم يكن له أقل أذى لا على الماشين على الأرض ولا على نفس الأرض، بل تكون أعماله في جهة انتعاش الأرض وانتعاش من يمشي عليها، وكذا توجيهاته ونصائجه تصب في هذا المصعب، كالأمر بالزراعة والتشويق لها، والنهي عن قطع الشجر، والنهي عن تلويث المياه، كمياه الآبار والأنهار وغيرها، والأمر برعاية حريم الأنهار والقرى والمدن وغير ذلك.

ولم تكن تلك سنة النبي ﷺ وحده، بل سنة أهل بيته الكرام، قال رسول الله ﷺ: «خير من يمشي على الأرض بعدي علي بن أبي طالب»^(٢).

(١) الرحمن: ٦.

(٢) كشف الغمة: ١، ١٥٦، البحار: ٣٨: ١٢.

٣١٨. خير النبيين

خرج من المدينة أربعون رجلاً من اليهود، قالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الكاهن نوبّخه في وجهه ونكذّبه، فإنه يقول: أنا رسول الله رب العالمين، فكيف يكون رسولاً وآدم خير منه، ونوح خير منه، وذكروا الأنبياء عليهم السلام.

ويبدو أن هؤلاء نفر من اليهود بعثوا طليعتهم عبد الله بن سلام إلى رسول الله ﷺ لتمهيد أجواء المحاجة والمناقشة المصيرية، فقال له النبي ﷺ: «التوراة بيّني وبينكم» فرضيت اليهود بالتوراة.

فلما جاؤوا وتهيأت الأجواء للمحاجة قالت اليهود: آدم خير منك؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه.

فقال النبي ﷺ: «آدم النبي أبي، وقد أعطيت أنا أفضل مما أعطي آدم» فقالت اليهود: وما ذاك؟

قال: «إن المنادي ينادي كل يوم خمس مرات: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، ولم يقل آدم رسول الله، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة، وليس بيد آدم».

فما فتأ الرسول ﷺ يتكلم عن الحصيلة العملية لبعثته وبعثة آدم، ونتائج تلك البعثتين والابتكار والتدبير والتوفيق الحاصل فيهما، وبيان أن ما خرج إلى ساحة الواقع من تينك الواقعتين هو اعتلاء اسم الرسول ﷺ دون آدم، بحيث ينادى كل يوم باسمه في ما لا يحصى عنده من الناس على مرّ الزمن.

كما استفاد مما هو مثبت في التوراة وغيرها من إعطاء لواء الحمد بيد الرسول ﷺ وقد صرفنا الكلام في معنى ذلك، وأن دعوة الرسول ﷺ هي دعوة الحمد تبدأ بـ «الحمد لله رب العالمين» في فاتحة الكتاب، وتنتهي بالحمد والثناء على الله في كل مقال.

وعندها أسقط ما في أيدي اليهود ولم يجدوا بدأ من الإذعان بذلك،

فقالوا: صدقت يا محمد وهو مكتوب في التوراة، قال ﷺ: هذه واحدة.
فلما فوجئوا بما لم يحتملوا واسقط ما في أيديهم التجثوا إلى أقوى
ركن وأعظم مستند عندهم لينطلقوا منه إلى غيره وهو النبي موسى ﷺ
فقالوا: موسى خير منك.

قال الرسول ﷺ: ولم؟

قالوا: لأن الله ﷻ كلمه بأربعة آلاف كلمة، ولم يكلمك بشيء.

فقال النبي ﷺ: لقد أعطيت أنا أفضل من ذلك، قالوا: وما ذاك؟

قال: قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(١) وحملت على جناح جبرائيل ﷺ حتى انتهت إلى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، حتى تعلقت بساق العرش، فنوديت من ساق العرش: «إني أنا الله لا إله إلا أنا السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم» ورأيته بقلبي، وما رأيته بعيني، فهذا أفضل من ذاك^(٢).

ويبدو أن هذه المحاورة كانت محاورة واقعية وتصديقية، ومن أجل فهم الحقائق لا إنكارها؛ فإن النبي ﷺ لم يحاول إنكار شرف الكلام، ولكن استفاد من عنصر آخر وهو شرف الحضور والاقتراب بالإضافة إلى شرف الكلام، وللتقريب إلى الذهن لاحظ من يتكلم مع عظيم على البعد وعبر الهاتف، والمتكلم معه عن قرب وبعد زيارة، فلا شك أن الثاني أهم، ويمتاز بشرف الزيارة والكلام معاً، وهو من المرتكزات في أذهان العرف وغير قابل للإنكار. فلا يبقى سوى مسألة أصل وجود الكلام أو العروج والكلام بعنه فهي متكافئة في كونها دعوى من الطرفين، وإخباراً لم يشهده سوى موسى والرسول ﷺ.

(١) الإسراء: ١.

(٢) انظر الاحتجاج ١: ٥٥، والبحار ١٦: ٣٢٧ ح ٢٥.

كما استفاد الرسول ﷺ من عناصر أخرى وهي أسماء تُعدّ من الأسرار عند اليهود التي يستبد بالعلم بها الأحبار والمقربون وهي كلمة جناح جبرائيل، والسماء السابعة، وسدرة المنتهى، وجنة المأوى، وساق العرش، وأسماء الله المارة الذكر، ليدخل ﷺ بهذا الكلام في صف أصحاب السر، ويكون كل ذلك وثائق على صدق كلامه، وتأييده بالعلم السماوي.

وأخيراً بيّن ﷺ ارتفاعه عليهم بقوله: «لم أره بعيني» مع كل ذلك الاقتراب وإمساك ساق العرش، بيد أن اليهود لم يبلغوا علم ذلك حتى خاضوا امتحاناً صعباً لما سألوا موسى أن يريهم الله سبحانه جهرة، فرفع فوقهم الطور ومات المطالبون بذلك من بينهم، وخرّ موسى صعقاً.

فقد جاء الرسول ﷺ ليقول: أنا أعلم ذلك من دون خوض مهانة الامتحان، وليس ذلك إلاّ لآتساع نظرتة، ونفوذ فكرته، وعندها لم يجد اليهود بُدّاً من التصديق فقالوا: صدقت يا محمد، وكل ذلك مكتوب في التوراة.

وتستمر القصة بقول اليهود: نوح خير منك، ولكن ليس هدفهم في هذه المرة الاحتجاج بعد ثبوت تفوقه على موسى ﷺ، بل لمعرفة سبب تفوقه على نوح وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء فقط.

كان ذلك تقريب سبب أن الرسول ﷺ هو خير النبيين، ويبقى الكلام فيمن نعت النبي ﷺ بذلك وأول وجود لهذا الوصف.

فأول ذلك ثبوته وكتابته على العرش، فقد ورد أنه مكتوب على عرش ربنا: «محمد خير النبيين، وعلي سيد الوصيين»^(١).

كما يُروى أنّه لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال جبرئيل: أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ فاجتمعت الملائكة وقالت: ...محمد خير النبيين، وعلي خير الوصيين^(٢).

(١) الاختصاص للشيخ المفيد: ٩٠.

(٢) حلية الأبرار للبحراني ١: ٤٢٣.

وتكرر قول النبي ﷺ نفسه: «أنا خير النبيين»^(١).

ويكفي في ثبوت ذلك هو تكرر ذكره وكثرة نقله وشدة انتشاره على مرور الزمان من دون أن يفنده مفند، أو يتصدى لإنكاره منكر يعتد به.

٣١٩. خير الورى

البرى والورى واحد، يقال: هو خير الورى والبرى أي خير البرية، والبرية: الخلق.

فخير الورى هو أكثر الخلق خيراً، وأعطاهم نفعاً، فكان أحقهم شكراً، وأكثر من يجازى بالإحسان، ويحفظ حقه في أهل بيته وذريته، غير أن الأمر جاء على خلاف ذلك، وما دُفن رسول الله ﷺ حتى هجم القوم على دار ابنته وصهره الذي هو نفسه وأخوه، فأوجعوهم ضرباً، وجرحوا مشاعرهم، وهتكوا أستارهم، فجروا وصيه ﷺ بجبل القهر والانتقام، وكسروا ضلع ابنته وفلذة كبده بجزوات الكفر والجهل، وما تركوا أن لحقوا بسبطه بين النواويس وكربلاء، فتركوه قتيلاً مرملاً عارياً على الرمضاء، تدوسه سنابك الخيل، وتطؤه أرجل العتاة، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿أَفَكَيْفَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(٢) فلا تظنن أن هذا خطاب لمسيمة الكذاب، لأنه لم يكن مؤمناً ومسلماً حتى ينقلب، بل كان يكذب على النبي في زمانه، ولا من ترك إعطاء الزكاة والتارك في زمانه ﷺ موجود، وإنما أراد أولئك الذين استبدوا بالحكم من الذين كانوا معه، وقتلوا أهل بيته وذريته وأذوهم وشردوهم، إنما ذكرنا ذلك في مقام وصف النبي ﷺ بأنه خير الورى؛ لأن هذا الوصف لم يرد إلا في هذه الموارد وعند زيارة

(١) كفاية الأثر للقمي: ٨٠، النزاع والتخاصم: ٢٦.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

الشهداء من أهل بيته، فمن تلك الزيارات بعض زيارات الجامعة، إذ جاء فيها: فلما مضى المصطفى صلوات الله عليه وآله اختطفوا العترة، وانتهزوا الفرصة، وانتهكوا الحرمه، وغادروه على فراش الوفاة، وأسرعوا لنقض البيعة ومخالفة المواثيق المؤكدة، وخيانة الأمانة المعروضة على الجبال الراسية... فحشر سفلة الأعراب، وبقايا الأحزاب إلى دار النبوة والرسالة ومهبط الوحي والملائكة... حتى نقضوا عهد المصطفى في أخيه علم الهدى، والمبين طريق النجاة من طرق الردى، وجرحوا كبد خير الورى في ظلم ابنته، واضطهاد حبيبته، واهتضام عزيزته^(١) ...

كما جاء في زيارة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ: السلام عليك يا بن خير الورى^(٢)، وقد تقدم الكلام في إنكار البعض لبنوته والافتراء على أمه المبرئة في عنوان «أبي إبراهيم».

٣٢٠. خيرة الله

جاء في كيفية التسليم على رسول الله ﷺ: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله^(٣).

إذ تم تقديم خيرة الله على حبيب الله وصفوته وأمينه وغيره، مما يعلم أن لهذا العنوان أهمية بالغة.

بيد أن الخيرة اسم من الاختيار، أو اسم للمختار، مما يعطي لهذا الكلام معنى معقداً، فإن اختيار الحكيم لا يكون عبثاً واعتباطاً، ويتبع ما يحيط به من المحسنات وجهات الكمال، وكذا الغايات التي يختار ما يختاره لأجلها.

(١) البحار ٩٩: ١٦٦ .

(٢) المزار للمشهدي : ٩٠ .

(٣) قرب الإسناد للحميري: ٣٨٢، وفي الأذكار النووية ليحيى بن شرف الدين النووي: ٢٠٤ يا خيرة الله من خلقه .

وكلما كان علم الحكيم بجهات الكمال والحسن والغايات أكثر كان اختياره أدق وأوفق، ويتنازل ويقل عدد ما يحقق أهدافه من بين الموجودين، ويندر المؤمن لما يريد من الخصوصيات.

حتى تقفز عملية الاختيار إلى ساحة الباري الذي لا حد لحكمته ولا غاية لأهدافه؛ فإنك تعرف أن اختياره ﷺ وانتجابه لشيء أو لواحد من خلقه كم يكمن فيه من الحقائق الكبيرة التي لا يحيط بها علم بشر، والأسرار العظيمة التي لا تحظر ببال أحد، والظرافة والدقة التي لا تقاس بأكبر مقياس.

ومن جميع ذلك تتجلى حقيقة النبي ﷺ ومدى شرفه وعظمته، وأنه لا يمكن درك مقامه وشرفه، ولا نهاية لشيء من ذلك.

وبهذا يعلم أن التعبير بذلك ليس من شأن البشر، بل هو من كلام من اختار الرسول ﷺ فقد ورد: ونظر آدم إلى الأنبياء من ذريته قال: يا رب فما بال نور هذا الأخير ساطعاً على نورهم جميعاً؟ قال: هذا محمد... خيرتي^(١).

٣٢١. خيرة الله من خلقه

جاء في بعض زيارات النبي ﷺ: «السلام عليك يا خيرة الله من خلقه»^(٢) والمعنى مع سابقه واحد.

(١) سعد السعود: ٣٤، ٣٦، البحار ١١: ١٥١.

(٢) اقبال الأعمال: ٣٨٢، مستترك الوسائل ١٠: ٣٩٦ ح ١٢٢٠٠ الأذكار النووية: ٢٠٤.

حرف الدال

الأسماء المصدرة بحرف الدال

٣٢٢ . دائم البشر

لم يغلب الرسول المصطفى ﷺ كثرة همومه واعتراكها في نفسه، ولا حدة مصائبه وفداحتها، ولا زيادة مشاغله وتزاحمها، ولم يغفله كل ذلك عن توزيع الابتسامات العادلة، وإظهار البشاشة في وجه كل من يلقاه ويفد إليه، ولا يزال بشره في وجهه وحزنه في قلبه؛ ليتفرد بحمل همومه فلا يلقي ثقلها على الآخرين، ولكي يزرع الود في قلوب الأصدقاء، وينزع الحقد من صدور الأعداء.

كما لم يغره ما وصل إليه من المقامات السامية، والمنازل الراقية، والدرجات الرفيعة، بل ما زاده ذلك إلا تواضعاً وعطفاً وألفة.

وإضافة إلى ذلك لم يمنعه ما تحمّله من العلم الذي لا حصر له ولا منتهى، من مجالسة الجهّال والاستماع إلى كلامهم، والفرح بقدمهم؛ فإن من يسمع جميل كلام الوحي، ولذيذ كلام الرب يصعب عليه استماع سفاسف الجاهلين الباردة، وغلظة السفهاء الساخرة، ولغث العوام، ولغظ النساء، ويثقل عليه كل ذلك.

والجامع أن الهموم والمصاعب والقدرة والعلم، كل ذلك يسرق البشاشة، وتسلب الابتسامة، وتضحل الفرح والابتهاج، وتخلّف الكآبة والعبس، ويُعدّد الجمع بين البشاشة والحزن، وكذا الهيبة والابتسامة، والعلم

وائتلاف الجهلة جمعاً بين الأضداد المتنافرة.

ومع كل ذلك فقد كان الرسول ﷺ يمزح ويتسمم مع هيئته وقدرته، وعرف أنه دائم البشر، وما ذاك إلا لأن الله سبحانه شرح له صدره، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(١) فلم يتكلف ذلك، ولأنها آيات خلقه السامي الذي تعجب منه من لا يعجب فقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن الإمام الحسين عليه السلام سأل أباه يوماً عن سيرة رسول الله ﷺ في جلسائه فقال: «كان دائم البشر»^(٣).

٣٢٣. دائم الفكر

ليس الإسلام هو ما فهمه المسلمون في المراحل الباكرة، بل الإسلام الذي يفهمه الناس في آخر الدهر، فهو الأقرب إلى حقيقة الإسلام وواقعه، بيد أن المسلمين في الفترة الأولى لم يكونوا بالمستوى المطلوب من النضج الفكري، ولم يستوعبوا المسائل العلمية بما هي عليها، لنشوء أكثرهم في ظروف الجاهلية، ومزاولتهم الحياة البدوية البعيدة عن الحضارات والمراكز العلمية، ولم يقفوا على مدى أهمية العلم ليستفيدوا كامل الاستفادة من معدن العلم النبوي، ولذلك تكاثرت حسراتهم بعد فقدان النبي ﷺ على عدم التعلم الكافي.

(١) الشرح: ١.

(٢) القلم: ٤.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٤، البحار ١٦: ١٥٢، الأحاديث الطوال

للطبراني: ٧٦.

وهنا يأتي تدبير النبي ﷺ لتلافي هذه الخسارة القهرية بإعداد الأفراد القادرين على تحمل العلوم، أعني مثل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أوقف عمره على ملازمة النبي ﷺ والتعلم منه، حتى قال: «علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح كل باب ألف باب»^(١).

وأرشد النبي ﷺ الناس إلى ذلك، فقال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٢)، هذا هو التدبير الأول.

والتدبير الثاني هو تحميل عامة المسلمين ألقاظاً وإن لم يلتفتوا إلى عمق معانيها وأمرهم بحفظ حديثه وكلامه، وحفظ القرآن، ودعاهم إلى التفكير والتدبر في حديثه وفي آيات القرآن الكريم، لتتجلى لهم الحقائق أكثر فأكثر على مرور الزمن وتطور العلوم.

بل جعل التفكير هو الأساس والمحور لما حث الناس على العبادة، وأكد على ذلك أشد التأكيد، ورغبهم فيها، ثم فسرها الأئمة عليهم السلام فقالوا: ليست العبادة كثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة كثرة التفكير^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»^(٤).

كما رغبهم أيضاً بالاستئنان بسننه ومتابعة أعماله وأفعاله والتشبه به، وكان هو يديم الفكرة، ويقبل الكلام؛ ليكون عمله دليلاً على الطريقة المثلى للحياة الأرضية.

ومن ناحية أخرى فإنَّ العقل هو هدية الله سبحانه الكبرى للبشر

(١) الخصال: ٥٧٢ ح ١، وص ٦٤٣، تاريخ دمشق ٢: ٤٨٤ ح ١٠١٢، كنز العمال ١١٤: ٣٦٣٧٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٧٢ ح ٢٩٨، الخصال: ٥٧٤، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٤٩.

(٣) تحف العقول: ٤٤٢، ٤٨٨، مستدرک الوسائل ١١: ١٨٣.

(٤) البحار ٦٨: ٣٢٥.

ليمتاز به على سائر المخلوقات المتواجدة على الأرض، فشكره هو الاستفادة منه أحسن الاستفادة، وعدم تعطيله وتركه ليخمد ويتعطل فينحو صاحبه نحو الحيوانية، ويعجز عن درك الحقائق الكونية، بل ألزمه التعلم والتفكير ليرتفع بذلك كل الارتفاع.

وبذلك يكون الرسول المصطفى ﷺ قد استفاد من هذه القدرة المميزة كامل الاستفادة، وعلم الناس وأرشدهم إلى الإكثار من هذا الجانب، والابتعاد عن الحيوانية.

قال الحسن بن علي رضي الله عنه: سألت خالي هند بن أبي هالة عن منطلق رسول الله ﷺ، فقال: كان ﷺ دائم الفكر^(١).

وروي أيضاً: أن رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان دائم الفكر^(٢).

٣٢٤. دار الحكمة

لما خلق الله الدنيا جعل فيها أسراراً خافية، وأموراً ظاهرة، غير أن خفاء تلك الأمور الخافية ليس بإلقاء الستار عليها في الغالب، بل بوجود الغشاوة على البصائر التي تحدث بفعل البشر، وشدة ركونهم إلى مطالب النفس، ومطاوعة الشهوات.

فالحكمة هي معرفة حقائق الأشياء كما هي عليه، والإحاطة بما يُعدّ من الأسرار، والتبصر في العلل الحقيقية للأحداث، والاقتراب من كنه الوجود، ومعرفة النفس، وعواقب الأمور.

ولا تزال هذه الأمور التي ذكرناها شوارد متطايرة كبذور الثبات، تنتقل من محل إلى محل آخر حتى تصادف محلاً مناسباً، ومناخاً مساعداً.

(١) عيون أخبار الرضا رضي الله عنه: ١٧٦، ١٧٨، البحار ٦٨: ٣٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ١٩٣.

فتنبت وتسكن وتستقر فيه .

فقد قال الإمام علي عليه السلام: «إن كلمة الحكمة لتكون في صدر المنافق فتلجج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن»^(١)، وقد عبر القرآن الكريم عن عملية وصول بذور الحكمة ونباتها بالإيتاء، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢).

وأما العوامل المساعدة على نبات الحكمة، فهي أمور كثيرة، يحكي كثرتها إسناد إيتائها إلى الله من دون التصريح بالسبب، فمن تلك العوامل فارغاً عن التعلم والتلقي من الحكماء، هي الصمت، فقد ورد: «الصمت باب من أبواب الحكمة»^(٣).

والفطنة، فقد ورد: «فمن أبصر الفطنة عرف الحكمة»^(٤).

وأخذ الحكمة من أهلها، فقد ورد: «أن الحكمة لا تنجع إذا لم تؤخذ من نواميس الدين، ومعامل الأنام»^(٥).

والزهد في الدنيا، فقد ورد: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه»^(٦).

والتواضع، فقد ورد: «بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر، كذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل»^(٧).

(١) نهج البلاغة ٤: ١٨.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) قرب الإسناد: ٣٦٩، وروي: إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة. البحار ١: ١٥٤.

(٤) الكافي ٢: ٥١.

(٥) البحار ١: ٢.

(٦) البحار ٢: ٣٣ ح ٢٧.

(٧) البحار ٢: ٦٢.

وطلب الحكمة في كل مكان فقد ورد: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها»^(١).

والرحمة، فقد ورد: «إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى تنبت في القلب يظهرها الله تعالى على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة»^(٢).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورعاً في الله، ساكتاً سكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالعبر، لم ينم نهراً قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال؛ لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم، ولم يغضب قط، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح لشيء إن أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيء... ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، ويحترز به من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالتفكير، ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتي الحكمة، ومنح العصمة»^(٣).

وأنت تلاحظ أن عوامل نبت الحكمة وانطباعها في صدر لقمان مهما كثرت وتنوعت لا تبلغ معشار ما جاء به القرآن من النصائح والعوامل المنبئة لها، وأضف إليها نصائح الرسول ﷺ وبيانه للعوامل المكتملة لما جاء به القرآن والميينة له، هذا عن عوامل نبت الحكمة.

وأما نفس الحكيم النابتة فلو أردنا إحصاء حِكَم القرآن والحِكَم التي جرت على لسان الرسول ﷺ لم يتوفر لنا ذلك، ولا يمكن حصره وحده في

(١) عوالي اللئالي ٤: ٨١ ح ٨٢، وانظر الكافي ٨: ١٦٧ ح ١٨٦.

(٢) البحار ١٢: ٣٦٢.

(٣) البحار ١٣: ٤٠٩.

كتاب ولا أكثر من كتاب، ناهيك عن الحكيم التي احتفظ بها ﷺ ولم يذكرها، فلا يسع التعبير عن ذلك إلا أن نقول: إن النبي ﷺ هو دار الحكمة، أو مدينة الحكمة، كما وصف ﷺ نفسه فقال: «أنا دار الحكمة وعلي مفتاحها»^(١).

٣٢٥. الداعي

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(٢).

ولو تأملت حال العرب وغيرهم في تفرقهم وتوجه كل جماعة منهم إلى شيء يدين به ويعتقد به، فجماعة كبيرة يعبدون الأصنام ويقربون لها القرابين ويلطخونها بالمسك والعنبر، ويتوسلون بها، وجماعة أخرى عكفت على حجر واعتقدت به، وثالثة على شجرة، فقد روي أن قريشاً ضاق عليهم المعاش فخرجوا من مكة وتفرقوا، وكان الرجل إذا رأى شجرة حسنة أو حجراً حسناً هواه فعبده، وكانوا ينحرون لها النعم، ويلطخونها بالدم ويسمونها سعد صخرة، وكان إذا أصابهم داء في إبلهم وأغنامهم جاؤوا إلى الصخرة فيتمسحون بها الغنم والإبل، فجاء رجل من العرب بإبل له يريد أن يتمسح بالصخرة إبله ويبارك عليها، فنفرت إبله وتفرقت، فقال الرجل شعراً:

أتيت إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فما نحن من سعد
وما سعد إلا صخرة مسوذة من الأرض لا تهدي لغني ولا رشد
ومر به رجل من العرب والثعلب يبول عليه فقال:

أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلَّ من بالث عليه الثعالب^(٣)

(١) أمالي الصدوق: ٤٣٤، ذخائر العقبى: ٧٧.

(٢) الأحزاب: ٤٦.

(٣) تفسير القمي ٢: ١١٤، البحار ٣: ٢٥٣، قال علي بن إبراهيم نزل في ذلك قوله

تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.

وهنالكَ من يصنع إلهاً من التمر أو الخشب فإذا جاع أو أصابه البرد أكله أو أحرقه، مع وجود أمم أخرى حرّفت دينها واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقائل يقول عزيز ابن الله، وآخر يقول: المسيح ابن الله، وثالث لا يعرف الله ولا يعتقد سوى ما وصله من تعاليم بودا، ورابع يعتقد بإلهين إله الخير وإله الشر، وهكذا.

وفي هذا التشتت والضياع والتهيه والضلال جاء النبي ﷺ ليدعوا جميع هذه الأهواء وهذه الجموع المتفرقة الضالة إلى عبادة الله الواحد، وإلى دينه القيم، فكان داعياً إلى الله، وإلى دين الله.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الداعي، فإني أدعو الناس إلى دين ربي ﷻ»^(١).

٣٢٦. الداعي إلى الحق

الحق هو الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وإلهيته، والحق ضد الباطل، وهو الله ﷻ لأن معنى الإلهية حاصل له على الحقيقة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾^(٢) والباطل الذي ليس له وجود حقيقي ولا إلهية حقيقة.

فالرسول ﷺ هو الداعي إلى الحق، أي الداعي إلى الله سبحانه قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكُوَاتِبِ الْحَقِّ أَهْوَاءَهُمْ لَسَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٣) وهذا يعني أن الله سبحانه حق يريد صلاح السماوات والأرض، والكافر يريد الباطل وما يفسد السماوات والأرض،

(١) علل الشرائع ١: ١٢٧، معاني الأخبار: ٥٢ ح ٢.

(٢) الحج: ٦٢.

(٣) المؤمنون: ٧١.

والله ﷻ يريد الدين الذي ينظم شئون الحياة، ويرتبها ترتيباً يتضمن سعادة الإنسان في العاجل والأجل، ويعيش به في معارف حقة، وأخلاق فاضلة، وعيشة طيبة؛ لينعم فيها بما أنعم الله عليه من النعم في الدنيا.

والمهم رسوخ هذا الاعتقاد في أذهان الناس وخصوصاً المسلمين، ليرغبوا في عمل الخير والدين الحق الذي دعا إليه النبي ﷺ.

وانطلاقاً من ذلك تجدد الإمام أمير المؤمنين كان كثيراً ما يشرع خطبته بالشهادتين فيقول: «ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله داعياً إلى الحق»^(١).

وكذا غيره كالإمام الحسن عليه السلام^(٢).

٣٢٧. الداعي إلى كل حق

الملاحظ أن الحق تُوصف به أمور كثيرة كالقول الحق، والوعد الحق، والقضاء الحق، والصديق الحق، والولاية الحق المفسر بها قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾^(٣) في الأخبار وغيرها^(٤).

والولاية من بين تلك المصاديق أهمها وأعظمها؛ لأنها الضمان التطبيقي والعملي لكل حق وكل مصاديق الحق والعدل.

ففي الحقيقة حينما يكون النبي ﷺ داعياً إلى الولاية الحق، فهو داعٍ إلى كل حق وكل عدل، وما نودي بشيء كما نودي بالولاية، وليس هو إلا من أجل أهميتها وخطورها، وكذلك نفعها ودخول جميع مصاديق الحق فيها.

(١) من لا يحضره الفقيه ١: ٤٢٨، نهج البلاغة ١: ٢٢٩، ٢٤٧، مستدرک الوسائل ٦: ٣٠، البحار ١٨: ٢٢٠.

(٢) أمالي ابن الشيخ: ١٠، ١٤، البحار ١٠: ١٣٩.

(٣) الكهف: ٤٤.

(٤) البحار ٣٦، ١٢٦ وفي قراءة أبي: هنالك الولاية الحق لله، التبيان ٧: ٤٩.

فقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ قال: «يعني الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام هي الولاية لله»^(١)، ومهما يكن من أمر فقد ورد في بعض أدعية الأيام: «وبرحمتك أن تصلي على محمد وآل محمد... فاتق كل رفق، وداع إلى كل حق»^(٢).

٣٢٨. داعي الله

حكى الله تعالى تعاطف الجن مع دعوة النبي ﷺ، فقال عز من قائل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا لَنَا فَمَا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣).

والمعلوم أن الداعي هو الذي يدعو الناس، بأن يناديهم أو يخبرهم ويطلبهم إلى تعلم أو طعام أو حضور.

وإذا أُضيف إلى شخص تكون الدعوة في الحقيقة من قبل ذلك الشخص كالملك والحاكم أو صاحب الضيافة. وقد يكون لبعض الملوك داعٍ خاص يعرف باسم الداعي أو داعي الملك، ولا أقل من وجود هذه السمة والمقام في عالم الجن، فإن عالمهم يختلف عن عالمنا، وكلامهم وعرفهم يختلف عن عرف

(١) البحار ٣٦: ١٢٦.

(٢) مصباح المتهدج: ٦٦٩، إقبال الأعمال ٢: ٢٨.

(٣) الأحقاف: ٢٩ - ٣١.

البشر، ولهم استعمالات مغايرة، كقولهم: ﴿وَأَنْتَ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾^(١) أي حظه، فمن الممكن أن يكون الداعي عندهم بمنزلة السفير والرسول وغيرها.

ومهما يكن من أمر فقد عبرت الجن عن الرسول ﷺ بأنه داعي الله، وقولهم: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾^(٢) أي أجيبوا دعوة مَنْ كانت له هذه السمة، أي أنه داعي الله، وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الدعوة أو يتوقعونها في كل زمان بما بلغهم من العلم عن طريق الكتب المتقدمة أو أخبار السماء، لينفروا لإجابتها.

ولا يخلو كلام الإنس من هذه الصفة، فقد ورد في بعض أنحاء الزيارات: ثم امش قليلاً فكبر سبعاً، وهلل سبعاً، واحمد الله سبعاً، وسبح الله سبعاً، وأجبه سبعاً تقول: لبيك داعي الله، إن كان لم يجيبك بدني، فقد أجابك قلبي^(٣).

فقد جعل إجابة الداعي هي إجابة الله سبحانه، وهو يؤيد ما ذكرناه من أن الدعوة تكون من المضاف إليه كالله سبحانه والملك وصاحب الضيافة وغيرهم، وإنما يكون عمل الداعي هو التوسط والآلية والسفارة أو الرسالة بعبارة أبلغ.

٢٢٩. الداعي إلى الحكمة

أصل الحكمة في اللغة هي حكمةُ لجام الدابة على ما يبدو، أي ما أحاط بحنكي الدابة من اللجام، سميت بذلك لأنها تمنعها من الجري الشديد، وقيل: هي الحديدية التي تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه من مخالفة راحبه.

(١) الجن: ٣.

(٢) الأحقاف: ٣١.

(٣) كامل الزيارات: ٣٨٧.

قال ابن منظور: لما كانت الحكمة تأخذ بفم الدابة، وكان الخنك متصلاً بالرأس جعلها تمنع مَنْ هي في رأسه كما تمنع الحكمة الدابة^(١).

وبهذا يعلم أن عمل الحكمة في الواقع كعمل حكمة اللجام أو تلك الحديدية، أي تمنع من الجري الشديد، والتعدي عن الحد المطلوب، وبعبارة أخرى تدعو إلى التعقل، فإن العقل - كما قيل - مأخوذ من عقال الدابة الذي يمنعها عن الإفساد والتمرد.

فمن كانت الحكمة في رأسه وصدرة فهي تمنعه من التمرد على ربه وهاديه، والتمادي في مطالب الدنيا.

فالمراد من العنوان على هذا الأساس هو دعوة الرسول ﷺ في الحقيقة إلى أثر الحكمة، وهو التعقل والطاعة وعدم التمرد والتمادي، وذلك باكتساب الحكمة.

ويمكن أن يكون المراد هو الدعوة إلى استيعاب الحكمة وزرعها في الصدر، وقد تقدم في عنوان «دار الحكمة» أن الإنسان يؤتى الحكمة وليس يمكنه تحصيلها بشكل مباشر، ولكن هناك عوامل وأمور تساعد على نباتها ونجعتها، وهذه العوامل قد تكون بيد الإنسان.

وأهم تلك العوامل على ما يبدو هو تلقي الحكمة من أهلها، فقد ورد كما مر: «أن الحكمة لا تنجع إذا لم تؤخذ من نواميس الدين، ومعقل الأنام».

ومعلوم أن النبي ﷺ إنما يدعو إلى الحكمة التي تنجع في القلوب، وهي حكمته وحكمة أهل بيته ﷺ الذين هم أجلى مصاديق نواميس الدين ومعقل الأنام، فتكون الدعوة في الحقيقة إلى نفس الرسول ﷺ والحضور عنده لأجل تعلم الحكمة، بالإضافة إلى مراعاة عوامل الحكمة

الأخرى التي تقدم ذكرها في العنوان المذكور.

قال الإمام علي عليه السلام: «بعثه - أي الرسول ﷺ - والناس ضلالاً في حيرة... فبالغ في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة»^(١).

٣٣٠. دافع جيّشات الأباطيل

ما تفوّه الرسول المصطفى ﷺ بالدعوة إلى التوحيد وتبذ الأصنام، ونفي سائر الأديان، إلا ولاقى ردوداً فعلية عنيفة وحركات احتجاجية مضادة، وواجه جيّشات الأباطيل.

وجيّشات جمع جيّشة مأخوذة من قولنا جاشت القدر إذا ارتفع غليانها، والأباطيل جمع باطل.

فالمراد هو مدافعة الجيّشات وردود الفعل الصادرة من كل صنوف الناس، بل من صنوف المخلوقات القادرة على إيصال الشر من الجن والإنس والشياطين.

واستمرت هذه الجيّشات إلى آخر حياة الرسول ﷺ فكان دفعه ﷺ لتلك الجيّشات شغلاً دائماً له، حتى صارت صفة مشخصة لدعوته.

ثم إن الجيّشات لما كانت متنوعة وانفعالات مختلفة كان دفع تلك الجيّشات أيضاً متنوعاً، فمرة يكون بنحو المحاجة والاحتجاج، ومرة يكون بنحو المباحلة، وثالثة يكون بشكل الإرعاب والتهديد، وأخيراً بالحرب، وأكثرها بإذاعة ما يدبره المناوئون ويسرّونه وإفشال تلك المؤامرات على الدين في مهدها، وبالتالي حسم مادة الفساد في نطفتها.

ومن ذلك خطب أمير المؤمنين عليه السلام فكان فيما قال: «اللهم واجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على سيدنا محمد عبدك ورسولك...»

(١) نهج البلاغة : ٢٠٢، ٢٠٣، البحار ١٨ : ٢٠٩.

الدافع جيئات الأباطيل، والدامغ هيئات الأضاليل^(١)، وفي رواية: «دامغ صولات الأضاليل»^(٢).

٣٣١. دامغ صولات الأضاليل

والدامغ: المهلك، مأخوذ من دمغَه أي شجَّه حتى بلغ الدماغ، وبذلك يكون الهلاك، ومنه يعلم أن الدمغة هي الضربة على الرأس.
والصولات: جمع صولة وهي السطوة.
والأضاليل: جمع ضال.

فيكون الرسول ﷺ هو المهلك والمبدد لسطوة الضلال بضرب رؤوس سطوات الضلال وإهلاكها، بمعنى إماتتها في نطقها، فرأس السطوة هي أولها وشروعها وكل من يدبَّرها ويخطط لها، فيكون مهلكاً لرؤوس الضلال.

٣٣٢. دامغ هيئات الأضاليل

الهيئات جمع هيشة، وهي اضطراب الجماعة المختلطة وفتنتهم، وقيل: هو من أدنى القتال، وقيل: هاش، أي عاث وأفسد.

والمطالع حياة الرسول ﷺ وسيرته يجد أن حروبه ومناوشاته وكل أنواع مجادلاته تصب في هذا السبيل، وتنتهي في إخماد نائرة الفتن، وتسكين اضطرابات الجماعات، وحسم مادة الفساد وإنهائها.

ولم تكن هذه الصفة صفة طبيعية لرسول الله ﷺ، وإنما هي صفة اضطرارية حتمتها كثرة الاضطرابات، وغلظة المخالفين، وقساوتهم، بحيث

(١) البحار ٧٤: ٢٩٧ ح ٥، وانظر المزار للمشهدي: ٥٧.

(٢) نهج البلاغة: ١، ١٣٠، ١٣٢، البحار ١٦: ٣٧٨.

لا يمكن إخضاعهم إلى التدبير والمنطق السليم.

٣٣٣. داني الجبهة

الداني: القريب، ويحتمل في دنو الجبهة وقربها أمور، أحدها: بروزها وظهورها وقربها إلى الرائي، والثاني: انخفاضها وقربها إلى سائر أعضاء الجسد، والثالث: قرب حدها الأعلى من الحد الأسفل بمعنى الأغم، والرابع: قرب طرفها الأيمن من طرفها الأيسر أي ضيقها.

ومع الالتفات إلى وصف الرسول ﷺ بأنه أوسع الناس جبهة كما مر، وأنه صلت الجبين وواسعه كما سيأتي، يتقوى الاحتمال الأول لأن الغم وضيق الجبهة ينافي سعتها، وأما انخفاضها فينافي أنه صلت الجبين بمعنى ظهوره وسعته، كما ينافي الروايات الدالة على استواء خلقتة، فإن انخفاض الجبهة ورجوعها إلى الخلف وتأخرها قد يُعدُّ خروجاً عن حد الاستواء، دون الظهور والبروز إذا لم يكن فاحشاً.

ومهما يكن من أمر فقد جاء ضمن وصف هند بن أبي هالة للنبي ﷺ: أنه داني الجبهة، وأضاف في آخره: أنه ﷺ إذا طلع بوجهه على الناس رأوا جبينه كأنه ضوء السراج المتوقد^(١).

وهذا ما يقرب الاحتمال الأول الذي ذكرناه.

٣٣٤. دعامة الإسلام

الدعامة هي عماد البيت الذي يقوم عليه، ولكل شيء دعامة، فدعامة الجسد عموده الفقري، ودعامة الخيمة عمودها.

والمقصود بالدعامة بصورة كلية هو العمود والركن الذي يعتمد عليه الشيء، كالعمود والاسطوانة التي يعتمد عليها البيت، بحيث لولاه لما

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٧، ١٠٨، البحار ١٦: ١٨١ ح ٢٠.

استقام البيت وما قامت له قائمة، ولا يبقى مع عدمه سوى أنقاض بحيث لا يسمى بيتاً.

فكذا الإسلام، فإن دعامته هو الرسول المصطفى ﷺ، ولا تقوم للإسلام قائمة من دونه، ولا يبقى منه سوى أنقاض بالية لا يمكن تسميته إسلاماً في ذاك الحال.

وعلى هذا الأساس فإن الإسلام يحتاج دائماً إلى دعامة، ولا يتصور بقاؤه من دون ذلك، وتكون دعامته بعد الرسول ﷺ هم أوصياؤه الحجج من أهل بيته عليهم السلام.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «يا علي أنا وأنت وإبنك الحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين أركان الدين ودعائم الإسلام، من تبعنا نجأ، ومن تخلف عنا فإلى النار»^(١).

وعلى الرغم من وضوح تقويم الإسلام بالرسول ﷺ، وأنه دعامة بلا ريب، ولكن توضيحه يحتاج إلى بسط بيان، ونشير هنا إلى أن الإسلام لما كان هو عبارة عن معتقدات وقوانين وسنن، اعتقد بها المسلمون وعملوا بها وتمسكوا بها في حياتهم العملية، وبالتالي شكّلت كيان الإسلام وهيكلته العامة وبناءه القائم المتشكل من أجزاء وأطراف تميل بحسب طبيعتها إلى الانفصام والتشتت والسقوط؛ لكثرة دواعي الانفصاض كالنسيان والجهل وترك التعلم، وميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات، ونفرتة من الالتزام والتقيد بالأداب الرفيعة والأخلاق السامية، ورسوخ معتقدات الجاهلية وبقاء رواسيها، كالقبلية والتعصب والميل إلى البطر والدعة والتفوق على الآخرين والتغلب عليهم والتفاخر والحسد، فلولا وجود ما يشد هذه الأجزاء المائلة إلى الانفصام، ولولا أن هناك ما يمسكها وبقيمها لتناقضت وتهدمت وتشتتت.

(١) أمالي المفيد: ١٢٧، البحار: ٣٦: ٢٧٢.

وهنا يأتي دور الرسول المصطفى ﷺ ومن يخلفه من الأئمة عليهم السلام كدعامة، وذاك بتذكير الناس على العموم، وتعليم الجاهل، وترغيب العالم في العمل والتمسك، ويقوم بحفظ وحدة بناء الأمة الإسلامية من التشتت، وتقوية أواصره، وتعزيز روابطه بمحو دواعي التشتت، قبلية كانت أو عرقية أو طبقية أو غيرها.

٣٣٥. دعوة إبراهيم

صحيح أن النبي إبراهيم عليه السلام لم يتخذ الجزيرة العربية موطناً له ولا منزلاً، ولكن كانت هي محط نظره وبقعة أمله التي يتأمل أن تكون هي المحور الذي تدور حوله أنظار العالمين، والمركز الذي ينتشر منه النور الذي يغطي الأرجاء بعد ما علم أن هذا الأمر لا يتم لمثل بيت المقدس وغيره.

ففي محاولة منه عليه السلام بدأ بتأسيس هذا المركز وقام بوضع اللبنة الأولى له، فأوطأه أول الأقدام الشريفة المتمثلة بزوجه هاجر وابنه إسماعيل، ثم بادر إلى بناء البيت ليكون إسكان هؤلاء النفر ومن يلحق بهم مصبوغاً من اليوم الأول بلون العبادة والتعبد، ثم تفاعل أن يكون هذا الزرع في تلك الصحراء القاحلة سينجم عن نبات طيب وذرية صالحة تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ولا تقهرها المدنية الشامية فتغلبها على أمرها وتسوقها إلى معترك الحياة اليومية وشوائبها لتنسى الهدف الأسمى وما خلقت له البشرية.

وهنالك فكرّ النبي إبراهيم عليه السلام ولاحظ بالنظر النبوي الثاقب، وتحسس أن تلك الذرية التي سكنت تلك الأرض لا بد لها أن تتوالد وتتزايد وتنتشر وتحدث فيها الأهواء والآراء وتشتت فكراً وعقائدياً، وأنها ستتحرف شيئاً فشيئاً ويموت فيها العلم وسيطر الجهل لبعدها عن مراكز العلم، فمن الطبيعي أنها تكون بحاجة إلى الهادي والمنقذ والمسير والمرشد والمعلم، والذي يوحد كلمتها، ويجمع فلولها، وهو رسول من الله

يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فدعا ربه وقال:
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ^(١).

وعلى الرغم من أن فكرة النبي الخاتم، وسيد المرسلين لم تكن من زمان إبراهيم ﷺ بل كانت من زمان آدم ﷺ وقبل آدم، ولكن بواورها العملية لم تظهر قبل زمان إبراهيم ﷺ، فهو الذي خطا الخطوة العملية الأولى من أجل التمهيد لها، ووضع الحجر الأساس لها بالنحو الذي ذكرناه، حتى إذا جاء زمان النبي عيسى ﷺ بلغت مرحلة التبشير بها والتصريح بها، وصار لها تمهيد أكثر جدية، وأكثر واقعية.

وفي ذلك ورد خبر لطيف عن شداد بن أوس قال: بينا رسول الله ﷺ يحدثنا على باب الحجرات إذ أقبل شيخ من بني عامر هو مدرة قومه وسيدهم، شيخ كبير يتوكأ على عصاه، فمثل بين يدي رسول الله ﷺ ونسبه إلى جدّه، فقال: يا بن عبد المطلب! إني أنبئت أنك رسول الله إلى الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، ألا وإنك تفوّتت بعظيم، وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بيوت بني إسرائيل: بيت خلافة، وبيت نبوة، فلا أنت من أهل هذا البيت، ولا من أهل هذا البيت، وإنما أنت رجل من العرب، ممن كان يعبد هذه الحجارة والأوثان، فمالك وللنبوة؟ ولكن لكل قول حقيقة فأتني بحقيقة قولك وبدء شأنك.

فأعجب النبي مساءلته، ثم قال: «يا أخا بني عامر إنَّ للحديث الذي تسأل عنه نبأ، فاجلس فسل».

فثنى رجله وبرك كما يبرك البعير، فاستقبله رسول الله ﷺ بالحديث، فقال: «يا أخا بني عامر إن حقيقة قولي وبدء شأنني أنني دعوة إبراهيم ﷺ

وبشرى أخي عيسى بن مريم عليه السلام وإني كنت بكر أمي، وإنها حملتني كأثقل ما تحمل النساء حتى جعلت تشتكي إلى صواحباتها ثقل ما تجد، ثم إن أمي رأت في المنام أن الذي في بطنها نور حتى أضلت له مشارق الأرض ومغاربها» ويستمر في القصة وما ظهر من العجائب والمعجز والخوارق التي حدثت عند ولادته وبعدها حتى قال العامري: أشهد بالله الذي لا إله غيره أن أمرك حق، وأخذ يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة^(١).

فهذه الرواية وضحت أن التمهيد العملي لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانت من زمان إبراهيم المشفوع بدعائه وطلبه من الله تعالى.

ثم إن الروايات بهذا المعنى كثيرة جداً في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا دعوة إبراهيم»^(٢) غير أن هذا الوصف كان معروفاً له قبل ذلك، بدليل ما روي من رؤية بعض الرهبان له حينما سافر إلى الشام فقال له: أنت الذي لا تقوم الساعة حتى تدخل الملوك كلها في دينك صاغرة قمئة، فلم يزل يقبل وجهه مرةً ويديه مرةً ويقول: لئن أدركت زمانك لأضربن بين يديك، أنت والله سيد المرسلين... أنت دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى^(٣).

٣٣٦. دقيق المسرية

إذا كان المستحسن في الرجل أن يكون كث اللحية ليميز بذلك عن المرأة، وتتم رجولته بذلك، فلا تستحسن كثافة الشعر في جميع البدن، وقد تخالف النظافة المطلوبة، ولذا أمر الناس بإزالته بالطلاء والحلق.

وبعد ما عرفنا استواء خلقة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه على أحسن ما يكون من

(١) البحار ١٥: ٣٩٦.

(٢) تفسير البغوي ١: ١١١، مجمع الزوائد ٨: ٢٢٣، تفسير الدر المنثور ٥: ٢٠٧، المسترشد للطبري: ٦٤٩، دلائل النبوة: ٣١.

(٣) الخرائج والجرائح ٣: ١٠٨٩.

تناسق أعضاء الجسد ولطافتها، ناسب أن يكون بدنه قليل الشعر، وهو كذلك، فقد ورد في وصفه: «ليس على بطنه ولا على صدره شعر»^(١) ولكن لا ينبغي أن لا يكون هناك شعر نهائياً، فقد يكون ذلك خلاف المعتاد، ولذا ورد: أن له شعرات من صدره إلى سرتة، وهذا الشعر الممتد من أعلى الصدر إلى السرة هو الذي يسمى بالمسربة، وتكاثرت الروايات على أن الرسول ﷺ كان دقيق المسربة^(٢)، بمعنى أن سربته والشعر السائل من صدره إلى جوفه كان دقيقاً وهو يجري كالخط، بالإضافة إلى أن نفس الشعرات كانت دقيقة وصغيرة ومتباعدة^(٣).

٣٣٧. الدليل إلى الله

لقد أسرّني المعاني الرفيعة والحقائق النفيسة عن انتقاء الألفاظ الرشيقة والجمل المسبوكة البديعة في بيان معنى الدليل إلى الله ﷻ، أي الدليل إليه في فجاج ديلجير الجهل التي تاهت فيها الأقران، والدليل إليه في برهوت الكفر الذي ضلت فيه سكانه، ودليل الأجنة إليه في ظلمات أرحام الحوامل لتخرج إلى الحياة بإيمانها، والدليل إليه في القطبين لتقف المتوتنة موحدة ذاكرة تصطك عندها الأسنان، والدليل إليه في الاستواء لتذكره مع التهاب أزمانها، والدليل إليه في ربوع الأرض المستوتنة بمختلف الألسنة والألوان.

بل كان الدليل إليه في صفوف الملائكة الكرام بعد التباس الأحوال، والدليل إليه في طبقات النبيين بقول بلى عندما خاضت الامتحان، والدليل إليه في طرق السماوات المتشعبة المتشابهة أكوانها.

(١) البحار ١٦: ١٤٤ ح ١.

(٢) إكمال الدين: ٩٥، أمالي الصدوق: ١٦٣، أمالي الطوسي: ٢١٧، مجمع الزوائد

٨: ٢٧٣، فتح الباري ٧: ٣٠٨، الشمائل المحمدية للترمذي: ٣٦.

(٣) انظر معاني الأخبار: ٣٠، ٣٢، والبحار ١٦: ١٤٤-١٥٠.

وهو الدليل إلى الله في الليل الأليل والماسك بجبل الشرف الأطول، كما عبر به سيد الأوصياء، علي بن أبي طالب عليه السلام^(١)، أي هادي الناس إلى الله سبحانه وإلى طاعته وشريعته، وهو الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الليل البالغ في الظلمة.

٣٣٨. دليل الله

قطعاً كانت ولا تزال رحمة الله صلى الله عليه وسلم عامة شاملة، لا تضيق عن هداية العباد التائهين في مجالات الحياة المختلفة المعبر عنه باللفظ الذي هو وراء بعثة الأنبياء وإرسال الرسل بالرسالات السماوية.

وخصوصاً عندما دخل البشر المتاهات في الفترة التي فقدت فيها الأنبياء، وصار ينتقل إلى المدنية والاجتماعات الكبيرة التي تشكل انقلاباً وجرياناً معاكساً في مسيرة البشرية الهادئة تجعلهم في هذه الظروف يتخبطون تحبب العشواء، ولا يقتصر ذلك على مجال الدين والشرع، ويشمل كل مستلزمات الحياة، كالاجتماع والاقتصاد والنظم، والعمران والطب وغيرها .

فإن من المسلم أن الحياة المكثفة تحتاج إلى قوانين اجتماعية جديدة تقلل عوارض ذلك الاحتكاك، وتخمد نائرة الصراع والسباق، وكذا فإن اقتصاد السوق والمصنع يغير اقتصاد المرتع والمزرعة، كما أن النظام الدولي المتجدد يغير النظام القبلي أو القطبي المنحصر، والطب المدني يغير الطب البدوي والقروي، ولذا تكاثرت الأمراض والزمانات على عهد النبي عيسى عليه السلام.

وأفضل تعبير في تلك الأحوال والتقلبات هو التعبير بالمتاهات التي يحتاج الاجتماع عند كل مفترق فيها إلى دليل، كما أن الإنسان وحده يحتاج

إلى دليل يدلّه، ودليله العقل.

ثم إن هذا الدليل قد يكون هو دليل السلطان، أي أن السلطان هو الذي يختاره، أو دليل المجتمع وهم الذين يختارونه، أو دليل الله سبحانه، وهو الذي يختاره، وهو أفضل دليل، بل هو الدليل الوحيد بتمام معنى الكلمة، لأن الله سبحانه يختار الأكمل والأفضل من جميع الجهات.

ففي تلك الظروف الحرجة اختار الله ﷺ الدليل وعرفه للناس بأنحاء مختلفة منها ما كان بواسطة الأنبياء السابقين.

ومنها أن جابر بن عبد الله قال رأيت في لوح مكتوب عند فاطمة عليها السلام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا الكتاب من الله العزيز العليم إلى محمد نوره وسفيره وحجابه ودليله^(١).

٣٣٩. الدمث

لما علمت أن النبي ﷺ كان سهلاً ليناً بشاشاً يتسم في وجه القادم والوافد، ويسمع كلام كل متكلم إليه وينصت له، دعاني ذلك إلى التفكير في كيفية اجتماع تلك الأوصاف مع الهيبة والرئاسة، والإدارة ومقتضيات السياسة.

فإن المشاهد أن أي مدير وأي مقام إذا لان أو تخفّض بجناحه غلب عليه الأطراف وكل من يراجعه، وتشتت أمره، ولم يخضع له الرؤوسون، ولم تنتظم له الأمور.

ولم ينقض تعجبي حتى عثرت على هذا الوصف الذي ذكره هند بن أبي هالة فقال: كان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع

(١) كمال الدين: ١٧٩، ١٨٠، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٥، ٢٧، الإمامة والتبصرة:

الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير، ذمناً ليس بالجافي ولا بالمهين^(١).
والدمث: أي هو سهل الخلق، فليس بالجافي الغليظ الخلق، ولا بالمهين الذي يستخف به الناس أو يستخف هو الآخر بهم.

فهو ﷺ بذلك الحزن المتواصل، والتفكر الدائم، وقلة الكلام، والتوسط في السهولة والليونة، دون الإسراف فيها المؤدي إلى الاستخفاف، بحيث يعلم المتكلم معه والقادم أن النبي ﷺ يتكلف له التيسر والبشاشة إكراماً له وحباً به، فإن تيسماً كهذا لا يكون مدعاة للاستخفاف أبداً، بل هو عطاء كعطاء اليد لا يورث إلا مودة واحتراماً وهيبة.

٣٤٠. الديان

مضت سنة الله ﷻ في بعث الرسل مبشرين ومنذرين غير أولي قوة، ولا بأس شديد، يرشدون الناس من موضع الضعف، وبأقل الإمكانيات، فما ختمت خاتمة كل نبي إلا بالقتل والمغلوبية وتشتت القوم أو هلاكهم، إلا ما شذَّ وندر كبعض مواقف النبي موسى ﷺ.

وبذلك تمت الحجة على الناس، على أن النصيح لوحده لا يقدر له التوفيق خصوصاً في الرسالة الخاتمة التي يراد لها أن تعم الأرض وتشمل الأرجاء، والأهم من ذلك تحمّل الأجيال اللاحقة لها باستقبال واقتناع منهم، ولكنه يتوقف كل ذلك على تحمّل الأولين لها ولو بحسب الظاهر وبمقتضى القهر والغلبة.

وبهذا تحتم أن يكون الرسول الخاتم ﷺ دياناً، أي القاهر والحاكم الذي يقهر الناس على دين الله سبحانه^(٢) حتى عرف أنه نبي السيف،

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ: ١٧٦، ١٧٨، البحار ١٦: ١٥٠.

(٢) قال ابن منظور: الديان من أسماء الله ﷻ، معناه الحكم القاضي، وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب فقال: كان ديان هذه الأمة بعد نبينا أي قاضيا

ويكون ذلك منه لأجل تولد الإيمان أو صورته فقط في ظاهر الساحة الإسلامية ورسوخه في قلوب النزر اليسير منهم، ثم يأخذه الذين يلونهم عنهم باعتقاد وإيمان وثبات.

والنتيجة التي نجمت عنها الدعوة هي رسوخ الإيمان شيئاً فشيئاً في قلوب المؤمنين، وليس - كما يُقال - القرن الأول أفضل من الثاني والثاني أفضل من الثالث؛ بيد أن إسلام الغالب كان بالقهر والغلبة، فكان ظاهرياً سرعان ما نقضوا العهد ونبذوا الميثاق، وأقصوا الإمام علياً ﷺ - الموصى به - عن الخلافة، وقتلوا أطيب ذرية النبي ﷺ وهو الحسين بن علي ﷺ وسبوا أهله وأباحوا المدينة، على أنهم شاهدوا الرسول ﷺ ورأوا معجزه وآياته، مما لم يشهده اللاحقون فأمنوا به وعظموه، ولم تجد عندهم من الغلظة والاعتراض على النبي ﷺ كالذي صدر من بعض أصحابه المخيطين به.

هذا أحد الاحتمالين في معنى الديان، والاحتمال الآخر هو إرادة التعبد والتدين به وشدة الالتزام، من باب دان بالإسلام ديناً، أي تعبد به، وتدين به كذلك فهو دين وديان للمبالغة.

ومهما يكن من أمر، فقد روي أنه كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى بن مريم ﷺ أن قال له: يا عيسى أنا ربك ورب آبائك... ثم إنني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين... الديان بديني^(١).

ومن ذلك شعر الأعشى الحرمازي يخاطب رسول الله ﷺ:

يا سيّد الناس وديّان العرب إليك أشكو ذربة من الذرب^(٢)

وحاكمها، إلى أن قال: والديان القهار، وقيل: الحاكم والقاضي، وهو فعّال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة، يقال: دنتهم فدانوا، أي قهرتهم فأطاعوا. لسان العرب ٤: ٤٥٨.

(١) الكافي ٨: ١٣٩، أمالي الصدوق: ٦١٢، البحار ١٤: ٢٩٦.

(٢) لسان العرب ١٣: ١٦٧.

٣٤١. الدين

جاء في بعض التفاسير في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾^(١)
قال: برسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

وتقدم نظير هذا التعبير في حوزة العلم، فإن التعبير عن الرسول ﷺ بأنه هو الدين أو العلم، باعتبار أن حقيقة الرسول بما هو رسول وبما هو نبي وهو الذي يجعله رسولاً ونبياً هو ما يمتاز به عن سائر الناس وهو العلم والدين، وليس هو اليد والرجل وسائر الأعضاء؛ لوجودها في جميع البشر، وحتى مثل العقل والروح، فإنها لا تتجاوز أن تكون هي وسائل للحياة بالمعنى المطلوب، وهي الحياة بروح العلم والدين فإن «الناس موتى وأهل العلم أحياء»^(٢) أو «إن الحياة عقيدة وجهاد»^(٣).

ولما كان المقصود بالدين هو الدين الكامل؛ فإنه لا يتوفّر إلا في مثل الرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام، فكانا هما اللذان يستحقان هذا الاسم وهذه الصفة.

وقد يكون السبب هو فناؤهما وتمخّضهما في الدين، بأن لم يكن لهما همّ سواه ولا مقصد مما عداه، وكان جميع جوارحهما موظفة للدين والاعتقاد، فهي وسائل وأدواته، وجميع وجودهم هو الدين ووسائله. وهذا هو مشهود في حياتهما وكل لحظات هذين الوجودين المقدسين بلا نكير، فكل منطق منهما وكل كلام صادر وكل فعل يصب في هذا المصب وينتهي في هذا السبيل، ومعه يكون التكذيب لهما هو تكذيب للدين لا محالة ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾.

(١) تفسير القمي ٢: ٤٠٩. والآية في سورة الانفطار: ٩.

(٢) من الشعر المنسوب: ١٢.

(٣) كلمات الإمام الحسين: ١٠.

ولعلّ قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أَمَّا السَّبُّ فَمَسْبُونِي، وَأَمَّا الْبِرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرُّوْا مِنِّي فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(١) يدخل في هذا المعنى، وأن البراءة منه في الحقيقة هي براءة من الدين وخروج عنه.

٣٤٢. دين الله

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «دينه، وكان رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام دين الله»^(٢).

والكلام في تصوير أن النبي ﷺ وأمير المؤمنين هما وجه الله سبحانه يأتي في محله، ولكن تصور أنهما دين الله الباقي بعد فناء كل شيء فهو مشكل، وكيف يبقى الدين بعد فناء كل شيء مع احتياجه إلى من يحمله، ولا يغني بقاؤه في علم الله لبقاء كل شيء في علمه تعالى وعدم الاختصاص بالدين.

فهذا مما لا تحيط به عقولنا اليوم، كما لا تتعلل نحو الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وعدم بقاء التوحيد والعدل وغيرهما من الاعتقادات، فلنكتف بهذا القدر.

نعم يحتمل أن المراد هو عدم الهلاك يوم القيامة، بمعنى عدم البطلان يومها، بعدما يبطل كل شيء، فقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قل: نحن والله وجهه الذي قل، ولن يهلك يوم القيامة من أتى الله بما أمر به من طاعتنا وموالاتنا، ذلك الوجه الذي كل شيء هالك إلا وجهه»^(٣).

(١) نهج البلاغة ١: ١٠٦ / ٥٧، الكافي ٢: ٢١٩ ح ١٠.

(٢) التوحيد: ١٤٠، ١٤١، البحار ٤: ٧. والآية في سورة لقمان: ٨٨.

(٣) بصائر الدرجات: ٨٥، وتتمته: «ليس منا ميت يموت إلا خلفه عقب منه إلى يوم القيامة» فعليه يكون المراد البقاء إلى آخر الدنيا.

حرف الذال

الأسماء المصدرة بحرف الذال

٣٤٣. ذو وفرة

الوفرة مأخوذة من الوفر والتوفير، والوفر وهو الكثرة، وتوفير الشعر هو اتخاذه وترك حلقه، فيجتمع ويطول، وقيل: الوفرة ما جاوز شحمة الأذنين، وقيل: إذا وصل إلى شحمة الأذن، وقيل: هو ما سال على الأذنين من الشعر، وقيل: هو مطلق ما اجتمع على الرأس^(١).

وبصورة كلية فإن المفهوم من الروايات الذاكرة للوفرة هو طول شعره ﷺ واجتماعه وعدم حلقه، بينما المروي: «أنه ما فرّق رسول الله ﷺ ولا كانت الأنبياء تمسك الشعر»^(٢)، فلا يجتمع عدم إمساك الشعر مع الوفرة.

فهل كان رسول الله ﷺ يوفر شعره أو لم يكن؟ فمن ثمّ اختلاف شديد، فقد جاء في صدر الرواية المارة عن عمرو بن ثابت عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت: إنهم يروون أنّ الفرق من السنة، قال: «من السنة؟!» قلت: يزعمون أن النبي ﷺ فرّق، قال: «ما فرّق...».

والذي يجيب عن هذه التساؤلات ما رواه أبو بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الفرق من السنة؟ قال: «لا» قلت: فهل فرّق رسول الله ﷺ؟

(١) انظر لسان العرب ١٥: ٣٥٤.

(٢) الكافي ٦: ٤٨٦ ح ٤، البحار ١٦: ١٨٩ ح ٢٥.

قال: «نعم» قلت: كيف فرق رسول الله ﷺ وليس من السنة؟!؟

قال: «من أصابه ما أصاب رسول الله ﷺ يفرق كما فرق رسول الله ﷺ وإلا فلا».

قلت: كيف؟ قال: «إن رسول الله ﷺ لما صدَّ عن البيت، وقد كان ساق المهدي وأحرم أراه الله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم رسول الله ﷺ أن الله سيفي له بما أراه، فمن ثم وفرَّ ذلك الشعر الذي كان على رأسه حين أحرّم؛ انتظاراً لحلقه في الحرم حيث وعده الله ﷻ، فلما حلقه لم يعد في توفير الشعر، ولا كان ذلك من قبله ﷺ»^(١).

فمن أمثال هذا المورد يجيء الاختلاف ويتكرر السؤال، فإن توفير رسول الله ﷺ للشعر كان في حالة خاصة وإلا فهو على العموم كان يحلق رأسه ولا يتركه يطول.

ويؤيده أن بعض الروايات الذاكرة للتوفير قال فيها: «رجل الشعر إن انفردت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرّه»^(٢) مما يُشعر بأن الرسول ﷺ كان يعتاد حلق الشعر، وإذا وفرّه فهو في حالة استثنائية خاصة. ويحتمل أنه ﷺ كان يترك حلقه، ولا يحلق عادة إلى أن يبلغ شحمة الأذن فيحلقه.

ويؤيد الاحتمال الأخير ما رواه أيوب بن هارون عن أبي عبد الله الطوسي قال قلت له: أكان رسول الله ﷺ يفرق شعره؟ قال: «لا؛ لأن رسول الله ﷺ كان إذا طال شعره كان إلى شحمة أذنه»^(٣).

(١) الكافي ٦: ٤٨٦ ح ٥٥، البحار ١٦: ١٨٩ ح ٢٦.

(٢) عيون أخبار الرضا (ع) ٢: ٢٨٢. معاني الأخبار: ٨٠، البحار ١٦: ١٤٨ ح ٤.

(٣) الكافي ٦: ٤٨٥ ح ٣، البحار ١٦: ١٨٩ ح ٢٤.

وبذلك يعرف السبب فيما روي: أن رسول الله ﷺ ذو صفائر أربع أو أنه كان له ذؤابتان، أو كان يضرب شعره كتفيه^(١).

وإنما فصلت لك ذلك لتعرف حقيقة الحال، وما هي السنة إذا أردت أن تقتدي برسولك ﷺ، فإن السنة هي الخلق، ولا مانع من الترك ولا حزاة فيه إذا كان بحيث لا يجاوز الأذن، خصوصاً وقد روي أن طول الشعر يضعف البصر.

ومهما يكن من ذلك فإن الأخبار الذاكرة بأنه ﷺ ذو وفرة أكثر من رواية^(٢).

٣٤٤. ذريع المشية

روي أن رسول الله ﷺ ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط في صيب^(٣).

تكرر ذكر ذلك في الأخبار، وقد يعطي فكرة عن سرعة مشي الرسول ﷺ، وكذلك فهم منه بعض اللغويين حتى قال بعضهم: وقيل في صفته ﷺ: إنه كان ذريع المشي أي سريع المشي واسع الخطوة^(٤).

بينما الاستفادة من عامة الأخبار خلاف ذلك؛ وليس المراد سرعة المشي كما فهمه ذلك البعض، خصوصاً وقد جاء في وصف هند بن أبي هالة وكان وصافاً للنبي ﷺ: أنه كان إذا زال زال قلماً، يخطو تكفوفاً، ويمشي هوناً، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط في صيب^(٥).

(١) انظر البحار ١٦: ١٨٢.

(٢) أمالي الطوسي: ٢١٧، وانظر البحار ١٦: ١٤٧ ح ٢، ٣، وص ١٨٤ ح ٢١.

(٣) عيون أخبار الرضا ﷺ: ١٧٦، ١٧٨، معاني الأخبار: ٨٧، مجمع الزوائد للهيتمي: ٨: ٢٧٣، البحار ١٦: ١٤٩.

(٤) لسان العرب ٥: ٣٦ ذرع، النهاية في غريب الحديث ٢: ١٥٨، تاج العروس ٥: ٣٣٥.

(٥) البحار ١٦: ١٤٩ ح ٤، مجمع الزوائد ٨: ٢٧٣.

ومعلوم أن المشي هوناً هو المشي برفق ولين وتثبت من دون عجلة. ولذا احتار العلماء واختلف تفسيرهم، فهم بين من يحمل الذريع على سعة الخطوة من دون سرعة المشي، فذريع المشية عنده هو واسع الخطوة وبين من يحمل الهون على التثبت مع سرعة المشي، فذريع عنده بمعنى سريع.

ونحن نستعرض الكلمات المذكورة في هذا الخبر وغيره، فقد ورد أنه ﷺ إذا مشى تقلع، وفي لفظ: إذا مشى كأنما يتقلع من الصخرة، وهذا يعطي معنى رفع الرجلين من الأرض رفعاً قوياً يظهر عليه الجذ والحزم، ويخالفه المشي عجزاً كمن يخط الأرض برجليه ويسحبها سحباً، فهو مشي العاجز.

وذكروا بعد ذلك أنه ﷺ يخطو تكفوفاً، ويلفظ آخر: أنه ﷺ إذا مشى تكفى تكفياً، والتكفو هو التمايل إلى قدام، يخالفه التمايل إلى الجانبين أو عدم التمايل، وكذا المشي مع استقامة القامة الذي هو أقرب إلى التبخر، والأول أقرب إلى التواضع.

وأما المشي هوناً فهو - كما قالوا - بمعنى الرفق، وهو الرفق بالأرض، فيطأها برفق ويضع رجله هوناً، مما يلزمه التثبت في المشي.

وأما المشي الذريع، فالصحيح فيه هو سعة الخطوة فحسب، دون السرعة في المشي؛ لأن أصل الذرع هو طول الذراع، ويعبر به عن الطول، ولذا قالوا: الذرع: طويل اللسان بالشر، وذرع الرجل في سباحته تذريعاً؛ اتسع ومد ذراعيه، وذرع البعير يده إذا مدّها في السير^(١).

فالجميع يحكي عن مدّ الذراع ومدّ اللسان، فذريع المشي هو الذي يمدّ رجله في المشي ويخطو الخطوات الواسعة، وليس في تلك الكلمات دلالة على السرعة.

قال الصدوق: سألت أبا أحمد في تفسير هذا الخبر فقال: ذريع المشية

(١) انظر لسان العرب ٥: ٣٦ «ذرع».

معناه واسع المشية من غير أن يظهر منه استعجال وبدار^(١).

ومع كل ذلك لا يمكن إنكار سرعة مشي الرسول ﷺ، ولكن المقصود به هو السرعة التي تخرج المشي عن مشية المختال وعن حد التبخر، ومع ذلك فهو بحد لا يخرج معه المشي عن القصد لا محالة؛ لاختيار الرسول ﷺ المشي الأفضل الذي جرى التصريح به على لسان لقمان: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾^(٢).

٣٤٥. الذكر

تطلعنا من خلال البحوث السابقة على الخط الممتد لوجود الرسول المصطفى ﷺ والعهود التي عُرف فيها، من أوّل الخلق، ويوم كان وجوداً نورياً عرفته الملائكة الكرام، فكان في السماء أحمد منه في الأرض، ويوم عرفه الله للنبيين ﷺ وأخذ له عليهم الميثاق وهو في الذر على أن ينصروه وبيشروا به أمهم، فجرى على ألسنتهم وألسنة أمهم يتوسلون به ويستشفعون به في الشدائد.

وهكذا يستمر له ﷺ هذا النحو من التواجد والجري على الألسنة ليشتد ويتأكد بعد بعثته، فيذكر على المآذن في كل أذان، وفي كل صلاة واجتماع ومحفل.

ومن هنا يعلم أن النبي ﷺ هو الذكر؛ لأن الذكر هو ما جرى على اللسان، والرسول ﷺ هو الذكر، أي الجاري على الألسنة، والحفوظ في الخواطر، فإن كل أولئك السابقين لما علموا به وعرفوا عظم شأنه، أودعوه في خواطرهم، وحفظوا اسمه، وهو المعنى الآخر للذكر، أي الحفظ للشيء

(١) معاني الأخبار: ٣٠، ٣٢، البحار: ١٦: ١٥٩.

(٢) لقمان: ١٨، ١٩.

وتذكره، فيكون الرسول ﷺ هو الذكر، بمعنى المحفوظ المذكور دائماً وأبداً. كما ويحتمل أن تكون تسمية الرسول ﷺ بالذكر باعتبار أنه وسيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق، كما ويحتمل إرادة ذي الذكر من الذكر، فيكون الذكر هو القرآن والرسول ﷺ هو ذو الذكر وصاحب الذكر، أو يكون سُمِّيَ بذلك باعتبار كثرة ذكره لله سبحانه، كما سمي «أذن» لكثرة استماعه وإنصاته، وأفضل الاحتمالات إرادة القرآن من الذكر، والرسول ﷺ هو القرآن المتجسد والتطبيق العملي له.

كل تلك المذكورات وجوه واحتمالات تحتمل الصحة وعدمها، وأما أصل تسمية الرسول بالذكر فهو مسلم ولا ريب فيه، نطق بذلك القرآن، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١). وقال أبو جعفر في قول الله ﷻ: ﴿فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) قال، قال رسول الله ﷺ: «الذكر أنا، والأئمة عليهم السلام أهل الذكر»^(٣).

وروى الكلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال، قال لي: «كم محمد اسم في القرآن؟» قال، قلت: اسمان أو ثلاثة، فقال: «يا كلبي له عشرة أسماء...» ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فالذكر اسم من أسماء محمد ﷺ، ونحن أهل الذكر، فسَلْ يا كلبي»^(٤).

(١) الطلاق: ١٠ - ١١ .

(٢) الأنبياء: ٧ .

(٣) الكافي ١: ٢١٠، البحار ١٦: ٣٥٩ ح ٥٥، تفسير البرهان ٢: ٣٦٩ .

(٤) بصائر الدرجات: ٥٣٢ ح ٢٦، البحار ١٦: ١٠١ .

وبمقتضى هذه الرواية لا يكون «الذكر» مجرد صفة، وإنما هو اسم لا يحتاج إلى تأويل وتوجيه، ولكن العادة القاضية في أسماء النبي ﷺ تتطلب التوجيه والسبب في التسمية لعدم خلوِّ أسمانه من ذلك.

ثم إن الروايات الذاكرة لهذا الاسم كثيرة لا نطيل بها^(١).

٣٤٦. ذكر الله

الاحتمالات في تسمية الرسول ﷺ بذكر الله عديدة:

منها: أنه سمي بذلك لكثرة ذكره سبحانه حتى تححص وصار وكأنه ذكر فقط، فما زال يذكر الله سبحانه في كل اجتماع وخلوة، حتى قال المشركون إن محمداً ليكثر ذكر ربه كما مر.

ومنها: لكثرة ذكر الله ﷻ له ﷺ، بمقتضى قوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٢) فلما كان الرسول ﷺ يكثر ذكره ﷻ، فإن المقابلة تقضي بكثرة ذكر الله سبحانه له، فهو ﷺ ذكر الله سبحانه.

ومنها: أنه سمي بذلك لأن رؤيته أو ذكره يذكر بالله ﷻ.
ومنها: أنه الطريق لمعرفة الله سبحانه وذكره وعبادته، وأنه المذكر برب العالمين.

ومنها: كثرة إقامته الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٣).

ومنها: أن ذكر النبي ﷺ ورؤيته أو حتى نفس وجوده له آثار ذكر الله ﷻ، وهو اطمئنان القلوب.

(١) انظر عيون أخبار الرضا ﷺ: ١٣٢، وبصائر الدرجات: ١١، ١٢، والكافي: ١: ٢١٧.

والبحار: ١: ١٧، وج: ١٦: ٣٦٣، وج: ٢٣: ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥.

(٢) البقرة: ١٥٢.

(٣) طه: ١٤.

ومنها: ذكر الله سبحانه له بخصوصه وذلك بالصلاة عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(١).

وقد يكون هناك احتمال آخر، أو تتداخل بعض الاحتمالات أو تناقض، والمهم أنها تكفي في توجيه تسمية النبي ﷺ بذكر الله سبحانه، وإن كان الاحتمال الأخير لا يخلو من رجحان.

ويؤيد احتمال ما قبل الأخير ما ورد عن جعفر بن محمد القمي في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ قال: «بمحمد ﷺ تطمئن القلوب، وهو ذكر الله»^(٢).

٣٤٧. ذو الشرف الأصيل

لا شك أن شرف الرسول ﷺ وتقدمه له جذور في تارات الخلق وأمنائه، وأعمق الزمن السحيق، وامتداد الأيام وتوالي الدهور، لم يحصل عفواً، ولا هو وليد أحداث طارئة، معروف له ذلك الفضل في الجاهلية قبل الإسلام.

فلما اختلفت قريش في رفع الحجر ووضعه في محله، وكثر الكلام وكاد أن يقع الشر قال ابن المغيرة: يا قوم حكّموا في أمركم من يدخل من هذا الباب، وأجمعوا على ذلك، وإذا بالنبي ﷺ قد أقبل عليهم، فقالوا: هذا محمد، نعم الصادق الأمين، ذو الشرف الأصيل^(٣).

(١) الأحزاب : ٥٦.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢١١، البحار ٢٣ : ١٨٧. والآية في سورة الرعد : ٢٨.

(٣) البحار ١٥ : ٣٨٤. وابن المغيرة هو أبو أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر

بن مخزوم، وهو والد أم سلمة، وكان أسن القوم.

٣٤٨. ذو الشرف الباذخ

الباذخ هو العالي والشامخ، وامتياز العالي هو صعوبة بلوغه وعسر الوصول إلى ذروته، كالجبل الشامخ العالي، كما أن العالي هو الذي يراه ويعرفه الكثير، لمشاهدة القريب والبعيد له ومعرفتهم به، وبهذا تتحدث فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب كافل النبي ﷺ أنها جلست يوماً تتحدث مع عجائز العرب والفواطم من قريش، منهم فاطمة ابنة عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جدة رسول الله ﷺ لأبيه، وفاطمة ابنة زائدة بن الأصم أم خديجة، وفاطمة ابنة عبد الله بن رزام، وفاطمة ابنة الحارث بن عكرشة، وتام الفواطم التي انتمى إليهن رسول الله ﷺ أم قصي وهي ابنة نضر، فإنهن لجلوس إذ أقبل رسول الله ﷺ بنوره الباهر، وسعده الظاهر، وقد تبعه بعض الكهّان ينظر إليه ويطيل فراسته فيه، إلى أن أتى إليهن فسألن عنه، فقلن: هذا محمد ذو الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، فأخبرهن الكاهن بما يعلمه من رفيع قدره، وبشهره بما سيكون من مستقبل أمره، وأنه سيبعث نبياً وينال منالاً علياً^(١).

ومن هذا الحديث وأمثاله يعرف أن شرف الرسول ﷺ وشموخه وأصالته وانتشار صيته له عوامل كثيرة، وأسباب متعددة، منها: إخبار الكهّان، فإنهم جماعة عندهم بعض الاطلاع عما يحدث في الأرض أو سيحدث بواسطة الجن الذين كانوا يقعدون مقاعد للسمع فيخطفون أخبار السماء، وينقلون حديث الملائكة.

ومنها: إخبار الرسل السابقين وتبشيرهم بظهوره وكامل صفاته، حتى تناقله الأجيال وأخذ كل نسل عن سابقه، حتى بلغ هذه الطائفة من النسوة فعرفنه وطبقن تلك الصفات، فصار ذلك حديثهن ومعاهد آملن، ومحط فألن، وهناك طرق أخرى عديدة.

(١) كنز الفوائد: ١١٥، البحار: ٣٥: ٤٠.

٣٤٩. ذو الفضل الشامخ

الفضل فضل، وشموخه بمعروفيته وشيوعه، وقد تقدم ذكره في كلام النسوة المذكور في العنوان السابق.

ولعل ما عرفته تلك النسوة وغيرهن من الفضل فارغاً عما بلغهم من إخبار الرسل، هو ما ظهر لهن من الكرامات بولادته ووجوده، وحلول البركة معه، بالإضافة إلى مكارم أخلاقه و جوده وسخاء نفسه وصدقه وأمانته وسائر صفاته السامية.

٣٥٠. ذو القوة

ليس الحديث عن قوة الرسول ﷺ بذلك السهل، ولا هو في تناول اليد، فإننا قد نتوهم بعض الشيء، ولكن يغيب عنا أكثر حقائقه، ولا نبصر آفاقه البعيدة، فلا بد من استعراض بعض مداخله فقط، وما يبصره الناظر من بعيد، وهو يدور على عدة محاور:

١. إذا لاحظنا الأمور الصعبة جداً التي تحتاج إلى قوة عظيمة، وإرادة حديدية مما تستفرغ قوى الشخص وتستنزف كل طاقاته وتعيى به دقائق تدبيره من صعود الجبال العالية، وإزالة الصخور العظيمة، وزعزعة الجبال الراسية، أو الطيران في الهواء، أو الصعود إلى القمر، أو بلوغ الكرات الأخرى، فإن جميع ذلك مما تيسر للبشر وامتلك القدرة على تسخيره أو سيمتلك، وعلى الأقل هو يأمل أن يبلغه في يوم من الأيام.

ولكن جميع مستفرغات القوة تلك تصغر عند شيء واحد، وهو الغلبة على النفس الأمارة بالسوء وقهرها والسيطرة عليها والتحكم بها، وإخادها.

فإن ذلك يعدّ مستحيلاً إذا كان المقصود هو حججها عن جميع

الذنوب والخطايا بحيث لا يصدر منها حتى ذنب واحد.

وهذا ما استطاع الرسول المصطفى باعترافنا ﷺ من تنفيذه، فهو يمتلك قوة قهارة لا يمكن تصوّر حدودها ولا ينتهي إليها خيال، بل هي كاجتماع الضدين والنقيضين.

ولذا ورد: «أن أشجع الناس من غلب هواه»^(١).

٢. الاعتقاد، فهو المحور الآخر الذي يمكن استعراض مقدار القوة والقدرة عنده، فمما لا شك فيه أن الدواعي المحركة نحو العمل وباتجاه استنزاف القوى مختلفة، ويختلف عندها مقدار القوة الموفرة، فكلما كان الهدف والداعي أقوى في أفق النفس كان الجهد المبذول عنده، والطاقة المتوفرة من أجله أعظم وأشد، ولهذا نجد أن الطاقة المدخرة لاستيفاء مال يسير أقل من الطاقة المدخرة لمال كثير، كاستكشاف المعادن ومناجم الذهب وغيرها.

ويشتد هذا الجهد وتتزايد عنده القدرة إذا كان التحرك لأجل الحياة، فتجد أن الفار من الموت يفعل ما يعجز عنه في الحالات الاعتيادية، وتظهر منه قوة لم يكن يتوقعها هو ولا غيره، فلما يُنجز ما يريد يظلّ يتعجب أنه كيف عبر هذا النهر مثلاً، أو كيف تسلّق هذا الجدار أو كيف قطع هذه المفازة.

ولا يمكن تصوّر مبلغ قدرة الإنسان إذا كان الهدف هو المعتقد والدين، فإن ما يفعله المعتقدون في الدنيا، وما يبقى من آثار وطاقات تحررت تتلخص في المعابد العظيمة، كالأهرام والكنائس والمساجد.

وكلما تزايد الاعتقاد تزايدت القوى، وتكاملت الدواعي، وصدقت

(١) الفقيه ٤: ٣٩٥ ح ٥٨٤٠، أمالي الصدوق: ٧٣، معاني الأخبار: ١٩٥، مستدرک

الوسائل ١٢: ١١١ ح ١٣٦٥٨-١٣٦٥٩.

النية، وكلما عظم المعتقد به تزايد المتوفّر من الطاقة لذلك.

وأكبر الاعتقاد هو الاعتقاد بالله سبحانه، فإنه إذا خلص وقوي فإنه يولد طاقة عظيمة وقوة غير متصورة، ولذا لما قلع أمير المؤمنين عليه السلام باب خيبر التي يعجز عن قلبها عشرات الرجال، قال: إنما قلعته بجهد إيماني لا بقدرة بدنية^(١).

ويصغر كل ذلك عند من عرج به إلى السماء فشاهد آيات ربه العظمى، وقرب وتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، فهو يمتلك من القوة الإيمانية ما لا يرجى.

٣. هناك أسرار في أصل الخلق؛ فإن خلق الكون لم يكن بشكل مفاجئ بحيث وجد من اليوم الأول بهذا الشكل الذي هو عليه اليوم، ولكنه مرّ بمراحل كبيرة، يتلخّص شروعه بكلمة تكلمها الله ﷻ فصارت نوراً، وهو أوّل طاقة تحرّرت، وأوّل انفجار، ثم تكلم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً ثم مزج النور بالروح فخلق محمداً، ثم فتق نور محمد فخلق منه العرش، فهو الانفجار الثاني، وهكذا^(٢).

وبهذا فإن الرسول ﷺ هو أقوى وجود، يكمن فيه من الطاقة التي تزيد على الطاقة المخزونة في جميع الكون، بل هي مشتقة منه، ولا بعد في ذلك بعد ما عرفنا الطاقة الكامنة في الذرة التي لا ترى بالمجهر، ونضيف إليه النسبية في الذرات الممزوجة بالاعتقاد والقدرة القاهرة للنفس التي

(١) روضة الواعظين: ١٢٧، أمالي الصدوق: ٦٠٤ ح ٨٤٠، قال في رسالته إلى سهل ابن حنيف - رحمه الله - : «والله ما قلعت باب خيبر ورميت بها خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية، ولا حركة غذائية، لكنني أيدت بقوة ملكوتية، ونفس بنور ربها مضية، وأنا من أحمد كالضوء من الضوء، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت».

(٢) انظر البحار ٩: ١٥ ح ١٠ - ١١.

تشتق منها القدرة القاهرة للكون.

نكتفي بهذا اليسير، ولا نتوغل في ذلك، فإن له محلاً آخر وآذاناً أخرى، ونعطف الكلام على الأدلة الدالة على اتصاف الرسول ﷺ بذلك، فأولها القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(١) فلا تنتظر من القرآن العزيز أن يقول لك ذي قوة قاهرة، أو هو أقوى وجود كوني، لأن قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كافٍ، باعتبار ملاحظة الذي يشهد له بذلك، فإذا شهد بطل بقوة رجل فهو قوي جداً بخلاف العكس، وأما إذا شهد الله ﷻ بقوة أحد فهو أقوى من كل قوي، ولا نهاية لقوته.

والله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾^(٢) فلم يفصل بين النداء والإجابة سوى الفاء وهي تسعمائة وخمسون عاماً، وبهذا يجب أن تعرف معنى ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

ومن أجل كل ذلك تعلم دليل ما روي من سؤال بعض المؤمنين من الإمام المنتظر عن قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ما هذه القوة؟ فلم يخرج الجواب^(٣)، وليس إلا لأن ذلك من الأسرار التي لا تحتملها عقول أهل ذلك الزمان.

٣٥١. ذو مرة

جاء في تفسير سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ هو محمد رسول الله نزل من السماء السابعة ليلة المعراج، وهو قسم برسول الله، وهو فضل له على الأنبياء، وجواب القسم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

(١) التكويز: ١٩، ٢٠.

(٢) الصفات: ٧٥.

(٣) انظر الغيبة للشيخ الطوسي: ٣٧٧، والاحتجاج للطبرسي: ٢: ٣٠٣.

الهُوَى ﴿ أَي لا يتكلم بالهوى ﴾ ﴿ اِنْ هُوَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ اِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعنى الله ﷻ ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ يعنى رسول الله ﷺ ^(١).

والمرّة هي الشدّة والقوّة، وقيل: ذو مِرّة أي صحّة في الجسم السليم من الآفات والعيوب ^(٢).

٣٥٢. ذو النسل القليل

اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يبقى لرسول الله ﷺ من الأولاد سوى فاطمة الزهراء عليها السلام، فإن أولاده وإن كانوا أكثر في بادئ الأمر إلا أنهم قتلوا وماتوا، فلم يبقَ في الشطر الآخر من عمر النبي ﷺ سواها.

على أن تكون هذه الصفة هي من مشخصات رسول الله ﷺ تعرفه بها الأمم السالفة، فكان فيما قال الله ﷻ لموسى ﷺ: يا موسى اسمع وانصت واحفظ وأمر بني اسرائيل أن يتبعوا راكب الحمار ابن العذراء البتول... يبشر بالنبي العربي الأمي من ولد قيدر بن إسماعيل يبعث من بين جبلي قدس صاحب الجمل... ذو النسل القليل ^(٣).

وجاء في الإنجيل: يا عيسى جدّ في أمري... صدّقوا النبي الأمي... ذو النسل القليل ^(٤).

ولا شك أن المقصود هو النسل الأول الباقي لرسول الله ﷺ، كما أن المراد بالقلّة، هو القلّة في العدد، وإلا فهي واحدة مباركة، فقد جاء في

(١) تفسير القمي ٢: ٣٣٤، والآيات في سورة النجم: ١ - ٦.

(٢) انظر مجمع البيان ٩: ٢٦٢.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٦١: ١١٧.

(٤) إكمال الدين: ٩٥، ٩٦، أمالي الصدوق: ١٦٣، الخرائج والجرائح ٣: ١٠٦٤، إعلام

الورى ١: ٥٩، البحار ١٦: ١٤٥.

الروایتین السابقتین: ذو النسل القلیل، إنما نسله من مبارکة لها بیت فی
الجنة لا صخب فیہ ولا نصب، فهي مبارکة بلا حد.

وآية ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١) الدال على أن
نسل النبي ﷺ منها كثير جداً، وأن نسله وذريته هم الباقون، وهو مشهود
ومعلوم.

حرف الراء

الأسماء المصدرة بحرف الراء

٣٥٣ . الرؤوف

باتت لفظة الرؤوف قاصرة عن أداء المعنى لرافة الرسول ﷺ وشفقته؛ فإن رافته ﷺ كسائر صفاته الحسنة مما لاحد لها ولا عائق عن سيولها.

فمهما بلغت رافة الشخص على أهله وقرابته وأصدقائه ومن يلطفون به ويلطف بهم فهو لا يبلغ معشار رافة الرائف على عدوه، وعلى من ينافق عليه ويكيد له وهو يعلم بذلك.

فإن رافة الرسول المصطفى ﷺ كانت بحد من الشمول والاستيعاب والشدة بحيث تعسر على العامة معرفة المنافقين وتمييزهم عن سواهم، بل إن رفق النبي ﷺ ورافته بهم كانت بحد من الوسع والظرافة جعلت عامة المسلمين يعتقد بأولئك المنافقين وينظرون إليهم بمنظار القداسة، كل ذلك مع علم الرسول ﷺ بهم، ومعرفته لهم بأعيانهم وعلى الرغم من ذكر القرآن لأوصافهم في سورة «المنافقون» وغيرها.

فكان يلطف ويرأف ويخالط من كانوا كذلك، فلا يبعدهم إذا اقتربوا مسايسة، ولا يرجيهم إذا تعجلوا أمراً ليس لهم فيه نصيب، أو تزلفوا طمعاً في حطام الدنيا، أو مقاعد الرئاسة.

وأكثر من ذلك فإن جماعة منهم تصدّوا لقتله ﷺ بدحرجة الدياب

فعرفهم وعفا عنهم ولم يقتلهم قائلاً: «أكره أن يقول الناس إنه دعا أناساً من قومه وأصحابه إلى دينه فاستجابوا فقاتل بهم حتى إذا ظهر على عدوه أقبل عليهم فقتلهم»^(١)، فنفذوا مستغلين تلك الرافة الربانية، وتوصلوا إلى مقاعد الحكم، لينضح من بينهم مثل يزيد بن معاوية نضح الإناء، فإن الإناء ينضح بما فيه، هذا جانب من ظرافة تلك الرافة^(٢).

والجانب الآخر في التعامل الفردي، بينما يخبر جبرائيل النبي ﷺ أن فلان ينمُّ عليك، ولما سأله النبي عن ذلك أنكر فصدقه وأرضاه، حتى إذا خرج من عنده ﷺ قال ذلك النمام: هو أذن - أي النبي ﷺ - يسمع لكل متكلم ويصدق كل مخبر، يصدق الله سبحانه ويصدقني: ﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) فإن هذا أفتق شامخ من الرافة.

وأفضل من كل ذلك سعيه الدائب في إيصال الأمة إلى ساحل النجاة ومرافئ الخير وآفاق السعادة الأبدية، بكل الحرص وكامل الجهد،

(١) البحار ٢٨: ٩٩.

(٢) قد يجتليج في بعض الأذهان أن رافة النبي ﷺ هي التي سببت تسلط مثل أولئك النفر، فلجواب عنه أن المهم ملاحظة النتائج الكلية، وهي قبول الدعوة، وانتشار الإسلام، واتساع رقعته في الساحة العلمية والعملية ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَاقْتُلْنَاكَ لَافْتِنًا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩.

إضافة إلى أن الحياة بأسرها للافتتان والامتحان، وكل الخلائق معرضون للانصهار في بوتقة هذا الافتتان ليحيى من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة على حد تعبير البعض.

(٣) التوبة: ٦١.

حتى يبيت هو وعياله جياع ويهب غنماً بين جبلين لمن يعلم أنه سيسلم هو وعشيرته بذلك، أو يخلع قميصه الذي لا يملك غيره ليعطيه لعار، أو يشتمه شاتم فيستقبله بالطف الكلام وجزيل العطاء ليرجع مسلماً أو مؤمناً.

أو يجسه يهودي في دين ويقول له: لا أفارقك حتى تقضييني، فيجلس معه الرسول ما يقرب من بياض نهار، فإذا باليهودي يسلم، لأنه قرأ في التوراة من أوصاف النبي أنه رؤوف ورحيم ليس بصخاب.

كما لم يفتر عن الدعاء للأمة وطلب التخفيف لهم من الله سبحانه ورفع الأصار عنهم، وفي كل ذلك يحاول الزيادة على ما هو مطلوب منه، وأمور به: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فهو ﷺ لا يفقد الأمل حرصاً على هداهم ورأفة بهم على الرغم من رفع كلفة ذلك عن عاتقه، وعدم كونه مطلوباً منه.

فكل هذا التفاني من أجل وصول الناس إلى السعادة الأبدية يحكي عن عدم وضع لفظ الرأفة ليشمل جميع مصاديقه، أعني رأفة الرسول ﷺ المذكورة في كتاب الله، قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وأخيراً نذكر أننا أشرنا إلى بعض الأرقام في عناوين مائة كعنوان أرفأ الناس وأشفق الناس فراجع.

٣٥٤. الراقق

شمل الخرق والتمزق جميع أطوار الحياة في العصر الجاهلي، ولم يقتصر على جانب دون آخر، فقد بدأ هذا الخرق في الجانب العقائدي ليمتد إلى

(١) يوسف: ١٠٣.

(٢) التوبة: ٩.

الجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغيره فكان أول ضحاياه هو الحنيفية الإبراهيمية التي تسوست بأفة الشرك وعبادة الأوثان وأعقبه التمزق القبلي ونشوب الحروب الضارية، وشن الغارات التي تسلب فيها الأموال وتسى فيها النساء ليأكل القوي الضعيف، وتذهب النساء فيها غنائم حرب كباقي الأموال، وتسحق معها كرامة الإنسان، ويتشكل عنها مجتمع مهزوز.

ولما بعث الله ﷺ الرسول ﷺ بأمر رتب مخاريق الاعتقاد بأبر التحذير من عذاب الآخرة وخبوط تضام المسلمين واتحادهم، لينسج اعتقاداً متماسكاً، يليه التثام لمخارق جوانب الحياة الأخرى.

ولا شك أن هذه الخصلة وهذه الصفة لا يزال يحتفظ بها الدين الإسلامي، ولها أن تنجع في كل قطر وبلاد.

فمن الواضح أن الإسلام متى ما غزا العالم الغربي اعتقاداً، فإنه سرعان ما سيؤدي إلى جمع شمل الأسر المشتتة، وكذا تقوية أواصر الروابط الاجتماعية المتفككة، ليعطف القوي على الضعيف والغني على الفقير طمعاً في ثواب الآخرة.

ومع ذلك فهو يفسر كثيراً من المبهمات والتساؤلات التي زيفت الحياة بعيون الغربيين، الأمر الذي حدى بهم إلى الانتحار وقتل النفس، وسيعقب هذا التفسير حصول الاطمئنان وسكون البال: ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ نَظْمَتِنُ الْقُلُوبِ﴾^(١).

ومهما يكن من أمر فإن الالتفات إلى حقيقة عمل الرسول ﷺ المتمثلة برتق المخاريق والشقاق في صفوف العرب وغيرهم، ونسجها أمة واحدة متلاحمة بعدما كانت متحاربة متمزقة لا يحتاج إلى كثير تأمل، ولكن

التعبير عن ذلك يحتاج إلى بلاغة عالية، فلذا نجد أن أول من ذكر ذلك هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في مفتتح خطبة ألقاها فقل: «الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أطيب المرسلين محمد بن عبد الله المنتجب الفاتق الراقق»^(١) على أنه سيأتي الكلام في معنى الفاتق في موضعه إن شاء الله تعالى.

٣٥٥. الراضي

تفرّد ابن شهر آشوب بذكر هذه الصفة، مستفيداً ذلك من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾^(٢) وقد أخذنا على أنفسنا عدم اشتقاق الصفات من الأفعال، والاكتفاء بالصفات المصرّح بها في كلام الله أو ما جرى ذكره على لسان نبي أو وصي نبي أو أحد المحيطين بالنبي عليه السلام من ذوي القربى و الأصحاب والشعراء، ولحسن ظننا بالعالم الجليل المشار إليه نعتبر ما يذكره ويسرده من الأسماء هي منقولات مأخوذة يداً بيد.

ومهما يكن من أمر فإن عنوان الراضي من العناوين الطبيعية للرسول عليه السلام؛ لأن درجة الرضا بما قدر الله سبحانه والتسليم لقضائه مطلوبة لكل مؤمن ومؤمنة فكيف الحال بالنسبة لشخص رسول الله عليه السلام.

والذي نود أن نلفت النظر إليه هو أن الرضا له مراتب، فبعض الرضا هو العجز أو تقاعد النفس وقصورها عن بلوغ الأماني ومدارج الترقى، فصاحبها راضٍ بحاله عجزاً وتقاعساً أو يأساً وقنوطاً أو عند فشل جميع المحاولات.

وترتقي مراتب الرضا لتبلغ الرضا مع وصول اليد وعلو الهمة، فقد خرج النبي عليه السلام وهو محزون، فأتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض، فقال: يا محمد هذه مفاتيح خزائن الدين، يقول لك ربك: افتح وخذ منها ما شئت

(١) تهذيب الأحكام ٣: ٨٣، إقبال الأعمال ١: ٣٢٠، البحار ٩٥: ١٢٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٠، وعنه في البحار ١٦: ١٠١، والآية في سورة طه: ١٣٠.

من غير أن تنقص شيئاً عندي، فقال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار لها، ولها يجمع من لا عقل له»^(١)، فإذا كان الناس آنذاك لا يعرفون معنى قول الملك: «خزائن الدنيا» فأنت تعرف معناه اليوم جيداً.

هذا هو الرضا بما قُضي وقُدِّر، والرضا بالأقل بعد التخيير بينه وبين الغنى، والأهم من ذلك الخروج لاستقبال القضاء، كقوله ﷺ: إذا ضاقت الدنيا وأقبل الفقر: «مرحباً بشعار الصالحين»^(٢) أو «نعم المرض الحمى»^(٣).

وتترقى مراتب الرضا لتبلغ الفرح والسرور القلبي بما يصيبه وما هو عليه من الحال، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا إلا أن يكون فيه جائعاً خائفاً»^(٤).

وإنما ذكرت الفقر كمثال، وإلا فما واجهه الرسول ﷺ في حياته لا ينحصر في جانب، بل يشمل جميع المكدرات، وجميع ما يمكن تصوره من المنغصات، كفقْد الأولاد والأقرباء والأحبة، وأذى الأزواج، وتوالي الأسقام، وجراح الحروب المريرة، وطعنات الأعداء، واتهامات أصحاب النفاق والمحيطين به حتى بلغ العرض، وقد تقدم عليك قول البعض: إن محمداً كريحانة في نتن، معرضاً بالزهراء عليه السلام، وقبل ذلك، المحاصرة الاقتصادية، وفقد خديجة وأبي طالب عليه السلام، ونفاد أموالها، وأذى قومه ومحاربة اليهود له، حتى سمته اليهودية فعفا عنها.

ويعود واحد من تلك الآلام كفاً في إسخط الإنسان وتفوهه بالاعتراض ﴿وَتَأْدَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي مِنْ أَهْلِي﴾^(٥) ولم يصبر آدم عليه السلام على

(١) البحار ١٦: ٢٦٦ ح ٦٧.

(٢) الكافي ٢: ٢٦٣، وج ٨: ٤٧، أمالي الصدوق: ٧٦٥.

(٣) البحار ٧٨: ١٨٣.

(٤) الكافي ٢: ١٢٩ ح ٧، البحار ١٦: ٢٦٦.

(٥) هود: ٤٥.

حظر الأكل من شجرة واحدة على أن تكون له جنة كاملة، وبكى يعقوب عليه السلام حتى عمي لفقده يوسف عليه السلام، ونفى إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل لإرضاء سارة، وتأسف على لوط وأهله ولم يصيهم شيء بعد، فأخذ يجادل في ذلك، وغير ذلك.

فعلى الرغم من مواجهة الرسول ﷺ لكل تلك المصاعب وكل تلك الآلام المريرة المتنوعة الأطراف لم يسمع منه إلا الشكر، ولم يبدأ كلامه إلا بالحمد، ولم يحتمه إلا بالحمد، إنما تسيل دموعه رحمة كما سألت على ولده إبراهيم بعد تهمة عائشة لمارية ونفيها أن يكون إبراهيم ابناً له ﷺ وغير ذلك مما يبرهن على أنه ﷺ نفس الرضا قد تجسّد، وليس معنى كلمة فحسب.

ولقد آلينا على أنفسنا أن نكتفي بالإشارة، لنترك التفصيل إلى الآخرين لأن همّنا الأسماء لا شرحها، والحال أن شرح كل واحد منها يحتاج إلى كتاب، ولذا لم نسّم الكتاب «شرح الأسماء» ولا أخذنا على أنفسنا عرض تحليل كامل أو دراسة أكاديمية، فلا ينبغي أن يعترض علينا بأمثال ذلك.

٣٥٦. الراعي

تمثل حقيقة الرعي في امتلاك الراعي لآليات التخويف والاستقطاب الحقيقية، مع وجود أزمة جماعية في سبيل البلوغ إلى أهداف حتمية تعود بالنفع على الراعي أو المالك في الغالب.

الا ترى أن راعي الغنم والإبل يحمل العصا الكبيرة ويصحب الكلب للتخويف، ويحسن الحذاء أو يعلق الأجراس للاستقطاب، والأزمة هي تشتت الدواب وضياعها، والهدف هو إشباعها وإرواؤها، وعلى الأقل إسكاتها.

وقد تختلف وسائل التخويف والاستقطاب بحسب روحيات الراعي

والمرعى وأفكارهما، فاختلقت على أساسها النظم السياسية العالمية، بيد أن السياسة هي نوع من الرعي، والسائس هو مصداق من مصاديق الراعي، وأكثر اختلافهم في تغليب جانب الاستقطاب أو التخويف وكيفية الإشباع والإسكات.

ولا تخرج أعمال الرسل ﷺ عن صلق اسم الرعي عليها، فكل رسول هو راع يرعى أمته، وهو يمتلك وسائل التخويف والاستقطاب المتمثلة في الإنذار والتعزير والتركيز على رهبة الموت والجهل بما بعده، والتبشير والتأمين، والأزمة هي تشتت المجتمع وتكثر الأهواء والمعتقدات، والهدف هو الإرضاء وحصول الأمن، والإيمان بالله الواحد والتخلُّق بفضائل الخلق.

ولو ألقينا نظرة على ما أصاب العالم - وخصوصاً الجزيرة العربية - من التفرُّق والتشتت والضياع، فإن قريشاً لما تفرقوا في طلب المعاش تفرقت في المعتقد، ليعبد البعض صخرة بما يُسمى سعد صخرة، أو شجرة ويُسمى سعد شجرة، أو يصنع البعض منهم بيده إلهاً من خشب أو تمر يعبده حتى إذا جاع أكله، وإذا أصابه البرد أحرقه، وهناك من قال بالتثليث والأقانيم وغيرها.

كل ذلك أغفلهم عن جبار السماوات، وخالق الكون، فكان ولا بد من راع يجمع هذه الجماعات المشتتة، ويحفظها في سبيل الإيمان بالله والسعادة في الدارين.

فكانت بعثة الرسول المصطفى ﷺ تصب في هذا المصب، وتحمل تلك المواصفات ولها امتيازاتها.

ومن تلك الامتيازات التي تمتاز بها رعاية النبي ﷺ وسائر الأنبياء هو عدم وجود منافع تعود إلى الراعي نفسه، أعني الرسول، ولا المالك وهو الله سبحانه، لأنه غير محتاج حتى ينفعه إيمان من آمن، ولا الرسول يهدف

إلى نفع، لأن المشاهد أن الرسل عامة لم تجن سوى المصاعب والمشاكل وأخرها القتل.

وقد اختار الله سبحانه لهم الضعف وال فقر لكي لا يتوهم إرادتهم النفع والسلطة.

كما وتمتاز دعوة الرسول بإضافة السيف والسوط إلى أدوات التخويف والردع والحفظ من الذناب الضارية، كما أضيف إلى أدوات الاستقطاب والتسهيل مهما أمكن وسنّ القوانين على أساس المنافع والمصالح العائدة إلى البشر، بحيث أدت إلى حفظ وحدة المسلمين وسلامة المجتمع، وصحة الأبدان، وتحسّن الاقتصاد وانتشار العلم، وحفظ كرامة الإنسان وانتهت بتأسيس إمبراطورية عظمى، والمسلمون مازالوا يتحسسون ذلك فيرغبون في الدين أكثر فأكثر.

وأخيراً لم يغفل الرسول ﷺ عن استمرار مهمة الرعي ولزوم تأمين مواصفات الراعي المطلوبة في استمرار تأمين الأهداف المستوخاة، فضرب بيده الشريفة على يد علي بن أبي طالب عليه السلام فرفعه حتى صارت رجله مع ركبة رسول الله صلوات الله عليهما ثم قال: «معاشر الناس هذا علي أخي ووصي الراعي بعدي وخليفتي على أمتي»^(١) ليكون راعياً بعده ﷺ، سواء كان كرعي النبي إبان فترة حكومته عليه السلام، أو كرعي أكثر الأنبياء في فترة حكم غيره من الغاصبين.

٣٥٧. راعي شمس الله

ومن مشخصات الرسول المصطفى ﷺ هي رعايته بعينه للشمس تقريباً لأوقات الصلوات الفرائض منها والنوافل، فصلاة الصبح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وصلاة الظهر والعصر عند زوالها إلى غروبها،

(١) روضة الواعظين: ٩٤، وانظر البحار ٢٥: ٢٣.

والمغرب والعشاء بعد غروبها، ولذا قال الصادق عليه السلام «نحن رعاة شمس الله»^(١)، والرسول ﷺ داخل في عموم «نحن» أو هو أولى بذلك، فيتم له هذا الوصف.

ولكن يحتمل إرادة الرسول ﷺ من شمس الله، ويكون رعيها هو حفظ اسمه وحفظ ما جاء به، فلا يكون ذلك الوصف وصفاً لرسول الله ﷺ بتاتاً.

٣٥٨. راكب البراق

ليس من المعقول أن ينتجب الله سبحانه إنساناً ويؤثره على جميع خلقه، ولا يطلعه على ما خلق من أصناف الخلائق، ولا يحرمه رؤية أقطار السماوات، وعظيم المخلوقات.

فلعل ذلك هو الحكمة في الإسراء بالرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء بواسطة نقليه اسمها البراق. بدليل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(٢).

ومن الطبيعي احتياج عروج الجسم إلى الوسيلة المادية، ولما كانت المسافة شاسعة جداً وخارجة عن التصور، والملة قصيرة وهي ظلام ليلة واحدة، لزم أن تكون تلك الوسيلة هي واسطة نقليه فوق المتطورة ولها

(١) تفسير فرات: ٢٠٧، ٢٠٨، البحار ٢٥: ٢.

(٢) الإسراء: ١.

(٣) النجم: ٨، ١٨.

سرعة خارجة عن جميع الحسابات.

وليست الأرض إلا كحلقة في فلات بالنسبة إلى السماء الأولى، والسماء الأولى بمجراتها وبمجاميعها الشمسية كحلقة في فلات بالنسبة إلى السماء الثانية، والسماء الثانية كحلقة في فلاة من السماء الثالثة وهكذا حتى تبلغ السماء السابعة كما جاء في الخبر^(١)، وقد طاف البراق بالنبي الأرض ثم عرج به إلى السماء السابعة، ونزل إلى الأرض في ليلة واحدة مع العلم بأن بعض المجرات لم يصل نورها إلى الأرض منذ خلق الله الكون إلى يومنا هذا مع شدة سرعة الضوء، فتكون سرعة الضوء عند سرعة البراق صفراً.

ومن هنا يعلم مدى تصور علم البشر.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لِي الْبَرَقَ وَهِيَ دَابَّةٌ مِنْ دَوَابِّ الْجَنَّةِ لَيْسَتْ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، فَلَوْ أَنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَهَا لَجَالَتْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فِي جَرِيَةٍ وَاحِدَةٍ»^(٢).

والأخبار في وصف البراق كثيرة، وهي تصف سفينة فضائية متطورة للغاية وتذكر ذلك لبدوي لا يعرف سوى الناقة والحمار والبقرة^(٣)، وأنا أذكر منها ما يتناسب مع فهم البشر اليوم في نقاط:

(١) البحار ٢٥: ٣٨٥.

(٢) مسند زيد بن علي: ٤٩٧، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٥.

(٣) روى الراوندي في الخرائج والجرائح ١: ٨٤ عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ لما أسري به نزل جبرئيل عليه السلام بالبراق، وهو أصغر من البغل وأكبر من الحمار، مضطرب الأذنين، عيناه في حوافره، خطاه مد بصره، له جناحان يحفزانه من خلفه، عليه سرج من ياقوت فيه من كل لون، أهدب العرف الأيمن، فوقفه على الباب ودخل رسول الله ﷺ فمرح البراق، فخرج إليه جبرئيل عليه السلام فقال: اسكن فإنما يركبك خير البشر، أحب خلق الله إليه.

١. حجمه أكبر من الحمار ودون البغل.
٢. سقفه جام من ياقوتة حمراء.
٣. عيناه مثل كوكب الزهرة تتوقدان مثل النجمين المضيئين، لهما شعاع مثل شعاع الشمس وهما في حافره.
٤. له دفيف وصوت بحيث نفرت منه الإبل، وألقت بعض النساء حملها وانكسرت يدها.
٥. له جناحان يحفزانه من خلفه.
٦. مزموم بألف زمام من الذهب.
٧. مقعده ياقوتة حمراء، وركابه درة بيضاء.
٨. إذا هبط ارتفعت يده، وإذا صعد ارتفعت رجلاه.
٩. يسمع الكلام ويفهمه، مضطرب الأذنين.
١٠. له نفس كنفس آدميين.

ولما أراد الرسول ﷺ ركوبه امتنع على الرغم من توصيات جبرائيل، وما ذلك إلا لتطوره وصعوبة الاستفادة منه وارتفاعه، ولذا تقدم جبرئيل وأخفضه وفتح أبوابه وأعدّه لركوب النبي ﷺ وهدايته وذلك بكلمات دون ضغط أزرار، وهذا ما يهدف إليه بشر اليوم من تبديل الأزرار بأمواج الكلام.

ولما أراد هدايته مرّح وتطايير يمّنة ويسرة لشدة سرعته وصعوبة السيطرة عليه فتقدم إليه جبرائيل وسكّنه وسيره في المسير المقدّر له^(١).

ومن شدة سرعة البراق تكاد كل سماء أن تكون كباب الدار غير

(١) انظر الخصال: ٢٠٣، مجمع البحرين ٥: ١٣٨، نوادر المعجزات: ٦٧، ٦٨، الهداية

الكبرى: ٥٧، الخرائج والجرائح ١: ٨٤، مناقب آل أبي طالب ١: ١٥٤.

القابلة للنفوذ إلا بفتحها، وهذا ما يعني أن صلابة الشيء وسمكه تكون بأحد أمرين، الأول: تقارب ذراته وجزيئاته، والثاني: سرعة التحرك فيه؛ فإن المتحرك في الماء يحس له صلابة أكثر من الواقف، وكلما كانت سرعته أكبر يحس له كثافة أكثر، وكذا السماء الخالية حتى من الهواء، إذا كانت السرعة خارقة جداً كانت لنجومها أو أشعتها كثافة ككثافة باب الدار تحتاج إلى الإزاحة والفتح، أو أنها تؤدي إلى تزايد حجم المتحرك تزايداً خيالياً.

وأودُّ هنا الإشارة إلى نكتة هامة وهي أن السماء بنحو ما ليست هي إلا كالأرض بذراتها ولكن صغر أحجامنا أرباباً نخلخلها وتباعد أجرامها.

وإلا فهي في واقعها مستمسكة صلبة كالأرض بالنسبة لساكنيها، وقد يكون هناك حياة على ذرة من ذرات الأرض أو الكتلون من الكتلوناتها كحياتنا يرون الأرض سماءً وذراتها متفارقة، ويكون للالكتلون تنوع كتتنوع مكونات الأرض والله على كل شيء قدير، دلّني على ذلك تشابه النظام الكوني، وقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح: «وأتقن صنع الفلك الدوّار في مقادير تبرّجه»^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^(٢).

وأخيراً فإن عنوان راكب البراق معدود من أسمائه عليه السلام في غير واحد من الكتب^(٣).

٣٥٩. راكب الجمل

(١) البحار ٨٤: ٣٣٩.

(٢) الرحمن: ٣٧.

(٣) الشفاء للقاضي عياض ١: ٢٣٤، البحار ١٦: ١٣٠، نظم درر السمطين: ٣٧، سبل

لا شك أن طول الزمان وتماذي الأيام يحق الخصوصية، ويغير معالم الأشياء، ويزيل العلائم.

وعندها يريد الله ﷻ على لسان النبي موسى ﷺ أن يرسخ في الأذهان بواسطة معاني كلية معالم الإمبراطوريتين النبويتين اللتين تليان الإمبراطورية اليهودية معرضاً عن الخصوصية الجزئية التي مصيرها الضياع والتحريف لا محالة.

فاستخدم أبداع تصوير يعكس حدود ومعالم الإمبراطوريتين وموطنهما وطبائع سكانهما، فقد جاء في التوراة: رأيت راكبين أضاء لهما الأرض أحدهما على حمار والآخر على جمل^(١).

ولا شك أن الراكب الأول هو عيسى بن مريم الذي كان يركب الحمار، ويسكن في بلاد يغلب فيها ذلك، مما يصعب إنكاره وتكذيبه.

والراكب الآخر يجب أن يكون في بلاد يغلب فيها ركوب الجمال، وهو مما يعني انتقال مركز النبوة من فلسطين وبيت المقدس إلى أرض قاحلة يصعب اجتيازها إلا بركوب الجمال التي هي سفن الصحراء ومحاملها، وذلك لصعوبة تصديق اليهود بانتقال النبوة عن بيت المقدس لولا هذا التعبير الواضح الصريح الذي يتخلف في الأذهان لكليته وتمثله بصقع كبير من الأرض في أذهان أناس ذلك الزمان.

وهو يشبه التعبير عن قارة أفريقيا اليوم مثلاً، فإن الإنسان قد ينسى أسماء دول القارة أو لا يعرفها وتضمحل في ذهنه، ولكنه لا ينسى نفس القارة لسعتها وشموها، فكذا التعبير براكب الجمل الذي يمثل نصف الأرض المتصورة آنذاك، إذ أنها إما قروية ومدنية يغلب فيها ركوب الحمار، أو صحراوية يغلب فيها ركوب الجمل.

وعلى هذا الأساس ترك كثير من اليهود فلسطين واستوطنوا أطراف المدينة، انتظاراً لخاتمة الرسالات.

وبناءً على ذلك لما ذكر في التوراة صفات النبي ﷺ قال: راكب الجمل، أكل الذراع، قابل الهدية، محرم الميتة، حامل المراوة، خاتم النبوة^(١).

وفي كتاب شعيا ﷺ قال: يا قوم رأيت صورة راكب الحمار لا بساً جلابيب النور، ورأيت راكب البعير ضوؤه مثل ضوء القمر^(٢).

وفي ذلك يسأل الإمام الرضا ﷺ الجاثليق ورأس الجالوت في مناظرة قائلاً: «فمن راكب الحمار، ومن راكب الجمل؟» قال رأس الجالوت: لا أعرفهما، فخبّرني بهما، قال: «أما راكب الحمار فعيسى، وأما راكب الجمل فمحمد ﷺ»^(٣).

٣٦٠. رَجُلُ الشَّعْرِ

اختلفت تعابير الروايات في صفة شعر رسول الله ﷺ، وألفاظها

كالآتي:

١. قَطَطُ الشَّعْرِ^(٤)، وهو القصير الجعد.
٢. سَبَطُ الشَّعْرِ^(٥)، وهو المسترسل الذي لا تكسر فيه.
٣. رَجُلُ الشَّعْرِ^(٦)، ومعناه أن في شعره تكسراً وتعقفاً.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٤، البحار ١٦: ١٠٧.

(٢) البحار ١٦: ١٦٢ ح ٣.

(٣) الاحتجاج: ٢٩، توحيد الصدوق: ٤٣٧، عيون أخبار الرضا ﷺ: ٩١، البحار ١٤:

١٦٣.

(٤) البحار ١٦: ١٤٦ ح ٢.

(٥) البحار ١٦: ١٤٧ ح ٣، وص ١٨١ ح ٢٠.

ويبدو أن الجميع صحيح على ظاهر تناقضها، فإن الشعر السبط المسترسل له مراتب، وفي بعض مراتبه لا يخلو عن بعض تكسر وتعقف.

وكذا الشعر الققط فهو مراتب أيضاً قد يكون بعض مراتبه لا يخلو عن الاسترسال، وإنما يختلف التعبير عن ذلك من بلد إلى بلد، ومن صقع إلى صقع، وهو تابع لبرودة الجو وحرارته، فيغلب في المناطق الحارة جعودة الشعر، بينما يغلب في المناطق الباردة السبط، فلو كان في شعر أحد سكان المناطق الباردة قليل تكسر سمي ققطاً، ولذا تجد التعبير عن شعر الرسول ﷺ بالققط إنما جاء في وصف الإمام الحسن عليه السلام رسول الله ﷺ لملك الروم، حيث لاحظ فيه اصطلاحهم والغالب في استعمالهم بملاحظة غلبة الاسترسال في بلدتهم المعتدل البارد.

وتكرر لفظ السبط في لسان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس وأبي هريرة، وجابر بن سمرة وهند بن أبي هالة، فإن التعبير جاء على ما هو مألوف في الجزيرة الصحراوية الحارة.

ومن هنا إذا دقق الواصف في شعره عليه السلام ولاحظ جميع الاعتبارات واللمحظات، قال إنه ليس بسبط ولا ققط، وإنما هو رَجِل الشعر كما جاء في الرواية الثالثة، يعني أن الغالب فيه الاسترسال مع وجود قليل تكسر وتعقف.

ولهذا كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا نعت النبي ﷺ بالدقة، قال: «لم يك بالجدد الققط، ولا السبط، كان جعداً رجلاً»^(١).

وقال أنس بن مالك ينعى النبي ﷺ: رَجِل الشعر ليس بالسبط ولا

(١) البحار ١٦: ١٤٩ ح ٤، و ص ١٥٥، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٧٦، ١٧٨، عن

هند بن أبي هالة، معاني الأخبار: ٣٠، ٣٢.

(٢) البحار ١٦: ١٩٤ ح ٣٣.

الجدد القطط^(١).

على أننا ينبغي أن لا ننسى شدة عناية النبي ﷺ بشعره والتوصية بذلك، حتى قيل إنه أرجل الناس حمة كما تقدم، مما موه على الواصفين فعبروا بالسبط على الإطلاق، والصحيح أنه رجل الشعر كما جاء في تعبير الأكثر.

٣٦١. رحب الراحة

لا يليق بالقائد العام أن يكون صغير الكف، أو يكون له كف ككف المرأة في الظرافة ورشاقة الأنامل، بل يستحب له أن يكون رحب الراحة، والرحابة هي السعة بحيث تملأ كفه وراحته راحة من يضافه، فيتحسس أنه صافح عظيمًا مهابًا.

والمقصود هو عدم الخروج عن حد الاعتدال؛ لما تقدم من اعتدال بدن النبي ﷺ بجميع أعضائه، غير أن العرب لما كانوا مقحطين يفتانون القت وهم يقاسون ضراوة الصحراء، ويعيشون أجواءها القاسية، ولا يعرفون مقومات الصحة العامة كانوا نحافاً صغيري الأجسام، ومن جملتها الكف، ولأجل ذلك يعدون معتدل الراحة كبيرها، ويتمنون ذلك، ويحقرن صغير اليد حتى قال قائلهم:

فناطوا من الكذاب كفاً صغيرة وليس عليهم قتله بكبير^(٢)

وناطوا معناه علقوا، أي قتلوه وقطعوا يده الصغيرة وعلقوها.

كما ويحتمل إرادة الكناية والتعبير برحابة الراحة عن كثرة العطاء، فيكون معنى رحب الراحة هو كثير العطاء، كما قالوا ضيق الباع في الذم.

(١) مسند أحمد ٣: ٢٤٠.

(٢) انظر معاني الأخبار: ٣٠، ٣٢.

ومهما يكن من ذلك فقد ذكر هند أبي هالة الوصاف للنبي ﷺ أنه ﷺ
كان رحب الراحة^(١).

٣٦٢. رحمة العالمين

سكن الأرض قبل الإنسان مخلوقات تسمى بالنسناس وكانوا هم
والجن يعبثون في الأرض ويفسدون ويسفكون الدماء، ولما أراد الله أن يخلق
خلقاً بيده وذلك بعد ما مضى للجن والنسناس في الأرض سبعة آلاف
سنة، كشط عن أطباق السماوات ثم قال للملائكة: انظروا إلى أهل
الأرض من خلقي من الجن والنسناس، فلما رأوا ما يعملون فيها من
المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق، عظم ذلك عليهم
وغضبوا لله وأسفوا على أهل الأرض وقالوا: يا رب أنت العزيز القادر
الجبار القاهر العظيم الشأن وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك
يتقلبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك وهم يعصونك
بمثل هذه الذنوب العظام لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع
منهم وترى وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك.

فلما سمع ذلك من الملائكة قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

فقال الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

كالنسناس؟ قال الله ﷻ: يا ملائكتي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إني

أريد أن أخلق خلقاً بيدي أجعل من ذريته أنبياء مرسلين وعباداً صالحين،

وأئمة مهتدين، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهون عن معاصي،

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ: ١٧٦، ١٧٨، وفي طبعة أخرى ج ٢: ٢٨٣، البحار ١٦: ١٤٩،

وانظر المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ١٥٦، ونظم درر السمطين للحنفي: ٦٤.

وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأبين النسناس من أرضي فأطهرها منهم^(١).

وليس ذلك مجرد خطاب ومحاوره وكلام، وإنما ذلك واقع عملي رآه الملائكة، فإذا بقي من بين أفراد الإنسان على الطهارة، واحتفظوا بمقامات الحياة، ولم يطبقوا على إشاعة الفساد، وإدامة سفك الدماء، ويظل على الدوام بينهم فئة ظاهرة على الحق، ولا يتمادى سائر البشر برمته في طغيانه حتى يستحق الإهلاك والإبادة، فإن ذلك بفضل الرسل المرسله والأنبياء المبعوثين مبشرين ومنذرين، نعم تضل أمة أو طائفة، ويفسد أهل صقع فيهلك الله ﷻ أهل ذلك الصقع بصاعقة أو زلزال أو سيل أو غيره.

ولاشك أن أي أمة وأي قوم إذا رأيتهم يتركون المداومة على سفك الدماء ولم يطلقوا عنان الأنفس الأماره كل الإطلاق، واحتفظوا ببعض الرحمة والرفاهة على الضعفاء فليس ذلك إلا لرسوخ بعض تعاليم الأنبياء في الأذهان، وتخلف بقايا رهبة إنذاراتهم في القلوب، وبذلك أفلتوا عن سخط جبار السماوات، والخطر المحيط بهم وعدم إصابتهم بما أصاب النسناس وغيرهم، كجرم سماوي يضرب الأرض فيهلك جميع من عليها، أو تصطدم بمذنب هائل فتفتنى.

ومن ذلك وأمثاله يعلم أن الأنبياء رحمة لأممهم، ورحمة للناس.

ولكن الرسول المصطفى ﷺ هو رحمة للعالمين، فله حق الحياة على جميع البشر، إذ كان هو الهدف من خلقة الأفلاك، وباسمه نجت البشرية من الهلاك والانقراض، فلما أغرق الله العالم وسارت سفينة نوح بنفر يسير في موج كالجبال كتب نوح على لوحة: إلهي ساعدني فإنني محتاج لمساعدتك بحق محمد وإيليا وفاتيما وشبر وشبير، تم العثور عليها واستخرجت من بقايا

(١) العلل ١: ١٠٥، البحار ٦٠: ٨٢ ح ٣٨، الجواهر السنية: ٣١٨.

سفينة نوح وهي محفوظة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو.
وكذلك لما تاب آدم وتلقى كلمات - وهي أسماء الخمسة - ولولاها لما
تمكن من العيش على الأرض، وكذا سائر الأنبياء.

فإذا كان هو الهدف من الخلق، فبقاؤه من أجله أولى، فإن الله سبحانه
يريد من البشر أن يستقل بالقيام بحفظ الأمانة، ويعم الدين الحق وعبادة
الله الأحد جميع الأرض، ولا يتم ذلك إلا ببعثة خاتم الرسل، وحفظ نوع
الإنسان إلى زمان وجوده، ليرث الأرض عباد الله الصالحون.

كان هذا نموذج فقط ومثال واحد لتقريب معنى قول رسول الله ﷺ:
«إنَّ الله ﷻ بعثني رحمة للعالمين، ولأحق المعازف والمزامير»^(١).

وقال ابن شهر آشوب: القابه ﷺ حبيب الله، صفي الله، نعمة الله...
خاتم النبيين، رسول الحمادين، رحمة العالمين^(٢).

٣٦٣. رحمة للعالمين

كان فيما وعظ الله تبارك وتعالى به عيسى بن مريم أن قال له: يا
عيسى أنا ربك ورب آبائك... ثم إنني أوصيك يا ابن مريم البتول بسيد
المرسلين... فإنه رحمة للعالمين... يكون في آخر الزمان إذا خرج أرخت
السماء عزاليها، وأخرجت الأرض زهرتها حتى يروا البركة، وأبارك فيما
وضع يده عليه^(٣).

فقد أوعزت هذه الرواية وأمثالها إلى أن ما أصاب الناس من الشراء
والتقدم العلمي واستخراج معادن الأرض، وازدهارها معلول لبعثة النبي ﷺ.

(١) الكافي ٦: ٣٩٦ ح ١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، البحار ١٦: ١٠٤، وانظر سبل الهدى والرشاد ١:
٤٦٤.

(٣) الكافي ٨: ١٣٩، أمالي الصدوق: ٦١١، البحار ١٤: ٢٩٦.

ولا ترديد في حصول التغيير والتبدل في حال العرب وغيرهم ممن خضعوا للحكم الإسلامي، وانتعاش الحياة المدنية، حتى استغنى الناس وحصل تقدم علمي ملحوظ.

وأما إسناد جميع التقدم العلمي وازدهار اقتصاد البشر، واستخراج المعادن والبتروول وغيره، فلا يمكن إنكار تأثير توصيات النبي ﷺ في كل تقدم علمي بعد إصراره وإخلاجه على طلب العلم، والتغرب في طلبه قائلاً: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^(١) و«اطلب العلم ولو في الصين»^(٢) وغيرهما من التأكيدات التي تبلغ حد الإيجاب، مما تولد على أثره كثير من العلوم وتمّ تدوينها، وحصلت مجموعة من الاكتشافات.

ولا بعد في كل ذلك وأمثاله بعد قول علي رضي الله عنه حينما وقف على الماء فقال: «لو شئت لأخرجت لكم منه نوراً»، وقول الرسول ﷺ: «ستخرج نار من شرقي الحجاز تضيئ لها أعناق الإبل ببصرى»^(٣)، وما جاء في القرآن: ﴿بِمَا نَفْسَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾^(٤) وغير ذلك من العلوم الهائلة في كل مجال تكفي في أن تقدح أفكاراً مستجدة في أذهان البشر.

هذا كله إلى جانب القوانين التي سنّها ﷺ، والأخلاق الرفيعة التي أدب الناس عليها، وأحكم أواصر المجتمعات المتفككة، وغير ذلك من توصياته لوفود الجن واستفادتهم الكلية منه بتحريم الاستنجاء بالعظم والنهي عن إنهاكه ليكون طعاماً لهم.

(١) بصائر الدرجات: ٢٢، الكافي ١: ٣٠ ح ١، ٤، الوسائل ٢٧: ٢٦ ح ٢٢١١٥.

(٢) كشف الخفاء ٢: ٤٤.

(٣) المصنف لعبد الرزاق ١١: ٣٢٦ ح ٢٠٧٨٧.

(٤) الرحمن: ٣٣.

فلا يكون الرسول ﷺ إلا كما قال الله ﷻ في كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) وكما قال الرسول ﷺ نفسه: «إن الله بعثني رحمة للعالمين»^(٢).

٣٦٤. الرحمة المهداة

الرسول المصطفى ﷺ هو رحمة للمؤمن والكافر، فقد تقدّم أن الخير والتقدّم والثراء الذي أصاب عامة الناس كان من آثار بعثته وإن لم يحصل العلم بذلك، أو لا تعلم كيفيته.

وهو رحمة للمؤمنين لأنه جاء لهدايتهم إلى الإيمان، وكذا هو رحمة للكافر من هذه الجهة؛ لأنه عرضة للإيمان والثواب الدائم، وهداه وإن لم يهتد فهو ﷺ كمن قدّم طعماً إلى جائع فلم يأكل؛ فإنه منعم عليه وإن لم يقبل.

وأما كونه ﷺ رحمة مهداة، فهو من الخلق النوري المجرد الذي لا يناسبه محل سوى قدام عرش الإله، حاله حال جميع الذين لا يذنبون من الملائكة المقربين، بل أعلى من الملائكة، فهو من العالين الذين اختاروا الطاعة، ولم يخلقوا مطيعين.

فلا تعود ظروف الأرض الدانية مناسبة لمثل هذا الموجود، بل الإنسان بأجمعه كذلك غير أن الخطيئة هي التي أخرجه من النعيم وأهبطته إلى الأرض، فيبقى أن اغل الطبيعي للرسول ﷺ هو الجنة أو أعلى من ذلك، وإنما بعثه الله سبحانه واضطره للهبوط إلى الأرض بهدف هداية الناس، فهو هدية الله في الواقع لعباده، وليس هو أرضي هدى الناس، بل هو سماوي أهدي إلى أهل الأرض ليستنقذهم من العذاب الأليم، الذي

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) مسند أحمد ٥: ٢٦٨.

ينتظر الكافرين والمشركين وأصحاب الكبائر.

ولما كان هذا الأمر مما يعسر فهمه على العامة، كان النبي ﷺ ينادي على الدوام: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»^(١).

فهو يريد القول إن وجودي بينكم ليس أمراً طبيعياً، وليس هذا مكاني، وإنما مكاني وظرفي هو المحل الذي نُقلتُ منه إليكم، وإنما نقلني الله ﷻ تفضلاً ورحمة على العباد، كما أن الهدية لا تنتقل اضطراراً ولا بالمعاوضة بحيث يعطي المهدي شيئاً ليأخذ شيئاً آخر، وإنما يعطيه المعطي تفضلاً وتبرعاً، ناقلاً لما أعطى عن ملكه الذي هو المحل الطبيعي له.

٣٦٥. الرحيم

الرحيم هو دائم الرحمة، والرحمة هي الرقة والإحسان، وإنما دوامها بعدم محدوديتها بالقدرة والتمكن، فإن من يرق قلبه لحال ضعيف أو مريض أو محتاج فيحسن إليه وهو قادر، فإنه يمتلك صفة الرحمة فحسب، ولا يكون رحيماً بالصفة المشبهة إلا إذا استمرت به هذه الصفة لتشمل حال عدم القدرة ونفاد ما في يده، فإنك تجده في هذا الحال يتلهف لمساعدة الضعيف، ويقرع كل باب من أجل إغاثته، ويحاول بكل جهد قضاء حاجته، ويتأسف إذا لم يقدر على ذلك، ويتألم إذا عجز عنه، فيكون قد أسعفه بتهوين آلامه لما يشاهد الضعيف تألم الطرف المقابل لأجله، وسعيه الجاد في إسعافه.

فقد روي عن الصادق عليه السلام قال: «علم الله جل اسمه نبيه ﷺ كيف ينفق، وذلك أنه كانت عنده أوقية من الذهب فكره أن تبيت عنده فتصدق بها، فأصبح وليس عنده شيء، وجلاه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل، واغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان رحيماً رقيقاً ﷺ، فأدب

(١) سنن الدارمي ١: ٩، وانظر البحار ١٦: ١١٥، مستدرک الحاكم ١: ٣٥.

الله ﷻ نبيه ﷺ بأمره فقال له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(١) يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، وإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال^(٢).

وجاء إلى النبي ﷺ سائل يسأله، فقال رسول الله ﷺ: «هل من أحد عنده سلف؟» فقام رجل من الأنصار من بني الجبلى فقال: عندي يا رسول الله، قال: «فأعط هذا السائل أربعة أوساق تمر» فأعطاه.

ثم جاء الأنصاري بعد إلى النبي ﷺ يتقاضاه فقال له: «يكون إن شاء الله» ثم عاد إليه، فقال: «يكون إن شاء الله» ثم عاد إليه الثالثة فقال: «يكون إن شاء الله» فقال: قد أكثرت يا رسول الله من قول يكون إن شاء الله، قال: فضحك رسول الله وقال: «هل من رجل عنده سلف؟» قال: فقام رجل فقال له: عندي يا رسول الله، قال: «وكم عندك؟» قال: ماشئت، قال: «فأعط هذا ثمانية أوسق من تمر» فقال الأنصاري: إنما لي أربعة يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «وأربعة أيضاً»^(٣).

فيكون الرسول ﷺ قد رقّ قلبه على السائل الأول بحيث احتمل كل هذه المصاعب التي أعقبته من مخفضة الاستسلاف وتعريض الأنصاري، وإعطاء أربعة أوساق زائدة، وليس ذلك إلا لأنه لم يحتمل ترك السائل الأول وفاقته، فرفعها مستقبلاً لكل العواقب.

ولا يكون الرحيم رحيماً إلا إذا كانت رحمته متعددة الجوانب، كرحمته بالأطفال وعطفه عليهم وتالله لبكائهم.

(١) الاسراء: ٢٩

(٢) حلية الأبرار للبحراني ١: ٢٩٠.

(٣) قرب الإسناد: ٩٤، البحار ١٦: ٢١٨ ح ٧.

وصلى النبي ﷺ ذات يوم فخفف الركعتين الأخيرتين فسأله الأصحاب: أحدث في الصلاة شيء؟ فقال لهم: «أما سمعتم صراخ الصبي؟!»^(١) إذ كانت أمه معهم في الصلاة فخفف الصلاة رحمة بالطفل ورحمة بأمه.

وقال ﷺ: «إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فاتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»^(٢).

وكان ﷺ دأبه تقبيل الأطفال وكان يأمر بذلك في مجتمع لم يفعلوا ذلك بل يستنكرونه، حتى أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يرحم لا يرحم»^(٣).

وقدّم ناساً من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكننا والله ما نقبل، قال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»^(٤).

وخرج رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي وهو حامل حسناً أو حسيناً، فتقدم النبي ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهرائي الصلاة سجدة أطاها، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهرائي الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك! قال: «كلّ لم يكن، ولكن ابني هذا ارتحلني

(١) الكافي ٦: ٤٨ ح ٤.

(٢) حلية الأبرار ١: ٣٢٧، صفة الصفوة ١: ١٧١، صحيح البخاري ١: ١٨١، صحيح

مسلم ١: ٣٤٣ ح ١٩٢، مسند أحمد ٥: ٣٠٥.

(٣) روضة الواعظين: ٣٦٩، الوسائل ٢١: ٤٨٥ ح ٢٧٦٥٧.

(٤) صحيح مسلم ٧: ٧٧، سنن ابن ماجه ٢: ١٢٠٩ ح ٣٦٦٥.

فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»^(١)

وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يسميه، فيأخذه فيضعه في حجره تكريماً لأهله، فربما بال الصبي عليه، فيصيح بعض من رآه حين بال، فيقول ﷺ: «لا ترزموا بالصبي» فيدعه حتى يقضي بوله، ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته ويبلغ سرور أهله فيه، ولا يرون أنه يتأذى ببول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعد^(٢).

ودخل في بيت وطفل يبكي فقالوا: إنه أعلق عليه من العذرة، فقال: «علام تدغرن أولادكن، عليكم بهذا العود الهندي»^(٣).

ودخل بعض بيوته فامتلاً البيت، ودخل جرير فقعد خارج البيت، فأبصره النبي ﷺ فأخذ ثوبه فلفه فرمى به إليه، وقال: «اجلس على هذا» فوضعه على وجهه فقبله^(٤).

ومن رحمته ﷺ أنه كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، وإذا خرج مع الناس مشى في أخرياتهم يزجي الضعيف، ويعطف على المنكسر والمنقطع به.

ومن رحمته بكاؤه على ابنه إبراهيم والقاسم، فكانت دموعه تفيض رحمة لا سخطاً، كما بكى على الحسين عليه السلام لما أخبر أنه سيقتل شهيداً عطشاناً.

(١) علل الشرائع ١: ١٧٤، معاني الأخبار: ٣٥١، مسند أحمد ٣: ٤٩٤، وج ٦: ٤٦٧،

سنن النسائي ٢: ٢٣٠.

(٢) البحار ١٦: ٢٤٠.

(٣) مسند أحمد ٦: ٣٥٥، ٣٥٦.

(٤) البحار ١٦: ٢٣٥.

ومن رحمته أنه كان يحرص على سعادة الأمة ويشفق عليها من أن تضل فتدخل النار وتستحق عذاب الله سبحانه، فكان يدعو لهم ويصرّ على ذلك ويكرر قول أمي أمي رحمة بهم، وتَرَكَ دعوته المستجابة للشفاعة لهم يوم القيامة.

وبلغ من رحمته أن يهوديةً دَسَّتْ له السم في ذراع شاة لما سمعت أنه يحب الذراع، وأهدتها إليه فعرف ذلك، ولكنه عفا عنها عندما اعتذرت وما زال يصيبه ألم ذلك حتى توفي متأثراً به، وهو غاية الرحمة والشفقة.

وهناك امتياز لرحمة النبي ﷺ وشفقته على رحمة سائر الناس، بيد أن الرحمة عادةً تُؤخذ وتُعطى، فمن يستوفي المقدار الكافي من الحنان والرحمة من أبويه، يتمكن من أن يبذل شيئاً مما استوفاه، ألا ترى أنّ القنلة والقنساء ومرتكبي الجرائم لم يستوفوا مقداراً كافياً من الرحمة بتمزق العائلة، أو فقدانها، فهم عادةً من أبناء الشوارع ودور الحضانة وأولاد الزنا وأمثالهم، بينما يحضى أبناء العوائل المتماسكة بأخلاق وعطف وحنان أكثر من سواهم. والرسول ﷺ يمتلك أعلى مرتبة من الرحمة والعطف وهو لم يستوف شيئاً منها بحسب الظاهر، فإنه ولد يتيماً الأب، ونشأ يتيماً الأبوين، تتناقله أيادي القدر من كافلٍ إلى كافلٍ، ومن حجرٍ إلى حجرٍ.

فليس ذلك إلا لأنه استوفى كامل الرحمة من أرحم الراحمين، فربه أدبه، وهو الذي أعطاه من الحنان والرحمة ما لا نهاية له، إذ هو حبيبه وأنيس وحدته، وسكون وحشته والمهون عليه آلامه، حتى شرح له صدره فقال تعالى: ﴿الْكَرَّ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(١) وأدبه فقال له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) ﴿وَإِخْفِضْ جَتَاكَ لِمَنْ أَتَبَعَكَ مِنْ

(١) الانشراح: ١.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

المؤمنين»^(١) وهون عليه بقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٢)، وترفق عليه بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(٣) وبلغ الذروة إذ قال له: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾^(٤).

ولم يكن ذلك للنبي ﷺ اضطراراً حتى يفقد قيمته، بل اختياراً، فهو الذي اختار القرب من الله تعالى، حتى اعتزل الناس يناجيه في الغار ويتعبه ويدعوه ويتوسل إليه، فأحبه الله سبحانه وانتجبه ومنحه ما منحه من الرحمة والحنان والعطف وأدبه أحسن تأديب، ولهذا قال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٥) إذ نسب الرحمة إليه وجعلها من فعله.

ولما اعتدنا فتق الأبيكار، والتصريح بما كنى به العلماء، نقول هنا: إنّ الرحمة لها قدر معلوم كالأموال، تؤخذ بقدر وتعطى بقدر لا يزيد على القدر المأخوذ، ويمكن أن تقل وتتناقص إذا أصيبت بأفات، فلا ينتظر الأب الرحمة من أولاده إذا لم يمنحهم إياها، ومن ناحية أخرى فالرحمة بين الناس تتناقص وتقل لكثرة آفاتها وسرعة تنامي حب الذات حتى إذا جاء نبي واستوفى من الرحمة الإلهية ومنح الناس منها تزايدت بينهم ثم تبدأ لتتناقص إذا توفي وابتعد زمانه، حتى إذا كان أواخر عصر الجاهلية بلغ

(١) الشعراء: ٢١٥.

(٢) النحل: ١٢٧.

(٣) الكهف: ٦.

(٤) طه: ٢-١.

(٥) التوبة: ١٢٨.

الناس من القسوة ما هو غاية، وسلبت منهم الرحمة بالمرء وأدوا البنات وسفكوا الدماء، حتى إذا جاء الرسول ﷺ وأنفق عليهم مما أنفق الله سبحانه عليه من الرحمة تولدت العواطف، ونبت الحب والعطف والرحمة في القلوب، حتى أخذ القوي يعطف على الضعيف، وصار الغني ينفق على الفقير، على أن منشأ كل ذلك هو الرحمة الإلهية من يوم منحها آدم ﷺ ليمنحها أولاده، ويوقرها سائر الأنبياء بعد نفاذها.

٣٦٦. الرسول

لا شك أن هناك محفزات صنعت التاريخ كما هو عليه من تقلبات وتحولات كلية وجزئية.

فالطرف الأول لتلك المحفزات هي الأمور الخالدة في طبع الإنسان، والتي يكتسبها نتيجة لعوامل فسيولوجية، كإحساس الجوع والبرد التي تدفعه لأن يفكر في أن يشبع نفسه ويكسوها، وتكون هذه المحفزات فردية تسوقه باتجاه تحقيق متطلباتها.

وعندما لا يتحسس الإنسان جوع الآخرين لا يتحرك على أساس ذلك، ولا يطعم غيره، وكذا إذا أحس بالخطر فإنه يبادر بحفظ نفسه والنجاة بمفرده، وفي كل تلك الأحوال يرى أن انتزاع ما في أيدي الآخرين والتسلط عليهم مما يؤمن رغباته واحتياجاته.

نعم إن الطبيعة قد تفرض بعض الغرائز التي تخرج الإنسان من ذلك الحال، كالعلاقة الراهنة بين الأم والولد إذا لم تفسر بدوافع شخصية ومحفزات فردية أيضاً.

وكذلك حصول التشكل القبلي أو المحلي أو القومي إذا عجز الإنسان أن يعيش بمفرده لضعفه وقصوره عن الحصول على مستلزمات الحياة من دون ذلك، فإن هذه التشكلات وإن أخذت طابع الجمع إلا أن

الدوافع والمحفزات تظل فردية نابعة من تلك الاحساسات الفسيولوجية. ولو استغنى الإنسان عن التشكّل وتأمّنت احتياجاته صار يفقد تلك الأواصر، وعاد فرداً يخلد إلى التقوقع والجهل وحب الذات وحكومة المصالح الشخصية وكل ما تحمله نظرية المادية التاريخية في واقعها.

والطرف الآخر هو نمو العواطف باتجاه الآخرين وارتقاء الإنسان من إطار النفس ليفكر بأبناء نوعه ومجتمعه، وليتحسس بالأم الآخرين ومعاناتهم ليعطي فاضل طعامه لجائع آخر أو يشاطره ذلك، بل حتى قد يشبع غيره ويظل جائعاً ليتسامى ويمتلك روحاً مرفعة يمتاز بها عن سائر الحيوان، ويميل إلى التعلم والاتصاق مع الآخرين، حتى يبلغ التضحية والتفاني.

فهذا الجانب من ماكنة حركة التاريخ لا يعود إلى نفس الإنسان بمفرده وإن كان يمتلك بعض أدواته، غير أنه عجز في الساحة العملية بصورة حتمية، ليبرهن أن الحافز سماوي في الغالب؛ وذلك بتوسط الرسل. وبعبارة أشمل فإن الحافز وهو أعمال الرسل ومهامهم، وهم الماكنة التي حظيت بسهم كبير جداً في صناعة التاريخ، وقامت بتوجيه عجلته في مسيرها.

ويبقى تناوب شدّة السحب إلى أحد الطرفين المتعاكسين تابعاً للقرب والابتعاد عن الرسل طرفاً وروحاً، ولهذا نجد اشتداد نزوع الناس إلى الطرف الأول كلما ابتعدوا عن زمان الرسل ومراكز تبليغهم كما هو مشهود في الساحة المسيحية، ولا يشدّ عن الأذهان ولادة طرف ثالث من خضمّ ذلك التجاذب والصراع.

ولكن هناك استثناء واحد طرأ على تلك الحسابات، وهي الرسالة الخاتمة التي جاءت لتبقى وتزايد وتنمو وتعمل على توثيق أواصر

الارتباط مع السماء شيئاً فشيئاً، كل ذلك بفضل طبيعتها الناظرة بعينين، لتأخذ بنظر الاعتبار الحياة على الأرض في جانب، والحياة بعد الموت في جانب آخر.

وكذا بفضل المرسل بها الذي تمكن من زرع بذور تنبت في فترات متفاوتة لتبقى يانعة على الدوام، بل يتزايد نباتها ورشدها بمرور الأيام.

فأعقبها تحولات عملاقة في حياة البشر، وتطورات ملحوظة في شتى المجالات، حتى أن الانقلاب الصناعي والعلمي بشكل وبآخر مدين لتدبير النبي المكرم ﷺ، وإن لم تتضح معالم ذلك، ومكنت خافية في طيات العصور والكتمان.

وانطلاقاً من ذلك وأمثاله تعلم حقيقة الرسائل السماوية والدور الذي يؤديه الرسول بما هو رسول إلى الناس، كما صار واضحاً امتياز خاتمة الرسائل ومدى أهميتها، فيكون المرسل بها أجلى مصاديق كلمة الرسول وأعظمها.

ومن ناحية أخرى فقد ولع المسلمون بهذه الصفة - أعني الرسول - وشاع استعمالها حتى غلبت على سائر أسمائه بحيث صارت علماً له ﷺ، وعلى الأقل ينصرف إليه ﷺ إطلاقاً بغير تردد.

على أن بدء استعمالها كان هو دعوة إبراهيم عليه السلام حينما قال: ﴿رَبِّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢)

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

٣٦٧. رسول البلاء

البلاء هو الإنعام والإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾^(١) أي إنعام بين، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾^(٢).

ولما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار، فقال: «مؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال رجل: نعم يا رسول البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: «مؤمنون ورب الكعبة»^(٣).

أراد رسول الإحسان والإنعام، أرسله الله ﷻ حاملاً بشائر الخير والنعمة المترتبة على الإيمان بالله، والاعتقاد بدين الحق.

وقد سبق إطلاق مثل ذلك على الرسول في كتاب شعياً يصف النبي ﷺ قائلاً: نور الأمم، ركن المتواضعين، رسول التوبة، رسول البلاء^(٤).

ولما كان الغالب في كلمة البلاء معنى الاختبار والامتحان فمن المحتمل إرادة رسول الامتحان من قولهم: «رسول البلاء» وهو الذي يري طريق الخير والشر ليختار الإنسان ما شاء.

٣٦٨. رسول التوبة

لا أتصور نعمة هي أفضل من نعمة التوبة، إذ لولاها لانقطع الأمل والعمل واضمحلت بوادر الخير وأدى ذلك إلى فقدان الأمل بالكلية، وبالتالي إغلاق أبواب الجنان مما يجعلها موحشة مقفرة.

(١) اللخان: ٣٣.

(٢) الفجر: ١٥.

(٣) مسكن الفؤاد: ٤٨.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢.

وذلك أن كل إنسان إذا أذنب ذنباً واحداً في حياته، فإن من المتيقن أنه سيرتك عمل الخير، وتمادى في أعمال الشر في الساحة العملية أيما تهاد، وهو يقول: إذا غرقت فما أبالي بمقدار ما علاني من الماء، وأنا الغريق فما خوفي من البلل.

ومن جانب آخر فإن الإنسان إذا أذنب ذنباً واحداً فعلم أنه سيعاقب لا محالة ويخلد في النار، فإنه سيفقد الأمل بالكلية، مما سيسلبه الراحة ويتكدر عيشه، خصوصاً أولئك الذين يخافون الآخرة ويخشون يوماً تبلى فيه السرائر وتنكشف فيه الأسرار، ويحذرون من غضب الله سبحانه عليهم، غضبٌ يسعر ناراً لا تطاق.

وإذا لم تفتح أبواب التوبة ولم تُمهّد سبل الإنابة لم يدخل الجنة سوى المعصومين من الذنوب، وخلت الجنان وأقفرت، فكانت النار أكثر أنساً رغم عذابها، فإن الوحشة قاتلة.

ومهما يكن من أمر فإن الرسول المصطفى ﷺ جاء ليبيّن دعوته على أساس التوبة، بل لا يمكن أن نتصور أساساً غير ذلك الأساس، لأنه جاء في فترة يكاد يطبق الناس فيها على الكفر والشرك وفعل القبائح، فإذا تقرر أنّ المذنب لا يغفر له ما أسلم أحد، بل لا داعي للإسلام.

والظريف أن دعوة المصطفى ﷺ جاءت على خلاف ذلك الفرض تماماً، لما قال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»^(١) إذ جعل هذه الكلمات تكفيراً لكل الذنوب التي سبقتها، وهي توبة مقبولة من جميع الأخطاء وأنواع الظلم ثم تلاه بقوله ﷺ: «الإسلام يجب ما قبله»^(٢).

كما أفلحت تأكيدات القرآن والنبي ﷺ المتتالية في نفي توهم

(١) مناقب أبي طالب ١: ٥١، تاريخ البخاري ٤: ١٤.

(٢) عوالي اللئالي ٢: ٥٤ ح ١٤٥، مسند أحمد ٤: ١٩٩، الجامع الصغير ١: ١٢٣.

اختصاص التوبة والمغفرة بالذنوب السابقة على مجيء الإسلام، بل جعلت لتشمل الذنوب المرتكبة بعد بلوغ الرسالة وتمام الحجّة، خصوصاً بعد قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾^(٣).

وأما دور الرسول ﷺ والأسباب التي ميزته بأنه رسول التوبة فهي أمور: منها: تأكيد الرسالة التي حملها إلى البشر على التوبة وتكرّر الإشارة إليها بشكل واسع جداً بحيث لم تبلغه الشرائع السابقة، فإنهم سرعان ما كانوا يؤخذون بذنوبهم ويصبّ عليهم العذاب صباً: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾^(٤).

ومنها: جعل الرسول ﷺ بذاته أهم وسيلة للتوبة، المتمثل بقوله تعالى: ﴿وَكُذِّبُوا أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾^(٥).

ومنها: وهو أهم من جميع ما سبق امتلاك الرسول ﷺ لعامل التوبة، وهو المعروف بمقام الشفاعة والدعوات المستجابة المفعولة لكل نبي التي تركها نبينا ﷺ لشفاعة المذنبين، فلما جعل الله سبحانه لكل نبي دعوة مستجابة في أمور عظيمة استنزفها النبي نوح مثلاً حينما قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ

(١) نوح: ١٠.

(٢) الحجر: ٤٩.

(٣) النساء: ٤٨.

(٤) البقرة: ٢٨٦.

(٥) النساء: ٦٤.

رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١﴾ فجاءت هذه الدعوة بأمواج كالجبال من كل حدب وصوب، وأغرقت الأرض بما عليها.

واستنزفها النبي إبراهيم عليه السلام حينما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّرُ الْمَوْتَى﴾ ^(٢)، أو حينما قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مَنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّجَرَاتِ﴾ ^(٣) فجاءت هذه الدعوة بالشمرات من كل صقع.

وقال موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ^(٤) فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم وأغرق فرعون وقطع دابر الكافرين، وهكذا سائر الأنبياء استنزفوا تلك الدعوات بنحو من الأنحاء، والأغلب أنها كانت تختتم بالدعاء على أقوامهم بنزول العذاب المدمر.

بينما احتفظ الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم بتلك الدعوة لشفاعة المذنبين من أهل الكبائر فتكون شفاعته سبباً لغفران الذنوب ويتوب الله سبحانه عليهم.

وبهذا يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو كما قال: «جعلني - الله صلى الله عليه وسلم - رسول الرحمة، ورسول التوبة» ^(٥).

(١) نوح: ٢٦.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

(٣) إبراهيم: ٣٧.

(٤) يونس: ٨٨.

(٥) الخصال: ٤٢٥، مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، البحار ١٦: ١٠٤.

٣٦٩. رسول الحمادين

الحماد صيغة مبالغة من الحمد، ومعناها كثير الحمد، والمراد به حمد الله سبحانه والثناء عليه.

فالرسول المصطفى ﷺ هو رسول إلى الحمادين في الواقع، وإذا سمي رسول الحمادين فهو كما يسمى ﷺ نبي العرب أو رسول العرب، بمعنى أنه مبعوث في العرب، فرسول الحمادين معناه أنه مبعوث في أمة تكثر حمد الله سبحانه.

ويعدّ هذا الأمر امتيازاً لهذه الأمة وصفة مشخصة لها، على خلاف اليهود القائلين يد الله مغلولة.

وذلك لأنها تقف برمتها في كل بقاع الأرض لتحمد الله سبحانه في كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل وتقول: «الحمد لله» في كل ركعة من الصلوات المفروضة.

هذا حال العامة، وأما الخاصة فقلّ من لا يلتزم منهم بالحمد ثلاث وثلاثين مرة بعد كل صلاة ضمن التسبيحة المعروفة بتسبيحة الزهراء سلام الله عليها.

وأما خواص الخاصة ففيهم من لا يفتر عن ذكر الله تعالى وحمده وتسبيحه، بل إن في بعض البلاد الإسلامية إذا سألت شخصاً عن حاله قال: الحمد لله، وهو شائع.

وكذلك لا يقوم فيهم خطيباً إلا حمد الله في أول خطبته وآخرها، وما كتب كاتب كتاباً إلا بدأ بذلك وختم به.

وأظرف من كل ذلك عندما يشتد على بعض المؤمنين البلاء، وتضيق عليه الأرض وتحمرّ النواظر إذا سألته في هذا الحال تبسّم ابتسامة ألم وقال: الحمد لله.

فهل بعد كل ذلك يحصل أي ترديد فيما أورده ابن شهر آشوب من
اللقاب النبي ﷺ وقال: خاتم النبيين، رسول الحمادين، رحمة للعالمين^(١)؟

٣٧٠. رسول الراحة

المعروف أن المؤمن مبتلى، وكلما زاد إيمانه زاد ابتلاؤه وكثرت
أسقامه وآلامه، وأن أشد الناس بلاءاً هم الأنبياء والأوصياء والمؤمنون
الأمثل فالأمثل، وجاء في بعض الأخبار: «وهل كتب البلاء إلا على المؤمن»
وفي الحديث القدسي: «إني أوصيت إلى الدنيا أن مرّري وضّيقي وكثّري
على المؤمن حتى يشتاق إلى لقائي».

ومع كل ذلك كيف يمكن فرض الرسول ﷺ بأنه رسول الراحة ؟
فهذا ما يحتاج إلى التفسير والبيان.

وعندما راجعنا كتب اللغة وجدنا أن أحد معاني الراحة هو الالتذاد
بالشيء المسبوق بالشهوة إليه، وذلك أن العطشان إذا اشتهى الشرب ولم
يشرب ملياً ثم شرب سميت لذته بالشرب راحة، وإذا شرب في أول أوقات
العطش لم يسم بذلك.

والمعنى الآخر للراحة هو ضد التعب من الاستراحة، والمعنى الثالث
الخفة تقول وجدت لذلك الأمر راحة أي خفة^(٢).

فينبغي تفسير الراحة في قولنا: «رسول الراحة» بالخفة، فإن أدنى
مقايسة بين هذه الشريعة والشرائع السابقة يوصلنا إلى أنّ الإسلام هو
الشريعة السمحة السهلة؛ إذ كان بنو إسرائيل إذا أصابتهم النجاسة
قرضوا جلودهم بالمقاريض، والنصارى فرضت عليهم الرهينة، بينما وسّع

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، وعنه في البحار ١٦: ١٠٤.

(٢) انظر الفروق اللغوية للعسكري: ٢٤٦، ولسان العرب ٢: ٤٦١.

١٤٠.....أسماء الرسول المصطفى ﷺ

الله سبحانه على هذه الأمة أن جعل الماء طهوراً والأرض كلها مسجداً، ورفع عنها الأصار التي وضعت على غيرها من الأمم.

قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالشرعية السمحة»^(١) فكانت هذه الشرعية خفة ومرونة أكثر من غيرها.

وإذا فسّرنا الراحة بمعنى اللذة فلا يشذ ذلك الوصف ولا يستهجن، بيد أن الشريعة الإسلامية رغم وجود بعض التعقيدات فيها للناظر من بعيد، ولكن المتحل لها يجد فيها لذائذ لم يحصل عليها في موارد أخرى، كلذة النجاة، وطمأنينة ذكر الله سبحانه، وتهوين المصاب لأنه بعين الله ﷻ، ومعاناة حياة هادئة تصب مصاعبها ومساعبها في طريق حياة هائلة وسعيدة في الآخرة.

وإذا فسّرنا الراحة بما يضاد التعب فيبدو ذلك الوصف معقولاً أيضاً لما أعقب بعثة الرسول من الرخاء وحصول الغنى وتوفر مستلزمات الحياة وانتشار العلم وحصول الاكتشافات وتوفر وسائل الراحة.

وأدق من ذلك المعنى وهو المقصود الحقيقي من وسائل الراحة هو تهوين الدنيا في أعين المسلمين والتحذير من التعلق بها، وتركيز فكرة رخص الدنيا وخستها ليزهد المؤمنون فيها وأن الزهد في الدنيا يورث الراحة، وكذا تنظيف القلوب من الحسد والحسرة والتأسي على ما فات كل ذلك من وسائل الراحة الحقيقية.

فلعل ما ذكرناه يعطي فكرة عما ورد عن الرسول ﷺ من قوله: «أنا رسول الرحمة، ورسول الراحة»^(٢).

(١) الحبل المتين: ٩٠، فتح القدير: ١: ٤٧١.

(٢) البحار: ١٦: ٩٤.

٣٧١. رسول رب العالمين

المرسل إنما يختار لرسالته بحسب أهميتها ومستلزماتها، فكلما كانت الرسالة أهم كان المختار لحملها أعظم شأنًا وأكثر قابلية.

وكذا مستلزمات حمل الرسالة فهي تابعة لما يتوقف عليه إبلاغها وكيفية أدائها، فإذا كان المرسل إليه بعيد الشقة نائي المكان أرسل بها من يمتلك قدرة على تحمّل عناء السفر وقطع المسافات الطويلة، واجتياز البيادي الوعرة، والصحاري المقفرة، ويجب أن يكون عارفاً بالطرق والمفاوز، متمكناً من الاستدلال بالنجوم والكواكب ممارساً للغدوّ والسرى^(١)، وإذا كان هناك استعجال في الإبلاغ بعث شديد العدو، أو الماهر في الركوب وغير ذلك.

وإذا كانت المهمة ثقافية وكان الإبلاغ شفاهياً بيانياً بعث ذلق اللسان متفتح الذهن عالماً بأساليب الكلام عارفاً بلغة المبعوث إليهم، ثم إذا احتاج إبلاغ الرسالة إلى حنكة وتدبير يبعث من يمتلك وسائلهما.

وهكذا تستمر قائمة الشروط التي يجب أن يتحلّى بها حامل الرسالة لتبلغ أكبر مهمة في امتداد عمر البشر، وهي رسالة الله سبحانه إلى جميع خلقه على أن تكون هي الرسالة الخاتمة التي أريد لها البقاء بحيث تتماشى مع كل الظروف وتعايش مختلف الأجواء، وتتلائم مع كل تقدّم علمي، وقد قدّر لها البقاء واستقلال البشر بها والقيام بأعبائها حتى بعد غياب الرسول والهادي، ولتكون هي الحاكمة على جميع الأرض في نهاية المطاف، فمن الواضح أنه لا يتيسر ولا يمكن حصر الشروط التي يجب أن تتوفر في الحامل لها، والملكات والقدرات التي يمتلكها، ولا يمكننا أن نقول أكثر من إنه خير البشر ورسول رب العالمين.

(١) الغدوّ: المشي في الغداة، والسرى: المشي في المساء.

ومن ناحية أخرى فإن حال الرسول أيضاً يتبع حال المرسل، فرسول التاجر ليس كرسول الوزير، ولا رسول الوزير كرسول الملك، ولا يقاس جميع ذلك برسول رب العالمين، فإنه يتميز على من عداه بمميزات لا تخصه، ويجب أن يكون له صفات يمكن معرفته من خلالها بأدنى ملاحظة لكثرتها وتشخصها، ولذلك لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش أشرفوا في بعض الطريق على راهب فلما رآهم جعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: «هذا رسول رب العالمين»^(١) عرفه بما وجده في الكتب السابقة من الصفات التي يجب أن تتوفر في حامل أهم الرسائل السماوية.

ويؤيد جميع ما ذكرناه قول رسول الله ﷺ: «أنا رسول رب العالمين»^(٢) أي ليس شأني شأن رسول تاجر أو وزير أو ملك بل أنا رسول رب العالمين.

٣٧٢. رسول رحمة الله

يختلف حال الرسل باختلاف مهماتهم، فرسول الحرب رسول نقمة، ورسول الصلح والسلام رسول رحمة، ورسول الله سبحانه لا يكون إلا رسول رحمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة.

وحقيقة ذلك أن الجامع لأهداف البعثة هو هداية الناس وإرشادهم وبيان ما يسخط الله سبحانه وما يجلب رضاه، وكذا ما ينفع الناس وما يضرهم، وليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويعلمهم مكارم الأخلاق، واحترام بعضهم بعضاً ليسود الصلح والسلام والأمن والاستقرار، وليعزّ الضعيف بحكومة القوانين القضائية العادلة، وتتحسّن

(١) تاريخ دمشق ٢: ٦، المصنف لابن أبي شيبه ٧: ٤٣٠.

(٢) البحار ١٦: ١٣٠.

أحوال الفقراء بإقرار نظام اقتصادي صالح، وتشويق ذوي الأموال على الإنفاق والتعطف على الضعفاء، ليكون ذلك عليهم في مقابل توفر الأمن لهم، فيكون إنفاقهم درعاً لهم من عادية الضعفاء الجائعين، فإذا أخذ الضعيف ما يحتاجه من يد الغني لا يجسر بمقتضى الجبلة الأولى للبشر على إيصال الأذى إليه، والناس مجبولون على حب من أحسن إليهم، وإن كان الأمر أبلغ من ذلك.

كما ويدخل في أهدافه شد أواصر المجتمع واستحكام خلاياه، بالخطر من موهناته كالزنا وشرب الخمر وغيرها.

والمهم هو التلميح إلى الوجوه التي تفسر قول أمير المؤمنين في بعض خطبه: «وأشهد أن محمداً نجيب الله، وسفير وحيه، ورسول رحمته»^(١).

وهكذا يكون النبي ﷺ حاملاً للرحمة والرسالة التي هي في الحقيقة رحمة حتى كان رسول الرحمة، ويتضح ذلك من خلال التوغل في تلك الأبواب التي أشرنا إليها، وكذا بفتح أبواب مماثلة على غرار تلك الأبواب لتشمل جميع جوانب الحياة الدنيوية والأخروية.

٣٧٣. رسول الله إلى خلقه

لما عرج بالرسول ﷺ إلى السماء نودي أن يا محمد أنت عبدي وأنا ربك، فإياي فاعبد، وعليّ فتوكل، خلقتك من نوري، وأنت رسولي إلى خلقي، وحجتي على بريتي^(٢).

وحينما يقال: الرسول أو رسول الله، فالمقصود هو رسول الله إلى خلقه

(١) نهج البلاغة ١: ٤٣٣، البحار ١٦: ٣٨٢.

(٢) إكمال الدين: ١٤٧، ١٤٩، عيون الأخبار: ١٤٤، ١٤٦، علل الشرائع: ١٣،

البحار ٢٦: ٣٣٦، ينابيع المودة ٣: ٣٧٩.

فليس ثمة زيادة في هذا العنوان، غير أن كلمة الخلق قد تحتاج إلى تسليط الضوء عليها، فأحد معاني الخلق في اللغة هو الناس، ولا شك أن النبي ﷺ مبعوث إلى الناس، والمعنى الآخر هو جميع ما خلق الله ﷻ، فهل إن النبي مبعوث إلى كل ما خلق الله سبحانه حتى الجمادات؟ هذا سؤال.

والجواب: أنه يصعب تصوّر ذلك بعد تسليم أنه مبعوث إلى الجن على ما هو مستفاد من ظاهر القرآن والأخبار.

فليس المراد خصوص الناس والذي هو المعنى الأول لكلمة الخلق، ولا جميع ما خلق الله سبحانه، فلا بد أن يكون المراد هو جميع ما خلق الله سبحانه مما شأنه أن يرسل إليه ويبعث مبعوث إليه، أعني ذوي الشعور والعقل ولا يشمل الجمادات.

نعم يمكن تفسير بعثته إلى غير الإنس والجن بتعليمه الملائكة التسبيح والولاية التكوينية ونطق الجماد معه وتسبيح الحصى في يديه واستجابة الشجرة له لما دعاها وانشقاق القمر وغير ذلك من معاجزه ﷺ المذكورة في محالها.

٣٧٤. رسول الملاحم

أصل الملحمة من اللحم، والملحمة هي اجتماع ذوي اللحم والتحامهم، وفي الغالب يراد به البشر، فيكون المعنى اشتباك الناس واختلاطهم كاشتباك لحمه الثوب بالسدى على حد تعبير ابن منظور^(١).

ومن أجل ذلك قيل للوقعة العظيمة القتل: ملحمة وكذا موضع القتال، فليس ذلك إلا لاجتماع لحوم القتلى، ولذا لا يقال للقتال: ملحمة إلا إذا كثر القتلى وكثرت اللحوم المجتمعة.

(١) لسان العرب ١٢: ٢٥٤. والسدى: بطانة الثوب أو أسفله.

وانطلاقاً من هذا البيان يكون معنى رسول الملاحم هو رسول الاجتماع والاشتباك والاختلاط، بما فيه المعارك الحاشدة.

وأما الاجتماع والاختلاط الذي هو من استراتيجيات الرسول المصطفى ﷺ فهو يتمثل في جمع الناس للصلوات في المساجد، وفي كل جمعة والأعياد، والدعوة الشاملة إلى الحج والعمرة لتحقيق اجتماع سنوي عظيم، لممارسة أعمال الحج.

والطواف بالبيت ملحمة عظيمة، وكذا ذبح الأضاحي والأغنام في منى لتراكم لحومها وتجمع ملحمة أخرى.

هذا وأمثاله إلى جانب رص الصفوف للقتال في سبيل الله سبحانه، والغلظة على الكافرين والدخول معهم في معارك دموية، ووقائع عظيمة لم تقتر من يوم مبعثه ﷺ إلى يوم وفاته، فقد توفي ﷺ والجيش خارج المدينة مستعد للقتال وهو المعروف بجيش أسامة. وليس تحريم الفرار من الزحف إلا وهو تفسير لقتال شديد ووقائع عظيمة القتل يستشهد بها المؤمنون ليدخلوا الجنة ظافرين، وتزهق أرواح الكافرين لتخفيف أوزارهم وتقليل ذنوبهم، فإنهم كلما بقوا في الحياة كثرت ذنوبهم وتضاعفت مغاصيهم، واشتد عقابهم، وساقوا الأرض إلى الدمار لأنها لا تحتمل الكفر والشرك وسفك الدماء بغير حق، فيصيبهم من العذاب ما أصاب القرون الأولى كقوم نوح وقوم هود وصالح وفرعون وغيرهم.

ومن جانب آخر، فإن ملاحم النبي ﷺ في واقعها هي قتال لأجل السلام والحد من التمزيق الذي أصاب العرب من جراء الاشتباكات الدامية بين القبائل والغارات المفنية.

فما وضعت حروب الإسلام أوزارها إلا وعم الصلح والسلام، وساد الأمن وعادت أمة واحدة تصارع القوى العظمى آنذاك، وتنهار الإمبراطورية الفارسية أمامها، وتتزعزع الإمبراطورية الرومية وتراجع في مقابلها.

ومع كل ذلك لا يشذ عن الأذهان إرادة تلاحم الأمة والتصاق البعض ببعض على أصعدة مختلفة ليكون الرسول ﷺ هو رسول الملاحم، ولكن المعنى الأول هو الأرجح.

ومهما يكن من أمر فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «أنا عقب النبيين ليس بعدي رسول، وجعلني رسول الرحمة ورسول الملاحم»^(١)، مما يفسر قراراً ربانياً في جعله ﷺ كذلك، أي نبي الملاحم، وذلك بعد عدم فلاح السبل الأخرى بأنواعها، وتبدد مساعي الأنبياء السابقين.

وقال ﷺ في موضع آخر: «أنا رسول الرحمة ورسول الراحة ورسول الملاحم»^(٢) وهو يدل على اعتزاز النبي ﷺ بهذه الصفة لما يترتب عليها من الثمار الجسيمة بمعناها.

وجعلها ﷺ من أسمائه ﷺ في موضع آخر فقال: «إن لي عند ربي عشرة أسماء وأنا محمد وأنا أحمد.. ورسول الملاحم»^(٣) ولا تكون الصفة اسماً إلا إذا تميز بها وعرف بذلك في مدة طويلة، مما يبدو أن هذا الأمر كان معروفاً للنبي ﷺ في الأمم السالفة، فقد عرف أنه نبي السيف، كما عرف هذا الأمر للمهدي (عج) ويعرف له اليوم من أنه إمام السيف^(٤).

٣٧٥. رسول الملك الجبار

قال سطيح الكاهن قبل بعثة النبي ﷺ: لقد تواترت الأخبار أنه

(١) علل الشرائع ١: ١٢٨.

(٢) البحار ١٦: ٩٤، الشفاء للقاضي عياض ١: ٢٣١.

(٣) الكامل لابن عدي ٧: ٦٤، تنوير الحوالك: ٧٢٦.

(٤) ولا تعني هذه الأوصاف أن النبي وأهل بيته هم رجال حرب وسفك دماء، بل أنها تعني أن الرسول ﷺ اضطر ليخوض تلك الملاحم دفاعاً عن العقيدة والنفس وليشيد صرح الكيان الإسلامي كما قال البعض.

يبعث في هذه الأعصار رسول الملك الجبار^(١).

والذي قضى بذلك على لسان سطيح هو التزامه بالتسجيع في كلامه وتوحيد أواخر الجمل، فاختر من أسماء الله سبحانه ما يناسب كلمة الأعصار ويوافقها في اللفظ، كما أن المعروف أن الكهنة كانوا يتخوفون من الرسول الجديد لدخول إبطال الكهانة في مهامه، وأن من تمهيدات بعثته الخيلولة دون تصعد الجن والشياطين لاستراق السمع ونقل أخبار السماء إلى الكهنة، فصار كلما تصعد جني تبعه شهاب، هذا وتبدو هذه المخاوف بوضوح في رسالة سطيح المذكورة التي بعثها إلى زرقاء اليمامة.

ومن جراء مخاوفه تلك وتحسسه من نقمة الملك الجبار تفوه بتلك الصفات، واختارها على ما عداها من صفاته تعالى.

٣٧٦. رسول الملك الجليل

يريبني التسجيع الموجود في كتاب الأنوار الذي نقل عنه صاحب البحار هذه الصفة والصفة السابقة على لسان سطيح تارة وعن جبرائيل أخرى، فإن من المستبعد رواية ذلك عن السابقين، والمرجح أنه من نظم قريحته ونثر قلمه وعدم نقل ذلك بلفظه.

ومهما يكن من أمر فقد نقل عن أمينة والددة الرسول ﷺ أنها رأت محاولة الشياطين إيصال الأذى لرسول الله ﷺ قالت: فرأيت أبواب السماء قد فتحت، وإذا أنا بفارس في يده حربة من نار وهو ينادي ويقول: لا سبيل لكم إلى رسول الملك الجليل، وأنا أخوه جبرئيل^(٢).

(١) البحار ١٥: ٣١٠

(٢) البحار ١٥: ٣٠٧، ٣١٣.

٣٧٧. رشيق القامة

الرشيق هو الخفيف الحسن القد لطيفه، والمعتدل القامة، وذلك مما انفقت الأخبار الواصفة للنبي ﷺ عليه وإن اختلفت ألفاظها، فقد قيل في تفصيل ذلك: إن نبي الله أطول من الربعة، وأقصر من الطويل الفاحش، فهو بين الطويل والقصير، وبعبارة أخرى أنه ﷺ لم يكن بالطويل البائن، ولا القصير الشائن، ولا بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد، أي لا متناهي في الطول خالي من اللحم وهو المشذب، ولا قصير متناهي في القصير.

وهو مع ذلك تام خلق الأعضاء ليس بمسرخي اللحم ولا كثيره، سواء البطن والصدر، أي بطنه ضامر وصدرة عريض، فهو رشيق القامة كما جاء في الأخبار^(١).

وجامع جميع ذلك أنه معتدل الخلق، أي كل شيء من بدنه يليق بما لديه في الحسن والتمام، ولما كانت الرشاقة في الغالب تستعمل في الطول وتناسب الطول والعرض وقالب البدن، اقتصرنا في الإشارة إلى ذلك.

٣٧٨. الرقيب على خلق الله

لا يمكنني الاقتناع بتسييب الخلق وتركهم بصورة كلية من دون وجود إشراف ولا رقابة على أعمالهم، كما لا أقتنع بمباشرة الخالق لهم في جميع ذلك، فالله ﷻ أجلّ وأعلى شأناً من أن يباشر إدارة شئون البشر على ما هم عليه من الدناءة والخسة والضعف^(٢)، ولا هو بتاركهم وأنفسهم، وإنما وكل ذلك لا محالة إلى بعض خلقه.

وهل تشك في أنّ الذي يديرون أمور الممالك ليسوا هم رؤساؤها

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٧، البحار ١٦: ١٨٠.

(٢) قال تعالى: ﴿مَا يَتَّبِعُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ الفرقان: ٧٧.

ومدراؤها؟ لا شك في ذلك، والسؤال إنما هو عن وجود مدير لعامة الناس مشرف على جميع أعمالهم، رقيب على الخلق الذي لا يغيب عليه شيء من أحوالهم، يحفظ الضعيف من الانقراض، ويمنع القوي من التماذي بالحد الذي يبقى معه صورة نظام يتمكن المؤمن من إدامة الحياة معها.

ويمكنني إراءة بعض الشواهد على ذلك، كعدم ضياع الدماء وظهور أمرها ومعرفة القاتل في يوم من الأيام، وكذا بقاء الثلة المؤمنة رغم تكالب ذوي القدرة والشوكة عليهم، وحرصهم على فنائهم، بل سعيهم الدائب في محققهم، وكذا بقاء حرارة الدين في قلوب الطائفة المحقة، وتناقل القصص العجيبة مما يتفق لبعض الناس عند انقطاع الأمل واليأس.

ووجود إحساس عند عامة الناس بوجود الحافظ والقادر على إيصال النفع لمستحقه، وإن اختلف اسمه، فالمسيح يسمونه «بابا نوثل» ونحن في هذا العصر نقول هو الإمام المهدي (عج) وغيرنا يقول غير ذلك.

وليس استفادة ذلك من النصوص والأخبار بعسير، بل ورد في ذلك كثير من الأخبار ودلت عليه الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تعرض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله أعمال العباد كل صباح أبرارها وفجارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى: ﴿اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾»^(٢).

فهذا هو الإشراف والإحاطة بما يحدث، الكائن للرسول صلى الله عليه وآله ولن

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) بصائر الدرجات: ٤٤٤ - ٤٥٧، ورواها عن الإمام الباقر والإمام أبي الحسن

يخلفه من الأئمة المعصومين، ولا غرابة في ذلك بعد صناعة الأقمار الصناعية التي تضبط ما يحدث على الأرض، على أن هذا علم متأخر بالنسبة إلى علم الرسول ﷺ المشتق من العلم الإلهي، والوارد في كيفيته هو دركه لذبذبات الأعمال المعبر عنها بالنور^(١).

وأما امتلاكه للتأثير وزهق التصميمات وحرف مسير الأحداث لصالح المؤمنين أو حفظهم على الأقل من الانقراض فلها أدلة كثيرة، منها ما يجسد واقعاً عملياً وهو ما ورد عن الإمام المهدي (عج) في حق الشيعة، قل: «إننا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لاصطلمكم الأعداء»^(٢).

فالجامع بين ذلك الإشراف وهذا الحفظ هو الرقابة التي ذكرها رسول الله ﷺ حينما قام خطيباً فقال: «أيها الناس إن الله تبارك وتعالى خلقني وأهل بيتي... ثم قال: ... وإن منا الرقيب على خلق الله»^(٣).

وفي خبر آخر: «ومنا الرقيب على خلق الله، وبه سداد أعمال الصالحين»^(٤) ومعلوم أن الرقيب هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء.

ومع كل ذلك لا ننفي رقابة الله ﷻ فهو الرقيب على الخلق من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم.

٣٧٩. ركن الدين

ركن كل شيء هو جانبه الأقوى وما يستند عليه الشيء في وجوده

(١) ورد أن الله يرفع للإمام عموداً من نور يرى فيه الدنيا وما فيها لا يستر عنه منها شيء، انظر البصائر: ٤٤٥.

(٢) تفسير فرات: ١١٠، البحار ١٦: ٣٧٦.

(٣) البحار ١٦: ٣٧٦.

(٤) البحار ٣٩: ٣٥٠.

كركن الدار الذي تعتمد عليه بحيث لولاه ما استقامت وتهدمت، فلم يبق منها سوى أنقاض بالية.

والمراد من الدين في هذا العنوان هو الدين المعهود أعني الإسلام، كما يمكن أن يكون المراد جميع الأديان السماوية لشمولية الإسلام وانطوائه على جميع الشرائع ومجيئه بأكمل القوانين.

ويمكن أن يكون الوجود الفرضي للرسول ﷺ هو دعامة كل دين واعتقاد، بحيث لولاه لما قامت لدين قائمة على مر العصور.

فنحن أجهل ما يكون بالنسبة إلى الحسابات والفروض التي أدت إلى نجاح دعوة كل نبي من الأنبياء ومدى منخلية فكرة النبوة الخاتمة والكاملة في توفيقها، فمن المحتمل أنه لم تتم نبوة كل نبي، ولم تقم لدين من الأديان قائمة من دون طرح ذلك التفكير في جميع العصور، وذلك لفقدانها الهدفية المطلوبة والمستقبل الواضح بدونه، ويكفي في زعزعة تلك النبوات التساؤل عن مصير العالم ونهايته والتطورات التي ستحدث فيه، إذ لا يكون لها جواب آخر^(١).

هذا بعد وضوح ركنية النبي ﷺ للدين المعهود - أعني الإسلام - فإن ركنية النبي ﷺ للإسلام لا تحتاج إلى تأمل ولا مؤونة دليل، بل هي أوضح من الشمس، فلولا الرسول ماذا يكون من الإسلام، بل هل يكون إسلام، وهل يشمخ للدين مثال، أو هل تقوم له قائمة؟!

فالرسول المصطفى ﷺ بصفاته الحسنة وخلقه العظيم^(٢) من جانب

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء: ١٠٥، ولعل كتابة ذلك في الزبور يصب في هذا المصباح، ويكون جواباً عن تلك الأسئلة.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩، وانفضاض المسلمين لا يعني سوى انهيار الدعوة واضمحلالها.

وبمساعدته وجهوده المضنية من جانب آخر استطاع في أقصر فترة أن يشيد الهيكلية الأولى للإسلام المتمثلة بأصول الدين الخمسة، أعني التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

كما قام بهدم البناء الفكري القائم لعبادة الأصنام أو الاعتقاد بالتثليث الذي لا يختلف روحاً عن الأول.

وقد أشار الرسول ﷺ نفسه إلى تلك الحقيقة حينما قال لعلي عليه السلام: «يا علي أنا وأنت وابنك الحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين أركان الدين ودعائم الإسلام»^(١).

٣٨٠. ركن المتواضعين

إن دواعي التكبر والتجبر الكامنة في نفوس البشر تبرز هويداً هويداً على أثر الاستغناء، فتزحف رويداً ويكون لها دبيب وسريان وارتفاع بحيث تسحق في مسيرها كل ضعيف ومتواضع وكل خافض أو مستخفص بجناحه وإن كان عالياً، لأن التواضع هو الالتصاق بالأرض وخفض النفس والنظر إلى الواطئة أكثر منه إلى السماء المرتفعة، والتراجع أمام الجهل والسفه.

وكل ذلك وأمثاله لا يقدر له الصمود أمام هيجان المتكبرين وزهوهم وسرعان ما تطأ المتواضع أرجل التجبر، وتطمس زينة المتجبرين أعينه.

ولو ذكرنا لك مثلاً لذكرنا خروج قارون بزينته على قومه مصرعاً خده رافعاً رأسه متكبراً متجبراً ومعه عصبة يحملون مفاتيح كنوزه متعزراً بذلك، وهو ينظر بطرف عينه، ويتكلم بنبرة القدرة والترفع، فيقول: من أنتم؟ إنما أوتيته على علم عندي، فترى ما هو حال المتواضع إذا مرّ بهذا الركب وأمثاله، ومن سينظر إليه ومن يلتفت إليه، بل من ذا الذي

(١) أمالي المفيد: ١٢٧، الإمامة والبصرة: ١١١، بشارة المصطفى: ٨٨، البحار: ٣٦: ٢٧٢.

يتواضع بعد ذلك الهوان، ولذا قال الناس حينما شاهدوا ذلك المنظر: إنه لذو حظ عظيم.

وبعبارة جامعة فإن التواضع في الساحة العملية والنظرة العامة مساوق للضعف والوضع، وهو مشتق منه وإن لم يكن كذلك في الواقع.

ولكن الرسول المصطفى ﷺ استطاع بتدبيره وتواضعه أن يحو آثار كل ذلك ويطمس معالمه، مستلهماً ذلك من تأديب الله سبحانه له في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ يأكل أكل العبد، ويجلس جلسة العبد، ويعلم أنه عبد»^(٢) وفي خبر آخر عنه عليه السلام: «ما أكل رسول الله متكئاً منذ بعثه الله ﷻ حتى قبض وكان يأكل أكل العبد، ويجلس جلسة العبد تواضعاً لله ﷻ»^(٣) وفي خبر عن أبي جعفر عليه السلام أنه ﷺ: «كان يأكل على الحضيض وينام على الحضيض»^(٤).

فجلوس الرسول ﷺ على الأرض صار مستنداً لكل من يجلس على الأرض ويأكل على الأرض مهما كان غنياً ويكون له ذريعة وحجة، فإذا قيل له: لِمَ تجلس على الأرض؟ قال: إن أعظم إنسان في العالم وخير خلق الله سبحانه كان يجلس على الأرض ويأكل على الحضيض.

وإذا نام على الأرض فسئل عن ذلك قال: إن رسول الله ﷺ كان ينام على الحضيض.

وإذا توجه النقد إلى إنسان يجلس مع خادمه ويأكل معه أو يباشر

(١) الحجر: ٨٨.

(٢) الكافي ٦: ٢٧١ ح ٣، المحاسن ٢: ٥٦ ح ٣٨٦، البحار ١٦: ٢٦٢ ح ٥٢.

(٣) الكافي ٦: ٢٧١ ح ١، المحاسن ٢: ٤٥٧ ح ٣٩٠، البحار ١٦: ٢٦١ ح ٥١.

(٤) الكافي ٦: ٢٧١ ح ٦، المحاسن ٢: ٤٥٧ ح ٣٨٧، البحار ١٦: ٢٦٢ ح ٥٥.

أعماله بيده وهو يملك من الأموال والعبيد ما لا يحصى، فإن السامع يمكنه الإجابة بأن رسول الله ﷺ كان كذلك.

وإذا وضع الإنسان نفسه فله برسوله ﷺ أسوة؛ إذ مرت امرأة بذية برسول الله ﷺ وهو يأكل فقالت: يا محمد إنك لتأكل أكل العبد وتجلس جلوسه، فقال لها: «ويحك، و أي عبد أعبد مني؟!»^(١).

فمن ذلك وأمثاله يعلم أن الرسول المصطفى ﷺ كان ركن المتواضعين وعمادهم ومستندهم وحجتهم العظمى، ولولاه لما قام للمتواضعين قائمة، بل كادت تسحقهم عجلة التكبر العارمة كما ذكرنا، ويعدبهم هذا المرض المسري، بل لم يبق من التواضع عين ولا أثر. ثم إن التواضع له موارد:

أولها: ترك التشبه بالملوك، فقد ورد أن رسول الله ﷺ كان يكره أن يتشبه بالملوك، فإن شيمة الملوك السطوة والعنف والحقد، والبطش، والأنفة، والاستعجاب، والارتفاع عن الناس، ويتلخص بالعنف السياسي، فإن الرئيس يجب أن يكون بمثابة من التواضع بحيث لا يهابه الضعيف حتى يترك السؤال منه، وقد سئل من رسول الله ﷺ لقمة من فمه فأعطاهما.

الثاني: التواضع في السلوك المتمثل في خفض الرأس وعدم تصعير الخد، والقصد في المشي مع ترك مشية المختال، وترك الفخر والتفاخر والاعتزاز ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٢)، وكذا ترك التمييز وحب

(١) الكافي ٦: ٢٧١ ح ٢، المحاسن ٢: ٤٥٧ ح ٣٨٨، البحار ١٦: ٢٨١ ح ١٢٤. ومن

تواضعه السياسي أنه ﷺ أقبل إلى الجعرانة فقسم فيها الأموال، وجعل الناس يسألونه فيعطيه، حتى الجؤوه إلى الشجرة، فأخذت برده وخذشت ظهره حتى جلوه عنها وهم يسألونه، فقال: أيها الناس ردوا عليّ بردي.

(٢) لقمان: ١٨.

الظهور، فكان رسول الله ﷺ إذا جلس، جلس في أدنى المجلس بحيث لا يعرفه الداخل، وإذا مشى، مشى آخر القوم.

وأهم من كل ذلك مخالطة ضعفاء الناس واحترامهم، فكان رسول الله ﷺ يجلس مع أضعفهم وهم أصحاب الصفة وغيرهم.

الثالث: التواضع في الأعمال الشخصية ككيفية الجلوس والأكل ونوعه وكيفية اللبس ونوعه وكيفية الركوب ونوع المركوب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته فيقول: يا فلانة - لإحدى أزواجه - غيبه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكي لا يتخذ منها ريشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس»^(١).

وجلسة العبد هي أن يضع قصبتي ساقيه على الأرض ويعتمد عليهما بباطن فخذه ويقال له بالفارسية «دو زانو».

ويضاف إلى ذلك التواضع في نوع الأكل، فكان رسول الله ﷺ يترك الطعام والشراب الفاخر ويقول: «لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله، فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله»^(٢).

وهذه الرواية وغيرها تدل على أن التواضع لا يعني الذلة والمهانة، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، بل التواضع يكون معه الرفعة كما ارتفع الرسول ﷺ وشيخ بتواضعه، وكلما كان الإنسان أهم وأعظم وأغنى

(١) نهج البلاغة ٢: ٥٩، البحار ١٦: ٢٨٤ ح ١٣٦،

(٢) الكافي ٢: ١٢٢ ح ٣، البحار ١٦: ٢٦٥.

فيتواضع، كان له أكثر رفعة وأخلد ذكراً.

ومهما يكن من ذلك فقد جاء في كتاب شعيا من صفات النبي ﷺ:
أنه نور الأمم، ركن المتواضعين^(١).

٣٨١. روح الحق

الروح هي من أمر الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢)
وهذا يعني أن الروح هي قدرة تكوينية حقيقية لا اعتبارية تشريعية، وأنها
طاقة عظمى إلا أنها لا تحس بالحواس الخمس، وقد تدرك بقوة العقل وقد
لا تدرك؛ فإن جواب الله سبحانه يحتمل الأمرين.

فإذا فسرنا كلمة الحق بالله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾^(٣)
يصير معنى قولنا: «الرسول هو روح الحق» أنه ﷺ كلمة الله سبحانه وأمره
وقد مر أنه ﷺ أعظم طاقة وأول طاقة تحررت في ابتداء الخلق، اشتق منها
سائر المخلوقات.

وإذا أريد بالحق هو الدين الحق كما تفيد أكثر الآيات والنصوص،
فإن النبي ﷺ يكون هو المحرك لبدنة الحق والقدرة التي يقوم بها الحق
ويتقوم، ويحيها بها وينتعث ويحيي ليدحض الباطل.

فإن الحق لا تقوم له قائمة إلا إذا صارت له حياة ولا يحيي ويغلب
الباطل إلا إذا كانت له حياة، ولا يصير له حياة إلا إذا ولجت فيه الروح.

وإذا لاحظنا أن الحق صارت له حياة بواسطة الرسول المصطفى ﷺ
عرفنا أن الرسول هو روح الحق، فإن الحق كان زاهقاً وميتاً قبل بعثته،

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، الخرائج والجرائح ١: ٧٥، تاريخ المدينة ٢: ٦٣٤.

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) الحج: ٦، ٦٢.

وبعدما بعث ﷺ احتيا الحق وجاء، فقيل: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾^(١).

والإلتفات إلى هذه المعاني أو غيرها مما هو أدق منها لا يتيسر لغير الأنبياء ولذا نجد أن التعبير بذلك جاء في الإنجيل، قال المسيح ﷺ: «أنا ذاهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول كما يقال له من ربه»^(٢).

وقبل ذلك قال داود في الزبور: «الفارقليط روح الحق يرسله باسمي، هو يعلمكم كل شيء»^(٣).

٣٨٢. روح القدس

حقيقة كل شيء كفاءاته وعلمه وقدرته وفنه ومهارته، ويذهب الباقي جفاءً، وروح القدس هي قدرة وكفاءة خاصة متوفرة في الرسول المصطفى ﷺ ومن وليه من الأئمة المعصومين عليهم السلام.

فقد تقدّم منا أن الرسول ﷺ له إشراف وإحاطة بكل ما يدور ويحدث ويزيد وينقص ويعلم كل فعل وحركة وسكون في هذا الكون ذكرنا ذلك تحت عنوان الرقيب.

فإن الله ﷻ الذي منح البشر، القدرة على استيعاب العلوم والتفكير والإبداع والاختراع وإدراك ما غاب عن الحس كواجب الوجود والروح

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) الصراط المستقيم ١: ٥٦، وفي تاريخ يعقوبي ١: ٧٦ فإذا ما أتى روح الحق يهديكم إلى الحق كله، وينبئكم بالأمر البعيدة، ويمدحني، وعن قليل لا تروني. وفي البداية والنهاية ٦ : ٢٠١، إني مرتق إلى جنات العلى ومرسل إليكم الفارقليط روح الحق يعلمكم كل شيء.

(٣) الخرائج والجرائح ١: ٧٧، البحار ١٥ : ٢١١.

والجاذبية وغيرها، على أن جميعها من أفعال الروح الإنسانية، منح الأنبياء روحاً أفعالها هي تحسّس جميع ما يحدث في الكون واستلام ذبذباته وما يحدثه من التأثيرات، فإن كل حركة وكل سكون بل كل فعل حتى النوايا ترك آثاراً وعلائم تفسرها الأجهزة المتطورة يوماً بعد يوم.

وقبل ذلك تستلمها روح القدس التي أودعها الله ﷻ في الرسول ﷺ ليشرف على جميع ما يحدث ويتحسس كل حركة وسكون، وهذه الروح لا يغلبها النوم ولا الغفلة، لتحفظ تلك الأحداث في سلة محفوظاته بحيث يستحضرها متى ما أراد، كما يحفظ المتعلم العلوم ويستحضرها متى ما أراد.

ويدلّ على ذلك ما ورد في حديث المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخي عليه ستره، فقال: «يا مفضل إن الله تبارك وتعالى جعل للنبي خمسة أرواح: روح الحياة، فيه دب ودرج، وروح القوة، فيه نهض وجاهد، وروح الشهوة، فيه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان، فيه أمر وعدل، وروح القدس، فيه حمل النبوة، فإذا قبض النبي ﷺ انتقل روح القدس فصار في الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو، والأربعة الأرواح تنام وتلهو وتغفل وتسهو.

وروح القدس ثابت يرى به ما في شرق الأرض وغربها، وبرها وبحرها».

قلت: جعلت فداك يتناول الإمام ما ببغداد بيده؟ قال «نعم! وما دون العرش»^(١).

فقد أضافت هذه الرواية وظيفه أخرى لروح القدس وهي احتمال النبوة ورؤية حقائق الأشياء، وحتى القدرة الفيزيائية على تناول البعيد، لا غرابة في شيء من ذلك بعد تقدم العلم وصناعة الأجهزة المتطورة التي

(١) بصائر الدرجات: ٤٧٤، مختصر بصائر الدرجات لابن سليمان: ٢، ينابيع المعارج: ٧٧.

تنال البعيد من الكرات وتبلغها، على أن وسائل النبي ﷺ والأئمة في ذلك أكثر تطوراً ناشئة عن التفاتهم إلى ما غفل عنه البشر، وما قصرت عقولهم عن التوصل إليه، وصاروا يكتشفون بعض ذلك شيئاً فشيئاً؛ فإن الإنسان اليوم يقطع من المسافات ما كان يقطعه إنسان أمس بسنين خلال ساعات وذلك بضغط أزرار، وإذا تقدم العلم قطع تلك المسافات بثوانٍ وذلك بالفاظ وأذكار، وكذا صار إنسان اليوم يرى ما تتوقف رؤيته على قطع مسافات طوال عبر شاشات التلفزة والانترنت، بينما كان يستغرق رؤية بعض ذلك عمر الإنسان الواحد.

ولا أعني أن الإنسان سيمتلك روح القدس ولكن أردنا من وراء ذلك تقريب كيفية إشراف النبي أو الإمام على أحداث الكون وهو جالس في داره، فلا أظنك تعجب من ذلك ويمكنك اليوم أن تطلع على ما يجري في كثير من بقاع العالم عبر الانترنت وشاشات التلفزيون وأسلاك الهاتف وغيرها.

وليس هناك فرق بين إنسان اليوم وإنسان أمس سوى العلم، فالعلم قصر الطريق، والعلم أطلعك على ما يجري في العالم، والعلم هو الذي يجعل للرسول والأئمة عليهم السلام القدرة على الإشراف على ما يحدث في العالم، ولكن سنخ هذا العلم الأخير قد يختلف، لاختلاف المنطبع فيه، أعني الروح التي تستلهمه وتدرکه، فكل ما عرفه الإنسان وأدرکه فهو بالروح الإنسانية، وما أحاط به النبي والإمام فهو بروح القدس التي تختلف اختلافاً كبيراً عن الروح الإنسانية، بحيث يحتاج بيان الفرق إلى بسط الكلام فيه، وله محل آخر.

فما ذكره في البحار نقلاً عن الكتب السماوية من أن أحد أسماء

الرسول ﷺ هو روح القدس^(١)، إنما يراد به حقيقة النبي وحقيقة ما احتتمل به النبوة بعد تجريده عن يله ورجله وباقي أعضاء بدنه، وهو روح القدس، فإن الأعضاء لا تجعل الإنسان نبياً والكل يمتلك الأعضاء، وإنما الذي يجعله نبياً فهو روح القدس، فحقيقة النبي بما هو نبي هو روح القدس.

(١) البحار ١٦ : ١٣٠. ونقل في كشف الغطاء ٢ : ٣٨٨ عن الإنجيل في الفصل الرابع والثلاثين قوله: والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء.

حرف الزاء

الأسماء المصدرة بحرف الزاء

٣٨٣. الزاهد

هناك تناقض حقيقي بين تفكير الإنسان وبين حقل الواقع العملي، فالإنسان من اليوم الأول للخلقة يفكر أن الراحة والسعادة والاستقرار في تزايد الثروة وامتلاك الوسائل المتطورة وغير ذلك مما يجمعه الاهتمام بأمور المعاش والرياش وجميع ما هو مرتبط بالحياة على الأرض والتنعم فيها، وكل ذلك مما قام عليه بناء الرأسمالية العالمية بكل أشكالها، وما دام هذا التفكير في تعجيل وتزايد حتى صار من البديهيات.

فالبشرية تبذل كل ما بوسعها وكل طاقاتها في هذا السبيل مع التصديق الكامل بذلك والقطع الجازم بغلاء ثمن الدنيا وعظمتها وعلوها وارتفاعها وأن لها الأولوية والأهمية.

ويشهد لذلك الحشرات الساخنة على فوات شيء منها أو عدم الوصول إليه، والنظر المستديم لأموال الآخرين وجامع زخارفها، وكذا توظيف كل الطاقات من أجل ذلك.

وعلى العكس من ذلك تفكر الأنبياء ونظرتهم إلى الدنيا وتفسيرهم لحقيقتها وواقعها، فهم يعتقدون بهوانها وخستها إلى نهاية الحدود، وما زالوا يزهّدون الناس فيها وينتقصون منها ويذمون المقبل عليها.

وبعدّ هذا ثاني مهامهم عليهم السلام، أي أنهم بعد ترسيخ قواعد الاعتقاد الصحيح، يعطفون على تزهيد الدنيا في أعين الناس وذم الانكباب عليها والسعي الزائد في طلبها وجمعها.

ومن ذلك الوصف المتقدم يعلم مدى صعوبة وظائف الأنبياء والرسل، وما يحتاج إليه صرف ذلك التوجّه وذلك التصديق والاعتقاد الجازم بأهمية الدنيا ومتطلباتها وعيشها ورياشها من الجهود المتوافرة والمساعي المضنية.

فإني أعتقد أن كل نبي يرى نفسه ملزماً برعاية أشد مستلزمات الزهد والإعراض عن الدنيا حتى إذا اقتدى الناس به في بعض جوانب ذلك قد يصلون إلى الحد المتعادل، والنظرة بعين إلى الدنيا وبعين أخرى إلى الآخرة، ولا يكفي وقوفه عند الحد المتعارف لعدم نزول الناس إلى ذلك الحد عندها بتاتاً.

ومن أجل كل ذلك حاول الرسول المصطفى ﷺ إيصال الناس إلى الحد المتعارف والحد الأوسط وذلك على ثلاثة محاور:

المحور الأول: تفسير الدنيا وبيان حقيقتها بذكر الأمثلة الواضحة والبيانات الفاضحة، ومن جملتها ما روي عنه ﷺ أنه قال: «ما أنا والدنيا، إنما مثل الدنيا كمثل راكب مرّ على شجرة ولها فيء فاستظلّ تحتها فلما أن مال البطل عنها ارتحل فذهب وتركها»^(١) هذا عن المثال الواضح ونظائره كثيرة.

وأما الفاضح فقد بين ﷺ أن الدنيا هي ملفوظة الآخرين، كلقمة أخذها شخص أو أشخاص فمضغوها ثم لفظوها فجاء آخر فأخذها ومضغها ليلفظها وهكذا^(٢) قال علي رضي الله عنه: «هي حجة من لذيذ

(١) كتاب الزهد للكوفي: ٥٠، البحار: ١٦: ٢٨٣ ح ١٢٩، مشكاة الأنوار للطبرسي: ٤٦٣.

(٢) نهج البلاغة: ١: ١٥٥، البحار: ٢١: ٥٤٨ ح ٥٠.

العيش يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة» والمجّة الشراب إذا قذفه من فيه، وما لفظه وألقاه.

المحور الثاني: بيان عواقب الانكباب على الدنيا ومضاره في هذه الدنيا والتحذير من ذلك والنهي عنه، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «أنا زعيم لمن أكب على الدنيا بثلاث: بفقر لا أغنى له، وشغل لا انقطاع له، وهم وحزن»^(١) والمراد بالفقر هو الفقر النفسي والإحساس بالحاجة والفاقة في كل حال، لأن المكب على الدنيا يقيس نفسه بمن هو أغنى منه وأكثر ثروة فيرى أنه فقير محتاج إلى ما يبلغه إلى ذلك الحد، وهكذا.

وأما الشغل الدائم والهم والحزن فهذا هو الواقع الذي تحدثنا عنه بادئ بدء، إذ ليست الراحة في تزايد الثروة إنما الراحة في الزهد، فإن زهدك في الدنيا يعجلك الراحة فيها كما جاء في الخبر.^(٢)

وقال رسول الله ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبر همه شئت الله عليه أمره وكان فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له».^(٣)

المحور الثالث: الزهد العملي والإعراض الحقيقي المشهود عن الدنيا، فإن هذا الإعراض يجب أن يكون أكثر من الحد المتعادل حتى يفلح في سوق الناس إلى الحد المتعارف.

ويفسر الإعراض الحقيقي الإعراض مع التمكن والقدرة على ذلك، وهو الإعراض بالقلب لا بالطرف.

فالرسول المصطفى ﷺ على ما هو عليه من السلطة وكثرة الأموال التي تجبى إليه ما وضع حجراً على حجر ولم يأكل خبز الحنطة قط، وما شبع

(١) كنز الفوائد للكراجكي: ١٦٠.

(٢) تحف العقول: ٤٥٥.

(٣) كتاب الزهد للكوفي: ٤٩ ح ١٣٢.

سنين القحط؛ لأن المنادي كان يؤدي عن يوسف عليه السلام.

وعلى هذا إنما قيل للرئيس زعيم فلأنه أقوى القوم وأقدرهم على ما يريد.

ولكن مع كل ذلك الوصف فإن لفظ الزعيم إنما جاء في لسان الرسول ﷺ مقيداً وفيه قرينة على عدم إرادة الرئاسة والسيادة، فقد روي أنه ﷺ قل: «أنا زعيم لمن آمن بي وأسلم وهاجر بييت في ربض الجنة...»^(١) وفي رواية «لمن ترك الكذب أو المراء» وهذا ما يعطي معنى الكفيل والضامن، ويكون المعنى أنا ضامن بييت، وكفيل بييت، على أن ذلك لا يخلو عن معنى القوة والقدرة، لا اشتراط تمكن الكفيل من أداء ما التزم به وتعهد.

ولما كانت موارد تزعم النبي ﷺ وكفالاته وضمانه مختلفة، فمرة يضمن بيتاً في الجنة كما مر، ومرة يضمن الفقر والشغل والهـم وغيره، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «أنا زعيم لمن أكب على الدنيا بثلاث: بفقر لا غنى له، وشغل لا انقطاع له، وهم وحزن»^(٢)

فإن هذا التنوع في المكفول به دليل على عموم كفالاته وضمانه، فهو في الحقيقة ضامن لتحقيق كل ما وعد والتزم به، وكلما جاء في حديثه من الثواب والعقاب على الأعمال، وضامن لجميع ما ذكره من الآثار، دنيوية أو أخروية، وهو قادر على إيفاء ذلك، وله القوة على إعطائه، مما يدل على معنى دقيق يتمثل بمباشرة الرسول ﷺ لمنح الثواب والجزاء على الأعمال أو حتى العقاب بتحويل من الله جل جلاله، وهو ليس ببعيد وله شواهد من الأخبار.

(١) سنن النسائي الجهاد باب ١٧، مستدرک الحاكم ٢: ٧١، سنن البيهقي ٤: ١١.

(٢) الحصال: ١٤٤، التوحيد: ٤٦١، البحار ٢: ١٢٨، المعجم الصغير للطبراني ٢: ١٦.

سنن البيهقي ١٠: ٢٤١، فتح الباري ١٣: ١٨١، مجمع الزوائد ١: ١٥٧، وج ٨: ٢٣

سنين القحط؛ لأن المنادي كان يؤدي عن يوسف عليه السلام.

وعلى هذا إنما قيل للرئيس زعيم فلأنه أقوى القوم وأقدرهم على ما يريد.

ولكن مع كل ذلك الوصف فإن لفظ الزعيم إنما جاء في لسان الرسول ﷺ مقيداً وفيه قرينة على عدم إرادة الرئاسة والسيادة، فقد روي أنه ﷺ قل: «أنا زعيم لمن آمن بي وأسلم وهاجر بييت في ربض الجنة...»^(١) وفي رواية «لن ترك الكذب أو المراء» وهذا ما يعطي معنى الكفيل والضامن، ويكون المعنى أنا ضامن بييت، وكفيل بييت، على أن ذلك لا يخلو عن معنى القوة والقدرة، لاشرائط تمكن الكفيل من أداء ما التزم به وتعهد.

ولما كانت موارد تزعم النبي ﷺ وكفالاته وضمانه مختلفة، فمرة يضمن بيتاً في الجنة كما مر، ومرة يضمن الفقر والشغل والمهم وغيره، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «أنا زعيم لمن أكب على الدنيا بثلاث: بفقر لا غنى له، وشغل لا انقطاع له، وهم وحزن»^(٢)

فإن هذا التنوع في المكفول به دليل على عموم كفالاته وضمانه، فهو في الحقيقة ضامن لتحقيق كل ما وعد والتزم به، وكلما جاء في حديثه من الثواب والعقاب على الأعمال، وضامن لجميع ما ذكره من الآثار، دنيوية أو أخروية، وهو قادر على إيفاء ذلك، وله القوة على إعطائه، مما يدل على معنى دقيق يتمثل بمباشرة الرسول ﷺ لمنح الثواب والجزاء على الأعمال أو حتى العقاب بتحويل من الله جل جلاله، وهو ليس ببعيد وله شواهد من الأخبار.

(١) سنن النسائي الجهاد باب ١٧، مستدرک الحاكم ٢: ٧١، سنن البيهقي ٤: ١١.

(٢) الحصال: ١٤٤، التوحيد: ٤٦١، البحار ٢: ١٢٨، المعجم الصغير للطبراني ٢: ١٦.

سنن البيهقي ١٠: ٢٤١، فتح الباري ١٣: ١٨١، مجمع الزوائد ١: ١٥٧، وج ٨: ٢٣

٣٨٥. الزكي

أول معنى الزكاة هو الصلاح قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ما صلح ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) بمعنى يصلح من يشاء.

والمعنى الآخر للزكاة هو التطهير، ولذا قيل إن زكاة المال هي تطهيره وإخراج ما فيه من الوسخ، المستفاد من مثل قولهم عليهم السلام: الزكاة هي أوساخ ما في أيدي الناس^(٢)

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٣)

والمعنى الثالث للزكاة هو النماء والتزايد، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق»^(٤)

قال الإمام العسكري عليه السلام في بعض قسمه: «والذي بعث محمداً عليه السلام بالحق نبياً، وجعله زكياً هادياً مهدياً»^(٥)

فماذا يعجبك أن تفسر زكاة النبي عليه السلام به من المعاني؟ هل تفسره بالصلاح أو الطاهر أو المبارك النامي؟ والصحيح هو التفسير بالجميع، ولا بد من الالتزام بإرادة جميع المعاني وعدم اختصاصه بواحدٍ منها، ولذا نجد أن ابن منظور يذكر معاني الزكاة الثلاثة المارة، ولكن حينما أراد بيان

(١) النور: ٢١.

(٢) التهذيب ٤: ٥٨ ح ١٥٥، الاستبصار ٢ ك ٣٥ ح ١٠٦، المغني ٢: ٥١٨، التذكرة: ٢٧٣.

(٣) الشمس: ٩.

(٤) لسان العرب ٦: ٦٤ «زكا».

(٥) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٢١١، البحار ٦: ٢٣٦.

معنى الزكي قال: ورجل تقي زكي، أي زاكٍ من قوم أتقياء أزكيا، أي فسر الزكي بمن زكا، وهو تفسير الشيء بنفسه، فليس ذلك إلا لسمو معنى الزكاة عن كل واحد من تلك المعاني الثلاثة.

فالرسول المصطفى ﷺ صالح لا محالة، ولكن صلاحه ليس نسبياً، بل مطلق بمعنى الطهارة من كل دنس وعيب وشائبة، وليس صلاحه على حد صلاح الناس، بل هو صلاح له آثار وله ثناء وبركة، فإن محمداً ﷺ كان فرداً، واليوم هو أمة قعدت على وسط العالم، وبَسَطَتْ جناحيها على الشرق والغرب، وأعظم به من ثناء وتزايد وبركة.

٣٨٦. زهرة الملائكة

لا يمكن إنكار أن النبتة بديعة وجميلة بسيقانها وورقها وأغصانها وبهجة خضارها ونضارتها، ولكن لا يمكن قياسها معها إذا تفتحت أزهارها وأنوارها، فهي جلوة أخرى وروعة ثانية.

فالملائكة مهما بلغت من مراتب الكمال والجمال، ولكن حلول الرسول المصطفى ﷺ بينهم يضيف تلك الوجودات الخيرة الجميلة جمالاً وحسناً وروعة أخرى.

ولا يعني أن النبي ﷺ من الملائكة، لأن الملائكة بمثابة الورق والسيقان، وهي تختلف عن الزهور والأوراد التي تمحضت في الجمال والرائحة العطرة، فهي معها لكن ليست كما هي، بل هي بهجتها وروعتها.

ولو تجاوزنا ذلك إلى ساحة الواقع؛ فإن حسن الملائكة إنما هو بتسييحها وتقديسها وتمجيدها وتعظيمها لرب العالمين، والملائكة إنما أخذت التسييح من النبي وأهل بيته ﷺ وبهذا يكون النبي ﷺ هو الذي أضاف إليها الجمال، بل إن جمالها وزهرتها هو النبي ﷺ وهو بهجتها وروعتها.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «كنا في سرادق العرش نسبح الله،
وتسبح الملائكة بتسبيحنا»^(١)

وروي أن النبي ﷺ قعد عند عين، فنزل جبرئيل في ذلك الموضع
وميكائيل واسرافيل ودردائيل، فقال جبرائيل: السلام عليك يا محمد...
السلام عليك يا زهرة الملائكة^(٢)

٣٨٧. زين القيامة

إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد
فتغشاهم ظلمة شديدة فيضجون إلى ربهم ويقولون: ربنا اكشف عنا هذه
الظلمة.

فيدعى الرسول المصطفى ﷺ فيكسى حلة وردية يضيئ لها ما بين
المشرق والمغرب، ثم يركب البراق ويأتي ليمر بكل قوم، فيؤتى بمنبر وهو
ألف مرقة جوهر، إلى مرقة زبرجد إلى مرقة لؤلؤ إلى مرقة ذهب إلى مرقة
فضة حتى تنصب مع درجة النبيين فهي في درجة النبيين كالقمر بين
الكواكب، فيقبل يومئذ متزراً بريطة من نور وعليه تاج الملك وإكليل الكرامة
وعلي بن أبي طالب عليه السلام أمامه يحمل لواء الحمد، وهو لواء من نور.

فيرقى ذلك المنبر ويعلو تلك الدرجة وعلي عليه السلام يتبعه، فإذا صار في
أعلى الدرجة منها، فلا يبقى يومئذ نبي ولا مؤمن إلا رفعوا رؤوسهم
يقولون: طوبى لهذين العبدین، فلا يبقى يومئذ في مشهد القيامة أحد
يجهما إلا استروح إلى ذلك وأبيض وجهه وفرح قلبه^(٣).

ولكن كل ذلك وأمثاله قد لا يفسر معنى زين القيامة؛ فإن الزين في

(١) البحار ١٥: ٢١ ح ٣٤.

(٢) الفضائل: ٣١، ٥٢، البحار ١٥: ٣٥١.

(٣) انظر البحار ٧: ٣٢٦.

مقابل الشين، والشين عادة يستر بالزين، ويوضع أمام الرائي والقادم والوافد والمستعرض لتكون مشاهدة ذلك الزين سترًا وجمالاً لذلك الشين.

فلما كان البشر مصبوغاً بسواد الخطيئة معيباً بآثار الذنوب لم يكن لوفوده على الله سبحانه يوم القيامة أية جلاء وأي جمال ووسيلة سوى أن يدفع أمامه ذاك الذي خلا من الخطيئة وتلبس بالחסن وما يكون زين القيامة، كما يقدم الوافدون أفضلهم وزينهم إذا وفدوا على عظيم لمطالبهم.

فإذا كان يوم القيامة حشر الله الخلائق في صعيد واحد حفاة عراة، فيقفون حتى يلجمهم العرق فيقولون: ليت الله يحكم بيننا ولو إلى النار يرون أن النار راحة فيما هم فيه، ثم يأتون النبي آدم عليه السلام فيقولون: أنت أبونا، وأنت نبي فأسأل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار، فيقول آدم: لست بصاحبكم، خلقتني ربي بيده، وهلني على عرشه، وأسجد لي ملائكته، ثم أمرني فعصيته، ولكن أدلكم على ابني الصديق الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، كلما اشتد تصديقه، فيأتون نوحاً فيقولون: سل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار، قال فيقول: لست بصاحبكم، إنني قلت: إن ابني من أهلي، ولكني أدلكم على غيري فيدلهم على إبراهيم فيعتذر، وهكذا حتى يبلغوا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومعهم الأنبياء، فيقولون: يا محمد سل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار، قال فيقول: نعم أنا صاحبكم، فيأتي دار الرحمن وهي عدن، فيقول: أنا محمد، فيقال: افتحوا له، فيفتح له؛ فإذا نظر إلى ربه مجده تمجيداً لم يجده أحد كان قبله ولا بعده ثم يخر ساجداً، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع قولك، واشفع تشفع، وسل تعط، وهكذا يتكرر التمجيد والسجود حتى يقول: رب احكم بين عبادك ولو إلى النار،

فيقول نعم يا محمد، ثم يكل حساب الخلق إليه ^(١)

فهذا وإن ذكرته الأخبار بهذه الصورة وبهذا البيان غير أنني أعتقد أن السؤال من الأنبياء واحداً بعد آخر إنما هو لحاظي وبنحو التوسل والتقرب، أو رتبي حقيقي بمعنى التدرج في مراتب العلل حسب ما يراه كل شخص ليلبغ أعلاها وأقواها وأنفعها في فتح المغالق، كمن يفتش عن مفتاح الباب.

والمهم في جميع ذلك هو تقرب معنى زين القيامة والمقدم فيها الذي يمكن تقديمه عند الحوائج والمطالب، فهو زين البشرية المجتمعة في عرصات القيامة.

ومن الطبيعي فإن الإخبار عن مثل هذه الصفة وهذا المقام لا يتيسر إلا عن طريق نفس الرسول ﷺ أو أحد الأئمة، ولذا روي أن رسول الله ﷺ قال: «جعلني ﷺ في الآخرة زين القيامة» ^(٢).

وجاء في بعض أدعية الصحيفة: «فارزقنا في دارك دار المقامة في جوار حبيبك زين القيامة تمام الكرامة» ^(٣).

وفي بعض نسخ الرضوي: «السلام عليك يا زين القيامة» ^(٤)

(١) البحار ٨: ٤٥ ح ٤٦. ودار الرحمن يراد بها الجنة وليس لله سبحانه دار يسكنها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢) الخصال ٢: ٤٢، البحار ١٦: ٣٢٦ ح ٢٤.

(٣) الصحيفة السجادية: ٦٠٠.

(٤) مستدرک الوسائل ١٠: ١٩٤ ح ١١٨٣٠.

حرف السين

الأسماء المصدرة بحرف السين

٣٨٨. سائس البلاد

أصل السائس هو القائم على الشيء بما يصلحه، ويقال: هو يسوس الدابة إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته.

هذا هو الأصل في معنى السائس والسياسة، ولكنه في الساحة العملية انقلب إلى الملْك والترؤس والتسلُّط والقيام على الشيء لا لأجل إصلاحه، وإنما هي مصالح نفس السائس مع الإجحاف على الرعية والتدليس عليهم، وتمويه الحقائق.

ولا تتحقق السياسة بمعناها الأول إلا إذا كان السائس نبياً من الأنبياء أو وصياً من الأوصياء، فإنه القادر على قطع النظر عن مصلحه لأجل مصالح العامة، وكذا القيام على البلاد بما يصلحها ويعود بالنفع عليها.

وأجلى مصاديق السائس هو الرسول المصطفى ﷺ، بل هو السائس الأول، وإنما يقوم غيره مقامه ويجذو جذوه، ويسير على خطاه، ولذا قال رسول الله: «لحن الأولون... ولحن ساسة البلاد»^(١).

وإنما كان الرسول ﷺ هو السائس الأول لتوفر أعلى مستلزمات الرئاسة ومتطلباتها فيه، كسعة الصدر وكثرة الحلم والكياسة والفتنة

(١) البحار ٢٥ : ٢٣.

وشدة الاهتمام بأمور الرعية والحب والإخلاص والنوايا الصادقة والأخلاق الرفيعة، والبذل والسماحة، والجد والحزم، ورباطة الجأش، والانتصاف للضعيف، وإقامة العدل، والصرامة في إجراء القوانين، والعلم بأفضلها مما فيه المصالح العامة، وتجنّب المفاصد الفعلية والمستقبلية.

هذا كله مما يلزم أن يتوفّر في كل رئيس، ويزيد النبي ﷺ على ذلك علمه بما في السرائر والضمائر وما يدخرون وما يخفون، وما هم إليه صائرون، وحسن التدبير للمستقبل وحمل الناس على إقامة العدل بالوسائل المعتادة للسياسيين مع الوسائل المختصة به، كترسيخ الاعتقاد والتخويف بالنار وعذاب الجبار وأهوال القبر، فهو أردع مما عدها من الوسائل، وكذا التشويق بالثواب والجنة، كل ذلك مما يجنب الإنسان ارتكاب الخطايا والجرائم في الخلوات، ويكون كل إنسان هو شرطي نفسه، مما لا يتمكن من توفيره أي قانون في العالم.

٣٨٩. سائل الأطراف

الأطراف هي اليدان والرجلان، ولكن الأكثر على أن المراد هنا الأصابع، وأما سائل فهو بمعنى ممتد، فيكون ممتد الأصابع أو اليدين والرجلين، وغير قصيرة مع أنها صافية وخالية من التعقيد والتثني والانحناء، وقيل: كأنّ أصابعه قضبان فضة أي أغصانها.

ذكر هذا الوصف هند بن أبي هالة في مقام ذكره لأوصاف النبي ﷺ^(١)، ويروى: سائن بثل سائل^(٢) وفي رواية سائل^(٣).

وقيل: كأنّ أصابعه قضبان فضة أي أغصانها مما يؤيد إرادة الرشافة والامتداد.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٧٦، ١٧٨، البحار: ١٦: ١٤٩، الشمانل المحمدية: ٣٧.

(٢) البحار: ١٦: ١٦٥، وسائن بمعنى سائل كجبريل وجبرين.

(٣) فيض القدير للمناوي: ٥: ١٠٠.

٣٩٠. السابق

قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا جابر إن الله خلق الناس ثلاثة أصناف، وهو قول الله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فالسابقون هو رسول الله صلى الله عليه وآله وخاصة الله من خلقه»^(١).

والقاعدة في السابق هو أن لا يكون أمامه أحد، وكل من يأتي إنمّا يأتي بعده، فيكون متبوعاً، وغيره تابع له، فهو إمام وداع.

فالسابق إلى الإيمان هو إمام أهل الإيمان، والسابق في الكفر هو إمام أهل الكفر، والنيبي صلى الله عليه وآله سابق في كل الخيرات، فهو إمام على الإطلاق.

ويؤيده ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنزلها الله في الأنبياء وأوصيائهم، وأنا أفضل أنبياء الله»^(٢).

وبذلك يعلم أنه إمام الأنبياء وقدوتهم، وكل من جاء فإنمّا يحاول اللحاق به ويطمح في الوصول إليه، فكل من يشد العزم يريد الوصول إلى مرتبته، وبذلك يرتفع ويتعظم أمره، ولكن من الواضح أنه لا يبلغ إلى مرتبته، وإلا لما رمق طرفه إليه، ولما بلغ ما بلغ من درجات القرب.

٣٩١. السابق إلى طاعة رب العالمين

لا يكون السابق والسبق إلا إذا كان هناك ما يتسابق إليه مما يكون فيه لذة وجذابية، ومهما عظمت هذه اللذة في نظر المتسابق كان سعيه

(١) بصائر الدرجات: ١٣٢، البحار: ٢٥: ٥٢، والآية في سورة الواقعة: ٧.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ٢٩٥، والآية في سورة الواقعة: ١٠.

لأجل السبق أكثر، واستعداده وتحضيره للمسابقة أشد وأدق؛ مخافة أن تفوته تلك اللذة التي عرف طعمها وذاق نشوتها فلا يفرط فيها ولا يتهاون عنها. وبهذا تعرف أن الرسول ﷺ إذا كان سابقاً إلى الطاعة فهو لأجل شدة التذاده بها، وشدة وده، فهو مشدوه ونشوان قد أخذه غيرها وسحرها وطعمها، فلا الذَّ عنده من أن يقول سبحان الله، أو الحمد لله، فتتراخي مفاصله لينحني راعكاً، ويغمى عليه ليسقط ساجداً، فهذا شأن الحبيب الواله، وهل يكون عاشقاً من لا ترتعد فرائصه إذا ذكر محبوبه، وهل يكون عاشقاً إذا لم يضطرب عند الملاقاة قلبه، وهل يملك عقله إذا رآه؟! كلا ثم كلا.

فإذا أردت أن تسلم على الرسول المصطفى ﷺ فهل يسعك أن تترك القول: «السلام عليك يا حجة الله على الأولين والآخرين السابق إلى طاعة رب العالمين»^(١).

٣٩٢. سابق ولد آدم

السبق هنا هو تحليق في سماء عالم الإيمان والاعتقاد، وارتفاع الروح في فجاج فضاء المعاني السامية، وفي أسواق تجارة الجنان الواسعة. وهو السابق أيضاً في مخيلات نقاد اللالئ بغلاء الأثمان الباهضة، وفي محافل الملائكة بكثرة الحمد والثناء، وفي مختبرات الإخلاص والتخليص بالخلو من كل شائبة، وفي ميادين الطاعة والعبودية المتمحضة بالسبق ظرفاً ومقداراً، وفي محال العمل ببذل أعلى الجهود، وفي محارِب العبادَة بذرف الدموع وكثرة الخشوع، وطول الوقوف والاعتكاف، وفي خلايا المجتمع بالتخلُّق بأفضل الأخلاق السامية، فسبق ﷺ في الجود والبذل والسماحة والرحمة والرفافة والشجاعة والصبر والاحتمال وجميع فضائل الأخلاق السامية.

(١) المزار للشهيد الأول: ١١، البحار ٩٧: ١٨٤.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «أنا سابق ولد آدم، وسلمان سابق أهل فارس»^(١)، ومعلوم أن سلمان إنما سبق أهل فارس بالإيمان وشدة الاعتقاد، فيكون الرسول ﷺ هو سابق ولد آدم في الإيمان، وذلك حينما امتحن الله سبحانه البشر فقال: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٢) كان رسول الله ﷺ أول من قال بلى، وأول من أجاب وأول من آمن، بل لولا أنه قال بلى لما قالها غيره، فهو علة الإيمان والإمام الذي اقتدى به الحدثان.

٣٩٣. الساجد

السجود هو وضع الجبهة على الأرض بظاهر الحال، وخضوعاً وتنزلاً في أفق النفس في قبال الخالق وعظمته، مما ينتزع منه التعظيم الكامل، والافتقار في مقابل الغناء.

والمهم هو معرفة السبب في تسمية النبي ﷺ بالساجد بين الساجدين، من خلال إلقاء نظرة واقعية على سجود النبي ﷺ وظروفه.

فما صَعَبَ على الرؤوس المتعجرفة من الأعراب غير السجود، فصاروا يبذلون كل ما عندهم ويتحملون أضرار الحروب وسيل الدماء من أجل أن لا يضعوا الجباه ويرفعوا الأعجاز تعظيماً لله الواحد الأحد.

تلك الرؤوس الممتلئة من الكبر والأنفة والتجبر والتغطرس بمد أنها تتجرع الموت الزؤام حتى لا تنحني، وتعرف بالقسوة والضاوأة ولا تخنو على طفل تقبله، أو ضعيف تأخذ بيده.

وإنما نشأ الرسول المصطفى ﷺ بين هؤلاء المتغطرسين ليكون أول

(١) الاحتجاج للطبرسي ١: ١٥٠، فيض القدير للمناوي ٤: ١٤١، تاريخ مدينة دمشق

١٢: ٤٠٤.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

الساجدين، وأخضع من خضع لله، فطال سجوده، وطالما وضع جبهته على الأرض ليجتني الزلفى لديه، ويرتفع على سائر الأقران؛ وذلك لحكمة عرفها وغابت عن عداه، حاصلها أن من تواضع لله رفعه الله، وليخسأ جميع أولئك المتغطسين وتلقى جميع مفاخرهم في مهملات التاريخ، ويذهب الزيد جفاءً بينما يمكث ما ينفع الناس في الأرض، فالسجود في الحقيقة هو الخفاض لقفزة ترفع لا لسقوط يخنع.

وما زال السجود هو الامتحان الصعب الذي أخرج إبليس من الجنة بسببه، وذلك بعد عبادة الله على مر آلاف السنين حتى ارتفع إلى أطباق السماوات وظنه الملائكة من المقربين، ولكن حينما أمر بالسجود لآدم والذي هو في الحقيقة سجود وطاعة لرب العالمين أبى ولم يتمكن من السجود لأجل ما يحمله الخبيث من الكبر والأنفة.

ويستمر هذا الامتحان ليبلغ القيامة، هنالك يدعون إلى السجود فلا يتمكنون من ذلك: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(١) ولم يتمكنوا من ذلك لأنهم لم يسجدوا في الدنيا، ولا أهلية فيهم لذلك، وكفى بذلك حسرة.

وعلى العكس من هؤلاء فإن الرسول المصطفى ﷺ لم يتمكن من ترك السجود، وأنه مأمور بـ «كن» التكوين، قال تعالى: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢) فهي من سنخ قوله تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) فلا يستطيع الرسول ﷺ أن لا يسجد، ولا يمكنه أن لا يخضع بعد أن تمخض في العبودية وخلق من أقل كبر فهو اضطرار بالاختيار لا

(١) القلم: ٤٢.

(٢) الحجر: ٩٨.

(٣) يس: ٨٢.

ينافي الاختيار، فكان أعبد العبيد، فقد مرّت امرأة بذيّة برسول الله ﷺ وهو يأكل وهو جالس على الحضيض، فقالت: يا محمد إنك لتأكل أكل العبد وتجلس جلوسه، فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أي عبد أعبد مني»^(١).

وإذا أشرنا إلى آثار السجود فهي كثيرة، منها: أنه سبب للقرب من رب العالمين، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فهو وسيلة للقرب، وأيضاً هو مظنة استجابة الدعاء، وهو نافع في تفعيل خلايا الدماغ بعد وصول الدم الحامل للغذاء إليها.

وهو أيضاً من مفاتيح الجنة، حينما قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه: «حاجتك» فقال: الجنة، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: «نعم» فلما ولى قال له: «يا عبد الله أعتنا بطول سجود»^(٢).

ولا ننسى أنّ السجود هو الذي يترك أثراً على الجسد، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، على أنه هو التجارة وهو المتصود الأول والأخر، قال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إليّ أن أجمع المال وأكن من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»^(٣).

ولما ذكر ابن شهر آشوب أسماء النبي ﷺ وألقابه عدّها منها: الساجد، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٤).

٣٩٤. سادن غيب الله

إن جوهر عمل السادن هو تنظيم الخروج والدخول، وأنّ الداخل

(١) البحار ١٦: ٢٢٥ ح ٣١.

(٢) الكافي ٣: ٢٦٦ ح ٨.

(٣) روضة الواعظين: ٤٥٤، الأمالي للشيخ الطوسي: ٥٣١.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٠، البحار ١٦: ١٠١.

يدخل بأمره وبإذنه، ويمر به، وإنما يطلق ذلك على خدام بيت الله والمتولين لأمره أو أمور بعض الروضات المشرفة أو المساجد مما يكون عمله الأول فتح الأبواب وإغلاقها، وله أن يأذن بالدخول أو يمنع منه، وإنما يشبهه عمل البواب والحاجب.

والحقيقة أن العالم بالغيب هو الله ﷻ ولا يتيسر لبشر الاطلاع على الغيب إلا أن يوحي إليه الله ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾^(١)، ولما كانت الإشارة بكلمة ﴿تِلْكَ﴾ في الآية إلى آيات القرآن علمنا أن أنباء الغيب موجودة في القرآن ولا أقل بعض تلك الأنباء مما يرتبط بمصير البشر ومآل المسلمين وأسرار الكون، ولكن فهم ذلك من القرآن لا يتيسر لأحد إلا بالمرور بالرسول الأكرم ﷺ، فهو يستطيع أن يبين ذلك لمن أراد وبأذن في الدخول إلى ساحة الغيب بتفسيره وبيانه للقرآن وما أوحى إليه إذا وجد الأهلية في المستأذن، وقد لا يأذن ويمنع من ذلك، على أن منعه في الحقيقة هو مجرد امتناعه عن التفسير والبيان، فيكون ﷺ عندها بواباً وسادناً يفتح للناس أبواب الغيب فيطلعون عليه، ويسد عنهم أبوابه فلا يصل علمه إليهم.

وما غلقت هذه الباب بعد وفاته وما تعطلت، بيد أنه وكل هذا المقام والوظيفة لأوصيائه الحجج وقال ﷺ: ﴿نحن - أهل البيت - سدة غيب الله﴾^(٢).

٣٩٥. الساعة الموعد

روي أن رسول الله ﷺ قال: «أنا النذير، والموت المغير، والساعة

(١) هود: ٤٩.

(٢) البحار ٢٥: ٢٢.

الموعده»^(١).

والساعة المقصودة هنا هي الساعة المعهودة التي تناقلها العرب أو طائفة منهم - وقد تشمل الساعة التي وعد بها اليهود أيضاً - وأخذها كل نسل من سابقه حتى يصل إلى بعض الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فقد بلغ عنهم ذلك التحذير، وسمعوا بذلك الإنذار، واستقر في الأذهان، لأجل وجود التساؤل عن مصير الناس في الأذهان على الدوام، فيكون الجواب بالساعة حياً أيضاً وخالداً، كما أنّ فكرة المهدي الموعود عليه السلام حية باقية في هذه الأيام، لأنها ترتبط بمصير البشر ومآلهم، حتى يأتي (عج) فيقول: أنا المهدي الموعود، وكذلك جاء الرسول ﷺ وقال: «أنا الساعة الموعده».

ولما كانت الساعة لا تكون ساعة إلا أن يكون حدثاً مصيرياً هاماً، فإن بعثة الرسول ﷺ كانت كذلك، لأنها خاتمة الشرك وهدم كيانه، بل استئصاله وانتهائه، فهذه الساعة التي وعد بها العرب وفيها نهايتهم ومصيرهم، وفي الحقيقة هي نهايتهم بما هم مشركون ومصيرهم كعبدة أوثان.

وهناك ساعتان أخريان، إحداهما موعود بها جميع البشر، والثانية الأرض.

وتظل الساعة التي وعد بها البشر قائمة إلى ظهور المهدي المنتظر الذي يجيء لينهي جميع الديانات وجميع الحكومات، ليكون الدين واحداً والنظام واحداً.

وأما ساعة الأرض بل ساعة المنظومة الشمسية، تأتي بعد تلك

(١) مجمع الزوائد ١٠: ٢٢٧، مسند أبي يعلى ١١: ١٠، المعجم الأوسط ١: ٣٤، كنز

الساعة، إنما تكون وتحلُّ إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت.

ويدل على أن الساعة المتحدث عنها هي الساعة التي وعد بها العرب اختصاص الخطاب في الروايات بطائفة من العرب، فقد جاء فيها: «يا بني قصي يا بني هاشم يا بني عبد مناف أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد».

وتبقى الساعة التي في القرآن، فقد تكرر ذكرها وأريد بها ساعات متعددة ومتفاوتة، ولعل الساعة المتحدث عنها هي التي جاءت في قوله تعالى في سورة القمر: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾^(١) بقرينة اقترانها بكلمة الموعد.

٣٩٦. الساقى

كل من سقى الماء وغيره فهو ساقٍ، فلماذا كان اسم رسول الله ﷺ هو الساقى؟ فإن الجواب أن ساقى الماء يسقيك ويرويك لبرهة قصيرة من الزمن، والساقى الحقيقي الذي يستحق هذا الاسم بتمام معناه هو الساقى الذي يسقيك جرعة لا تظماً بعدها أبداً، وهو رسول الله ﷺ إذا وقف على الحوض الموسوم بالكوتر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوتَرَ﴾^(٢) والكوتر هو نهر أكرمَ الله ﷺ به رسوله يجري من تحت العرش، فهو للرسول ﷺ ولعلي ولحبي علي عليه السلام كما جاء في الخبر^(٣).

(١) القمر: ٤٦.

(٢) الكوتر: ١.

(٣) أمالي الشيخ المفيد: ٢٩٤، عن عبد الله بن العباس قل: لما نزل على رسول الله ﷺ إنا أعطيناك الكوتر قال له علي بن أبي طالب: ما هو الكوتر يا رسول الله؟ قال:

وإذا كان النبي ﷺ هو الساقى في الآخرة واسمه الساقى عند الكوثر كما ذكره ابن شهر آشوب^(١) فهو لا يعني أن لا يكون ساقياً في الدنيا، كيف وقد كانت قريش تستسقى بغرته إذا أجدبت، ومنعت السماء قطرها.

ومن ذلك ما روي أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ وشكا الجذب وقلة المطر وأنشد أبياتاً فاستسقى رسول الله ﷺ فما ردَّ يده إلى نحره حتى أحلق السحاب بالمدينة كالإكليل فمطروا ثم انحجب السحاب، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «الله در أبي طالب لو كان حياً لقرت عيناه، من ينشدها؟»

فقام علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: كأنك أردت يا رسول الله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٢)

وهذا البيت لأبي طالب قاله لما استسقى لقريش حينما أجدبت جذباً شديداً والتجأت إلى أبي طالب فخرج بالنبي ﷺ وهو غلام واستسقى بغرته فمطروا، والقصة معروفة.

ولا ننسى ما قاله شبيه المصطفى يوم عاشوراء عندما أراد أن يفارق الحياة: هذا جدي قد سقاني من كأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً.

٣٩٧. السبت

سئل الإمام أبو الحسن العسكري عما يروى عن النبي ﷺ: «لا تعادوا الأيام فتعاديكم» ما معناه؟ قال: نعم الأيام نحن ما قامت السماوات

نهر أكرمني الله به، قال علي عليه السلام: إن هذا النهر شريف فانعته لنا يا رسول الله، قال: نعم يا علي الكوثر نهر يجري تحت عرش الله تعالى، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢.

(٢) أمالي المفيد: ٣٠١ ح ٣، مستدرک الوسائل ١٠: ٣٨٧ ح ١٢٢٣٨، الخرائج والجرائج ١: ٥٩، السنن الكبرى ٣: ٣٥٣ - ٣٥٦.

والأرض، فالسبت اسم رسول الله ﷺ، والأحد كناية عن أمير المؤمنين، والاثنين الحسن والحسين، والثلاثاء...^(١)

قال الصدوق: الأيام ليست بأئمة، ولكن كني بها عن الأئمة لثلا يدرك معناه غير أهل الحق، كما كنى الله ﷻ باليتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين عن النبي ﷺ وعلي والحسن والحسين عليهم السلام، وكما كنى ﷻ بالنعاج عن النساء على قول من روى ذلك في قصة داود ﷺ والخصمين^(٢).

وأنا لا أنفي توقف الظرف على المظروف، فإذا كان السبت هو اليوم الأول للخلقة والنبي ﷺ هو أول مخلوق كما هو مستفاد من الأخبار أمكن تسمية النبي ﷺ بالسبت لأجل ذلك التوقف، وإن كانت التسمية تستدعي التطابق ولا يكفي فيها التوقف فلا مانع من أن استفيد من هذا الخبر التطابق، فالיום الأول هو المخلوق الأول، واليوم الثاني هو المخلوق الثاني أعني أمير المؤمنين ﷺ، ويبقى تعقله وتصوره بحاجة إلى فضاء أوسع.

ولكن إثبات مثل تلك الحقائق الخطيرة بخبر واحد لا يخلو من مجازفة، وإنما قلت ذلك على فرض صحة الخبر.

كما لا أستبعد أن يكون لفظ السبت اسم لرسول الله ﷺ خصوصاً في الكتب السابقة التي عظمت السبت، فهي في الحقيقة تعظيم للنبي ﷺ وإن كان بنحو الكناية لمصالح كامنه، قد يفسرها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٣) مع الالتفات إلى أنه لاخلاف في

(١) النحل: ١٢٤.

(٢) الخصال: ٣٩٦.

(٣) النحل: ١٢٤.

السبت، وإنما الاختلاف في النبي الأُمي الذي جاء ليقضي على اليهود وقد جعل عليهم.

كل ذلك احتمالات وتمحلات لا أستطيع أن أذكر ما يزيد عليها.

٣٩٨. سبط الشعر

روي عن علي عليه السلام أنه قال: «كان نبي الله ﷺ سبط الشعر»^(١) وسبط الشعر هو المسترسل شعره المنبسط، وقد تقدم أن الرسول ﷺ كان رجل الشعر بمعنى أن في شعره نوع تعقف وتكسر، وذكرنا هناك أنه ﷺ بين عرب الجزيرة سبط الشعر؛ لأن الغالب فيهم وفي جميع سكان المناطق الحارة هو الجعد، فمن يكون الغالب في شعره الاسترسال سمي سبط الشعر، وإن كان بالقياس إلى سكان البلاد الباردة جعد الشعر أو رجل الشعر.

هذا بالإضافة إلى أن شدة عناية الرسول ﷺ بشعره وأمره بذلك قائلاً: «من اتخذ شعراً فليحسن ولايته»^(٢) مع استعماله الدهن في بعض الأحيان، وكثرة تمشيطة بهدف دفع الوباء وترغيب الناس في الاقتداء به، ورعاية النظافة وتحسين الظاهر.

كل ذلك مما يجعل شعر الرسول ﷺ مسترسلاً وإن كان في الأصل فيه نوع من التعقف والتكسر.

٣٩٩. سبط القصب

المراد بالقصب في هذه المواضع هو العظام المجوفة المشتملة على مخ العظام التي تشبه قصب السكر في تجوفها وامتدادها، فيكون المراد هو عظام الذراعين والساقين.

(١) أمالي الطوسي: ٢١٧، البحار: ١٦: ١٤٧.

(٢) الكافي: ٦: ٤٨٥ ح ٢.

والمراد بالسبط هو الممتد الخالي من النتوء والعقد والزيادة والنقيصة، كل ذلك مما يفسر تمام خلقة، وخلو بدنه من العيوب والزوائد والتعقيد والاعوجاج.

قال هند بن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ سبط القصب^(١).

٤٠٠ . السبيل

السبيل هو الطريق مع فرق واحد وهو أن الطريق يقع في الخير والشر، والسبيل أكثر وقوعاً في الخير، فإذا أريد الطريق الواقع في الخير أضيف إلى شيء كطريق الحق.

والمعلوم أن الطريق لا يكون طريقاً بترابه وأحجاره، وإنما يكون طريقاً بدلالاته وبعد ما يصير له معالم من كثرة المرور فيه والاستفادة منه.

ويتضح جوهر طريقة الطريق وحقيقتها إذا قيل لك: خذ هذا الطريق فإنه يوصلك إلى المكان الذي تريد الوصول إليه، فسُيرت فيه وتابعت انعطافاته ولاحظت دلالاتها، وسأيرته في منخفضاته ومرتفعاته فإن هذه الأمور هي التي ستوصلك في الحقيقة.

وإنما كان الرسول المصطفى ﷺ هو السبيل، فلأن الانتباه إلى دلالاته و متابعة معاطفه ومسأيرته هي التي توصل إلى الجنة، ومعنى مسأيرته هو الاقتداء بعمله ومتابعة آثاره وموافقته في صفاته من التواضع والمنجزة، والرحمة والشفقة والعطف والعبادة والكرم والتؤدة وغير ذلك.

فإن ذلك هو الموصل إلى الجنة والسعادة الأبدية، كما أن موافقة الطريق في الهبوط والصعود والانحراف والاستدارة هي التي توصل إلى المكان المقصود.

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ: ١٧٦، ١٧٨، البحار ١٦: ١٤٩.

قال رسول الله ﷺ: «لنحْن السبيل لمن اقتدى بنا نحن الهداة إلى الجنة»^(١).

٤٠١. السبيل الأقوم

الطرق مختلفة، والسبل متفاوتة، فمنها واضح المعالم لم تمح آثاره، ومنها ما ضعفت ملامحه وقلت آثاره، ومنها ما هو كثير الانحراف والانعطاف، وغيره مستقيم لا عوج فيه، وكذا فإن بعضها كثير المفترقات والمتاهات، في مقابلة ما هو قويم معتدل، فيكون الأقوم هو الأكثر اعتدالاً وأشد استقامة.

فالرسول المصطفى وأهل بيته المعصومون هم السبيل المستقيم الذي يخلو من المفترقات والتقاطعات المعقدة، فمن يتبعهم لا يقدر له الضلال والتهيه حتى يصل إلى الجنة، ولكنه لو اتبع المتبع أصحاب الآراء والأهواء والخلفاء غير الشرعيين إنما يكون في سبيل تكثر متاهاته ومفترقاته، غير خالٍ من الأعوجاج والتقاطع الموهم، فلا يكاد يبلغه إلى السعادة الأبدية.

ولذا ورد في كثير من الأخبار أن أهل البيت عليهم السلام هم السبيل الأقوم^(٢).

٤٠٢. سبيل الله

هناك تفاوت في المواد المشكّلة للطرق المعتادة مع المواد المشكّلة للسبيل إلى الله ﷻ، وكذا في كيفية تعبيدها وسكها وسحقها، وإن توافقتا في الروح والتقريب إلى المقصد.

فالسبيل إلى الله هو ما رسمه الله ﷻ من القوانين والسنن والأفعال

(١) بصائر الدرجات: ٨٣، كمال الدين: ٢٠٦، بنابيع المودة: ١: ٧٧، البحار: ٢٥: ٢٣.

(٢) اليقين لابن طاووس: ٣١٩، البحار: ٢٦: ٢٥١، تفسير فوات: ٣٩٦.

التي يفعلها الفاعل لله سبحانه ولأجل التقرب إليه، فمقاطع ذلك السبيل وأجزاؤه هي الأعمال المقربة إلى الله سبحانه.

فإذا أردنا أن نرسم الطريق بدأناه بالإيمان بالله الواحد سبحانه الذي هو المقطع الأول من الطريق، بمعنى الشهادة له سبحانه بالتوحيد والاعتقاد بذلك، والثاني الإيمان بعبادته سبحانه، وقبول الرسول هو الثالث، ثم الإمامة والمعاد والصلاة والصوم والحج والصدقة.

وإنما صار ذلك طريقاً إلى الله سبحانه لأن كل مقطع منه يقرب إلى الله، فكما أن اجتياز مقاطع الطرق المعتادة تقرب إلى المقصد، فكذلك اجتياز كل واحد من تلك الأعمال يقرب إليه سبحانه.

وإذا صار الطريق طريقاً معبداً لكثرة المرور عليه ودوامه، فإن الطريق إلى الله سبحانه قد كثر المرور عليه، لأن كل واحد من الأنبياء وأتباع الأنبياء سلك ذلك الطريق ومر بتلك المقاطع واجتاز تلك الفواصل حتى وصل إلى الله سبحانه وإلى السعادة الأبدية.

ويبقى أن الراسم لذلك الطريق هو الله سبحانه، والمرسوم أي أول الأقدام والآثار المشكّلة له هو الرسول المصطفى ﷺ، فهو الوجود لتلك المقاطع بجميع مراحلها، إذ أن حقيقته ﷺ بما هو رسول هو اعتقاداته وأعماله، وكل من سار وسلك، إنما سار على أثره، وتابع معالم حركته، ولما كان كل أعماله مقربة إلى الله سبحانه كان هو السبيل إلى الله، وكما قال أبو جعفر الطوسي: «إن رسول الله ﷺ باب الله الذي لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله ﷻ»^(١).

٤٠٣ . سبيل الهدى

إذا أردت السفر إلى مكان أو بلد، فسألت عن الطريق والسبيل، فنعتوا

(١) الكافي ١: ١٩٧، البحار ١٦: ٣٥٩، بصائر الدرجات: ٢١٩.

لك طريقاً فلما سلكته تحيرت في وسطه لكثرة تقاطعاته وانحرافاتة حتى صرت في وسط صحراء قاحلة تشابهت أطرافها ونهت في وسطها، فهذا طريق ضلال. وإذا نُعت للإنسان طريق يوصل إلى الله سبحانه وينتهي إلى السعادة الأبدية، فإذا أتمه ومات فوجد أن ذلك لم يوصله إلى رضوان الله سبحانه، بل أوصله إلى سخطه فهذا طريق ضلال.

والرسول المصطفى ﷺ ليس كذلك، فهو سبيل إلى الله سبحانه، وهو سبيل هدى، لأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله ﷻ وهو الناسخ لجميع الأديان: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١) وهذا أمر طبيعي من كل أمر ومقنن، فهو يرتضي آخر القوانين التي سنّها دون ما تقدّم عليه، وآخر الأوامر التي أصدرها، دون ما عداها.

ولما كانت الشكوك والأوهام تُساور أولئك الذين دخلوا في الإسلام قهراً وكذا من كان جديد العهد بالإسلام، فهو يتساءل إذا كان هناك خالق وجنة ونار فهل هذا الدين هو الدين الصحيح، أو أن الدين الصحيح ما عداه، وهل حقاً سينفع العمل به أو لا ينفع؟

ومن أجل ذلك درك الرسول ﷺ لذلك التساؤل المطروح في النفوس قام خطيباً فقال: «لن سبيل الهدى»^(٢) مؤكداً ذلك لرفع تلك الأوهام وتلك الشكوك، بملاحظة الناس لجزمه وقطعه ومعروفية صدقه، فهو الصادق الأمين.

٤٠٤ . سخي الطبع

هناك فرق بين الجود والسخاء، فإن الجود هو كثرة العطاء، والسخاء هو أن يلين الإنسان للسائل، ويسهل مهره للطالب، فيقبل عليه بوجهه،

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) تفسير الفرات: ١١٠، البحار: ١٦: ٣٧٦، وج: ٢٦: ٢٤٤، الخصال: ٢: ٥١.

ويستقبله برفق، ويمنحه عزمه وعطفه، ويهبّ لإجابته وإن لم يتمكن بالنتيجة من إعطائه وقضاء حاجته؛ لأن السخاء هو سخاء النفس ورخصها ووضعها في اختيار الطالب يسخرها لمراده.

ومن أجل ذلك لا يقال لله ﷻ سخي لأنه لا يلين، بل هو جواد كثير العطاء.

والمطالع لحالات النبي ﷺ ومعاملته مع السائلين أو كل من يشعر أن له حاجة يجد أن تلك المعاني موجودة فيه بآتمها، بل قد تفوق حد التصور.

وأفضل دليل على ذلك أنه ما سئل شيء قط فقال: لا، بل كان يهبّ لمساعدة السائل بحيث يجزم السائل أنه بذل جميع ما بوسعه من أجله، فإذا كان عنده أعطاء، وإن لم يكن عنده اقترض له، وإذا لم يكن من يقرضه قال: ابتع علينا وأنا أقضيه، وإذا لم يتوفر شيء من ذلك خلع ثوبه وأعطاه السائل فيظل عارياً.

على أن تعامله ذلك يعم السائل وغيره إذا عرف حاجته، كما جاء في قصة الجارية التي جاءت لتأخذ هدية من ثوبه، فبمجرد ما أحس بذلك قام لها، فرجعت حياءً، ثم جاءت مرة أخرى فقام لها وكرر ذلك أربع مرات حتى جاءت وأخذت الهدية وذهبت، وقد تقدم ذكر هذه القصة في عنوان ألين الناس عريكة.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال: «ما عندي ما أعطيك، ولكن ابتع عليّ شيئاً، فإذا جهاني شيء قضيت». فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه؟ فكره النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقللاً،

فتبسم رسول الله وعرف السرور في وجهه لقول الأنصاري^(١).

وكراهة رسول الله قول عمر وتبسمه لقول الأنصاري هو آية سخائه، بل هذا هو السخاء الذي نتحدث عنه.

ومرت امرأة بدوية برسول الله ﷺ وهو يأكل، فقالت: فناولني لقمة من طعامك، فناولها، فقالت: لا والله إلا التي في فمك، فأخرج رسول الله ﷺ اللقمة من فمه فناولها^(٢).

وروي أن رسول الله ﷺ كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، قال: فأرسلت إليه امرأة ابناً لها، فقالت: انطلق إليه فأسأله فإن قال: ليس عندنا شيء، فقل: أعطني قميصك فاتاه الغلام فسأله فقال النبي ﷺ: «ليس عندنا شيء»، فقال: فأعطني قميصك، فأخذ قميصه فرمى به إليه، فأدبه الله على القصد فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٣).

ثم إن سخاء النبي ﷺ لم يكن تكلفاً وتصنعاً، ولا يكون مثل هذا السخاء تكلفاً بل هو جبلة وطبع، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في خطبة يذكر فيها صفات النبي ﷺ: «أبطحي لا يسامى، شيمته الحياء، وطبيعته

(١) مجمع الزوائد ١٠: ٢٤٤، وأخرجه الترمذي برقم ٣٣٨، والبيهقي في الأنوار برقم ٣٦٧، والبحار ١٦: ٢٣٢.

(٢) المحاسن: ٤٥٧، البحار ١٦: ٢٢٥ ح ٣١، وانظر الكافي ٢: ١٥٧.

(٣) تفسير العياشي ٢: ٢٨٩، البرهان ٢: ٤١٧، ويقرب منه ما في تفسير القمي ٢: ١٨، إن رسول الله ﷺ كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً عنده، فجاءه رجل فسأله فلم يحضره شيء، فقل: يكون إن شاء الله، فقل: يا رسول الله أعطني قميصك، وكان ﷺ لا يرد أحداً عما عنده فأعطاه قميصه فانزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً...﴾ والآية في سورة الإسراء: ٢٩.

٤٠٥. السراج

إذا كان السراج هو ذو النور فالرسول المصطفى ﷺ له نور، وقد ذكر واصفوه ﷺ أن وجهه كان يتلألأ تلالؤ القمر ليلة البدر^(٢) وقيل: كان إذا مشى في ليلة ظلماء بدا له نور كأنه قمر^(٣).

وكذا فإن الرسول ﷺ يضيئ لأهل السماء كما أن الشمس تضيئ لأهل الأرض، وهو المصباح المذكور في سورة النور، كما ورد في كل ذلك أحاديث وروايات كثيرة.

وإذا كان السراج كناية عن الهداية، وأريد منه عمله وفعله، فإن الرسول ﷺ يُهتدى به في الدين كما يُهتدى بالسراج، وتحصل النجاة به من ظلمات الشقاء والضلالة، فهذا من الاستعارة؛ لأن النبي ﷺ بعث وقد أطبقت ظلمة الشرك على الأرض، فكان كالسراج الذي يظهر في الظلمة.

ثم إن سراجية النبي ﷺ تمتاز بلمعان ضوئه وكثرة نفعه، قال علي رضي الله عنه في النبي ﷺ: «فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه»^(٤).

وقال رضي الله عنه في خطبة: «حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ فأخرجه من أفضل المعادن... فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه»^(٥).

(١) الكافي ١: ٤٤٤ ح ١٧، البحار ١٦: ٣٦٩، البحار ١٦: ١٤٩ ح ٤.

(٢) معاني الأخبار: ٨٠، البحار ١٦: ١٤٩ ح ٤.

(٣) البحار ١٦: ١٧٦.

(٤) نهج البلاغة: ١٨٥.

(٥) البحار ١٦: ١٧٦.

وسياتي بعض التفصيل في عنوان «السراج المنير».

٤٠٦. سراج الأصفياء

الأنوار منها ما هو ظاهر وينتفع به كل أحد، ومنها ما هو خافٍ ينتفع به الخواص كالأنوار فوق البنفسجية أو مادون الحمراء، فلا يمكن رؤيتها ولكن لها آثار لا تكون لغيرها ولها تأثيرات أكثر عمقاً وشدة.

فكذا أنوار الهداية النبوية، فمنها ما هو ظاهر يراه كل أحد وهو الذي يهدي إلى التوحيد ونفي الشرك ومكارم الأخلاق، والأحكام النافعة للعموم، وهناك أنوار ما فوق البنفسجية يستلهمها الأصفياء ويكون لها تأثيرات أعمق وأكثر تعقيداً تنفعهم في التقرب إلى الله سبحانه وبلوغ المراتب السامية والمقامات الرفيعة، فيصير لهم علو وإشراف وحتى سلطة على الأمور الكونية.

فالرسول المصطفى ﷺ هو سراج وسراج منير للعموم، وهو سراج الأصفياء الذي يهديهم إلى أكثر مما يهتدي به العموم، ويعلمهم من العلوم التي لو اطلع عليها عامة الناس ما احتملوها.

على أن الأصفياء جمع صفي، والصفي الخالص من كل شيء، ولا يكون كذلك إلا المعصوم وهم الأئمة من أهل البيت ﷺ وأهمهم الزهراء فاطمة سيدة نساء العالمين ﷺ.

ولذلك جعل ابن شهر آشوب من القاب النبي ﷺ أنه سراج الأصفياء^(١).

٤٠٧. السراج المنير

قال الله ﷻ: ﴿بِأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار: ١٠٦.

وَدَاعِيكَ إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١١﴾.

وإرسال السراج يدل على وجود عدة أمور، وهي: الظلمات، وأسبابها، وزيت واحتراق وسراج ونور ومجل ومجل وكاشف ومنكشف.

فالظلمات هي الكفر والشرك والضلال، وسفك الدماء بغير حق وأنواع الفساد والإفساد، وأسباب الظلمات وهي السحب القائمة والعجاجة المغبرة المتمثلة في الجهل وأبواق الشرك والضلال، وإطباق سماء الأذهان بلجتماع الناس على ذلك، وتبليغ مادة الفساد وغلبة العصبية والشهوات.

والزيت هو بدن النبي ﷺ وساعات عمره وكل طاقاته وما ملكته يمينه ومشاعره وأحاسيسه.

والاحتراق هو تحمل ذلك البدن أنواع الصدمات والضربات وأشد العناء، وصرف ساعات العمر وكل الطاقات وما يملك من الأموال والأقرباء في سبيل الدعوة، والأهم من ذلك ما لاقاه من جرح المشاعر والظعن عليه ومحاربه بشتى الوسائل، وسفاهة بعض من حوله وغلظتهم عليه وجهلهم الذي يجمعه جامع آلام النبي ﷺ ومعاناته في سبيل نشر الدعوة وبسطها في الأرجاء، حتى سُمّ وقتل أو مات متأثراً بذلك.

والنور هو أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وصفاته وخلقه، وقرآنه ومواعظه وإرشاداته.

والجلي هو تدبير النبي ﷺ ودعوته وتبليغه وهدايته وحرصه وجيوشه التي أجابت تلك السحب وأزاحت الجهل، وجلت الغبرة، فالمنجلي هي السحب والغبرة المتمثلة في الجهل وهيمنة الكفر وسلطته وقهره للمساكين، وغلبة الاعتقاد بالأصنام والقول بالابن وإلهين وغيرها.

والكاشف هو نفس النور، والمنكشف هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ودينه القيم وما ينفع الناس من مكارم الأخلاق الفاضلة، والأحكام العائدة بالنفع إلى البشر، وشتى أنواع العلوم والفنون والحقائق التي خفيت على الناس.

وكذا فإن الرسول ﷺ سراجٌ كَشَفَ عن كل ذلك، بالإضافة إلى الكشف عن نفس وجوده الشريف الذي لولا انكشافه لما انكشفت الحقائق، بل ما وجدت، ويكمن في انكشافه ﷺ فوائد لا تحصى. وهناك خصوصيات لهذا السراج يمتاز بها على ما عداها:

منها: أنه شديد النور، قال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ وذلك لاقتضاء الضرورة لمثل ذلك، المتمثلة في شدة الظلمات، فهي ظلمات ثلاث إذا أخرج المخرج يده لم يكدرها.

والظلمات الثلاث: هي الليل الدامس المتمثل بالكفر والشرك الذي شمل العالم، والسحاب المطبق المتمثل بالجهل، والغبرة المتمثلة بالشهوات والعصبيات وجميع الماديات، فالسراج يجب أن يكون منيراً مجرداً يتمكن من كشف ظلمة ليل الكفر ويجلي سحائب الجهل ويزيح الغبرة المتركمة.

ومنها: أن هذا السراج وهَّجَ أسرجة أخرى لتحترق وتضيئ، وهي المتمثلة بأهل بيته ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، واحتراقها هو فناؤها واستشهادها في ذلك السبيل.

ومنها: أن هذا السراج لم يختص بطائفة خاصة من الناس، وليس كالسراج التي يعدمها الفقير والمنقطع به، ويجدها الغني؛ فإن الرسول ﷺ سراج يتمكن الجميع من الاستضاءة بنوره، بل هو للفقراء والمعدمين أكثر نوراً ونفعاً من الأغنياء والمترفين.

ومنها: أن كلمة السراج في كلام الله ﷻ لا تعني السراج المتعارف، وإنما

استعملت في الشمس قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾^(٢) ومنه يعلم أن السراج الذي يتكلم عنه الله سبحانه ليس هو السراج المتعارف، بل سراج خاص، أعني كالشمس، فيكون المعنى: أرسلناك شمساً، والشمس لا تقتصر فائدتها على الإنارة والإضاءة والهداية، بل تشمل جميع الحياة كنمو النبات ودبيب الحياة على الأرض، فالرسول كذلك سراج له حق الحياة بما انتشر عنه من العلم ليبلغ التقدم العلمي الحالي الذي لولاه لما تيسر هذه الأعداد الهائلة من البشر من العيش على الأرض.

ولأهمية هذه الصفة للرسول ﷺ اختارت «موسوعة الرسول المصطفى ﷺ» هذه الآية لتكون شعارها تتصدر كتبها تيمناً وتبركاً بهذا العنوان، واستنارة بالسراج المنير، أعني الرسول المصطفى ﷺ.

٤٠٨. سفير الله

إن الدبلوماسية السماوية قائمة لتحقيق أهداف عظيمة، وممارسة أعمال جبارة، في مجال تنظيم العلاقات والروابط السماوية الأرضية على مختلف الأصعدة التي يجب أن تتناولها الدبلوماسية الدولية، أو ستتناولها، بل تزيد عليها بما يخرج عن حد التصور.

فلم تكن الدبلوماسية السماوية لتخضع لضيق الاصطلاح وضحالاته في زمان من الأزمنة - أعني زمان النبي ﷺ - وحتى زماننا هذا، إذا قدر لها التوسع في المستقبل أو لم يقدر لها مما لم تحط به علوم البشر أو تبلغه احتياجاتهم في مجال تنظيم العلاقات الراهنة.

(١) الفرقان: ٦١.

(٢) نوح: ١٦.

فقد كانت السفارة في زمن النبي ﷺ تعني التوسط لإيقاع الصلح وتقريب الآراء فقط، بينما هي اليوم توسّعت لتشمل جميع أعمال السفير في مجال تنظيم الروابط وتعميقها بين الدولة المتبوعة له، والدولة التي يقيم فيها، وكذا القيام بتأمين مصالح الدولة المتبوعة له، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو قانونية أو اجتماعية وغيرها.

فالسفارة الإلهية تعني كل ما يمكن أن يفرض من صلاحيات السفير ومهامه العلنية والسرية.

وحتى مثل تأشيرات الدخول، سواء كان بمعنى الدخول في ساحة الإيمان أو الورود على الله ﷻ، بل حتى أقل ارتباط بالسماء.

ينبع كل ذلك من عدم تناهي المهمات الدبلوماسية وعدم المحصر مقاصد البعثة في جهة معينة؛ لعظمة مقام الرسالة والسفارة الإلهية من حيث المبدأ والمنتهى؛ إذ المبدأ هو الله سبحانه الذي لاحدٌ لشيء من صفاته وآلائه، والمنتهى هو عامة أهل الأرض في عصور متمادية، مما يفسّر كثرة المراودات والمطالبات وتنوع الذاهب والجائي واختلاف الاحتياجات.

على أن السفارة الإلهية لا تقف عند مطالبات المراجعين فقط، بل هي الرابط الوحيد ومحل الاتصال المنحصر، مما يجعلها تشمل كل اتصال بالسماء وكل مسألة وكل دعاء ورجاء، والأدلة على ذلك كثيرة^(١).

فكل ذلك وأمثاله لا يقدره الموفقية وحتى تحقق أقل اتصال إذا لم يكن بتوسط السفير الإلهي.

(١) منها ما ورد في أحبار عديدة: «لا يزال الدعاء محبوباً حتى يصلى على محمد وآل محمد انظر الكافي ٢ : ٤٦٠ ب ٤١٥ وقال تعالى: ﴿وَكُذِّبَتْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء

فلا بد من التقدّم بالطلب إلى الرسول المصطفى ﷺ ليرفعه ويشفع فيه إذا رأى فيه نوعاً من الصلاح^(١).

ومن خلال هذا البيان يعلم أن عنوان «سفير الله» ليس هو نعت ينعته به أحد، بل هو مقام رفيع يحتاج إلى نصب وتمثيل من قبل الباعث، فلذا لم يجئ ذلك إلا في كتاب ومرسوم سماوي جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم محمد نبيه ونوره وسفيره وحجابه نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين».

ولا يزال هذا الكتاب محفوظاً عند أهل بيت الرسول ﷺ لا يبرزونه إلا لخص أوليائهم^(٢).

٤٠٩ . السفير بين الله وخلقه

ونحن إذ فسّرنا السفارة الإلهية بالمعنى الأتم فذاك في عنوان سفير الله ﷺ، وهنا الكلام في السفارة من الطرفين، أي السفير بين الله وخلقه، المشعر بإرادة التوسّط وإيجاد الارتباط وإيقاع الصلح كما هو معروف من معنى السفير في زمان النبي ﷺ.

فهو ﷺ سفير الله إلى خلقه بالإنذار وبيان ما يسخط الله ويرضيه، وسفير الخلق إليه تعالى في طلب المغفرة والاعتذار والمطالبة برفع الأضرار والأغلال والتخفيف على الأمة، وحتى رفع حوائج الناس إليه.

(١) يدل على ذلك ما ورد في استسقاء الرسول ﷺ، قالوا: يا رسول الله استسقيت لنا فلم نسق، ثم استسقيت لنا فسقينا؟ قال: «إني دعوت وليس لي في ذلك نية، ثم دعوت ولي في ذلك نية» الكافي ٢ : ٤٤٥ ب ٤٠٤ ح ٥.

(٢) الكافي ١ : ٥٢٧، الهداية الكبرى للخصيبي : ٣٦٥، كمال الدين : ١٧٩، ١٨٠، عيون أخبار الرضا (ع) : ٢٥، ٢٧، البحار ٣٦ : ١٩٥.

وإنما يتحقق توسط النبي ﷺ إذا اعترفت له بذلك، بأن تسلّم عليه بالسفارة كما جاء في بعض زياراته ﷺ : «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك أيها البشير النذير، السلام عليك أيها السراج المنير، السلام عليك أيها السفير بين الله وبين خلقه»^(١).

ويبقى في البين إشارة ظريفة وهي أن النبي ﷺ له وجهان، وجه إلى الله سبحانه بحقيقة نورية قابلة لذلك مما لا يمكن معرفته، ووجه إلى الخلق يتنزل ليلبغ مرتبة معايشة الخلق الداني المصبوغ بسواد الخطيئة.

٤١٠ . سفير وحي الله

السفير هو المتوسط بين وحي الله سبحانه وبين الناس، ولم تتضح معالم الوحي ولا كيفيته وهل هو بإلقاء المعاني أو إلقاء الكلمات غير أنني سأذكر ألفاظاً تقدر بعض التصورات عن الوحي.

فقد ورد أن الوحي كان إذا نزل على رسول الله ﷺ تغشاه ثقل حتى لا تكاد تطيق ناقلته أو بغلته حمله، ويسخن بدنه ويتصبب عرقاً، وفي بعض الأحيان كان يُغشى عليه ﷺ^(٢).

ولو لاحظنا أن كلمة الوحي حيث تستعمل في توجيه النحلة، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾^(٣) وتستعمل في الكلام الخفي: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ

(١) إقبال الأعمال ٣ : ١٢٩.

(٢) روي أن النبي ﷺ نزلت عليه بعض الآيات وهو على بغلته الشهباء وثقل عليه الوحي حتى وقفت وتدل بطنها حتى رُئيت سرتها تكاد تمس الأرض، وأغمي على رسول الله ﷺ حتى وضع يده على رأس شيبه بن وهب. مجمع البيان ٣ : ٢٥٧.

(٣) النحل: ٦٨.

إِلَى بَعْضِ زُخْرَفِ الْقَوْلِ غُرُورًا^(١) وَالْإِلْهَامِ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾^(٢) والإشارة: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٣) عرفنا أن الوحي له مراتب ولكن الجميع من جنس الإلقاء الخفي، ويشترك في استلام النفس لعلامات وإشارات موجودة وحقائق ثابتة غير أن التفاوت في المستلم وقدرة المستلم وقابليته.

والقابلية تكون مرة موجودة في النفس ثابتة بتمام محفزاتها، ومرة تحتاج إلى محفز خارجي لتفعيل الذهن أو النفس كما يتفق في الإلهام الذي يكون المحفز له هو الظروف والوضع النفسي، وخصوصاً الجوع وجامع الانقطاع والابتعاد عن الدنيا والحيوانية.

فإن ظروف الخوف التي كانت تحيط بأُم موسى ﷺ بالإضافة إلى عوامل أخرى هي التي حفزت ذهنها ونفسها لتبلغ المرتبة التي تستلم معها ذلك الواقع المغفول عنه.

وهكذا تتدرج المحفزات لتبلغ الوحي والمَلَك الذي ينزل على النبي ﷺ ليحفز نفسه وذهنه ويفعلها حتى تبلغ إلى مرتبة يستلم معها تلك النداءات أو يرى تلك المعاني، وهذا هو الذي يكلف الوسائط المادية والذهن الإنساني جميع قابليتها ونهاية فعاليتها مما يتوقف على توظيف جميع أعضاء البدن لتأمين ذلك المستوى من فعالية الذهن، فيتزايد ضربان القلب إلى أقصى الحدود، وتتعجل سرعة دوران الدم فيسخن البدن ويعرق من سخونته، فيستنزف جميع طاقته حتى قد تتعطل أعضاؤه، وبذلك يشغل البدن عند ذلك الحال كما هو معلوم.

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) القصص: ٧.

(٣) مريم: ١١.

هذا ما تكلفناه من الألفاظ التي قد تقدح فكرة - ولو قاصرة - عن عملية الوحي التي تُفسّر شهادة عالم الأمة وربانيها أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «وأشهد أن محمداً نجيّب الله وسفير وحيه ورسول رحمته»^(١).

وتبقى الإشارة إلى أنّ الاستفادة من الآثار والحال أن عملية الوحي هي عملية سريعة وخاطفة، وذلك لثقلها وعدم احتمالها، فإن معنى الوحي هو الإسراع، وهو الملاحظ في الإلهام الذي قد يحصل لبعض الناس أو حتى عامتهم، وورد أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا نزل عليه الوحي عجل قراءته مخافة نسيانه^(٢)، ولذا احتاج إلى تقوية الذاكرة فقال تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٣) ومن هنا كان طول فترة نزول الوحي تؤدي إلى حصول الغشيان. ولموضوع الوحي وحقيقته مظاهره في كتب العقائد لمن شاء التفصيل.

٤١١. السلسبيل

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لحن السبيل والسلسبيل»^(٤).

والسلسبيل في اللغة هو ما كان في غاية السلاسة، وإنما سميت العين التي في الجنة سلسبيلاً لأنها كذلك، وعن أبي جعفر عليه السلام: «أن معناها لينة فيما بين الحنجره والحلق»^(٥).

والاختلاف في معنى السلسبيل شديد والأقوال كثيرة ولكن الأكثر على إرادة السلاسة واللين، فلعل مراد الرسول صلى الله عليه وآله من قوله: «لحن

(١) نهج البلاغة ١: ٤٣٣، البحار ١٦: ٣٨٢.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٣٣٠.

(٣) الأعلى: ٦.

(٤) البحار ٢٥: ٢٣.

(٥) لسان العرب ١١: ٣٤٤ «سلسبيل».

السلسبيل^١ أي في غاية السلاسة والليونة، أعني: سلاسة الطبع وليونة العريكة، وقد مر أنه ﷺ ألين الناس عريكة، ولا يخلو من عداهم من غلظة وحدة وصخب، فكل ما يتصور أنه سلسبيل فهو ليس كذلك بواقع الحال، ولا مصداق لذلك سوى النبي وأهل بيته ﷺ.

فهم على أتم معنى الانقياد والسلاسة ولين العريكة في مقابل أوامر الله سبحانه، وكذلك في مقام قضاء حوائج المؤمنين، وآية ذلك أن رسول الله ﷺ ما سئل شيئاً فقال لا، حتى من مثل أبي سفيان، وقد تقدم نقل ذلك.

٤١٢ . السماء

السمو الارتفاع والعلو، وسماء كل شيء أعلاه، والسماء سقف كل شيء وكل بيت، وهكذا فكل عال مما أظل الداني يكون سماءً له، ولذا فإن السقف سماء الدار، والمطر سماء الأرض، فيقال: أصابته السماء، والسحاب سماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾^(١) والسماء الدنيا أي مواضع النجوم سماء: ﴿وَكَعَدْنَا زِينَةَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾^(٢) والسماء الأولى للدنيا سماء والثانية للأولى سماء، وهكذا، والكل سماء بالإضافة إلى شيء وإلى ما يعلوه ويرتفع عليه، حتى يبلغ أعلى الخلائق وارفعها، وهو وجود الرسول المصطفى ﷺ فهو أثر الخلق عند الله وأول مخلوق، وفوق كل شيء ليس فوقه فوق من المخلوقات، ولا وراءه شيء، فكل من تعلم سما إليه، وكل من تعبد سما ليكون بمنزلته، وكل من تخلق بالأخلاق الحسنة يسمو ليبغ مرتبته، وهكذا.

فالرسول ﷺ له سمو خلقي إذ كان أول مخلوق.

(١) الأنعام : ٩٩، إبراهيم : ٣٢.

(٢) الملك : ٥.

وله ﷺ سمو وارتفاع بدني حينما عرج به إلى السماء حتى دنى فتدلى ووطأ موضعاً لم يطأه أحد، وأيضاً له سمو وارتفاع معنوي لما كان أفضل الخلائق والمقرب عند الرب، وهو أقرب الخلائق إليه، ومعه لا يكون فوقه شيء، فهو سماء على الإطلاق ولا يحتاج إلى إضافة.

ولذا ورد في أخبار كثيرة أن كلمة السماء في القرآن أريد بها النبي ﷺ في الغالب، خصوصاً في موارد القسم.

فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ هو محمد، هو السماء الذي يسمو إليه الخلق في العلم^(١).

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قال: «السماء رسول الله ﷺ رفعه الله إليه، والميزان أمير المؤمنين عليه السلام»^(٢).

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ أن رسول الله ﷺ قال له: «أتقدّر يا ابن عباس أن الله يقسم بالسماء ذات البروج، ويعني به السماء وبروجها؟» قلت: يا رسول الله فما ذاك؟ قال: «وأما السماء فأنا، وأما البروج فالأئمة بعدي»^(٣).

٤١٣ . السَّنَّة

روى جابر الجعفي قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن تأويل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾^(٤) فتنفس سيدي الصعداء،

(١) كنز الفوائد: ٣٨٩، ٣٩٠، البحار: ٢٤ : ٧٢، والآية في سورة الشمس : ٥.

(٢) تفسير القمي: ٦٥٨، ٦٥٩، البحار: ٢٤ : ٦٨، والآية في سورة الرحمن : ٧.

(٣) تفسير القمي: ٦٤٧، البحار: ٣٦ : ١٦٩، والآية في سورة البروج: ١.

(٤) التوبة: ٣٦.

٢٠٦.....أسماء الرسول المصطفى ﷺ

ثم قال: « يا جابر أما السنة فهي جدي رسول الله ﷺ وشهورها اثنا عشر شهراً فهو أمير المؤمنين إلى الخلف المهدي من ولد الحسين عليه السلام اثنا عشر إماماً^(١) .

فالسنة هي فترة الوجود المعنوي للرسول ﷺ بوجود الإسلام في ضمير حامله على وجه البسيطة، وتنقسم هذه الفترة إلى اثني عشر قسماً فترة وجود كل إمام ووصي من أوصياء النبي ﷺ وخلفائه الاثني عشر.

٤١٤. سواء البطن والصدر

ذكر ذلك هند بن أبي هالة وغيره في مقام وصف النبي ﷺ^(٢)، وقال أبو محمد العسكري: معناه أن بطنه ضامر، وصدره عريض، فمن هذه الجهة تساوى بطنه وصدره^(٣)، وهو طبيعي لمن لم يأكل خبز الخنطة قط، وما شبع من خبز الشعير قط كما جاء في الأخبار، وكذا لم يأكل ألوان الطعام، الأمر الذي يعظم عليه البطن، بل كان يشد حجر المجاعة.

كما أنه يدخل في استواء الخلق ورشاقة البدن واعتداله.

٤١٥. السور

إن التجربة التي مرت بها الديانات السماوية، وما أصابها من الانحراف والتفرق والتشتت طال الدين الإسلامي بشكل أوسع وأعمق، وقد صرح بذلك النبي الأكرم ﷺ فقال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، سبعون فرقة في النار، وفرقة واحدة في الجنة وهي التي

(١) الاختصاص للشيخ المفيد : ٢٢٤.

(٢) الغيبة للطوسي : ١٤٩، البحار ٢٤ : ٢٤٠، الهداية الكبرى للنخعي : ٣٧٧.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١٧٦، البحار ١٦ : ١٤٩، الشرائع المحمدية للترمذي :

٣٦، الأحاديث الطوال : ٧٥.

اتبعت وصيه، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي التي اتبعت وصيي^(١).

وشهد كل ذلك التفرق والتشتت من يوم وفاة الرسول ﷺ ليبلغ ذروته في القرن الثاني للهجرة.

ولا تظن أن الديانات بطبعها تقبل ذلك التشتت، وخصوصاً الدين الإسلامي الذي له معجزة باقية، وهو القرآن الكريم، ولكن الذي سمح لحصول هذا التفرق هو دور المنافقين الذين استطاعوا التمويه على الضعفاء وعامة الناس من أجل أهداف مقطعية سياسية.

ولا أقل من القول إن الدور الذي لعبه هؤلاء النفر كان مؤثراً جداً بحيث تمكنوا من تلبيس الحقائق وتدليس الباطل وصرف الاعتقاد عن موطنه حتى كان الناس مصداق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَفِيهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٢).

ولما كان من الطبيعي جداً ادعاء أرباب كل فرقة النجاة، وأنهم الوسيلة للوصول إلى واقع الرسالة المحمدية، وهم الذريعة إلى ساحة الرسول الأعظم ﷺ وكان الرسول ﷺ علماً يجمع ذلك كما أخبر به، لم يخل تدبيره من بيان الميزان لمعرفة الحق وتمييزه عما عداه من الباطل، بحيث يتمكن طالب الحقيقة من الوصول إليه والمعرفة به واستماعه رغم طبول الباطل وأبواقه، وعظيم ضروائه لتشكيله الأغلبية المتمثلة باثنين وسبعين فرقة.

(١) كتاب سليم بن قيس : ٤٣٣، الخصال : ٦٣٦، بتفاوت، كنز العمال ١١ ح

٣٠٨٣٧، مسند أحمد ٣ : ١٤٦، بتفاوت، مجمع الزوائد ٦ : ٢٣٢، وج ٧ : ٢٦٠،

كتاب السنة لابن أبي عاصم : ٣٥.

(٢) الكهف : ١٠٤.

ويدخل في ذلك التدبير ما حدث به ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورَ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أنا السور، وعلي الباب»^(١).

حيث بين أن البلوغ إلى واقع الرسالة المحمدية لا يكون بالدعاء، ولا بممارسة ظواهر العبادات مهما بلغ الدقة والحرص على ذلك، لأنه ﷺ بين أن حقيقته ورسالته عبارة عن سور منبع غير قابل للنفوذ مهما بلغت محاولة الداخل إليه، وذلك لأن الكلام عن سور سمّاه الله سبحانه سوراً، ومعلوم أن مثل هذا السور غير قابل للنفوذ ولا هو في متناول اليد.

وبهذا نفى الرسول المصطفى ﷺ صحة جميع الدعاوي ورسم خطوط البطلان على جميع المقالات وخطأ جميع الفرق. ثم بين المنفذ الوحيد والباب التي يمكن الولوج منها إلى واقع الرسول ﷺ وما تحمله من دين وتعاليم واعتقاد وأحكام، وليس هذه الباب سوى علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن أتاه وأخذ عنه فقد ولىج ووصل إلى واقع الرسالة النبوية، وانتهل من معين الحقيقة المحمدية.

على أن ذلك الحديث رواه ابن جبير بتفصيل أكثر فقال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله الله ﷻ: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورَ لَهُ بَابٌ...﴾ فقال: «أنا السور، وعلي الباب، وليس يؤتى السور إلا من قبل الباب»^(٢).

وهناك محاولات أخرى كثيرة جداً للرسول ﷺ من أجل التمييز كلها تصب في هذا المصب، منها حديث: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ومنها حديث الغدير، وغيره لسنا بصدد تفصيله.

(١) البحار ٢٤ : ٢٧٧ ح ٦٣. والآية في سورة الحديد : ١٣.

(٢) البحار ٢٤ : ٢٧٧ ح ٦٤.

ويدل على أن ذلك التفرق إنما نشأ من جانب المنافقين وإن كان هو أمراً طبيعياً لا يحتاج إلى دليل ما رواه ابن عباس أيضاً قال: سألت رسول الله عن تفسير آية: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أنا السور، وعليّ الباب»^(١).

٤١٦ . سهل الخدين

قال هند بن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ سهل الخدين^(٢).

والأقوال في تفسير سهولة الخدين ثلاثة:

١. سائل الخدين غير مرتفع الوجنتين.

٢. ليس في خديه نتوء لأن السهل ضد الحزن.

٣. أسيل الخدين لم يكثر لحمه ولم تغلظ جلده.

ولا تنافي بين القول الأول والثاني، بل إن كلمة سهل تحملهما معاً؛ لأن عدم ارتفاع الوجنتين هو السهل الذي يقابل الجبل والارتفاع، ومن ناحية أخرى فإن السهل خال من الوعورة والتعكر والصعود والنزول، فإن السهل هو ما يقابل الحزن والوعر.

ومن ناحية ثالثة فإن عدم ارتفاع الخدين في القول الأول يحاكي عدم كثرة لحم الخد وعدم غلظة جلده وهو القول الثالث، فمن الممكن الجمع بين جميع الأقوال.

٤١٧ . سهل الخلق

باتت طبيعة الحكام وذوي الرئاسات والمناصب هي الوعورة

(١) البحار ٧ : ٢٢٧، والآية في سورة الحديد: ١٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١٧٦، البحار ١٦ : ١٤٩، وانظر مجمع الزوائد ٢ :

٢١٤، وج ٨ : ٢٧٣، والمعجم الكبير للطبراني ٢٢ : ١٥٥.

والخشونة وعدم السهولة، بل هي من لوازم المنصب والمقام، حتى أن الرئيس إذا لم يكن من طبعه الخشونة والوعورة، فإن طبيعة المقام تُكسبه هذه الصفة بمرور الأيام، وحتى من دون أن يشعر.

ودليل ذلك واضح؛ فإن المحيطين به من أجل التزلف إليه والطمع بما في يده يظهرون له جانب اللين مع رعاية غاية الاحترام، ويتعمدون تصحيح جميع أعماله، الخاطئة منها والمصيبة، فهذا يجعله يصدق بصحة عمله دائماً، ولا تجده يحتمل كلمة حق؛ لعدم اعتياده سماع التوبيخ أو العنف، فيغلف لكل من ينتقده، خصوصاً مع تأييد المحيطين به لغلظته، وهكذا يعتاد ذلك وهو لا يشعر به.

ولا شك أن مقام الرسول المصطفى ﷺ لا يقصر عن شيء من تلك المقامات من ناحية اقتضائها للمهابة والخوف، والتملق والتزلف، ولكن أمثال ذلك لم يكن يؤثر أقل تأثير في نفسية الرسول ﷺ، وكان يعالج تلك المواقف معالجة حاسمة، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود فقال: أتى النبي ﷺ رجل يكلمه فأرعد، فقال: «هَوْنٌ عليك، فلستُ بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القد»^(١).

وها أنا ذا أذكرُ لك ما نقل من أخلاقه وأفعاله التي تعكس مدى سهولة أخلاقه ﷺ فقد كان ﷺ يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبرِّ لهم، ولا يجفو على أحد ولا يثبت بصره في وجه أحد، وهو يقبل معذرة المعتذر إليه مهما كان خطأه، وكان أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن ولم تجر عظة.

وإذا جلس على الطعام جلس محقراً، ويجب دعوة الحر والعبد ولو على ذراع أو كراع، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن، ويغضب لربه ولا يغضب لنفسه، ويأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ويركب ما أمكنه من

فرس أو بغلة أو حمار، وهو يردف عبه أو غيره^(١).

وقد مر عليك أنه جاءت إليه امرأة وهو يأكل فقالت: ناولني لقمة من طعامك فناولها، فقالت: لا والله إلا التي في فمك، فأخرج رسول الله اللقمة من فمه فناولها^(٢).

وكذلك حين أقبل يوماً إلى الجعرانه فقسّم فيها الأموال فجعل الناس يسألونه فيعطيههم حتى أجزّوه إلى الشجرة، فأخذت برده وخذشت ظهره حتى جلوه عنها وهم يسألونه. فعندها برز منه رد فعل فقال: «أيها الناس ردوا علي بردي، والله لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسّمته بينكم، ثم ما ألفتيموني جباناً ولا بخيلاً»^(٣) فهذا غاية رد فعله.

قال الحسين عليه السلام سألت أبي عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في جلسائه، فقال: «كان سهل الخلق»^(٤).

٤١٨ . السيد

لم أجد مثل كلمة السيد في اختلاف معانيها وتكثرها في عين وضوحها، فالسيد يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم، ومحتمل أذى قومه، والزوج والرئيس والمقدم والراجع في العلم والعبادة والحلم والورع، والتقي، والفقير، والعالم، ومن لا يغلبه الغضب، والكريم على الله، ومن تجب طاعته، والذي تميل إليه النفس، ومن ولّده

(١) المناقب : ١٢٦، ١٢٧، البحار : ١٦ : ٢٢٦ ح ٣٤.

(٢) المحاسن : ٢ : ٤٥٧ ح ٣٨٨، الكافي : ٦ : ٢٧١ ح ٢، البحار : ١٦ : ٢٢٥ ح ٣١.

(٣) الخرائج والجرائح : ١ : ٩٨ ح ١٥٩، البحار : ١٦ : ٢٢٦ ح ٣٢، والجعرانة ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١٧٦، البحار : ١٦ : ١٥٢.

رسول الله ﷺ، والمسن، والذي يسود قومه ويحكمهم، والذي يفوق أقرانه في كل خير.

وذلك فإن كلمة السيد أطلقت على مثل يحيى عليه السلام قال تعالى: ﴿سَيِّدًا وَحَصُورًا﴾^(١) ولم يكن رئيساً، وكذا تطلق على رؤساء القوم إن كانوا كفاراً أو منافقين: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَكُنَا وَكُبرَاءَنَا فَأَصَلُّونَا السَّبِيلَ﴾^(٢) وروى أن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا للمنافق سيدياً فإنه إن يك سيدياً فقد هلكتم»^(٣) مما يدل على أن المنافق يمكن أن يكون سيدياً، بل حتى مسن الماعز يسمي سيدياً لتقدمه في السن.

وبهذا يكون للسيادة مراتب في طرفي الخير والشر، وهي في طرف الخير أكثر مراتباً، وأكثر سموً وارتفاعاً حتى يرتفع الشخص على جميع البشر، بل جميع الخلائق المتمثل بالوجود الشريف للرسول المصطفى ﷺ لرجحانه في جميع جهات الخير على ما مر في العناوين التي تبدأ بـ «أرجح» أو غيرها.

ولما كان في نفسي بعض الميل إلى تفسير السيد بمن تميل إليه النفوس، ناسب التذكير على أن الرسول المصطفى ﷺ هو أول محبوب، وتميل إليه نفوس أكثر عدد من الناس، بدليل أن اسمه اليوم أكثر اسم في العالم على ما جاء في بعض الإحصائيات، بالإضافة إلى حب أهل السماء له، فإنه أحمد منه في الأرض كما تقدم في عنوان أحمد.

ومن ذلك ما روي أن النبي ﷺ قعد عند عين فنزل جبرئيل في ذلك الموضع وميكائيل وإسرافيل ودردائيل، فقال جبرئيل: السلام عليك يا

(١) آل عمران : ٣٩.

(٢) الأحزاب : ٦٧.

(٣) سنن أبي داود ٢ : ٤٧٢ ح ٤٩٧٧.

محمد... السلام عليك يا سيد^(١).

وأخيراً نذكر أن الاستفادة من البيان المتقدم أن سيادة الرسول ﷺ المتحدث عنها إنما هي السيادة والرجحان في الدنيا، وإلا ففي الآخرة هو ملك، وليس مجرد سيد ومطاع؛ لعدم معنى لذلك هناك.

ويؤيده ما روي أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «يا علي أنا وأنت والأئمة من ولدك سادة في الدنيا، وملوك في الآخرة»^(٢).

٤١٩. سيد الأئمة

تقدم في بيان سابق أن كلمة الإمام تعني الهادي والمرشد الذي يتولى إدارة مجتمعه أو أمة وليس كل نبي هو إمام، وإنما صار إبراهيم إماماً بعد ما كان نبياً وخاض الامتحان وأتم الكلمات: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾^(٣).

ولما كانت درجات التفاضل لا تنتهي عند النبوة والرسالة، وهي موجودة بين الأنبياء والأئمة، وحققنا فيما سبق أرجحية النبي ﷺ على سائر الأنبياء والأئمة، ثبت بكل وضوح سيادة النبي ﷺ على جميع أئمة الحق، وارتفاعه عليهم، وقال رسول الله ﷺ: «نحن الأولون... ونحن سادة الأئمة»^(٤).

٤٢٠. السيد الأكبر

لما تبين أن السيادة هي التمتع ببعض الترجيح، فكلما كان المترجح

(١) الفضائل : ٣١، ٥٢، البحار ١٥ : ٣٥١.

(٢) أمالي الصدوق : ٣٩٠، البحار ٢٣ : ١٢٨.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) البحار ٢٥ : ٢٣.

٢١٤..... أسماء الرسول المصطفى ﷺ

عليهم أكثر عدداً وتعددت جوانب الرجحان كانت السيادة أهم، والمتصف بها أكبر، حتى يبلغ السيد الأكبر على الإطلاق، وهو الرسول المصطفى ﷺ لترجحه وسيادته على جميع الخلائق، من جميع جهات الخير والصلاح.

فقد ورد في بعض الأخبار: «السيد الأكبر محمد رسول الله ﷺ، والصديق الأكبر أمير المؤمنين (عليه السلام)»^(١).

وفي بعض الصلوات: «اللهم صلّ على حجتك وولي أمرك، وصل على جده محمد رسولك السيد الأكبر»^(٢).

وأما إذا فسرنا السيادة بميل النفوس، فلا شك أن النبي ﷺ أكثر من تميل إليه النفوس وأشد؛ لكثرة محبيه وشدة حبهم له.

٤٢١. سيد الأمة

لما كان الرسول المصطفى ﷺ هو السيد على الإطلاق والراجح بفعاله الخيرة وصفاته الحميدة على جميع الخلائق، وهو أكثر من تميل النفوس إليه وتعتقد بلزوم طاعته، يكون عنوان سيد الأمة أطبع إلى الأذهان بعد إذعان الأمة بجميع ذلك، وبعد ميلهم القلبي إليه بلا ريب، ومهما فسرنا السيد فهو متوفر فيه بآتم معانيه.

قالت آمنة: سمعت هاتفاً في الجو يقول: لقد ولدته سيد الأمة^(٣).

وكذا ورد في بعض زياراته ﷺ: «السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا سيد الأمة»^(٤).

(١) البحار ٥٣ : ١٤.

(٢) إقبال الأعمال ١ : ٥١٢.

(٣) الكافي ٨ : ٣٠٠، ٣٠١، الخرائج والجرائح ١ : ٧٠، البحار ١٥ : ٢٩٤.

(٤) المزار للمشهدي ٥٩ : ٩٧، البحار ٩٧ : ١٧٣.

٤٢٢ . سيد الأنام

يبدو أن مسألة انتظار المصلح العام كانت موجودة في مختلف العصور والأزمان؛ ويعد هذا التدبير إلى ما يكمن في هذه الفكرة من المصالح العظيمة والفوائد الكثيرة، أهونها بعث روح الأمل في قلوب المؤمنين عندما يكونون في انتظار الفرج، وكذا تهوين ذلك عليهم مما يجدونه من المصاعب، والنتيجة جعل المسيرة البشرية هادفة تختم بأكمل الرسالات وظهور سيد الأنام.

فقد كان الرهبان الذين قرؤا الكتب يتوقعون ظهوره على الدوام، ويقتصون آثاره ويحاولون تطبيق الصفات والعلامات على كل من يقدم إليهم من ناحية الحجاز، ومن جملتهم الراهب فيلق بن يونان بن عبد الصليب الذي كان يقطن على عم القوافل القادمة من الحجاز، لما شاهد القافلة التي خرج فيها النبي ﷺ بمال خديجة وخادمها ميسرة وكان قد تأخر عند متاع القوم، فأخذ الراهب يسأل عن النبي ﷺ بأوصافه فدكّوه عليه وهو قاعد تحت الشجرة، فلما رآه وعرفه بخاتمه خاتم النبوة خرّ ساجداً ثم قام وتحدث معه مدة طويلة، فأخذ يتلطف بالنبي ﷺ ويسعى جاهداً في التزلف إليه وطلب الشفاعة لنفسه ولسائر من معه من الرهبان، فلم يترك من التلطف بالنبي شيئاً مما يقدر عليه، وأخذ يوصي ميسرة وقال له : يا ميسرة اقرأ مولاتك مني السلام، واعلم أنها قد ظفرت بسيد الأنام^(١) ...

فالمراد بكلمة سيد الأنام هنا الشرف والكرم والرفعة.

وتتكرر هذه القصة بعد وفاة النبي ﷺ عندما اجتمع أمير المؤمنين عليه السلام مع يوناني متطرب وأراه علمه عليه السلام بالطب وما يقدر عليه من الخوارق فأسلم اليوناني، فقال له علي عليه السلام : «أمرك أن تقر لله بالوحدانية... وتشهد أن محمداً الذي أنا وصيه سيد الأنام وأفضل برة في دار السلام».

على أن السيد هنا أقرب إلى معنى لزوم الطاعة والتسليم وإن كان لا يخلو من معنى الشرف والرفعة^(١).

٤٢٣ . سيد الأنبياء

لكل طائفة وكل صنف من الناس سيد يفوقهم بحلمه ورجحان علمه وكثرة آثاره، قضت بذلك طبيعة الخلقة، وتمت في ذلك إرادة الله سبحانه، فقد يكون شخص هو سيد المخترعين، أو سيد الفيزيائيين، أو سيد التجار، أو سيد الشعراء جميعهم أو طائفة خاصة منهم.

وهكذا يكون لكل مجموعة - قلت أو كثرت - سيد يفضل على الباقيين بفضلته وسابقته ويُعترف به ويسمع لقوله.

ولا يخلو من ذلك الأوصياء العمدة، ولا الأنبياء العظام، ولا الملائكة الكرام حتى يتوقف عند سيد السادات وهو الله ﷻ.

ولذا ورد في حديث مسلسل عن الإمام علي بن الحسين السجاد سيد الساجدين قال: حدثني أبي الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب سيد الأوصياء قال: حدثني محمد بن عبد الله سيد الأنبياء، قال: حدثني جبرئيل سيد الملائكة، قال قال الله سيد السادات ﷻ: إني أنا الله لا إله إلا أنا فمن أقر لي بالتوحيد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي^(٢).

وأنت تلاحظ تكرر كلمة السيد في سند هذا الحديث ليدخل بينها سيد الأنبياء الذي تمت سيادته بسبقهم في الخلق والإجابة والتسبيح والذكر والآثار المترتبة على بعثته ﷺ وافتقار سائر الأنبياء إلى شفاعته وغير ذلك مما تقدم الحديث عنه.

(١) تفسير العسكري ﷻ: ٦٧، ٧٠، الاحتجاج: ١٢٢، ١٢٥، البحار: ١٠: ٧٣.

(٢) عيون أخبار الرضا ﷻ: ١: ١٤٤ ح ٣.

٤٢٤ . سيد أهل السماء والأرض

قام رسول الله ﷺ خطيباً فكان فيما قال: «أيها الناس إن الله تبارك وتعالى خلقتني وأهل بيتي من طينة لم يخلق منها أحداً غيرنا، فكنا أول من ابتدأ من خلقه، فلما خلقنا فتق بنورنا كل ظلمة وأحسب بنا كل طينة طيبة، وأمات بنا كل طينة خبيثة ثم قال: هؤلاء خيار خلقتي، وحمة عرشي، وخزان علمي، وسادة أهل السماء والأرض...»^(١)

على أن أهل الأرض هم البشر والجن والشياطين وقبلهم النسناس وقد يكون هناك من سبقهم، وقد ورد عن الباقر عليه السلام: «أن الله خلق ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين»^(٢).

وأما أهل السماء فهم الملائكة بقسميهم المقربين وغير المقربين، ويجمعهم جميع القوى الخيرة الكونية الفاعلة في الكون بجميع سماواته، وكذا أرواح الذين ماتوا وتجردوا، ويضاف إليهم غيرهم مما لا نعلمهم من سكان الكرات الأخرى الذي أخبر عنهم النبي ﷺ فكرر القول: «مررت بأقوام» في حديث المعراج^(٣).

فالرسول سيد ارتفع على جميع المخلوقات إذ كان هو الوجود المقصود من الخلقة الموسوم بـ: «لولاك لما خلقت الأفلاك»^(٤) وغير ذلك.

٤٢٥ . سيد أولي العلم

الظاهر أن المراد بأولي العلم هم أولو العلم بما هم أولو العلم، فيكون المراد طائفة خاصة من الناس هم أولئك الذين تحملوا قسطاً وافياً

(١) تفسير فرات : ١١٠، البحار ١٦ : ٣٧٥.

(٢) الخصال : ٦٢٥ ح ٥٤، التوحيد للصدوق : ٢٧٧.

(٣) البحار ٦ : ٢٤٠.

(٤) ألقاب الرسول وعترته من قلماء المحدثين : ٩.

من العلم، وليس هو العلم ببعض التخصصات وإنما المراد درجات وحروف عددها اثنان وسبعون، قد نال حفظاً منها أولئك المتحدث عنهم.

والنبي ﷺ هو سيد أولي العلم لتحمله أكبر قسط منه، بل كل العلم إلا ما آثره الله لنفسه تعالى الله علواً كبيراً.

فقد ورد في أخبار كثيرة الإشارة إلى ذلك ومنها ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «إن عيسى بن مريم أعطي حرفين وكان يعمل بهما، وأعطي ابن عمران أربعة أحرف، وأعطي إبراهيم ثمانية أحرف، وأعطي نوح خمسة عشر حرفاً، وأعطي آدم خمسة وعشرون حرفاً، وأنه جمع الله ذلك لمحمد ﷺ وأهل بيته، وإن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً، أعطى الله عمداً اثنين وسبعين حرفاً، وحجب عنه حرفاً واحداً»^(١).

وفي رواية أخرى: «إنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فحسفت بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين»^(٢).

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(٣).

كما يدل على أن تلك الحروف هي من سنخ العلم، وهو علم خاص لا يحلم البشر أن يصل إليه.

وقال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا خرج في طلب العلم ناداه الله تعالى من فوق العرش: مرحباً بك يا عبدي أتدري أي منزلة تطلب، وأي درجة

(١) بصائر الدرجات : ٢٢٨ ح ٢.

(٢) بصائر الدرجات : ٢٢٨ ح ١.

(٣) النحل : ٤٠.

تروم؟ تضاهي ملائكتي المقربين لتكون لهم قريناً لأبلغنك مرادك ولأوصلنك بحاجتك.

ف قيل لعلي بن الحسين عليه السلام : ما معنى مضاهة ملائكة الله ﷻ المقربين ليكون لهم قريناً؟ قال : «أما سمعت قول الله ﷻ : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَاتِمًا بِالنُّسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فبدأ بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأولي العلم الذين هم قرناء ملائكته، وسيدهم محمد ﷺ، وثانيهم علي وثالثهم أهله وأحقهم بمرتبة بعده»^(١).

ومنه يعلم أن السيد هنا إنما هو بمعنى الأول الذي أخذ أكبر قسطٍ من العلم وهو أول من تحمل ذلك، لياخذ الثاني منه وهكذا.

٤٢٦ . سيد الأولين والآخرين

كانت الاحتمالات المطروحة في مجال تفسير الأولين والآخرين متأطرة في نوع البشر، وذلك إما بتفسيرها بمن تقدم أو تأخر على النصف من مدة تواجد البشر على الأرض، أو بجميع من تقدم على زمان بعثة النبي ﷺ وإن راودني احتمال توسط بعثة النبي ولكن ضعفه قوله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٢) المقتضي لأن تكون الفترة التي تعقب ظهوره لا تتجاوز عشر فترة تواجد الإنسان على الأرض.

كما احتملنا إرادة أصحاب النبي ﷺ والتابعين من كلمة الأولين ويكون غيرهم هم الآخرين، أو أن الأخير يعني أهل آخر الزمان فقط.

فجميع تلك الاحتمالات لا تتجاوز محودة عمر البشر من يوم نزول

(١) البحار ١ : ١٨٠، تفسير الإمام العسكري عليه السلام : ٦٢٧. والآية في سورة آل عمران :

(٢) الكافي ٣ : ٤٨٤، مستدرک الوسائل ١٢ : ٣٢٤ ح ١٤٢٠٧.

آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ولكنه خطر ببالي احتمال آخر، وهو إرادة جميع العوالم التي سبقت عللنا من كلمة الأولين، وهي ألف ألف عالم كما مر، فيكون المتأخرون هم بنو آدم عليه السلام ^(١).

فلو تمّ هذا الاحتمال لكشّف عن شرافة عللنا وأهله وتفوّقه على جميع العوالم؛ ولا أقل من القول بأن عللنا ظرف لوجود الرسول الذي هو أشرف الموجودات فيه، فلا بد أن يكون عللنا - أي ظرف الرسول عليه السلام - أشرف العوالم؛ لأن ذلك ينبئ عن أهلية النوع لبروز من هو أشرف أبناء العوالم من بينهم، خصوصاً وأن أشرفية البشر على العالم السابق، أعني النسناس مسلمة.

فالرسول المصطفى عليه السلام هو سيد العوالم وسيد الأولين والآخرين، إنما سادهم بالعلم والطاعة والتفاني في سبيل الله سبحانه وكمال السعي في هداية البشر وغيره.

وأول من أخبر بذلك وجاء بهذه البشارة هن النساء الأربع اللاتي دخلن على أمّة ليلين منها ماتلي القابلة من المرأة إذا جاءها الطلق، فقلن: يا أمّة أبشري بسيد الأولين والآخرين محمد المصطفى عليه السلام ^(٢).

وقال علي بن الحسين عليه السلام: «وهنيئاً لكم أن محمداً لسيد الأولين والآخرين» ^(٣).

فكل هذه التهنية والتبشير آية شرف هذا العنوان وعدم تأطره بهذا العالم، وعنده ناسب التوسل إلى الله سبحانه بهذا الاسم فنقول: «نتوسل

(١) روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «خلق الله ألف ألف عالم وألف ألف آدم» الخصال:

٦٥٢، التوحيد: ٢٧٧، البحار: ٨: ٣٧٥.

(٢) البحار: ١٥ : ٣٢٥.

(٣) البحار ١ : ١٨١.

إليك بسيد الأولين والآخرين محمد، كما توسل به أبو البشر فقبلته»^(١).

٤٢٧ . سيد البشر

لما قدم النبي ﷺ المدينة تعلق الناس بزمام الناقة، فقال النبي ﷺ :
«يا قوم دعوا الناقة فهي مأمورة».

فبركت على باب أبي أيوب الأنصاري، ولم يكن في المدينة أفقر منه،
فنادى أبو أيوب: يا أمّاه افتحي الباب، فقد قدم سيد البشر^(٢).

وإنما صدرت هذه المقالة العظيمة من أبي أيوب وهو لم يتلبس بشيء
من العلم يومها، لأجل المفاجأة بجلول النبي ﷺ عنده ضيفاً بعد تسابق
وجوه المدينة وسادتها لنيل شرف ضيافة النبي ﷺ، ولم يكن يحلم أن يُترك
الاختيار للناقة لتبرك أمام بيت أبي أيوب، وكذا فإن قول النبي ﷺ: «فهي
مأمورة» يعني أنّ الاختيار إلهي أو نبوي يصادف حُسن الاختيار المنبئ عن
استعداد المختار لتلقي واستقبال الأمور العظيمة.

وبذلك تخرّص أبو أيوب في محفوظاته واستنزف كل طاقته الفكرية
ليصدر منه مثل هذا الانتاج الذي لم يعهد من غير العلماء العارفين فقال:
قدم سيد البشر أكرم ربعة ومضر.

وأخيراً تقدم عنوان سيد الأنام ويأتي عنوان سيد الناس، وهذا هو
عنوان سيد البشر، ليفترق الأخير بالدلالة على حسن الهيئة بالإضافة إلى
الإنسانية.

٤٢٨ . سيد تهامة

تهامة أحد مناطق العرب الخمس في الحد الفاصل من ذات عرق إلى

(١) دفع الشبه عن الرسول للدمشقي : ٧١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١١٥، ١١٦، البحار ١٩ : ١٢١.

جدّة والبحر، تدخل فيها مكة وما والاها، وأما المدينة فقليل: هي لا تهامية ولا نجدية، فإنها فوق الغور ودون نجد، وتقول الأعراب: إذا تحدّرت من ثنايا ذات عرق فقد أتهمت.

وتمتاز هذه المنطقة بشدّة الحرارة وشحّة الماء ووعورة الأرض بوادٍ غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، يقطنها ذرية إسماعيل وجرهم وغيرهم، يعيشون حياة بدوية وقبلية.

وهم يعدّون أنفسهم من سكان الحرم ولهم ارتباط وثيق بالبيت مما يكسبهم صبغة دينية ويجعلهم يتمسكون ببقايا الإبراهيمية إلى جانب الوثنية مما يفقده سائر سكان الجزيرة، فهم يغتسلون من الجنابة ولا يقربون النساء في الحيض ويتركون الزواج من المحارم، ولهم كرم وضيافة وغيره على النساء وأمثال ذلك من معالم الحنيفية المتبقية.

ومن أجل ذلك وأمثاله خصصت سيادة النبي ﷺ بتهامة؛ لعدم وجدان سائر البلاد للأهلية.

كما يمكن أن يكون الاختصاص لأجل أن تهامة هي مركز ظهور النبي ﷺ ومركز قدرته وبسط نفوذه في المراحل الأولى للدعوة.

هذا بالإضافة إلى شرف نفس البقعة المنعوتة في الكتب السماوية.

قال الكاهن سطیح يصف النبي ﷺ: بين كتفيه علامة، على رأسه عمامة، تقوم له الدعامة أو الزعامة إلى يوم القيامة، ذلك والله سيد تهامة^(١).

٤٢٩ . سيّد خلق الله

لم تخفّ على الناس سيادة النبي ﷺ على جميع قريش والعرب وحتى جميع البشر ولكن قد تخفى أرجحيته وسيادته على جميع خلق الله، لأنّ منهم

الملائكة المقربين، بينما البحوث السابقة تكفلت ببيان هذه النقطة بوضوح، بل أكدت هذا الرجحان بذكر حديث الخليفة وتعلم الملائكة التسبيح منه ﷺ بعد ما كان هو أول مخلوق بوجوده النوري.

فيروى عن الحسين بن عبد الله أنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم؟ فقال: «كان والله سيد من خلق الله، وما برأ الله برية خيراً من محمد ﷺ»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أنا سيد من خلق الله ﷻ، وأنا خير من جبرئيل وإسرافيل وحملة العرش وجميع ملائكة الله المقربين وأنبياء الله المرسلين»^(٢).

وإنما جاء هذا العنوان في بعض زيارات النبي ﷺ فإن فيه: «يا محمد يا رسول الله بأبي وأنت وأمي يا نبي الله، يا سيد خلق الله»^(٣).

وإلا فالروايتان السابقتان جاء فيهما: «سيد من خلق الله».

والمهم أن الرجحان المقصود والسيادة المرادة هي كمال الخلقة وتماميتها ورجحانها على جميع ما خلق الله سبحانه، يفسر ذلك أنه ﷺ الانفجار الأول الذي اشتق منه سائر الخلق كما مر.

٤٣٠ . سيد رسل الله

الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، ثلاثمائة وثلاثة عشر عدة الرسل من بينهم، وهم الذين ينزل عليهم الرحي فيرونه ويسمعون كلامه،

(١) الكافي ١ : ٤٤٠ ح ١، البحار ١٦ : ٣٦٤.

(٢) كمال الدين : ٢٦١ ح ٧، الفصول المهمة ١ : ٤١٠، مسند الإمام الرضا عليه السلام ١ :

(٣) إقبال الأعمال ٣ : ١٢٧، المزار للشهيد الأول : ١٧، البحار ٩٧ : ١٨٦.

والأنبياء لا تتيسر لهم الرؤية والسمع معاً، ولا يتحملون رسالة الله سبحانه إلى خلقه.

فتخصيص النبي ﷺ بالسيادة على الرسل يدل على رجحان رسالته وأكمليتها، وكذا كيفية تحمّله للرسالة وطريقة أدائها، فهو سيد أولئك الذين تحمّلوا رسالة وأدّوها إلى الناس؛ وذلك لعظم رسالته والتوفيق الأكمل في أدائها.

وإنما ورد هذا العنوان في بعض زيارات الأئمة، فإن فيها: «السلام عليك يا وارث محمد سيد رسل الله»^(١).

٤٣١. سيد العالمين

قال رسول الله ﷺ: «علي سيد العرب» ف قيل: أ لست سيد العرب؟! قال: «أنا سيد العالمين»^(٢) فإنّ هذه الرواية وأمثالها كرواية: «علي خير البشر»^(٣) فيها ظرافة خاصة تمنع من تداخل العناوين وتزيل توهم تفضيل الإمامية للإمام أمير المؤمنين عليه السلام علياً النبي ﷺ.

فإن رواياتنا هذه ناطقة صارخة في بيان الفرق والمنزلة، فالنبي ﷺ هو سيد العالمين وخير الخلق إذا كان علي عليه السلام هو سيد العرب وخير البشر.

ولكن هذا لا يعني أن الإمام علياً عليه السلام ليس سيد الخلق ولا سيد العالمين، بل إن الروايات والأخبار ذكرت كثيراً من العناوين المتقدمة

(١) المزار للمشهدي: ٤٣٦، البحار ٩٧: ٣٧٧.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام للكوفي ٢: ٥١٢، الاحتجاج للطبرسي ١: ٢٠٨، عوالي اللئالي ٤: ١٢١ ح ١٩٧.

(٣) الكامل لابن عدي ٤: ١٠، تاريخ بغداد ٧: ٤٣٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٧٢، سير أعلام النبلاء ٨: ٢٠٥، أمالي الصدوق: ١٣٦.

واللاحقة للإمام عليه السلام ولكن الجميع مقيد بأنه: «بعد النبي صلى الله عليه وآله».

فهو عليه السلام سيد العالمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وخير خلق الله بعد رسول الله، وحتى أنه خير البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وبهذا اتضح وجه الفرق بين السيدتين، المتخلص في سيادة النبي صلى الله عليه وآله المطلقة التي لا يدخلها التقييد والتخصيص، بينما سيادة الإمام علي عليه السلام مقيدة ومخصصة بأنها بعد النبي، فتلك سيادة لا بشرط، وهذه سيادة بشرط شيء، وكم هو فرق بين الحثيتين.

على أن هذا الوسام وهذا العنوان، أعني عنوان «سيد العالمين» كان لرسول الله صلى الله عليه وآله قبل بعثته، لأنه لما خرج إلى الشام مع أبي طالب رآه راهب فجاء وأخذ بيده فقال: هذا سيد العالمين.

وأما كلمة العالمين فهي جمع عالم، وإنما جمع إما باعتبار أن أهل كل زمان هم عالم، أو لأن كل أمة وكل قطر هو عالم، أو أن المراد عالم الإنس وعالم الجن، وعالم الملائكة وغيره، فهو صلى الله عليه وآله سيد جميع تلك العوالم بجميع تلك المعاني لا محالة.

٤٣٢ . سيد العباد

ينبغي أن يكون المراد من هذا العنوان هو رجحانه في العبودية، الذي يبينه قوله صلى الله عليه وآله للمرأة التي اعترضت على تواضعه فقالت: يا محمد والله إنك لتأكل أكل العبد، وتجلس جلوسه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «ويحك وأي عبد أعبد مني»^(١).

فإن هذا الكلام لا يتأطر بالجلوس والأكل، بل يريد القول وأي عبد أعبد مني من جميع جهات العبودية التي أولها الطاعة والخدمة والتزلف

(١) البحار ١٦ : ٢٢٦ ح ٣١.

٢٢٦.....أسماء الرسول المصطفى ﷺ

والتقرب والتضرع والتملّق لسيده مما لا يمكن تصوّره في العبيد والسادة المتعارفين، ولا يكون منهم بذلك الحد والصفة، فهو أعبد العبيد، وأرجحهم عبادة، ومنه يتعلم العباد رسوم العبودية فكان سيد العباد.

قال رسول الله ﷺ: «نحن الأولون... ونحن سادة العباد»^(١) يعني هو وأهل بيته.

٤٣٣. سيد عباد الله

قال الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسيد عباده، كلما نسخ الخلق فرقتين جعله في خيرهما، لم يسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر»^(٢).

فقد جعل ﷺ السيادة هنا بمعنى الطهارة وعدم تدنسه بمعاهن العهر والسفاح، وبذلك كان له رجحان وفضل على جميع عباد الله، فأين العبد الطاهر الذي تناقلته الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة، ممن دخل في تحقّقه سفاح أو عهر ولو في بعض أجداده، وإن جهل ذلك.

ولما كان العبد هو المملوك، كان مثله كمثل مال طيب لم يدخله حرام ولا شبهة قط، ولا شك في رجحان مثل هذا المال، كما لا شك في رجحان مثل هذا المملوك والعبد ولا شك في سيادته.

٤٣٤. سيد العرب والعجم

في اعتقادي أنّ هذا العنوان يرمي إلى عالمية سيادة النبي ﷺ ورسالته، وعدم اختصاص ذلك بالعرب.

فإن الخروج إلى ساحة الواقع يرينا كيف أن النبي ﷺ هو سيد

(١) البحار ٢٦ : ٢٥٩.

(٢) نهج البلاغة ٢ : ١٩٤.

العرب والعجم، خصوصاً بعد ملاحظة أن العجم - أي كل من كان من غير العرب - هم اليوم لا يقصر حبهم وميلهم للنبي ﷺ وآله عن حب العرب وميلهم له، بل قد يزيد عليه، بدليل شدة التزامهم وتعظيمهم لذريته واهتمامهم بأمور المسلمين دون العرب الذين انغمس أكثرهم في الشهوات وأزهقوا أرواح العبادات، وتمسكوا بالمظاهر والشكليات، أعني أن الغالب فيهم ذلك، على أنني لا أنسى تواجد أوتاد الأرض فيما بينهم.

ولا بأس بالإشارة هنا إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتُّفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾^(١) فإن هذه الآية عبرت عن فكرة الأبدال، ولا شك أن القوم المخاطبين هم العرب، وإذا كان هناك استبدال فهو من قوم العجم، فإن هناك هممة في الأخبار تُشير إلى أن العجم سيكونون هم الأبدال بعد تقاعد العرب وتراجعهم.

ولما ذكرت خديجة لعمها ورقة بن نوفل أنها رأت في النوم رجلاً صفته كذا وكذا قال: يا خديجة إن صدقت رؤياك تسعدين وترشدين، فإن الذي رأيته... سيد العرب والعجم^(٢).

٤٣٥. سيد الماضين عند الله

جاء هذا العنوان في كتب الماضين، فكان فيما أوحى الله إلى المسيح: يا بني اسرائيل آمنوا برسولي النبي الأمي... سيد الماضين عندي وأكرم الباقين علي.

وإنما قال عندي لأن كل أمة تعتقد بشخص وتعظمه، فاليهود

(١) التوبة : ٣٨-٣٩.

(٢) البحار : ١٦ : ٢٤.

يعظمون النبي موسى عليه السلام، والمسيح يسودون عيسى عليه السلام، والمجوس زرتشت، والصابئة داود عليه السلام، وغيرهم غيره، فكل أمة ترتني عظمة شخص معين، وهو عندهم سيد الماضين، ولكن الله سبحانه قال لعيسى: إن النبي الأمي هو سيد الماضين عندي إذا كان عند الناس غيره.

وهذا إخبار وإنشاء في وقت واحد، بمعنى أنه ﷺ سيد الماضين عند الله، وليكن سيد الماضين عند جميع الناس، يعني أنه كان كذلك وليكن عند جميع الناس ولا يرضى الله سبحانه بغير ذلك.

ولما عرج بالنبي إلى السماء ولاقى الأنبياء عليهم السلام ومن جملتهم النبي موسى عليه السلام الذي شاهد نبينا وعرفه وعرف مكانته، قل: «يزعم بنو إسرائيل أنني أكرم ولد آدم على الله وهذا - أشار إلى النبي ﷺ - رجل أكرم على الله مني»^(١).

ففي هذا الحديث وأمثاله إشارة إلى أن الأمم قد يلتبس عليها الأمر فتزعم أن نبيها هو سيد الماضين، ولكن الأنبياء أنفسهم لم يلتبس عليهم الأمر، فهم بين مذكر بذلك، وبين مأمور في الكتاب المنزل إليه.

ويبقى الكلام في المراد بالماضين، فقد رجحنا في بحث سابق أن الماضين والسابقين على زمان عيسى قد يشكّلون نصف البشر من اليوم الأول إلى انتهاء حياة البشر على الأرض رغم طول المدة التي سبقته وقصر المدة التي تلحقه، وذلك لتزايد سكان الأرض بعده بشكل واسع، وحصول تعجيل خيالي في تعدادهم مما يجعل العدد مساوياً.

إنما استشعرنا ذلك من غلبة تقسيم الخلق إلى قسمين على أساس بعثته ﷺ في الأخبار.

٤٣٦. سيد المرسلين

إن كلمة الرسول أو الرسالة هينة في اللسان، ولكنها في الحقيقة

(١) الاختصاص للشيخ المفيد: ١١٣، البحار ٢١: ٣٥١.

مقام سام لا تفلح في البلوغ إليه أشد الرياضات ولا كسب أصعب العلوم، وتظل مراحل التأهيل لذلك شديدة وصعبة، على أن نفس الرسل تختلف فيهم الأهلية والظرفية لتحمل الرسائل التي هي تختلف وتتفاوت من رسالة إلى رسالة، فليس رسالة آدم أو نوح بالتي تبلغ مرتبة الرسالة اليهودية مثلاً، ولا تبلغ جميع الرسائل بمجموعها مرتبة الرسالة الخاتمة التي هي أكمل الرسائل وأتمها، وتمتاز على جميعها كماً وكيفاً وظرفاً وصلاحية، فإذا كان الرسول ﷺ هو سيد المرسلين فباعتبار ارتفاع أهليته وسعة ظرفيته وعظم رسالته وغير ذلك مما لا نعلمه، ولكن الله سبحانه وعظ به عيسى فقال: إني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين^(١).

فإذا أغفل النصارى هذه الموعظة، أخذها واتعظ بها الأئمة الهداة المهديون من أهل البيت عليهم السلام، حتى كان الإمام السجاد عليه السلام يقول: «اللهم صل على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين...»^(٢).

وقبل ذلك قال الإمام علي عليه السلام في حديث: «حمدته -الله- على ما أنعم به عليّ من الإسلام والقرآن، وحبيني إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين»^(٣).

فأخذها عنهم أتباعهم وأشياعهم حتى أن كل خطبة من خطبهم لا تكاد تخلو من هذا النعت وهذه الصفة، كما يتزين بها الكثير من كتبهم.

٤٣٧. سيد من خلق الله

تقدم عنوان سيد خلق الله، وأضيف في هذا العنوان كلمة «من» التي يغلب استعمالها في ذوي الشعور، وإن لم نفهم من سيد خلق الله غير ذلك.

(١) الكافي ٨: ١٣٩، أمالي الصدوق: ٦١١، البحار ١٦: ٢٩٦.

(٢) الصحيفة السجادية: ٩٥.

(٣) أمالي الصدوق: ١٥٧، روضة الواعظين: ١١٣.

فقد روي أنه قيل لأبي عبد الله عليه السلام : كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم؟ فقال: «كان والله سيد من خلق الله، وما برأ الله برياً خيراً من محمد ﷺ»^(١).

فإنه يشير إلى أن ولد آدم على كثرتهم لا يشكّلون عدداً هاماً بين من خلق الله، ولا مرتبة سامية بين جميع مخلوقاته، يشعر به القسم في كلامه عليه السلام؛ فإن القسم إنما يحتاج إليه إذا أريد إثبات مطلب عظيم جداً، فلما لم يتقل على السائل أنه ﷺ سيد ولد آدم، ولكن قد يتقل عليه أنه سيد الخلق بعد ما عرف عظمة الملائكة، وأضاف إليه الإمام بقسمه شمولية أكثر بحيث يدخل فيه ألف ألف عالم قبل عالمنا بالإضافة إلى صنوف الملائكة وأقسام الجن وغيرهم.

قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد من خلق الله ﷻ وأنا خير من جبرئيل وإسرافيل وحملة العرش وجميع ملائكة الله المقربين وأنبياءه الله المرسلين»^(٢).

٤٣٨ . سيد الناس

قيل: الناس يشمل الإنس والجن، وأصله أناس فخفف، وإن كان المعروف هو خصوص البشر، ولكن ملاحظة استعمال كلمة الناس في القرآن يدعو إلى الجزم بالعموم.

فإن الآيات المتضمنة لكلمة الناس فيها ما يبين الأحكام الشرعية التي يشترك فيها الإنس والجن، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(٣) أو ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾^(٤)، وكذا

(١) الكافي ١: ٤٤٠.

(٢) كمال الدين: ٢٦١.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) البقرة: ١٦٨.

الاعتقادات مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾^(٢).

ومنها: ما يتكفل ببيان المنافع التي يشترك فيها الجميع كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا نَمْلِكُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

ومنها: عوذات يمكن أن ينتفع بها الجميع، أعني الجن والإنس.

ومنها: ما ذكر فيه الملائكة والناس ولم يذكر الجن، مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) ومن المعلوم عدم خلوهم من لعنة الجن.

وكل ذلك يؤيد عمومية كلمة الناس وشمولها للجن، بالإضافة إلى استعمال كلمة «رجال» فيهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٥).

ولكن مع كل ذلك يشكل قبول ذلك، لقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٦) الذي يفصل الشركة، وكذا مساعدة الفهم العرفي، وصریح بعض أهل اللغة^(٧).

ومعه لا بد من حمل استعمال كلمة الناس في القرآن وإرادة الإنس

(١) النساء: ١٧٠.

(٢) النساء: ٧٩.

(٣) الرعد: ١٧.

(٤) البقرة: ١٦١.

(٥) الجن: ٦.

(٦) الناس: ٦.

(٧) الفروق اللغوية للعسكري: ٣٠٦ / ٧٩٧.

والجن على التغليب، كما يستعمل اللفظ المذكر ويراد به الذكر والأنثى للتغليب مثل كلمة المؤمنين أو المسلمين وغيرهما، فلا بدع في التزام التغليب في هذا المورد أيضاً.

ومهما يكن من أمر فالنبي ﷺ هو سيد الناس سواء كان بمعنى الإنس فقط أو بمعنى الجن والإنس معاً.

وعلى الأول فقد تقدم أنه ﷺ سيد البشر، ويبقى الفرق بين البشر والناس، فقد قيل: البشر يقتضي حسن الهيئة وذلك أنه مشتق من البشارة وهي حسن الهيئة، إذ أن الإنسان أحسن الحيوان هيئة، وأما الناس، فهو مأخوذ من النوس أي الحركة^(١).

قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس ولا فخر، وعلي سيد المؤمنين»^(٢).

٤٣٩. سيد النبيين

كلمة «النبي» أصلها النبوة، وهي الارتفاع، وإنما قيل للنبي نبي لأنه أرفع خلق الله سبحانه وأعلامهم، وهنا تكمن حقيقة النبوة التي هي ارتفاع في النفس تبلغ معه إلى حالة تتمكن من استلهاام الحقائق، وسماع الوحي.

فليست النبوة هي إلقاء شيء على إنسان أو مجرد نزول الوحي على رجل وضع ليرتفع، بل هو ارتفاع في أول الأمر لبلوغ مرتبة سماع الوحي.

ثم إن النبي قد تجتمع له الرؤية مع السماع فيكون رسولاً، وإلا كان نبياً من الأنبياء الذين عدتهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، والمرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً كما مر.

(١) الفروق اللغوية للعسكري : ٣٠٦ / ٨٠٤.

(٢) شرح الأخيار : ١ / ٢٣٣ ح ٢٢٤، البحار : ٢٤ : ٣٢٢.

ومعلوم أن السيادة هي نوع ارتفاعاً ورجحاناً، فإذا اجتمعت مع النبوة كان ارتفاعاً في ارتفاع لتبلغ تلك النبوة الذروة، ويكون الرسول ﷺ أعلى وأشخ قمّة من قمم الإنسانية.

قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد النبيين، ووصي سيد الوصيين، وأوصياؤه سادة الأوصياء»^(١).

٤٤٠. سيد النجباء

أبداع الموجودات التي سكنت الكرة الأرضية صورة وشمائل وهيبة ووقاراً هم النجباء، فإن هذه الكلمة إذا أطلقت أريد بها طائفة خاصة من الناس، بل أخص الخواص من ذوي الكرم والحسب والفضل والسخاء الذين ظهر ذلك على وجوههم وحركاتهم وسكناتهم.

وبعبارة أخرى فإن النجيب هو النفيس من نوعه، والنجباء هم الأبدال وأوتاد الأرض وزينتها.

ولا شك أن الرسول المصطفى ﷺ هو سيد من كان بهذه الصفة، فقد خطب أمير المؤمنين عليه السلام بعد منصرفه من النهروان وكان فيما قال: «إني أراني قد اقترب أجلي، وكأني بكم وقد جهلتم أمري، وأنا تارك فيكم ما تركه رسول الله ﷺ: كتاب الله وعترتي وهي عترة المهدي إلى النجاة، خاتم الأنبياء وسيد النجباء والنبي المصطفى ﷺ»^(٢).

٤٤١. سيد النذر

بين الفترة والأخرى تدخل الأرض في أزمة عميقة، وتبدأ لتتفاقم

(١) الإمامة والتبصرة: ٢١، ينابيع المودة ٢: ٣١٦ ح ٩١١.

(٢) معاني الأخبار: ٥٨، ٦٢، البحار ٣٣: ٢٨٣، وج ٣٥: ٤٥، المختصر لابن

سليمان الحلبي: ٤٢.

هذه الأزمة وتضرب نظام العالم بكليته، وتسوقه إلى حافة الخطر والدمار والهلاك، والذي يؤسف هو حصول ذلك برفقة الغفلة عن ذلك الخطر أو التغافل عنه.

بيد أن هذا العالم مخلوق بحيث يتأثر بفساد أهله وإفسادهم، ويرتبط مصيره ببعض فعال البشر .

وأعني من الفساد والإفساد بجميع معانيه الشاملة للزنا الذي هو فساد في الأرض أو تلويث المياه والفضاء والهواء والغازات المبددة لغلاف الأوزون وغيره المنجر إلى ظهور الكوارث والاختلالات بجميع ألوانها.

فمن نافل القول التعبير عن الزلازل والسيول والصواعق والبراكين بالبلايا الطبيعية، وماهي بلايا طبيعية منشؤها الطبيعة ولا دخل للبشر في حصولها.

نعم هذه الأمور طبيعية بمعنى أنها أثر طبيعي لفعال الناس وقبائح أعمالهم.

فإني أقول وبصريح الكلمة: إن كل بلاء وكل اختلال وكل كارثة جماعية تنشأ من جرم جماعي وذنب عمومي شامل، وكل بلاء واختلال و كارثة فردية معلولة لجرم فردي شخصي، هذه هي النظرية الإسلامية التي لا رجعة فيها أبداً. ويستفاد ذلك بوضوح عند ملاحظة ذكر القرآن للهلاك الجماعي أو

كل دمار يكون كذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾^(١) أو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾^(٢) أو قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً

(١) الإسراء : ١٦ .

(٢) القمر : ١٩ .

فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ^(١) أو قوله تعالى: ﴿فَقَطَمْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي^(٢)﴾ أو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ أَخْذًا عَزِيزًا مُقْتَدِرًا^(٣)﴾.

هذا هو اللحن الجميل الجبروتي الكبريائي الإلهي، وإن لم يكفك اللحن فهالك التصريح، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَسْفَعُ عَنْ كَثِيرٍ^(٤)﴾.

وإن أردت بعض التفصيل فانظر إلى ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام فإنه قال: «إذا فشا أربعة ظهرت أربعة: إذا فشا الزنا ظهرت الزلزلة، وإذا فشا الجور في الحكم احتبس القطر...»^(٥).

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «خمس إن أدركتموهن فتعوزوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»^(٦).

ولسنا في صدد أخذ النتائج الدقيقة، وإنما أردنا بيان أصل الفكرة، وبيان الحل الطبيعي لهذه المعضلة والوسيلة لتجاوز هذا الخطر.

ولا شك أن أول الحلول هو الإنذار والتنبيه، والإنذار هو تخويف

(١) القمر : ٣١.

(٢) القمر : ٣٧.

(٣) القمر : ٤٢.

(٤) الشورى : ٣٠.

(٥) الكافي ٢ : ٤٤٨ ح ٣، الوسائل ١٦ : ٢٧٥ ح ٢١٥٥٣.

(٦) الكافي ٢ : ٣٧٣ ح ١، وانظر ٣٧٤، وعلل الشرائع ٢ : ٥٨٤.

بصحة إعلام موضع المخافة، فهو إعلام معه تخويف، فإن الله ﷻ لم يفتأ يتدارك البلاد والنواحي المهدة ببعث الرسل منذرين.

فكل رسول في الحقيقة هو نذير بالإضافة إلى كونه بشيراً، وجمع النذير هو النذر، سواء فسرنا النذير بالنذر أو الإنذار، فيكون إرساله وبعثته هو عين إنذار الله سبحانه.

ويبقى توفيق الرسل في بعث الخوف في نفوس البشر، وكيفية ذلك ومدى تأثيره حيث يتفاضلون على أساس ذلك.

فكثير من الرسل لم ينفع إنذارهم وتحذيرهم فهلكت أممهم، وكثير منهم أصابهم ما أصابهم بعد الرسل، أو أصابهم بعض العذاب.

ومهما يكن من أمر فإن توفيق الرسول المصطفى ﷺ لم يبلغه توفيق واحد من الأنبياء.

فما أصاب الأمة بعامتها ما أصاب الأمم السابقة، وكانت هي الأمة المحرومة، وكان ﷺ سيد النذر، فقد ورد في بيان المفاضلة بين الأنبياء: «أنه إن كان آدم عليه السلام أبو البشر، فمحمد سيد النذر»^(١).

ويلزم التنبيه هنا على مسألة هامة تتلخص في لزوم الإنذار في مثل هذه الموارد - أعني مثل حصول الزلازل هذه الأيام - وحتى بعد وقوع هذه الكوارث كما جاء في القرآن دون الترحم فقط، فإنه جناية في حق الإنسانية وإغراء في التمادي في المنكرات والقبايح، وتكذيب لقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾^(٢).

بل لا يصح التأمين والاستخفاف قبل حدوث الحادث، كما إذا هدد

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٨٣، البحار ١٦ : ٤٠٢.

(٢) الدخان : ٢٩.

الأرض حجر يصطدم بها، أو مذنب يقترّب منها، أو أي آية أخرى تبدو معالها، بل لا بد من الإنذار كي يتحذر البشر ويتركوا الظلم والقبائح، فلا يشملهم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ فَذَرْنَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾^(١).

ويجب عندها التعمّد واللجوء إلى الله بالدعاء والاستغفار، والعمل بإنذار الرسل المنذرين.

وهذا لا يعني عدم وجود فتنة تصيب المؤمنين ليطمحوا، مما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَأَلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٣) ولكن هنالك فارق بين الفتنة والغضب؛ فإن الأول إنما يكون من قبل الظّلمة المتسلطين على رقاب الناس، والثاني أعم وأشمل.

٤٤٢. سيد ولد آدم

المراد سيد من ولده آدم عليه السلام ولو بالواسطة ليشمل جميع البشر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٤) بمعنى أنه لا يفتخر صلى الله عليه وآله بنفسه ولا بالعطاء ولا بالنعمة، وإنما يفتخر بالمعطي والمنعم، تبارك الله أحسن الخالقين.

وتظل أسباب السيادة كثيرة غير أن المقصودة هنا السيادة الدينية

(١) الطور : ٤٤-٤٥.

(٢) العنكبوت : ٢.

(٣) الأنبياء : ٣٥.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ٢٠٢، مستدرک الحاكم ٣ : ١٢٤، تاريخ البخاري الكبير

والخصيلة الاعتقادية بدليل قوله ﷺ في حديث آخر: «وجعلني في الدين سيد ولد آدم»^(١).

وأول من أخبر بذلك العنوان هو الله سبحانه، أخبر به النبي عيسى عليه السلام إذ قال له: ثم إني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين... وسيد ولد آدم عندي^(٢).

ومن ناحية أخرى فإن هذه السيادة ثابتة لرسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، لأنه ﷺ قال: «وجعلني في الدنيا سيد ولد آدم»^(٣)، وقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(٤).

(١) الخصال ٢ : ٤٢، البحار ١٦ : ٣٢٦ ح ٢٤.

(٢) أمالي الصدوق : ٦١١، البحار ١٤ : ٢٩٤.

(٣) الخصال ٢ : ٤٢، البحار ١٦ : ٣٢٦.

(٤) أمالي ابن الشيخ : ١٧٠، البحار ١٦ : ٣٢٦.

حرف الشين

الأسماء المصدرة بحرف الشين

٤٤٣ . الشافع

لا أظن أن الكلام عن أصل وجود الشفاعة وبيان الأدلة على ثبوتها يحويه هذا المختصر، كما لا أعتقد أن الحوار مع المنكرين لها معقول بعد كل تلك الآيات القرآنية والروايات الواردة من طرق المسلمين المختلفة الدالة على وجود الشفاعة والوسيلة.

هذا بالإضافة إلى ملاحظة أن الشفاعة أمر فطري طبيعي يمارسه كل إنسان في حياته، ولا بد أن يتوسط هو لآخر في مجال تمشية أعماله، مستفيداً من مقامه عند المشفوع لديه.

بل إن أساس المقام والمنزلة هو اعتبار له مقدار وحدود يتحدد على أساسه عدد من يستطيع الشفاعة لهم ويتوسط في قضاء حوائجهم، وكذا نوع تلك الحوائج، ونحن نفرض للرسول مقاماً ومنزلة عند الله ﷻ يجب أن نفسره بذلك.

والذي يهمني التعرض له هو تقريب فكرة شفاعة الرسول ﷺ والاقتراب من حقيقتها بعد اعتقادي بأن الشفاعة لا تكون بنحو المحاوره مع الله سبحانه كما يشفع أهل الدنيا بعضهم لبعض بالكلام مع الرئيس أو المدبر أو الملك، وإنما هو كلام يعقبه منح القدرة ومن ثم استفادة الشافع من القدرة الممنوحة أو المحتفظ بها من السابق، وهذا ما يحتاج إلى بيان:

حاصله أن أوصاف الجنة المذكورة في القرآن والسنة تفرض لها علواً وارتفاعاً، فقد تكرر قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾^(١) وقال تعالى أيضاً: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾^(٢) وهو يدل على علو منزلة؛ لتكفلها بحياة أكثر رفاهية فهي مرتفعة كيفاً، ولها أيضاً ارتفاع مكاني، بمعنى احتياج البلوغ إليها إلى قدرة وصرف طاقة ووسيلة. بينما تفرض الآيات والروايات للنار سقوطاً وإلقاءً وهويماً مما يدل على انخفاضها كيفاً ومكاناً، وخصوصاً بعد مجيء التعبير بحُفَر النيران والهاوية، مما يدل على سفالة كيفية ومكانية، بمعنى أن لها جذباً ولا يحتاج السقوط فيها إلى طاقة وقدرة.

على أن إنكار الارتفاع والانخفاض المكاني بالمعنى المذكور فاقد للتوجيه. وعندها يعدو السقوط في النار سهلاً وطبيعياً ولا يحتاج إلى ثمة كلفة ولا مزيد قدرة وإنما يحتاج إلى ذلك، الترقى إلى الجنات العالية، فهي بحاجة إلى طاقة وقدرة ومحرك، وقوده الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح. وهنا يأتي البعض ليحلّق إلى الجنة ويسمو إليها فيعجز عن الوصول وتقصر به وقود إيمانه وعمله، فيفقد الطاقة الكافية لمداومة التحليق.

ويتجلّى عند ذلك معنى الشفاعة بعد أن عرفنا أن أصل الشفع في اللغة هو ضم الشيء إلى الشيء والالتصاق به، ومن هنا تتجسّد حقيقتها ويعلم معنى قولنا: إن الشفاعة هي قدرة ووسيلة يرفعه الشافع بها بعد أن يضمّه إلى نفسه ويخلق به ليوصله إلى الجنة.

ويختلج في صدري مثال لا أرتضي البتّ به في يوم من الأيام، ولكن لا بأس بالإشارة إليه، فإن المنقول عندنا أن أحداً إذا مات تبقى طينته مستديرة في القبر حاملة لصفات الخير والشر كالبذر من الشجر ينبت به

(١) الحاقة: ٢، الغاشية: ١٠.

(٢) طه: ٧٥.

بعد ذلك بصفاته، كما أن الثابت أن الأرض سوف تتلاشى وتتطاير ذراتها في الفضاء اللامتناهي، ومنها تلك البذور لتسير بظروفها الذاتية، ويسقط بعضها الثقيل بالذنوب في البقع السوداء التي لها جذب وتدعو من أدبر وتولّى، ويحلّق الخفيف من الذنوب والقوي بعمله وإيمانه إلى أرض أخرى فيها ظروف الحياة لينبت من جديد، فتكون تلك الأرض جنة له يوم تبدّل الأرض غير الأرض، فتأتي ميكانيكية السابقين الذين سبقوا في الوصول والإنبات لتساعد بعض القاصرين على البلوغ إلى الأرض الصالحة لذلك. وليس معنى قولني: «إن الشافع هو النبي ﷺ» مباشرته ﷺ لجميع ذلك، بل يكون له مقام الأمر بذلك، كأمر الملائكة و النفوس الخيرة.

قال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾^(١) قال: «وهذا يوم الموت؛ فإن الشفاعة والفداء لا يغني فيه، فأما يوم القيامة فإننا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزاء، ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والطيبون من آلهم فترى بعض شيعتنا في تلك العرصات، فمن كان منهم مقصراً في بعض شدائدها، فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار ونظرانهم في العصر الذي يليهم وفي كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبيزة والصقور ويتناولونهم كما يتناول البيزة والصقور صيدها فيزفونهم إلى الجنة زفاً، وإننا لنبعث على آخرين من محبيننا من خيار شيعتنا كالحمام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب، وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا»^(٢).

ولهذا الكلام شواهد كثيرة منها قول علي عليه السلام: «الشفيع جناح

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) البحار ٨: ٤٤ ح ٤٥. والآية في سورة البقرة: ٤٨.

الطالب^(١)، وروي في كيفية شفاعة الزهراء عليها السلام أنها تركب ناقة من نوق الجنة، وتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحب^(٢).

ثم إن الروايات التي تضمنت شفاعة النبي ﷺ وأنه أول شافع كثيرة جداً^(٣)، مع ذكر ابن شهر آشوب لهذا الاسم في عداد أسمائه ﷺ^(٤).

٤٤٤ . الشاهد

ليوم القيامة وجوه عديدة وعناوين كثيرة منها أنه يوم الحكم والقضاء ووضع الموازين بالقسط، لِيُثْمَلَ عرصات القيامة أكبر محكمة يمكن تصوورها، لأنها تجمع جميع البشر وتضعهم في قفص الاتهام ما عدا النبيين وأوصيائهم المعصومين.

ولا شك أن كل محكمة تحتاج إلى شهود وبينات عدول، لم يغفل مصمم هذه المحكمة عن إعدادهم لإتمام الحجة وتنفيذ الأحكام الصادرة، فكان أول الشهود هو نفس المُعَيَّد لها والحاكم الأول فيها وهو الباري تعالى، ثم عيّن الشاهد الآخر فقال: ﴿بِأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٥) ويليهِ أوصياؤه المعصومون، وجميع الأنبياء والمرسلين، والكرام الكاتبون.

ثم جعل سبحانه أعضاء نفس الجاني وجلده شاهدة عليه فقال تعالى:

(١) نهج البلاغة ٤: ١٥.

(٢) البحار ٨: ٥٢ ح ٥٩.

(٣) انظر الكافي ٤: ٦٠ ح ٩، وأمالي ابن الشيخ: ١٧٠، والمزار للمشهدي: ١٠٩،

والبحار ٢٥: ٢٢.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣١، البحار ١٦: ١٠٣.

(٥) الأحزاب: ٤٥.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) وكفى بها شهداء، فلا تصل النوبة إلى شهادة البشر بعضهم على بعض؛ لأن كل واحد منهم له شأن يغنيه، وقد يُستثنى الشهداء من بينهم.

ويبقى أن الشاهد هو الذي يرى الواقعة ويشهدها فيحفظ بها في مخيلته ثم يُدلي بها إلى الحاكم.

فيأتي السؤال عن النبي ﷺ هل شاهدَ ويُشاهد جميع أعمال البشر ويحفظ بها حتى يكون شاهداً عليهم، أو لا أقل من ذلك هل شاهد ويشاهد جميع أعمال أمته ويحفظ بها؟

ويمكن الإجابة عليه بعدة وجوه، أحدها أن نفس قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ يكفي في ذلك، لأجل أنه أرسله إلى الأمة ليُشاهد أعمالهم ويشهد بها لهم وعليهم ولا يتصور معنى لقوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ غير هذا المعنى.

ومن ناحية أخرى قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢) فهو يدل على أن شهادة الرسول ﷺ تنبع من أفضل أنواع تحمّل الشهادة وهي الرؤية.

على أن الله ﷻ أعدَّ الرسول ﷺ بحيث يمكنه الاحتفاظ بأكثر عدد من المعلومات ويعمل ذهنه كأكثر جهاز متطور يمكنه الاحتفاظ بالمعلومات الهائلة، ومن هذا وأمثاله كان النبي ﷺ أكبر خزان العلم، وعلمه علم جميع

(١) التور: ٢٤.

(٢) التوبة: ١٠٥.

النبيين و علم ما كان وعلم ما يكون وقد تقدم ذكر جميع ذلك.

ويرى البعض عدم توقّف شهادة النبي ﷺ عند ذلك الحد، بل تبلغ وتطال أعمال الرسل، فهو يشهد في القيامة للأنبياء عليهم السلام بأنهم بلغوا أمهم ونشروا المعنوية الدينية في الأرض كما قاموا بالتبشير بظهوره ﷺ، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي شاهداً، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١).

ومع كل ذلك يمكننا فرض شهادة الرسول ﷺ من جانب آخر، وهي الشهادة للناس، وإخبارهم بما شاهدته وعرفه من الحقائق كالتوحيد وزيف الأصنام وعدم صلاحية سائر الآلهة ووجود الحساب والعقاب وأمور تثير غضب الله سبحانه وأمور تجلب مرضاته والوحي والرسالة، فلما سبق وأن عرفوه ﷺ بالصدق والأمانة يكون إخباره بتلك الأمور وشهادته بها شهادة صدق وحق، ويكون أخبر بما شاهد ولم يخبر عن حدس وتخمين وتخوّن.

لكي يأخذ الناس تلك الشهادة ويرتبوا الآثار عليها وتتم بها الحجة لهم وعليهم.

٤٤٥ . الشاهد على الخلق

لم تكن شهادة النبي ﷺ لتقتصر وتتحدد بالبشر وهو مبعوث إليهم وإلى غيرهم كالجن، فهو شاهد على جميع من خلق الله سبحانه، بل يشمل حتى الملائكة بمعنى الشهادة لهم على حمل الرسالة وتبليغها والمعاونة على نشرها وبسطها.

(١) كشف الغمّة ١: ٨، والآية الأولى في سورة النساء: ٤١، والثانية في سورة البقرة:

ولذا قال الإمام علي عليه السلام: «أرسله داعياً إلى الحق، وشاهداً على الخلق»^(١).
 وذكر البعض اعتراضاً وقال: إذا كان الله تعالى عالماً بكل شيء ومالكاً
 لكل أحد، وأن للقاضي أن يحكم بعلمه، فأي حاجة إلى شهادة النبي صلى الله عليه وآله وغيره؟
 وأجاب عن ذلك وقال: ليس بمنكر أن يكون في ذلك مصلحة
 للمكلفين في أديانهم من حيث إنه قد تقرر في عقول الناس أن من يقوم
 عليه شاهد بأمر منكر قد فعله، فإنه يخزى ويخجل وتنقطع حجته، فإذا طرق
 أسماعهم أن الأنبياء تشهد عليهم والملائكة الحافظون تكتب أعمالهم كانوا
 عن واقعة القبيح أبعد^(٢).

ولا يخفى ضعف هذا الجواب، فهو يفرض أن الله صلى الله عليه وآله أهون
 الناظرين بعين البشر، وهو كافٍ في استحقاق العقاب بحيث لا يحتاج معه
 إلى ذنب آخر ولا شهادة.

ولعل الجواب الأفضل هو علو الله صلى الله عليه وآله وارتفاع ساحة قدسه عن أن
 يباشر شئون الخلق الداني المصبوغ بالخطيئة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً،
 وإنما وكل ذلك إلى بعض خلقه ومنها الحساب والشهادة، وحتى الحكم، وما
 يعبئ بكم ربي لولا دعاؤكم، ولذلك شواهد كثيرة من النقل لا نطيل بذكرها.

٤٤٦ . شبح الذراعين

نقلت بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله كان شبح الذراعين^(٣)، وقد فسر
 شبح الذراعين بأنه صلى الله عليه وآله كان طويل الذراعين، وقيل: عريضهما.

وأصل الشبح هو مدك الشيء بين أوتاد كالجلد والحبل، ويقال: شُبح

(١) نهج البلاغة ١: ٢٢٩، مصباح المتهدد: ٣٣٨، البحار ١٨: ٢٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ٧: ٢٧٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٧، ١٠٨، البحار ١٦: ١٨٠، مسند أحمد ٢: ٣٢٨.

بالرمضاء أي مدّ على الرمضاء^(١).

٤٤٧ . شثن الكعبين

والشثن الغليظ والخشن، والكعب ظاهر القدم الذي يمسح إليه في الوضوء، وهو يعني ارتفاع قبتي قدميه وعظمهما، فقد قيل لعلي عليه السلام: صف لنا نبينا فكان فيما قال: «كان رسول الله ﷺ شثن الكعبين»^(٢).

٤٤٨ . شثن الكفين والقدمين

معناه أنّ أصابع الكفين والقدمين يميلان إلى الغلظة، وقيل: معناه خشن الكفين، والجامع أن كفه وأصابعه لم تكن ناعمة ورفيعة، وذلك محمود ومستحسن في الرجال، وعلى العكس من ذلك النساء، فإنّ الحمد فيهن نعومة الأصابع.

وهذا لا ينافي أنه سائل الأطراف - كما مر - بمعنى عدم قصر أصابعه ﷺ وخلوها من التعقيد. ثم إن الروايات التي تضمنت ذكر هذا العنوان كثيرة منها رواية أمير المؤمنين المارة، ومنها ما رواه عبد الله بن سليمان وكان قارئاً للكتب قال: قرأت في الإنجيل يا عيسى جد في أمري.. صدّقوا النبي الأمي... شثن الكف والقدم^(٣).

٤٤٩ . الشجرة الطيبة

الشجرة هي عبارة عن أصل ثابت، وهو الساق الذي له جذور نفذت

(١) انظر النهاية لابن الأثير ٢: ٤٣٩، ولسان العرب ٧: ١٤ «شبح».

(٢) أمالي الطوسي: ٢١٧، البحار ١٦: ١٤٧، وفي البداية والنهاية لابن كثير: ٦: ١٨، شثن الكعبين والقدمين.

(٣) إكمال الدين: ٦٥، أمالي الصدوق: ١٦٣، البحار ١٦: ١٤٤، وانظر معاني الأخبار: ٣٠.

في الأرض لتجعل ذلك الساق ثابتاً، وله فروع وزهرة ولقاح وثمر وورق ملتف بالثمر.

والرسول المصطفى ﷺ بنبوته هو الأصل الثابت الذي لم يختلف فيه الأمة الإسلامية، وصار له جذور في حقبة الزمن وقلوب الناس، ونفذ الاعتقاد برسالته بحيث لا يمكن زعزعته، بل لا يزال ينمو ويرشد ويرسخ وتنتشر رسالته وتفتح جناحيها على الغرب والشرق.

وروي في علة ثبات ذلك الأصل هو أن نسب رسول الله ﷺ ثابت في بني هاشم^(١).

وتفرع على الأصل النبوي الثابت فرع عظيم متمثل بوجود أمير المؤمنين عليه السلام بإمامته وولايته العظيمة، والكثيرة الفوائد والآثار، والتي واقعها هو العلم والخير.

وانبتق من هذا الأصل زهرة عطرة وهي الزهراء فاطمة عليها السلام لتتحول إلى ثمر يانع، وهم أولادها الأئمة المعصومون عليهم السلام وأما شيعتهم وأتباعهم ومواليهم فهم الورق الملتف بالثمر.

ثم إن الشجرة إنما تكون طيبة بطيب ريحها وذكاء عطرها المنتشر عنها، وطعم ثمرها وكثرتها، وطيب الشجرة النبوية هو ما انتشر منها من الآثار الطيبة والاعتقادات الصحيحة، وهي كثيرة الثمر، وتؤتي أكلها - وهو ما ينتشر من علم النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام - في كل حين.

قال الله ﷻ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾^(٢).

(١) بصائر الدرجات : ٧٩.

(٢) إبراهيم : ٢٤.

وروي عن الباقر والصادق عليهما السلام أحاديث مضمونها: أن الشجرة رسول الله ﷺ، أو هو أصلها، وأمير المؤمنين فرعها وغصن الشجرة فاطمة، والأئمة من ذريتها هم ثمرتها، أو هم أغصانها وعلمهم ثمرتها، وشيعتهم المؤمنون ورقها، وأن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها^(١).

وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أنا شجرة، وفاطمة حملها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرها، والمحبون لأهل البيت ورقها في الجنة حقاً حقاً»^(٢).

وفي رواية أخرى عنه قال جبرئيل للنبي ﷺ: «أنت الشجرة، وعلي غصنها، وفاطمة ورقها، والحسن والحسين ثمارها»^(٣).

٤٥٠. شجرة الزيتون

قال الله ﷻ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾^(٤) ذكر بعض المفسرين: أنها الزيتون، وهو مثل رسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما^(٥)، ولعل ذلك لكثرة نفعها وخصوصية زيتها الناصع الضوء.

(١) انظر بصائر الدرجات: ٧٩، والكافي: ١: ٤٢٨ ح ٨٠، وتفسير مجمع البيان: ٦: ٧٤،

ومعاني الأخبار: ١١٣، والبحار: ٩: ١١١، ١١٢، وج: ١٦: ٣٦٣، وج: ٢٤: ١٣٧.

(٢) تنزيه الشريعة: ١: ١٤، تهذيب تاريخ دمشق: ٤: ٣٢١، وانظر لسان الميزان: ٢:

٩٨١، والفردوس للديلمي: ١: ٥٢.

(٣) البحار: ٢٤: ١٣٧.

(٤) المؤمنون: ٢٠.

(٥) تفسير القمي: ٤٤٦، البحار: ٣٦: ١٦٨.

ويدل على تأويل الشجرة الزيتونيه به ما جاء في خطبة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، قال: «آل محمد كالسمااء المرفوعة، والأرض المدحوة، والشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتونيه، لا شرقية ولا غربية، التي بورك زيتها، النبي أصلها، وعلي فرعها، ونحن والله ثمرة تلك الشجرة، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجأ، ومن تخلف عنها فإلى النار هوى»^(١).

٤٥١. شجرة النبوة

هل يمكن فرض الأنبياء جميعهم شجرة واحدة على أن أصلها وبذرتها أبو البشر آدم عليه السلام وقد تفرعت وتشعبت أغصانها ببعثة الأنبياء حتى بلغت مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، والرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هو واحد من تلك الفروع والأغصان المباركة؟

أو إن المراد من هذه الشجرة الجنس وبذوراً تنبت هنا وهناك بين الفترة والأخرى، فيظهر هنا شجرة نبي، وهناك شجرة نبي آخر؟

الراجع هو الثاني، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنا شجرة النبوة»^(٢) ولم يقل: «أنا من شجرة النبوة» ولا وجه لتقدير كلمة «من» وجعله صلى الله عليه وآله جزءاً من الشجرة، فهو صلى الله عليه وآله شجرة النبوة الذي تفرع عليه فرع الولاية السامي.

ولكن جاء في رواية أخرى عنه صلى الله عليه وآله: «إنا أهل بيت الرحمة وشجرة النبوة وموضع الرسالة»^(٣) ويسنله كثير من الروايات التي عبرت عن الأئمة بأنهم شجرة النبوة^(٤).

(١) مستدرک سفینه البحار ٥: ٣٦٢.

(٢) البحار ٢٦: ٢٤٦ ح ١١.

(٣) بصائر الدرجات: ١٧، البحار ٢٦: ٢٤٥.

(٤) نهج البلاغة ١: ٢١٥، بصائر الدرجات: ٧٧، ينابيع المودة ٣: ٤٥٠.

وما ذاك إلا لأن شجرة النبوة كما تقدم أصلها النبي ﷺ وفرعها علي وغصنها فاطمة وثمرتها الأئمة من ذريتها، فهم كلهم يشكلون الشجرة، وإن كان النبي ﷺ هو أول نبات فيها والأصل لها، فلا منافاة بين الروايات.

وبعد ترجيح أن كل نبي هو شجرة لا بد أن يكون للشجرة الخاتمة امتيازات تُشير إليها، فهي شجرة خير الشجر، نبتت في حرم، ويسقت في كرم، وفي أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فخرجت من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مفرساً.

ولنعم ما قال الشاعر:

يا حبّذا دوحه في الخلد نابنة	مامثلها نبتت في الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة	ثم اللقاح علي سد البشر
والحسنان صنواها لها ثمر	والشيعه الورق الملتف بالثمر ^(١)

ولنختم الكلام بما في الصحيفة السجادية قال: « اللهم صل على محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة »^(٢).

٤٥٢ . شديد البأس

بدأ الرسول المصطفى ﷺ دعوته بالرفق واللين، والمنطق الصائب، والدليل الواضح، ولكن سرعان ما واجه ردود فعل ساخنة برفقة استهزاءات باردة، تهدف إلى قمع دعوته واستئصالها وإخمادها في نطفتها.

ولما لم تفلح تلك المحاولات وذلك الاستهزاء والتعنيف في إخماد الدعوة، صار كفار قريش بصدد فرض حصار اقتصادي صارم ومقاطعة

(١) شرح الأخبار ٣: ٩٨، أمالي المفيد: ٢٤٥.

(٢) الصحيفة السجادية: ٥١.

شاملة مع النبي وأهل بيته وعامة بني هاشم، أجزؤهم إلى شعب أبي طالب حتى فقد النبي ﷺ في ذلك الحصار ركنيه، أعني أبا طالب وخديجة وهاجر أصحابه وتفرقوا في البلاد، حتى ختمت غائلة الحصار بلطف تدبير الله وحكمته، واضطر بعدها النبي ﷺ للهجرة، فهاجر إلى الطائف، تلك الهجرة التي لم يُقدّر لها النجاح وعاد ليوأجه أصعب التحديّات، حتى أجمعوا على قتله في الليلة التي خرج فيها إلى المدينة وترك علياً عليه السلام في فراشه يفديه بنفسه، فوصل إلى المدينة وأتاح الله سبحانه للدعوة أن تنتشر وتجد أنصارها.

فهي بين أن تبقى محدودة بحدود المدينة تواجه تهديدات من قريش وغيرها وبين أن تنتشر لتبلغ الأرجاء.

ولما كان المقرّر لهذه الدعوة أن تبلغ الأرجاء وتسود الأرض في آخر المطاف، وكانت الظروف بحيث لا يُقدّر لها النجاح إلا إذا خاضت حروباً دموية ضارية ومعارك دامية دفاعاً عن النفس والعقيدة ليتسنى نشر الدعوة وإخضاع رؤوس الكفر المتكبرة، واستنقاذاً لأولئك المحكومين الراغبين في دخول الإسلام بعدما سمعوا دعوة الدين الجديد للمساواة وحفظ كرامة الإنسان والتحلي بالصفات الحميدة ومكارم الأخلاق.

فصارت جموع المسلمين وجموع الكفر تلتقي وتصطف في مقابل البعض وتأخذ أهبة عسكرية لخوض القتال، عندها يطلب الرسول ﷺ من الجيش المقابل ترك القتال والمنازعة والاستجابة لدعوة الحق ونبذ الشرك والأصنام، ويظل منتظراً لا يبدأهم بقتال، ساعياً وراء السلم والمشاركة.

حتى إذا لم يفلح ذلك التفاوض وهجمت جموع الكفر، واشتبك الطرفان، والتحم القتال لا يبقى معنى للين، ولا يوجد أي توجيه لانكسار جيش المسلمين، ولا يبقى طريق سوى الغلظة على الكافرين والبأس الشديد، وقلق الهامات بحادّ الحديد، ويكون عندها الرسول ﷺ شديد البأس

شجاعاً ضارباً، بل الشجاع من اقترب منه؛ لأنه يكون أقرب القوم إلى العدو، وما يزال يقسو على الأعداء المعاندين، ويلين ويخفض جناحه للمؤمنين حتى تنجلي الغبرة بأشلاء الكفرة المتناثرة وجثث القتلى المضرجة، فتخضع الجماعات ويسلموا، ويحسن إسلام الكثير من الباقين وينقلبون إلى أكبر محبي الرسول ﷺ لما يشاهدونه من عظيم أخلاقه وتواضعه وغزارة علمه إلى جانب شجاعته وشدة بأسه.

بينما كان رسول الله ﷺ يعطي غنماً بين جبلين لرجل ليسلم هو وعشيرته، وبينما يقف ذلك الموقف الشجاع ويكون شديد البأس، ليثبت ويبرهن على أن هدفه ليس القتال ولا سفك الدماء، وإنما هو قول لا إله إلا الله.

وبينما تدرسه اليهودية السم فيعضو عنها ويدحرج بعض المنافقين الدباب لناقته قاصدين اغتياله فيعضو عنهم، وبين أن يقف وقفة الضرغام ليضرب رؤوس الكفر، فليس ذلك إلا لأنه لا يريد الحرب لنفسه ولا لبسط سيطرته، وإنما أراد كل ذلك لإعلاء كلمة الله سبحانه، وإنقاذ المستضعفين من الشرك والكفر والعذاب الأليم.

ولما كان طريقة أغلب الرسل السابقين هي الدعوة بسلام، ومن موضع الضعف بحسب القوة الظاهرية، وخصوصاً النبي عيسى عليه السلام القائل إذا صفعك شخص فأره الخد الآخر، كل ذلك حسب ما اقتضته الحكمة الإلهية، فإن هذه الحكمة هي التي اقتضت أن يدافع الرسول المصطفى ﷺ عن الدين بالسيف، ولكن قد يصعب احتمال ذلك على النصراني، فعاد من التدبير الظريف ما جاء في الإنجيل: ثم إني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين... الشديد البأس.

فإن هذا التدارك جاء لدفع ذلك الاستغراب والاستبعاد، وهمد قواعد المخالفة والنقاش.

٤٥٣. شرف الأمة

لو تأملنا الطابع السائد على الأمة العربية قبل الإسلام وما كان يصيبهم من التمزق والتفكك والحروب والتناحر والركود على الجهل والسفه، فليس ثمة كتاب ولا جذوة علم ولا آداب ولا حضارة ولا مجد ولا سؤدد، لوجدنا أن الذي كان سائداً عليها هو التوحش.

وفي هذا الشأن لو استمرت الأمة على هذا الحال لاحظنا أن الطابع السائد للمرحلة القادمة بعد استمرار التناحر والتمزق سيكون هو العبودية والرقية لاستضعاف سائر الأمم لها واستيلائهم عليها، وأصبح أفراد الأمة عبيداً يباعون ويُشرون وينقلون في البلاد، ولم يكن لهم أقل كرامة وشرف يرتفعون به على من عداهم.

ولكن وجود الرسول المصطفى ﷺ أضاف لهذه الأمة وحدة واعتباراً حتى ارتفعت به، وهددت أقطاب العالم، فانهارت على يدها الإمبراطورية الفارسية، وتراجعت أمامها الرومية، وصاروا مجال من المناعة إذا غزاهم غاز بسيفه، غزوه بفكرهم وعقيدتهم وعلمهم، كما اتفق للمفول، وستتفق للحضارات الغربية.

فالأمة ناقصاً الرسول ﷺ أمة خالية من الشرف ودواعي الفخر والاعتزاز، والأمة زائداً الرسول المصطفى ﷺ هي أمة شريفة وعزيزة، ومنه يعلم أن الرسول ﷺ، هو شرف الأمة، على أن الأيام فسرت وتفسر أن أهل بيت الرسول عليهم السلام أيضاً لهم هذا الشأن فهم وأتباعهم عزها وشرفها عندما تراجع بعض قيادات الأمة أمام الغزو الصهيوني، وبهذا أخبر الرسول ﷺ فقال: «نحن - أهل البيت - شرف الأمة»^(١).

٤٥٤ . الشرف الباقي

من طبيعة الشرف أن يُصان ويحفظ؛ لأنه كالتاج والكرسي يُدافع عنه؛ لما يترتب على حفظه من الثمرات الكثيرة والنعم الصافية والسيادة، وسمي العرض شرفاً لأنه يصان كما يصان الشرف بمعنى الرفعة، ولما يترتب على هتكه وامتهانه من الخفة والمهانة وغيرها.

ومن هنا قام الشريف أبو طالب محامياً عن الرسول ﷺ لأجل ما عرفه من حقانيته ﷺ وأنه شرف الأمة الذي تجب حمايته والحفاظة عليه، وهو الذي ببقائه وبقاء دعوته تحفظ الأمة شرفها وعزها، فهو في الحقيقة الشرف الباقي لها.

ولم يكتف الصحابة إلا أن أوصى أولاده وعشيرته حينما بلغه اجتماع قبائل قريش على قتل الرسول ﷺ فقال: إن ابن أخي محمداً كما يقول، بذلك أخبرنا آباؤنا وعلماؤنا... فأجيبوا دعوته، واجتمعوا على نصرته، وارموا عدوه من وراء حوزته؛ فإنه الشرف الباقي لكم على الدهر^(١).

هذا كله إذا كان ضمير «فإنه» راجع إلى النبي ﷺ، وأما إذا كان راجعاً إلى الاجتماع على نصرته ﷺ - وهو بعيد - لم يكن لهذا العنوان مستند.

٤٥٥ . الشرف في الدنيا والآخرة

جاء خبر من الأحبار وأخبر خديجة بما سيؤول إليه أمر النبي ﷺ، فلما سمعت ما نطق به الخبر تعلق قلبها بالنبي ﷺ وكنمت أمرها، فلما خرج من عندها قال: اجتهدني أن لا يفوتك محمد، فهو الشرف في الدنيا والآخرة^(٢).

فمن الممكن أن يكون مراده من الشرف في الدنيا والآخرة هو النبي ﷺ

(١) روضة الواعظين : ٥٥، البحار ٣٥ : ٩.

(٢) البحار ١٦ : ٢١.

ويتم بذلك هذا العنوان وهذه الصفة، وأما إذا كان مراده أن الاتصال بالنبي ﷺ والزواج معه هو الشرف، فلا يكون لقولنا مستند.

٤٥٦. الشفيح

من كانت له حاجة عند عظيم أو ملك أو رئيس، فهو بين أن يذهب إليه بنفسه وبمفرده، أي يذهب إليه وترأ واحداً، وعندها قد تقضى حاجته وقد لا تقضى، وإذا كان مذنباً متمرداً وجاء تائباً فقد تغفر زلته وقد لا تغفر، والأغلب أنه لا تقضى حاجته ولا تغفر زلته؛ لأنه جاء بوجه غير مرغوب فيه.

وبين أن يصحب معه آخر ممن له مقام ومنزلة وقرابة عند ذلك العظيم، فيكون قد شفّعه صاحبه، أي صار ثانيه بعد ما كان وترأ واحداً، وإنما قيل للوساطة شفاعاً لأنها تكون بمعنى الاثنية وأصلها الشفع الذي يقابل الوتر.

وفي هذا الحال فإن السائد قضاء حاجته واغتفار زلته؛ لأنه جاء بوجه مرغوب فيه ومحبوب.

ثم إن الشفاعه إذا جاءت بصيغة فعيل - أي الشفيح - أعطت معنى الدوام والاستمرار ورسوخ الصفة وصعوبة زوالها، وسعة مدارها لتشمل أكثر الناس، فإما يقول الناس للكريم كريماً إذا شملهم كرمه ودام على ذلك، وإلا كان مكرماً لا كريماً.

فإذا قيل للرسول ﷺ: «شفيحاً» فهو يحكي عن كثرة شفاعته وشموها لأكثر الناس، وكذا يحكي عن مقام شامخ ومنزلة ثابتة عند الله ﷻ لا يوهنها كثرة الطلب للآخرين والشفاعة للمتمردين والعاصين الخارجين عن طاعته.

فإن الملاحظ أن الملوك لا تغفر لمن تمرد على الأوامر وخرج عن

الطاعة، كما لا تقرب من يسعى جاداً في تمشية أمور هؤلاء والشفاعة لهم والسماح لهم في الدخول إلى حريم الملك وقصره.

نعم إذا كانت هناك عواطف في البين وحب كامن فإن الحال قد يختلف، وذلك كمن يشفع لابن الملك المذنب ويرده إلى أبيه ويؤلف بينهما فقد لا تكون لشفاعته هذه حزازة ومنقصة، لأنها تحقق رغبة الملك القلبية وتؤمن مرامه الباطني في استعادة روابطه مع ولده بعد إصلاحه.

فإن هذا وأمثاله يكشف عن عدة أمور:

الأول: قرب مقام النبي ﷺ من الله ﷻ ومحبوبة وجهه الله سبحانه، فلا شفاعاة كشفاعة المحبوب، بل لا شفاعاة إلا للمحبوب، والرسول ﷺ هو حبيب الله.

الثاني: شدة حب الله سبحانه لخلقه رغم تمردهم وعصيانهم بحيث لم يكلف الشافع لهم إلا قرباً ومنزلة، حتى يصبح شافعاً كثير الشفاعاة ودائمها.

الثالث: سعة رحمة الله ﷻ بحيث تشمل وتطال أكثر المذنبين وكثيري الذنوب كأمثالنا، فلا داعي لليأس والقنوط.

الرابع: كثرة حب النبي ﷺ للناس وشدة شفقتة على الأمة بحيث لا يملُ من الشفاعاة لهم.

حتى كان شافعاً بمعنى كثير الشفاعاة والدائم عليها.

قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله ﷺ: «يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفرع الأكبر؟»، قال: يا فاطمة عند باب الجنة ومعني لواء الحمد، وأنا الشافع لأمتي إلى ربي»^(١).

٤٥٧. شفيع من في الدارين

تقدّم تحليلنا لشفاعة الرسول ﷺ لمن هو في الآخرة وبأني بعض الكلام عنه، ويبقى الكلام عن شفاعته ﷺ لمن كان في دار الدنيا، فإن المقبول عندنا هو حياة الرسول ﷺ ومشاهدته لأعمال الناس؛ لأنه شاهد على ما مر، وشهيد هذه الأمة على ما سيأتي، والشهيد هو حي ومرزوق وله بصر وسمع، فهو ينظر ويرى أعمال الأحياء ويستبشر بالذين لم يلحقوا به إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والنبي ﷺ يشهد ويرى أعمال العباد ويسمع كلامهم: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) فالله سبحانه يرى العمل حين وقوعه والرسول ﷺ كذلك، فلا تريبك السين في قوله: «إفسيري». والمراد بالمؤمنين هم المؤمنون الحقيقيون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وليسوا هم سوى الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين يرون كما يرى ﷺ ويشهدون ما شهد.

ومن ناحية أخرى فإن مقام الرسول ﷺ ومنزلته عند الله سبحانه محرزة ومسلمة فلا يبقى بعد ثبوت رؤيته ﷺ من مستلزمات الشفاعة شيء، وما المانع من ذلك بعد مشاهدة النبي ﷺ لأعمال الناس وسماعه طلبهم واستشفاعهم ومسلمية حبه لأُمَّته، وخصوصاً محبوه ومحبا أهل بيته، فلماذا لا يشفع لهم في حوائجهم، وهو ذو منزلة وشرف عند كريم لا ينقصه ما يعطي، ولا تُبرمه شفاعة حبيبه، ويرضى بذلك أشد الرضا، بل هو الذي يمنحه قدرة لتمشية أمور عباده، هذا مع الالتفات إلى أن الله سبحانه أجل وأعظم من أن يتولّى أمور العبد المصبوغ بسواد الخطيئة بنفسه ويباشرها بيده، وهو الذي جعل لكل شيء سبباً، وأحد الأسباب هو

استشفاع الرسول المصطفى ﷺ، بل هو من أقوى الأسباب وأعظمها،
فماذا تنكرون!؟

هذا وقد عدَّ ابن شهر آشوب من ألقابه ﷺ: «شفيح من في الدارين»^(١)، ويدل عليه أيضاً شفاعته في الدنيا لأبي لبابة، ونزول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٢) فهو في الدنيا، بالإضافة إلى الآخرة.

٤٥٨ . شفيح المذنبين

اختلفت الأمة في كيفية شفاعته النبي ﷺ يوم القيامة، فقال المعتزلة ومن تابعهم: يشفع لأهل الجنة ليزيد الله درجاتهم، وقال غيرهم من فرق الأمة: بل يشفع لمذنب الأمة ممن ارتضى الله دينهم، ليسقط عقابهم بشفاعته^(٣).

ولا بأس بذكر بعض التفصيل في تحقيق من يشفع له الرسول ﷺ ومن لا يشفع له.

فالمسلم أن الشفاعة إنما تكون لمن آمن بالله واعتقد وتمت اعتقاداته وصحَّت وكمل دينه، فلا شفاعته لكافر ولا مشرك ولا منكر النبوة والمعاد ولا من لم يكمل دينه بالولاية الثابت بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٤) بعدما نصب النبي أمير المؤمنين إماماً

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) نقل ذلك في مجمع البيان ٣: ١٤٥.

(٤) المائدة: ٣.

للناس وعلماً هادياً فقال ﷺ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»^(١).

وبهذا يكون الشرط الأول صحة العقيدة وتمامها، فلا شفاعاة لناقص العقيدة، كما لا شفاعاة لمنكر الشفاعاة، فمن لا يرى هذا المقام للرسول ﷺ ولا يعتقد به لا يطلب من النبي ﷺ الشفاعاة طبعاً، ولا يشفع النبي ﷺ له إذا استشفعه يوم القيامة، وهو أمر طبيعي، وفي الحقيقة من أنكر الشفاعاة يكون قد حرم نفسه وأضرَّ بها قال رسول الله ﷺ: «من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي»^(٢).

ومن ناحية أخرى، فإن الرسول المصطفى ﷺ بذل جهوداً كثيرة وتحمل مصاعب جمة وعناءً كبيراً في طريق هداية الناس، فهو أعطى من نفسه وأعطى وأكثر ولم يطلب بإزاء ذلك سوى ثمن واحد، وهو المودة في القربى ومحبة أهل بيته العملية التي هي معنى المودة، وجعل ذلك في الحقيقة ثمن الرسالة وثنم الدين والاعتقاد، فمن لم يدفع الثمن - أعني المودة - فليس من الدين في شيء، وهو سارق، وما له شفاعاة ولا توبة ولا دين: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْعَوْدَةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٣).

فإذا تمت جميع الاعتقادات ودفع المسلم ثمن الرسالة، فهل إنَّ الشفاعاة للمذنب أو لغير المذنب؟

الجواب: إن هذا يختلف في المشفوع فيه، فقد تكون الشفاعاة لغير المذنب، كشفاعته ﷺ في تعجيل الحساب ونيل الثواب أو حتى رفع

(١) فضائل الصحابة لابن حنبل: ١٤، مسند أحمد ١: ٨٤، ١١٨، ١١٩، سنن ابن

ماجة ٤٣: ١، سنن الترمذي ٥: ٢٩٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٢٥، أمالي الصدوق: ٥٦، البحار ٨: ٣٤ ح ٤.

(٣) الشورى: ٢٣.

الدرجات، والروايات بذلك كثيرة ^(١).

وأما الشفاعة الأصلية فهي للمذنبين وخصوص أهل الكبائر، فقد روي أنه ﷺ قال: «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل» ^(٢).

وينقل أن النبي ﷺ قعد عند عين فنزل جبرئيل في ذلك الموضع وميكائيل وإسرافيل ودردائيل، فقال جبرئيل: السلام عليك يا محمد... السلام عليك يا شفيع المذنبين ^(٣).

٤٥٩. الشمس

إنما كانت الشمس شمساً لشدة نورها المتأجج وإرسالها الخيوط الذهبية لتُظهر كل ما تقع عليه، وتذهب قطع الليل المظلم، فتنجلي حقائق المخلوقات، وترى الجبال الشاخمة والبحار الواسعة والأنهار الجارية، والبساتين العامرة، والمرايع الخضراء، والصحاري القفار، والطرق والفجاج، والدور والناس، والحيوان والنبات، وغير ذلك بحيث لولاها لما أمكنت رؤية كل تلك الحقائق ولا ملاحظة جمالها وعظمتها.

وقبل ذلك فهي تبعث بالدفء وتنمي الشجر الذي يكون به الحياة على الأرض، بحيث لولاها لما قامت للحياة قائمة.

على أن فائدة الشمس لا تنقضي بغروبها، ويظل يعكسه القمر لينتفع به الساري وغيره، هذا عن الحياة المادية.

وأما الحياة المعنوية وعالم الدين والاعتقاد، فالشمس التي تجلي

(١) انظر البحار ٨: ٣٤ - ٦٣.

(٢) مشكاة الأنوار للطبرسي: ٥٦٥، البحار ٨: ٣٤ ح ٤.

(٣) الفضائل: ٥٤، ٣١، البحار ١٥: ٣٥١.

الحقائق وتبدد ظلمات الكفر والجهل، وترينا الدقائق الخافية عبارة عن شمس أخرى، وهي شمس حقيقة الأنبياء والرسل التي تطلع وتغرب.

فالرسل بعامة والرسول المصطفى ﷺ خاصة له نور شديد وكاشفية عظمى، وإشعاعات ظهرت بها حقائق عظيمة خافية، كخالق وعظمته وجماله، وحقيقة الخلقه وكرامة الإنسان والآداب الرفيعة، والأخلاق الفاضلة، والحياة السعيدة، ومستلزمات الحياة على الأرض والطرق إلى الله سبحانه وسبل السعادة.

وقبل ذلك فوجودهم ودعوتهم هي العلة الغائية للخلق والداعي لها، ولولاهم لما كان هناك شيء يذكر، ولا كان دين ولا اعتقاد ولا علم ولا حتى حياة، لتوسطهم عليهم السلام في تعليم البشر أصول الحياة على الأرض، وكيفية التنعم من نعمها، فهم كالشمس في تقويم الحياة بهم عليهم السلام.

على أن هذه الشمس لا تنقضي بغروبها، ويظل قمر يعكس ذلك النور، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «اقتدوا بالشمس، فإذا غابت الشمس فاقتدوا بالقمر...» فقالوا: يا رسول الله فما الشمس؟ قال: «أنا الشمس وعلي القمر»^(١).

وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: «أضاءت الأرض بنور محمد ﷺ كما تضئ الشمس، فضرب الله مثل محمد الشمس»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ قال: «الشمس رسول الله ﷺ أوضح به للناس دينهم»، قيل: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾

(١) معاني الأخبار: ٣٩، البحار: ٢٤: ٧٤.

(٢) الكافي: ٨: ٣٧٩، ٣٨١، البحار: ٢٣: ٣٢١.

قال: «ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، تلا رسول الله، ونفته بالعلم نفثاً فقيل: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ قال: «ذلك أئمة الجور الذين استبدوا بالأمر دون آل الرسول عليهم الصلاة والسلام...»^(١).

٤٦٠. شمس بين القمرين

ولما كان عالم الاعتقاد والدين قد ضرب فيه بحجاب بين الرجال والنساء في بعض الموارد لما بينهما من الاختلاف في الخلق، احتاجت سماء هذا العالم إلى قمر آخر يضيء خلف حجاب النساء، وخلف وسائل احتجابها حيث لا يبلغها نور القمر الأول، فجعل الله سبحانه أقماراً هي كذلك كمريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم والزهراء سيدة نساء العالمين.

وبذلك أنشد الإمام الحسين عليه السلام:

ثم أمي فأنا ابن الخيرين	خيرة الله من الخلق أبي
فأنا الفضة وابن الذهبين	فضة قد أخلصت من ذهب
وارث الرسل ومولى الثقلين	أمي الزهراء حقاً وأبي
وقريش يعبدون الصنمين	عبد الله غلاماً يافعاً
وأبي قام فصلى القبلتين	يعبدون اللات والعزى معاً
ليس في الأرض مصل غير دين	مع رسول الله سبغاً كملأ
أو كشيخي فأنا ابن العلمين	من له جد كني في الورى
فأنا ابن الشمس وابن القمرين ^(٢)	فأبي الشمس وأمي قمر

وبهذا كانت الزهراء فاطمة عليها السلام هي قمر، كما مر أن الإمام

(١) الكافي ٨: ٥٠، تفسير القمي: ٧٢٦، ٧٢٧، البحار ٢٤: ٧٠.

(٢) روضة الواعظين: ١٥٥، الاحتجاج للطبرسي ٢: ٢٥.

أمير المؤمنين هو القمر الذي يعكس نور رسول الله ﷺ، وهو واقع ملحوظ لا يحتاج إلى دليل، وإن ورد في روايات كثيرة، التعبير عن الزهراء عليها السلام بالزهرة، منها ما روي عن أنس بن مالك وجابر قالوا: صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، فلما انفتل من صلاته أقبل علينا بوجهه الكريم على الله ﷻ ثم قال: «معاشر الناس من افتقد الشمس فليتمسك بالقمر، ومن افتقد القمر فليتمسك بالزهرة، فمن افتقد الزهرة فليتمسك بالفرقدين» ثم قال رسول الله ﷺ: «أنا الشمس، وعلي القمر، وفاطمة الزهرة، والحسن والحسين الفرقدان»^(١).

ولما ذكر ابن شهر آشوب أسماء رسول الله ﷺ عدّ منها: «شمس بين القمرين»^(٢).

٤٦١ . شمس الدنيا

كان فيما سلّم به جبرائيل على رسول الله ﷺ حينما نزل هو وميكائيل وإسرافيل ودردائيل أن قال: السلام عليك يا شمس الدنيا^(٣).

٤٦٢ . شمس القيامة

إن الحديث عن القيامة وشمسها وحقيقتها ما تكشفه هذه الشمس وتجليه، وماذا تحييه وتنميه ليس إلا تحرفاً وتحميناً.

وغاية ما يمكن ذكره أن الشمس تبرز لترينا الجبال الشاخطة والسهول المنبسطة والوديان العميقة والبساتين العامرة والبراكين الثائرة والصحاري القفار والطرق والفجاج والسبل المشرعة.

(١) معاني الأخبار: ١١٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) الفضائل: ٣٣، البحار ١٥: ٣٥١.

فإن شمس القيامة تكشف عن الميزان القائم بالقسط المجلي لمواضع البشر، كمواضع النبيين والأئمة المعصومين الشاخصة، ومواضع العامة التي هي كالأرض المنبسطة لها، ومواضع أئمة الكفر والضلال السحيقة، وكذا تُري أهل الجنة سبلها وطرقها ووسائل التحليق إليها، وتبعث فيهم روح الحركة وقوة النهوض إلى تلك الغرف العالية والمنازل الرفيعة والبساتين الجميلة، كما تظهر فجاج النيران لأهلها ومهاوي أئمة الضلال ومساقطهم، وتكسف وجوههم وتكلؤهم.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام قوله: «إذا كان يوم القيامة وجمع الله ﷻ الأولين والآخرين لفصل الخطاب دُعي رسول الله ﷺ ودُعي أمير المؤمنين عليه السلام فيكسى رسول الله ﷺ حلة خضراء تضيئ ما بين المشرق والمغرب ويكسى علي مثلها، ثم يصعدان عندها، ثم يدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس...»^(١)

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام يتعجب الراوي فيقول: جعلت فداك وردية؟! قال: «نعم، أما سمعت قول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾»^(٢)

فأصل نورانية الرسول ﷺ مسلمٌ دلت عليه الآيات والروايات الكثيرة، ونحن حاولنا الإشارة إلى ما ينكشف بذلك النور.

وكان فيما سلم به جبرئيل على رسول الله ﷺ أن قال له: السلام عليك يا شمس الدنيا، السلام عليك يا قمر الآخرة، السلام عليك يا نور الدنيا والآخرة، السلام عليك يا شمس القيامة^(٣).

(١) الكافي ٨: ١٥٩ ح ١٥٤، البحار ٧: ٣٢٧ ح ٣٣.

(٢) الخاقاني ١: ١٨٠ ح ١٧١، البحار ٧: ٣٣٠ ح ٦، والآية في سورة الرحمن: ٣٧.

(٣) الفضائل لشاذان: ٣٣، البحار ١٥: ٣٥١.

٤٦٣ . الشهيد

إن الحضارات وأنواع الأنظمة التي سادت العالم بالفعل، أو ظلت كأطروحة مهما بلغت في دقتها وعمقها في تفسير الحياة الصحيحة على الأرض وتبيين أفضل السبل للسلوك فيها تظل فاقدة لأهم نكتة عملية، وهي الضمان الحقيقي لتطبيق ذلك الواقع المنشود وتجسيده.

فهي تعجز عن إيجاد المحفزات الجديدة أو إبقائها على الدوام لتضمن سلامة ما أطرته ونشدها إليه.

وبذلك مهما كانت المعادلات المرتبطة بذلك صحيحة ومتساوية على الورقة وحتى في صفحة الذهن فهي تواجه أزمة حادة إذا خرجت إلى ساحة الواقع نابعة من تفجّر التناقضات التي ولّدتها عملية التحديث على مستوى الكرة الأرضية.

ومن هنا جاء الفكر الإسلامي - وكذا سائر الأديان الإلهية - ليركّز بالدرجة الأولى على جانب الضمان لتطبيق المقررات بصورة كلية، ومن ثم صياغة القوانين النافعة والمثل القيّمة التي يريد من الناس مراعاتها والالتزام بها في سبيل إنشاء نظام متكامل.

ويدخل في ذلك الهدف ترسيخ مسألة الشهادة والإشراف، وإلفات الأنظار إلى وجود شاهد في كل حال ممن يعظم أمره في نفوس الناس؛ ليبدأ بإلفات النظر إلى مشاهدة الله ﷻ لأعمال الإنسان وإشرافه على كل حركة وسكون، ويتلوه الرسل عليهم السلام، ويكون الشاهد على الأمة الإسلامية هو الرسول المصطفى ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام من بعده ويكون لهم إشراف وإحاطة على أعمال الناس الظاهرة والباطنة، ويكون الرسول ﷺ هو الشاهد من ورائهم، وقد تم التركيز على ذلك وتعميمه.

فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «نزلت في أمة محمد عليه السلام خاصة، في كل قرنٍ منهم إمامٌ منا شاهدٌ عليهم ومحمد عليه السلام شاهدٌ علينا»^(١).

وقال علي عليه السلام في خطبة له فحتى بعث الله محمداً شهيداً وبشيراً ونذيراً^(٢).

فهذه الآية والأخبار تفرض تحمّل النبي عليه السلام الشهادة والإدلاء بها، والمستفاد من الرواية الأولى هو الشهادة بعد جمع جميع الناس، أي يوم القيامة، وهناك رواية تقدم ذلك، فقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: «إن العبد إذا أدخل حفرته أتاه ملكان اسمهما منكر ونكير... والنبي عليه السلام الشهيد عليهم، وذلك قول الله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾»^(٣).

٤٦٤ . شهيد الله يوم الدين

قال الإمام علي عليه السلام: «اللهم اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك... وشهيدك يوم الدين»^(٤).

فقد فرض عليه السلام مشاهدة الرسول عليه السلام لأعمال العباد وتحمله الشهادة، وبين زمان ومكان الإدلاء بها، وهو يوم القيامة في ساحة المحشر، ثم فرض لها منزلة ومقاماً سامياً لا حدود له أن جعله شاهد الله الذي يشهد له على

(١) الكافي ١: ١٩٠ ح ١، والآية في سورة النساء: ٤١.

(٢) نهج البلاغة ١: ٢٧، البحار ١٦: ٢٨٤.

(٣) البحار ٦: ٢٣٣، والآية في سورة النساء: ٤١.

(٤) نهج البلاغة ١: ١٣٠، البحار ١٦: ٣٧٨.

خلقه المعاند له، والمعادي حتى لنفسه، والمرتكب للفضائح والأعمال
القبیحة التي تصب في تيار الإخلال بالنظام المسعد للبشر.

فكل ذلك وأمثاله يُعدّ روادع حقيقية يراد لها الرسوخ في الأذهان،
لضمان تطبيق المقررات الإلهية، بالإضافة إلى أنها تحبر عن واقع وتشير
إليه.

حرف الصاد

الأسماء المصدرة بحرف الصاد

٤٦٥. الصابِر

أول ما عرفه المسلمون عن النبي ﷺ هو طاعته لله ﷻ وشدة تعبده بأوامره وجميع ما يرضيه ﷻ، وتحذره من نواهيه وجميع ما يسخطه، وما زالت تكفيه أقل إشارة وأقل تحييد، وحتى الانتهاء والامتناع عما نُهي عنه الآخرون، كالامتناع عن أكل الخنطة لنهي أبي البشر آدم ﷺ عنها، بالإضافة إلى المبالغة في التطوع وإلقاء النفس في المشقة الشديدة حتى قال تعالى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١).

وبات من الواضح جداً أن من تكفيه الإشارة، ومن كان بهذه المثابة لا يحتاج إلى تكرار الأمر والتأكيد عليه، ولا يتصور الإصرار عليه أو ترغيبه في الفعل وتطميعة؛ لأنه فاعل لا محالة.

ولكن لما نراجع القرآن الكريم وخصوص آيات الصبر نجد تكرار أمر الله تعالى للنبي بالصبر.

فمرة يقول الله ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٢).

(١) طه: ١ - ٢.

(٢) النحل: ١٢٧.

- ومرة أخرى يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١).
- وثالثة: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَخُضَّكَ اللَّهُ﴾^(٢).
- ورابعة: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾^(٣).
- وخامسة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾^(٤).
- وسادسة: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾^(٥).
- وسابعة: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٦).

وبعد كل مرة من الأمر بالصبر يذكر الله تعالى له ترغيباً وتشويقاً وتخفيفاً وتخفيفاً عليه، فمرة يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٧) ومرة يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٨) وثالثة يذكر له قصص الأنبياء الماضين وما جرى عليهم ومدى صبرهم، ثم يقول تعالى له: ﴿فَاصْبِرْ

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) يونس: ١٠٩.

(٣) المزمل: ١٠.

(٤) غافر: ٧٧.

(٥) الطور: ٤٨.

(٦) المعارج: ٥.

(٧) النحل: ١٢٧.

(٨) الطور: ٤٨.

كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴿١﴾ ورابعة يذكره بعواقب عدم الاصطبار فيقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (٢)، وخامسة: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣).
وأخيراً يلتتمسه ويطلب منه أن يصبر لأجل الله سبحانه ولعزير خاطره فيقول تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (٤).

فكيف احتاج هذا العبد المطيع جداً المنقاد للغاية إلى كل هذا التأكيد والتكرار والترغيب والتطميع والتذكير بالعواقب؟ فليس ذلك إلا لشدة المصاعب التي كان يواجهها الرسول ﷺ والآلام التي لا تطاق، والأذى الذي لا يحتمل، والمصاعب التي لا توصف، والضغطات التي لا يمكن مقاومتها، والمزالق الرهيبة، ويتناسب طردأً مع كل ذلك مقدار صبره واحتماله، مما يثبتك عن مدى صبره واحتماله، فهو الصابر الحقيقي.

ولا تنحصر آلام الرسول المصطفى ﷺ في جانب ولا يستوعبها كتاب، ولكن لا نترك الإشارة إلى بعض تلك الآلام التي بدأت بغبار اليتيم وفقدان الأبوين واستمرت بالآلام الفقر وزهو الجاهلية، حتى إذا نزل عليه الوحي وأمر بتبليغ الرسالة نهض القوم إلى تكذيبه وردعه ومحاربتة وضربه ورشقه بالحجارة وكان النبي ﷺ يطوف فشتمه عقبة بن أبي معيط وألقى عمامته في عنقه وجره من المسجد فأخذه من يده، وكان ﷺ يوماً جالساً على الصفا فشتمه أبو جهل ثم شج حمزة بن عبد المطلب رأس أبي

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) القلم: ٤٨.

(٣) الزمر: ١٠.

(٤) المدثر: ٧.

جهل^(١)، ونهاه أبو جهل عن الصلاة وقال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه^(٢).

وأشد من ذلك طعنات الكلام حتى قالوا مرة: هو مجنون، وقالوا أخرى: هو ساحر، وثالثة: هو مفسد، أفسد شبابنا، وأخذوا بتعذيب أصحابه وشرذوهم وغربوهم في البلاد، ليدخل هو ﷺ وأصحابه وعشيرته الشعب حتى يفقد محبوبته خديجة وحاميه أبا طالب وغيرهما.

ثم توافرت جميع القبائل على قتله وتبئته فنجاه الله مهاجراً إلى المدينة ليخوض المعارك الدامية المدمرة، وصار يفقد أحبته كحمزة وجعفر وسعد وغيرهم من الشهداء، ولتكسر رباعيته ويصاب بجراح كثيرة، وبين أن يفر أصحابه ويبقى مع نفر يسير يقاتل بيده.

هذا كله يهون عند أذى المنافقين الذين التفوا حوله وصاروا يطعنونه من الخلف، ويغلظون عليه في القول متسترين بظاهر الإسلام، فلم ينفكوا عن أذاه وطعنه والتدبير لقتله حتى دحرجوا لناقته الدباب فعرفهم وتركهم^(٣)، واتهموه بأنواع التهم التي أشدها ما يمس العرض مما لم يحتمله مثل النبي أيوب الصابر عليه السلام، حتى يعرض أحدهم بالزهراء فاطمة عليها السلام ويقول: إن محمد ربحانة في نثر، فيغضب رسول الله ﷺ^(٤).

ويضاف إلى جميع ذلك ما أخبره به جبرائيل عن الله سبحانه من انقلاب أمته على أعقابها، وقتلهم ابنته، وسمّ ولده الإمام الحسن عليه السلام.

(١) البحار ١٨: ٢٠٤.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠: ٢٢٥.

(٣) الهداية الكبرى للخصيبي: ٧٨، التعجب للكراچكي: ٢٦، الاحتجاج ١: ٦٥،

البحار ٢١: ٢٣١.

(٤) مجمع الزوائد ٨: ٢١٥.

وذبح الحسين عليه السلام عطشان بكر بلاء، وصعود بني أمية على منبره ألف شهر، وغير ذلك مما سيلقيه أبناؤه ودينه من القتل والتشريد والتطريد والتحريف.

ولكن كل تلك المصاعب والمصائب والشدائد بأنواعها وأطوارها وغيرها مما لم ننقله ليست هي التي تحتاج إلى ذلك التأكيد والإصرار والترغيب والترهيب وإنما يكفي فيها أمر واحد، ولكن جاء كل ذلك التأكيد والإصرار والترغيب والترهيب والإسكان لأمر آخر صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي، ولا صبر لي على ذكر إلهي»^(١).

فهذا هو الذي لم يصبر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف يصبر عن النيل من حبيبه رب الأرباب خالق الأرض والسماء، وأضف إلى ذلك تكذيب الرسالة التي هي رسالة الله سبحانه.

فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام يخاطب حفص بن غياث، قال: «يا حفص إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً» ثم قال: «عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله تعالى بعث محمداً فأمره بالصبر والرفق، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾^(٢) وقال تبارك وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٣) فصبر صلى الله عليه وآله حتى نالوه بالعظام، ورموه بها، فضاقت صدره، فأنزل

(١) الكافي ٢: ٨٨، البحار: ٦٨ - ٦١.

(٢) المزمّل: ١٠.

(٣) فصلت: ٣٥ - ٣٦.

الله ﷻ عليه: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١) ثم كذّبوه ورموه فحزن لذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَخْزِنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾^(٢) فالزم النبي ﷺ الصبر^(٣).

ويضاف إلى ذلك عذابه الروحي الآخر، وهو تأله لضلال الضالين وحرصه على هدايتهم، فهو لهيب حب آخر، وهو حب خلق الله حتى قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾^(٤).

وبعد ذلك لا حاجة إلى وصف ابن شهر آشوب النبي ﷺ بالصابر^(٥)، وهل هناك صابر بتمام معنى الكلمة سوى النبي ﷺ؟

٤٦٦. الصابر في ذات الله

إن الله ﷻ هو نفس ذاته، فيكون المعنى صابراً في الله، وحرّف «في» هنا بمعنى حرف «اللام» فهو صابر لله أو لأجله، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(٦).

(١) الحجر: ٩٧ - ٩٨.

(٢) الأنعام: ٣٣ - ٣٤.

(٣) الكافي ٢: ٨٨، البحار ٦٨: ٦٠ ح ١.

(٤) فاطر: ٨.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٠، البحار ١٦: ١٠١.

(٦) المدثر: ٧.

وقيل: المراد هو الصابر في ذات الله؛ لصبره على العبادات وتحمله للمشقات وما وصل إليه من لثام الأمة وجهاتها من النوائب والمصائب في ذات الله تعالى وطلباً لمرضاته^(١).

ولا يجيد عن الذهن إرادة الثبات في الله ﷻ وعدم الانحياز عنه وعن أحكامه وما يحبه ويرتضيه ويريدُه مهما كلف الثمن، سواء كان من الإغراءات التي أغرته بها قريش ليتراجع خطوة عن دين الحق فلم يجبهم إلى ما أرادوا، وقال له عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج^(٢).

أوحى المناورة على الحق حينما قال وقد ثقيف: نبايعك على ثلاث: لا ننحنى، ولا نكسر إلهاً بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة، فقال ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود، فأما كسر أصنامكم بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاغية اللات فإنني غير ممتعكم بها» قالوا: أجلنا سنة حتى نقبض ما يهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا كسرناها وأسلمنا، فهم بتأجيلهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ﴾^(٣). ومعنى هم بتأجيلهم: أنه انتظر الوحي في ذلك ولم يبت به فوراً.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٤) قال: نزلت في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء أصحاب النبي ﷺ وذلك أن المؤلففة قلوبهم جاؤا إلى رسول الله ﷺ

(١) شرح أصول الكافي ١٢: ١٣٠.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠: ٢٢٥.

(٣) البحار ١٨: ٢٠٤ والآية في سورة الإسراء: ٧٣.

(٤) الكهف: ٢٨.

عينته بن حصن والأقرع بن حابس وذوهم فقالوا: يا رسول الله إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وروائح صنانهم^(١) - وكانت عليهم جبات الصوف - جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك، فما يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء، فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم الحيا ومعكم الممات»^(٢).

وروي أن النبي ﷺ كان يقعد معهم ويدنو حتى كادت تمس ركبته ركابهم^(٣).

وذلك أن النبي ﷺ كان يطمع بإيمان أولئك الرؤساء ليؤمن أتباعهم.

ويروى أنه ﷺ لما وقف على حمزة قتيل ورأى ما فعل به بكى، ثم قال: «والله ما وقفت موقفاً قط أغيظ عليّ من هذا المكان، لئن أمكنني الله من قريش لأمثلن بسبعين رجلاً منهم» فنزل عليه جبرئيل ﷺ فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ...﴾ فقال رسول الله ﷺ: «بل أصبر»^(٤).

وهكذا تتكرر المغريات والمزالق والتهديدات حتى في مقابل حكم واحد من أحكام الله سبحانه أو ما يحبه ويريده لنبيه كالجلوس مع الفقراء

(١) الصنان: رائحة المغابن والمعاطف.

(٢) البحار ٢٢: ٤٤.

(٣) البحار: ٢٢: ٣٣.

(٤) البحار ٢٠: ٦٣، والآية في سورة النحل: ١٢٦. على أن سبعين كافراً بل سبعماتة بل أكثر لا يعدلون شمع نعل حمزة، لعل النبي أراد أن يبين بذلك عظمة المؤمن وخسة الكافر دون الانتقام.

فلا يتركه حتى مع أمل إسلام قبائل تبعاً لإسلام رؤسائها، فهذا بالإضافة إلى تحمّل المصائب المشار إليها في العنوان المار هو الثبات والصبر الذي نعتة الله ﷺ لعيسى بن مريم فقال: ثم إني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين... الصابرين في ذاتي^(١).

٤٦٧. صاحب الآباء الأخير^(٢)

المعتقد في آباء النبي ﷺ أنهم كانوا جميعاً موحدين مؤمنين بالله سبحانه، لا يشركون به شيئاً، ولا يعظمون صليماً مبتدعاً، ولا يعتقدون بآبن الله، وفيهم الأنبياء العظام والأوصياء الكرام، كل ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(٣)، وإجماع علمائنا على أن آباء النبي ﷺ إلى آدم كلهم كانوا موحدين^(٤).

ومع قطع النظر عن ذلك فلا يخفى خير كل واحد من آباءه ولا فضله، فهو ﷺ ابن عبد الله المسلّم للذبح، الجميل الذي لاقى في زمانه ما لاقى يوسف عليه السلام من النساء فلم يصبوا إليهن، ولم يقرب منهن قائلاً: أما الحرام فلا.

وابن عبد المطلب الذي ظهر عمق إيمانه ورسوخ اعتقاده في قصة الفيل، وظلّت مكارمه باقية إلى يومنا هذا لما حفر بئر زمزم بعد اندراسها وسماها: «سقاية الحاج»، وكذا يوم نحره لمائة من الإبل وهو فداء عبد الله فقسّم الفاضل على الجبال لتأكله السباع فسمي مطعم طير السماء.

(١) الكافي ٨: ١٣٩، أمالي الصدوق: ٦١٢، البحار ١٤: ٢٩٤.

(٢) الأخير جمع خير، وهو من الجموع النادرة.

(٣) الشعراء: ٢١٩.

(٤) مجمع البيان ٤: ٨٩، البحار ١٥: ١١٧.

ابن هاشم الذي جلب الطعام من الشام، وهشم الثريد لقومه في العام الجذب.

ابن عبد مناف الذي علا وأناف.

ابن قصي الذي قُصي عن دار قومه، لأنه حمل من مكة صغيراً إلى بلاد ازسنةة حفاظاً عليه بأمر الله سبحانه، ويلقب بالجمع؛ لأنه جمع قبائل قريش بعد ما كانوا في الجبال والشعاب وقسم بينهم المنازل بالبطحاء^(١).

وكذلك سائر آباء النبي ﷺ ليبلغ النبي إسماعيل عليه السلام والنبي إبراهيم.

غير أن هذا اللقب لم يرد في شيء من الروايات، سوى ما ذكره ابن شهر آشوب من أسماء النبي ﷺ وألقابه، فكان في عدادها^(٢).

٤٦٨ . صاحب الأصل الطاهر

تقدم أن اعتقادنا في آباء النبي ﷺ أنهم جميعاً طاهرون وموحدون، وكذا فإن أمهاته مطهرات عواتك، كما نقلنا عنه ﷺ قوله: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية»^(٣).

. فالنبي ﷺ هو فرع تفرع على تلکم الآباء، وهو صاحب الأصل الطاهر البعيد عن الدنس والعهر والسفاح، قال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم عليه السلام»^(٤).

(١) انظر البحار ١٥ : ٢٠٤.

(٢) مناقب آل أبي طاب ١ : ١٣٣، البحار ١٦ : ١٠٧، وانظر المناقب ٢ : ٣٢، والبحار ٣٨ : ٣٣٥.

(٣) مجمع البيان ٤ : ٩٠، البحار ١٥ : ١١٧.

(٤) الاعتقاد للمفيد: ١١٠، البحار ١٥ : ١١٧، كنز العمال ٦ : ١٠٠.

هذا وقد تُطلق كلمة الأصل الطاهر ويُراد بها النبي إبراهيم عليه السلام من أجداد النبي ﷺ فإنه الأصل الذي جاء بإسماعيل وأمه هاجر إلى مكة ليتفرع عليه أجداد النبي ﷺ وعامة أبناء إسماعيل، ثم دعا ربه أن يبعث فيهم رسولاً فكان النبي ﷺ هو دعوة إبراهيم.

فذلك هو الأصل الذي نبعت منه نبوة النبي ﷺ وتفرعت عليه، ولذا قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾^(١) فالمشكاة صدر النبي ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ أي لا يهودية ولا نصرانية ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني شجرة النبوة وهي إبراهيم عليه السلام.^(٢)

وجاء في الأخبار أن طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وليس من مؤمن إلا وفي داره غصن منها^(٣). فهذا أصل آخر - أعني أصل شجرة طوبى - يمكن أن يكون النبي ﷺ باعتباره هو صاحب الأصل الطاهر، ولكن الأقرب هو المعنى الأول.

على أن هذا اللقب للنبي ﷺ ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقابه^(٤).

٤٦٩. صاحب الأمة المهتدية

هل إنَّ الأمة الإسلامية بجميع أفرادها مهتدية؟ أو هل أن غالب أفرادها هم مهتدون؟ هذا ما يصعب الجواب عليه بنعم.

(١) النور: ٣٥.

(٢) نور البراهين ١: ٤٠١. والآية في سورة النور: ٣٥.

(٣) الكافي ٢: ٢٣٩، الخصال: ٤٨٣.

(٤) مناقب أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

كيف والله ﷺ يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١) وقد عبّر عن أصحاب اليمين بالثلة، فقال ﷺ: ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٢) وجعل في مقابلتهم أصحاب الشمال وهم غير المهتدين.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنة»^(٣).

هذا بالإضافة إلى تنحرف الأمة وقتل بعضهم بعضاً وتكالبهم على حطام الدنيا ومقاليد الرئاسة ابتداءً من أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، فلا بد من ذكر الاحتمالات في هذا العنوان، على أن الكلام إنما هو على فرض وجود هذا اللقب، ولم أعثر عليه سوى ما ذكره ابن شهر آشوب^(٤).
وأما الاحتمالات فهي كالآتي:

١. المراد من الأمة هي الأمة التي كانت في زمان النبي فإن الغالب فيهم الإيمان وإخلاص العمل، قال الله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٥)، وإنما حصل الانقلاب بعد زمان النبي ﷺ: ﴿أَفَأَسِئَلُ مَا تَأْتُونَ قَتِلَ انْقَلَبْتُهُ عَلَىٰ آخِبِكُمْ﴾^(٦).

(١) سبأ: ١٣.

(٢) الواقعة: ٣٨ - ٤٠.

(٣) كتاب سليم بن قيس: ٤٣٣، الخصال: ٦٣٦، وفي مسند أحمد ٣: ١٤٦، ومجمع

الزوائد ٦: ٢٣٢، وج ٧: ٢٦٠ وكتاب السنة لابن أبي عاصم: ٣٥ بتفاوت.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٥) الفتح: ٢٩.

(٦) آل عمران: ١٤٤.

٢. ليس المراد من الأمة المهديّة هي الأمة الإسلاميّة بعامتها، بل خصوص الفرقة الناجية التي تحدّث النبي ﷺ عنها، وهي موجودة في كل زمان، فهو ﷺ صاحبها، وإنما خصّها أو خصّ بها لنجاتها.

٣. الفرق بين المهدي والمهتدي، فالمهدي هو الذي عرّض للهداية بدعوة النبي ﷺ والأئمة وإن لم يهتد وأثر العمى، فالأمة المهديّة هي التي تعرضت للهداية.

٤. المقصود بالأمة المهديّة هو عامة الأمة الإسلاميّة بعد ظهور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، فإنه سيحكم العالم ويرث الأرض، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

٥. المراد الأمة الإسلاميّة جمعاء على أن يكون المراد بالهداية هو بعض الهداية كشهادة أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله الذي هو نوع من الهداية.

وهناك احتمالات أخرى لا مجال لطرحها، على أن جميع الاحتمالات قوية وإن كان الاحتمال الثاني هو الراجح.

٤٧٠. صاحب الأمهات الطواهر

وهذا العنوان أيضاً ذكره ابن شهر آشوب عطفاً على العنوان السابق^(٢)، وروى أصحابنا عن النبي ﷺ أنه قال: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

يدنسي بدنس الجاهلية»^(١).

ولو كان في آبائه كافر لم يصف جميعهم بالطهارة مع قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم»^(٣).

وكل ذلك التأكيد يدل على أن ابن المشرك لا يمكن أن يكون نبياً، وأن ذلك وأمثاله له آثاره الفسيولوجية على بنيان الإنسان يمنع من ارتفاعه الروحي وبلوغه إلى مرتبة سماع الوحي.

٤٧١. صاحب الإنابة والصفاء

الإنابة هي التوبة والرجوع إلى الله سبحانه وإلى طاعته وعدم الخروج عن شيء من أوامره، والنبي ﷺ، هو صاحب الإنابة وصاحب التوبة، ولكن لا بمعنى التوبة من الذنب والرجوع عنه، لأنه باعتقادنا كان معصوماً من الزلل، مطهراً من الدنس، وإنما كان يتوب إلى الله سبحانه وتعالى ويستغفر الله في كل يوم سبعين مرة على الأقل من غير ذنب، كما جاء في الخبر^(٤).

وإن أبيت عن ذلك، فغاية ما يمكن قبوله هو همّه ﷺ لترك المستحب ثم إنابته، كهمّه بترك العفو في قصة حمزة ثم إنابته بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَلَسْنَا صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ:

(١) مجمع البيان ٤: ٩٠، البحار ١٥: ١١٧، وانظر كفاية الأثر: ٧١، والإيضاح: ١٧٥،

أوائل المقالات للمفيد: ٤٥.

(٢) التوبة: ٢٨.

(٣) الاعتقاد للمفيد: ١١٠، البحار ١٥: ١١٧ ح ١٤٩٤، كنز العمال ٦: ١٠٠.

(٤) قرب الإسناد: ١٦٩ ح ٦١٨، الكافي ٢: ٤٥٠ ح ١.

«بل أصبر»^(١).

وكذا لما عزم على تنحية الفقراء عن مجلسه عند قدوم المؤلفه قلوبهم من رؤساء القبائل وذلك بطلب منهم طمعاً في إيمانهم وإيمان أتباعهم، فأوحى الله تعالى إليه ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم الحياء، ومعكم الممات»^(٢).

على أن تلك روايات لم أتحقق صحة أسنادها.

وأما الصفاء، فهو خلوة نفسه ﷺ من كل نقص وعيب، وكل شائبة وحقده، وكل ذلك مشهود في حالاته، وبراءة عينيه، ومرتسم في قسماات وجهه، معروف له ذلك، فقد أدرك النبي ﷺ أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة بحيث أثرت في عاتق رسول الله ﷺ حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي ﷺ ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده» ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟» قال: لا، قال: «لِمَ؟» قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبي ﷺ ثم أمره أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر^(٣). فليس جبذ الأعرابي وقوله ما قال إلا لأنه عرف صفاء النبي ﷺ.

وهذه القصة وأمثالها كاشفة عن صفاء باطن النبي ﷺ وبراءته، لأن الضغائن والشوائب تظهر عند التحقير، وعند الظفر، ولكن تجده لما ظفر بقريش وفتح مكة قال: «ما ذا ترون أنني فاعل بكم؟» فقالوا: أخ كريم وابن

(١) البحار ٢٠: ٦٣. والآية في سورة النحل: ١٢٦.

(٢) البحار ١٧: ٤١، وج ٢٢: ٣٣، ٤٤. والآية في سورة الكهف: ٢٨.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٧، الشفاء ١: ١٠٧.

أخ كريم، فعفا عنهم وقال: «أنتم الطلقاء»^(١).

وعلى أساس ذلك وأمثاله فقد ذكر ابن شهر آشوب في جملة القاب النبي ﷺ صاحب الإنابة والصفاء^(٢).

٤٧٢. صاحب البدن الصابر

في اعتقادي أن أول ما تزري عليه القيادة والإدارة رغم بهجتها ورونقها هو بدن القائد وسلامته لما يصاحبها من الهموم والاشتغالات الفكرية وشدة الحذر ووجود المخاوف بشتى أسبابها.

هذا بصورة عامة، ويشد ذلك التأثير إذا كانت القيادة تغييرية يراد لها الإطاحة بنظام حاكم مع تغيير المسيرة الفكرية والعقائدية للأمة برمتها، فإن مصاعب هذه المهمة لا تكاد تطاق، وذلك لتشعب جبهات المواجهة واختلاف أحوالها.

وأصعب من ذلك إذا أراد القائد تسيير الأمة بعمله بأن تقتدي به وتصل في المرحلة العملية إلى الحد المطلوب، مما يكلفه رعاية أشد مراتب العمل وأصعبها حتى إذا اقتدى الأمة ببعض عمله وصلوا إلى الحد المطلوب، وذلك أن همة كل أمة وحزمها والجهود الطوعية التي تبذلها إنما هي قبس من مساعي رؤسائها.

ويستمر تضاعف العناء كلما تشعب النظام وازدادت القيود لتبلغ النظام الإسلامي المتشعب الأطراف والممتاز بلحاظ جهتين، وهي الجهة المتجهة إلى الله ﷻ وإرضائه بتحمل أشق العبادات والرياضات والزهد،

(١) الكافي ٣: ٥١٣، قرب الإسناد: ٣٨٤، البحار ٩٧: ٥٩ ح ٨، تاريخ الطبري ٢:

٣٤٤، البداية والنهاية ٤: ٣٤٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

والجهة المتجهة إلى الناس المتمثلة في خوض معترك الحياة معهم لتغييرهم وتوجيههم لقلب نظام جذري حاكم، ومن ثم الخوض في معارك دامية وحروب طاحنة إلى جانب رص الصفوف واستيعاب مشاكل الأصدقاء، ليتزايد العناء بالالتزام برعاية قيادة مرنة دون القيادة القهرية الأسهل.

على أن نتيجة كل ذلك وأمثاله ليس إلا الإرهاق البدني بأقصى غاياته.

ثم إن هناك خصوصيات في حياة الرسول المصطفى ﷺ كلفته عناء أكثر؛ فإن الرسول جاء ليبدأ حياته بريضة قهرية هي نتيجة طبيعية لفقدان والديه مما صاحب صدمات بنيانية لذلك البدن قد أضيف إليها مشاق السفر وعناء السعي من أجل بلغة من العيش، يصاحبه وحشة العزلة وزحمة القيام للعبادة آناء الليل وأطراف النهار في غار حراء وغيره.

حتى إذا نزل عليه الوحي وصار الأمر أكثر جدية أخذ يشد صدره بحبل في السقف حتى لا ينام عن العبادة، ويقوم تارة على أطراف قدميه أو على قدم واحدة لإظهار نهاية العبودية شكراً لله على تكريمه بالرسالة حتى ورمت قدماه، وهون الله تعالى عليه بقوله: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١).

كل ذلك إلى جانب لوازم الدعوة إلى التغيير من معاناة التكذيب والإرعاب والتهديد التي هي هموم مهمة بالإضافة إلى الرشق بالحجارة والضرب البارح بصحبة التقشف الشديد لإدارة الحركة الجديدة حتى بلغ أشده في الحصار الذي فرض على المسلمين في شعب أبي طالب، ذاك الشعب الذي واجه فيه المسلمون أقسى الظروف وأصعبها حتى بلغ الأمر بشد حجر الجماعة، وفاضت بعض النفوس الزاكية، كزوجته خديجة وعمه أبي طالب.

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة جاء دور الحروب والمعارك لتنزل بهذا البدن المرهق ضربات قاسية ويتحمّل عناء النقل والانتقالات العسكرية في أطراف البلاد.

على أنه لم يترك قيام نصف الليل أو ثلثيه للعبادة، ولم يترك التقشّف لإشباع المؤمنين حتى قيل: ما أكل رسول الله ﷺ خبز الحنطة قط ولم يشيع من خبز الشعير قط، وظل يشد حجر المجاعة وينام على الأرض أو على حصير يؤثّر في بدنه وهو يلبس الخشن ويركب الدابة العارية أو يمشي راجلاً، وهو لا ينفك عن مساعدة الآخرين والسعي في حوائجهم، وكذا مباشرة أعماله بيده كخصف النعل وحلب الشاة.

على أن هذه الفترة لم تأت لتنقص من همومه وآلامه لمجيء دور المنافقين الذين لم يفتروا عن التدبير له والكيد به والغلظة عليه مستغلين رأفته، طامعين في هدم ما بناه أو حتى قتله، فشكّلوا تهديداً مستمراً، كل ذلك إلى جانب حرصه على نجاح الدعوة وفلاح الأمة، وأخيراً تجرّع السم الذي سمته به اليهودية فكان أثره يدهم بدنه وتعود أعراضه بعد الفترة والأخرى حتى فارق الدنيا.

وماذا تحكم بعد كل تلك المعاناة المشار إليها على بدن تحمّل كل تلك المصاعب والرياضة والتقشّف والعبادة والصوم وخوض الحروب المضنية غير الحكم بأنه بدن صابر، وأن الرسول المصطفى ﷺ هو صاحب البدن الصابر كما لقبه بذلك ابن شهر آشوب في عداد ألقابه^(١).

٤٧٣. صاحب البدن الصبور

والصبور هنا صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، تدل على طول الصبر المسبب عن طول العناء ودوامه واستمراره، قد تستفاد شِمّة منه من

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧، نظم درر السمطين: ٤١.

العنوان السابق، على أن هذا اللقب إنما ذكره ابن شهر آشوب أيضاً^(١).

٤٧٤. صاحب البركة والحبور

الحبور هو النعمة الحسنة التي يترتب عليها السرور وانبساط القلب لنيل محبوب أو توقعه، فإن النبي ﷺ أينما حلّ حلّت معه البركة والنعمة الحسنة المتوقعة في الدنيا والآخرة.

وقصص بركته كثيرة من يوم ولادته ونشأته، التي منها ما ذكرته مرضعته حليلة السعدية فقالت: لما أخذتُ النبي ﷺ للرضاعة عُرِفَت البركة والزيادة في معاشنا ورياضنا حتى أثرينا وكثرت مواشينا وأموالنا، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً ملاءً لبناً، فكنا نُحْتَلَب ونشرب، وما يُحْتَلَب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى أنّ الحاضر من قومنا ليقولون لرعايهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة ذؤيب^(٢).

فكان بنو سعد يجبونه لأجل ذلك محبة عظيمة، وكان إذا مرض منهم مريض يأتون به إليه فيشفى، وكثرت معجزاته، فكان بنو سعد يقولون: يا حليلة لقد أسعدنا الله بولدك هذا^(٣).

ومنها قصص استسقاء عبد المطلب بالنبي ﷺ وتقديمه في الدعاء، فكانت تنفجر السماء بمائها ويكظ الوادي بثجيجه، حتى أنشدت أشعار بذلك منه شعر رقيقة:

مبارك الاسم يستسقى الغمام به ما في الأنام له عدل ولا خطر^(٤)

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

(٢) البحار ١٥: ٣٣٣، ٣٦٧.

(٣) البحار ١٥: ٣٧٦.

(٤) البحار ١٥: ٤٠٤.

وقول أبي طالب المعروف:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(١)

وتستمر هذه القصص في حياة النبي ﷺ من تفجر الآبار اليابسة بالماء بدعائه، وشبع الجمل الغفير بقليل الطعام، وحلول اللبن في الضرع، والاستسقاء، وتحرير العبيد ببركته، وإخضرار الصحاري والأشجار، وزيادة العدد والولد وغير ذلك مما هو منقول بالتفصيل في الكتب.

وأما المشهود للعيان، فإن البركة من وجوده شملت جميع العالم لما انتشر على أثر بعثته من العلوم والفنون، فعم الخير جميع البلاد، وأرخت الدنيا عزاليها، وأخرجت الأرض كنوزها، وحصل التقدم العلمي، كل ذلك لو تتبع الباحث خيوطه لوجدتها تصل إلى قائل: «اطلب العلم ولو كان بالصين»^(٢) و«اطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^(٣)، وكذا تحرير العبيد وإرساء قواعد الأمن والحرية، وأن الناس سواسية، والنظافة من الإيمان، كل ذلك حصل بفضل وجوده وجوهر دعوته.

ومعلوم أن حلول البركة في قوم وزيادة مواشيهم وأنعامهم وإخضرار أرضهم وانفجار السماء بماء منهمر كل ذلك نعمة حسنة بما يسمى الحبور الذي يبعث على السرور والفرح، ويعلم منه أن النبي ﷺ كان صاحب البركة والحبور، كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(٤).

٤٧٥. صاحب البرهان

لا يمكن تجاهل دور الأديان في حصول التطور الفكري للبشرية على

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

(٢) روضة الواعظين: ١١، الوسائل ٢٧: ٢٧ ح ٣٣١١٩.

(٣) الكافي ١: ٣٠ ح ٢٠١.

(٤) مناقب أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

مر العصور، بل المنصور المؤيد أنّ ظهور الأديان هو الذي أعطى للبشر فرصة لاستخدام العقل والفكر ومساعدته على ابتكار الأقيسة والإحصاء والسبر والتقسيم، وكل ما هو داخل تحت عنوان الاستدلال.

فقد كانت الأديان على الدوام هي الشارعة في الاستدلال وإظهار الحجة، بينما كان البشر غافلاً عن ذلك لعدم توقّف حياته البدائية على الاستدلال والبرهنة.

وإنما الذي يَصوّر الحاجة إلى الاستدلال هو تقسيم الأمور إلى صالح وفاسد ليستدل على كل من الطرفين، فقد كان ذلك موجوداً من بدء الدعوة إلى الله سبحانه وبدء الخلق ليتطور ويتعقد على مر العصور.

وأول ما عهدناه من الاستدلال الذي يصلح لأن ينطبق عليه اسم الاستدلال والاحتجاج هو محاجة النبي إبراهيم عليه السلام حينما كسّر الأصنام وعلّق الفأس في رقبة أكبرهم، فقيل له: أنت فعلت هذا؟ فقال: بل فعله كبيرهم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، يعني لما كانوا لا ينطقون ولا يمكنهم دفع الضر عن أنفسهم لا يكون فيهم صلاحية للربوبية والعبادة وخلق الكون، وهو قياس منطقي.

وكذا عندما حاجّ ثمود فقال: إن ربي يحبي ويميت، فقال: أنا أحيي وأميت، فهو احتجاج واستدلال من الطرفين يوحى إلى قدرة العقل البشري على إنشاء النظائر، فقال بعد ذلك: إن ربي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فهت الذي كفر.

وبعد ذلك نحن نريد القول: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس هو صاحب الاستدلال فحسب، وإنما هو صاحب الحجة الفاصلة البينة، والحجة القاطعة، أعني البرهان.

وذلك لأن ترسية القواعد الفكرية الاعتقادية عند الرسول كانت

تعتمد على أدلة واضحة وحجج قاطعة بينة، وذلك نظير جواب تساؤلات المشركين الدائمة عن إحياء العظام وهي رميم، فكان يقول: قل يجيها الذي أنشأها أول مرة، أو حواراه مع النصارى المدّعين لإبنية عيسى عليه السلام بدليل أنه ولد من غير أب، فقال: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم عليه السلام، يعني الإنسان الأول الذي ولد من غير أب وأم، أو قوله لليهود: لما زعموا أنهم شَعَب الله المختار وأن الجنة لهم خالصة من دون الناس، قال: إن كانت لكم الدار الآخرة خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين.

وهكذا تجد الرسول المصطفى يمتلك الحجج القاطعة والبراهين الساطعة في كل محاوره حتى عرف أنه «صاحب البرهان» بينما تعتمد أكثر العقائد التي لا تستمد من الوحي على الجدل، دون البراهين والأدلة القاطعة.

على أنّ ذلك النحو من الاستدلال لم يكن مقصوداً على الرسول ﷺ بل هو دأب الأنبياء والرسل عامة، ولذا فإنّ كل من يترقب ظهور النبي إنّما يترقب ظهور صاحب البرهان، وإن كان ذلك بالنسبة لنبينا عليه السلام أكد وأشد؛ لأن معجزته كلامية، وبذلك نجد أن سطيح الكاهن لما أرسلوا إليه يسألونه عن أمور وقعت ونجوم سطعت فقال: قد أرسلتم إليّ تسألوني عن الحال الظاهر، وعن أمر النبي الطاهر، صاحب البرهان، وقاصم الأوثان، ومذلّ الكهان^(١).

٤٧٦ . صاحب البغلة الشهباء

يبدو أن الرسول المصطفى ﷺ كان يكثر ركوب البغل في الحروب وكذا أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن البغل أكثر ثباتاً، غير أنه بطيئ العدو، والنبي والإمام لا يحتاج إلى سرعة العدو؛ لأنه لا يتبع فاراً ولا يفر من المعركة أبداً.

وكانت البغلة الشهباء أهداها إليه المقوقس ملك الاسكندرية واسمها ذلك وهي شهباء أي بيضاء مما يغلب بياضها على سوادها، فدفعها النبي ﷺ إلى علي رضي الله عنه ثم كانت للحسن رضي الله عنه، ثم للحسين رضي الله عنه، ثم كبرت وعميت، وهي أول بغلة ركبت في الإسلام^(١).

وذلك أنه لما كانت السنة السادسة بعث رسول الله ﷺ ستة نفر إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، فبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك القبط، فلما وصل إليه حاطب أكرمه وأخذ كتاب رسول الله ﷺ وكتب في جوابه: قد علمت أن نبياً قد بقي، وقد أكرمت رسولك، وأهدى إلى رسول الله ﷺ جاريتين وحمار وبغلة يقال لها ذلك ولم يسلم، فقبل رسول الله ﷺ هديته وقال: «ضمن الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» واصطفى مارية لنفسه، وأما سيرين فوهبها لحسان بن وهب، وأما الحمار فنفق، وأما البغلة فبقيت إلى زمان معاوية^(٢).

وأما عنوان صاحب البغلة الشهباء ومنشؤه فالنقول هو تسمية المشركين للنبي ﷺ بذلك الاسم واللقب، فقد روى سعيد بن المسيب قال: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقفوا لنا حَلْبَ شاة، فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء، يعني رسول الله ﷺ فتلقنا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا: شأهت الوجوه ارجعوا، فرجعنا، وركبوا أكتافنا فكانوا إياها، يعني الملائكة^(٣).

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٤٦.

(٢) البحار ٢٠: ٣٨٢ ح ٨.

(٣) مجمع البيان ٥: ١٨، ٢٠، البحار ٢١: ١٨١، تفسير القرطبي ٨: ٩٩، جامع البيان

٤٧٧. صاحب البيت الحرام

البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً، إذ كانت قواعده موجودة قبل هبوط آدم إلى الأرض.

فلما هبط آدم صار البيت بيته هو وزوجته حواء، فمكثا فيه مدة طويلة ثم تحامها جبرئيل عنه ورفع قواعده لتطوف به الملائكة وطاف به آدم وحواء، حتى إذا كان زمان النبي نوح ﷺ وأغرق الله سبحانه وتعالى الأرض لم يشمل البيت وأعتق من الغرق، فسمي البيت العتيق، بالإضافة إلى أنه حرّ عتيق من الناس لم يملكه أحد.

وإذا كان الرسول المصطفى ﷺ هو صاحب البيت الحرام كما ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقابه ﷺ^(١)، فهو بمعنى الأولوية والكناية عن شدة عنايته به وتعظيمه؛ لأنه أمر بالصلاة إليه بعد ما كان الأنبياء السابقون يصلّون إلى بيت المقدس وكان النبي ﷺ يصلي إليه في بادئ الأمر ثم صُرف إلى الكعبة.

وأخيراً قام ﷺ بانتزاعه من أيدي المشركين فصارت مفاتيحه ومقاليد بيده فصار الصاحب الرسمي للبيت، كما بشره به الراهب بجزيرا حينما رآه قبل بعثته فقال له: كأني بك قد قُدت الأجناد والخيل، وقد تبعك العرب والعجم طوعاً وكرهاً، وكأني باللات والعزى وقد كسرتهما وقد صار البيت العتيق لا يملكه غيرك تضع مفاتيحه حيث تريد^(٢).

٤٧٨. صاحب البيت المعمور

البيت المعمور - واسمه الضراح - هو بيت في السماء الرابعة وضعه الله سبحانه وتعالى لتطوف به الملائكة، ويكون الطواف به توبة لهم من اعتراضهم

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٢) كمال الدين: ١٨٥.

على الله سبحانه حينما قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(١) فصار يدخله كل يوم سبعون ألف ملك للطواف ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وهو مربع الشكل وضعت بحذائه الكعبة وصارت مربعة لأجله، ولقابلة أركانها بأركانها، وأظن أن السماوات بمجموعها مهما كان شكلها الهندسي تدور على محوريتها وتدحى من فوقه، ويمتد هذا المحور ليجوز بيت الله الحرام.

وإنما كان النبي ﷺ صاحب البيت المعمور كما ذكره ابن شهر آشوب في ألقابه ﷺ^(٢) فلأنه أول وآخر من جمع فيه للصلاة، فقد ورد: «أنه لما أسري برسول الله ﷺ إلى السماء فبلغ البيت المعمور وحضرت الصلاة فأذن جبرئيل وأقام فتقدم رسول الله ﷺ وصف الملائكة والنبيون خلف محمد ﷺ»^(٣).

على أن البيت المعمور مزين باسمه، وعليه رق أبيض فيه اسم النبي وأهل بيته وشيعتهم إلى يوم القيامة، فهو وجه آخر لأن يكون ﷺ هو صاحب البيت المعمور. ومع ذلك فقد ورد أن علياً عليه السلام سئل عن البيت المعمور أهو رسول الله؟ فقال: «نعم»^(٤).

ولكن لا منافاة بين أن يكون الرسول هو البيت المعمور بوجه أوبالكنية، ويكون هو صاحب البيت المعمور، كما مر أنه صاحب الأصل الطاهر، وهو كذلك أصل طاهر.

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١، ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

(٣) الكافي ٣: ٣٠٢ ح ١.

(٤) دلائل الإمامة للطبري: ٤٧٨.

٤٧٩ . صاحب التاج

إنما سمي النبي ﷺ بـ «صاحب التاج» فلأن العمامة عند العرب بمنزلة التاج للسلطين؛ لأنهم أكثر ما يكونون في البوادي مكشوفى الرؤوس أو بالقلانس، وتكون العمامة فيهم لأسيادهم.

ويحتمل أن يراد به تاج النبوة الذي يزین به ﷺ يوم القيامة يوم يؤتى بالوسيلة ألف مرقاة قد أنافت على كل الجنان ورسول الله ﷺ قاعد عليها مرتدٍ بربطتين: ربطة من رحمة الله، وربطة من نور الله، عليه تاج النبوة وإكليل الرسالة قد أشرق بنوره الموقف^(١).

ولذلك عدّ القاضي عياض وغيره من أسماء النبي ﷺ في الإنجيل هو «صاحب التاج وهي العمامة»^(٢).

٤٨٠ . صاحب التاج والمغفر

المغفر حلق يتقنَع بها المتسلح يجعلها تحت البيضة أو العمامة تسبغ على العنق فتقيه، وربما كان المغفر مثل القلنسوة، والجامع أنه زَرَد ينسج من الدروع على قدر الرأس.

وإذا جاء في الكتب السماوية أنّ النبي ﷺ هو صاحب التاج والمدرعة أو المغفر^(٣)، فهو يعرف الرسول ﷺ وكيفية دعوته، فالتاج يعني الملك وإدارة شئون البلاد، والمغفر الذي هو من آلات الحرب كناية عن خوضه الحروب الضارية المحتاج معها إلى استعداد تام حتى المغفر الذي

(١) الكافي ٨ : ٢٥.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ١ : ٢٣٤، نور الأبصار للشبلنجي: ٢٥،

وانظر درر السمطين: ٣٧، والبحار ١٦ : ١٣٠.

(٣) انظر البحار ١٦ : ١٤٤ ح ١.

يغطي الرأس والعنق بالإضافة إلى السيف والرمح والدرع والبيضة، فلا يُشكّل على عامة أهل الأديان قيام الرسول ﷺ بالسيف بعد تنبيههم عليه، ولا تصرفهم رؤيته بتاجه ومغفره بعد ذلك عنه.

وذكر ابن كثير أن رجلاً قال: ضل بعيري فذهبت في طلبه فبت في وادٍ لا آمن فيه حتفي، ولا أركن إلى غير سيفي، أرقب الكوكب، وأرمق الغييب، حتى إذا الليل عسعس، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف بي هاتف يقول:

يا أيها الراقد في الليل الأجم قد بعث الله نبياً في الحرم
وقال ذلك الهاتف: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمداً
بالحجور، صاحب النجيب الأحمر، والتاج والمغفر، والوجه الأزهر^(١).
وذكر ذلك العنوان ابن شهر آشوب في المناقب وعنه من ألقابه ﷺ^(٢).

٤٨١. صاحب التاج والهرارة

إنما يمسك الأنبياء الهراوة - وهي العصا الغليظة الكبيرة - لأنها علامة التواضع عادة^(٣)، وكذا هي علامة الترحّل والسفر في البلدان، فتكون تسمية الرسول ﷺ بصاحب التاج والهرارة للكناية عن التواضع في عين السيادة، أو السيادة في عين التواضع، على خلاف موقف النبي سليمان عليه السلام حينما قام على عصاه ينظر إلى ملكه وعماله فهو إلى السيادة

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١: ١٥٠، البداية والنهاية ٢: ٢٩٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «تعصّوا فإنها من سنن إخواني النبيين، وكانت بنو إسرائيل الصغار والكبار يمشون على العصا حتى لا يختالوا في مشيتهم» الفقيه ٢: ٢٧٠ ح

أقرب؛ لأنه ما سقط إلا بعدما سقطت العصا ونجا الجن والإنس من العذاب المهين^(١).

بينما يرى البعض أن حمل العصا علامة على وظيفة الأنبياء التي تشبه وظيفة الراعي، وهي تسيير الرعية وسوقها إلى الله سبحانه، وهو العلة الواردة في اختيار أكثرهم الرعي من بين الأشغال.

ومهما يكن من ذلك فإنه ينقل أن النبي ﷺ قعد عند عين فنزل جبرئيل في ذلك الموضع وميكائيل وإسرافيل ودرائيل، فقال جبرائيل: السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا صاحب التاج والهاوة^(٢).

واستفاد النبي المكرم ﷺ من هذا الوصف حينما كتب لأبي دجاجة الأنصاري كتاباً يجتبه أنى الجن ووساوس الشيطان: جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي العربي الأمي التهامي الأبطحي المكي المدني القرشي الهاشمي صاحب التاج والهاوة والقضيب والناقعة...»^(٣).

ويبدو أن النبي ﷺ بعد ما أعطى عنوان سكونته في هذا الرسالة عطف على ذكر صفته وهي أنه صاحب التاج والهاوة التي تعرفه بها الجن وتهابه، ولا غرابة في دخول العصا في نفور الجن والشيطان بعد ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حمل العصا ينفي الفقر ولا يجاوره شيطان»^(٤).

(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ

تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا

لَبِشُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿سبأ: ١٤﴾

(٢) سير أعلام النبلاء ١: ٢٤٥.

(٣) الفقيه ٢: ٢٧٠ ح ٢٤١١.

(٤) روضة الواعظين: ٤٩٤.

٤٨٢. صاحب التذكرة والبكاء

من أهم استراتيجيات أعمال النبي ﷺ التي أدت إلى التوفيق وانتشار الدعوة هي التذكرة والبكاء، فالتذكرة هي وظيفة النبي ﷺ وشغله الدائم وهي أهم أعماله ووظائفه قال تعالى: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾، لكي لا يمحو النسيان آثار ما جاء به ﷺ وتعود القصة جذعاً.

فالرسول ﷺ مكلف بتذكير الناس بالموت والعذاب وما سيصيبهم إذا خالفوا أوامر الله سبحانه وتلبسوا بالمعاصي التي أولها الشرك، ولم يكلف بإجبار الناس ولا السيطرة عليهم وإكراههم على الإيمان قال: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾^(١).

فقد روي أن النبي ﷺ كان في جنازة فاتمى إلى القبر فبكى حتى بلّ الثوب دموعه ثم قال: «إخواني لمثل هذا اليوم فاستعدوا»^(٢)، فهذا بكاء وتذكرة معاً.

وأما البكاء بصورة عامة، فكان الرسول ﷺ يبكي ويبكي في مواقف عديدة:

منها: عند ذكر الموت كما في الحديث المار.

ومنها: عند ذكر جهنم، بينما ذات يوم رسول الله ﷺ قاعد إذ نزل جبرئيل وهو كئيب حزين متغير اللون، فقال له رسول الله ﷺ: «مالي أراك كئيباً حزيناً؟» قال: يا محمد وكيف لا أكون كذلك وإنما وضعت منافخ جهنم اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «وما منافخ جهنم يا جبرئيل؟» قال: إن الله تبارك وتعالى أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر بها

(١) الغاشية: ٢١، ٢٢.

(٢) روضة الواعظين: ٤٩٤.

فأقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، وهي سوداء مظلمة، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهل الدنيا من نتنها، قال الراوي: فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبرئيل عليه السلام^(١).

ومثل ذلك البكاء على الجنة، فقد روي أن رسول الله ﷺ وصف الكوثر فبكى هو وأصحابه^(٢).

وقد كان همُّ الرسول ﷺ وضع اللبنة الأولى لمدرسة البكاء من خوف الله سبحانه بسن التباكي في المرحلة الأولى، ذاك الذي يساعد على إطلاق سراح النفس بالبكاء في المرحلة الثانية، ولا يحجب الباكي حياء واحتشام، فإذا تباكى قوم فبكى بعضهم فإنه يبدو طبيعياً، بينما يصعب الشروع بالبكاء ابتداءً، على أن العبرة الظاهرة للأبناء تخلق عبرة حقيقية في الأبناء.

ويروى أن رسول الله ﷺ أتى شاباً من الأنصار فقال: «إني أريد أن أقرأ عليكم فمن بكى فله الجنة» فقرأ آخر الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ فبكى القوم جميعاً إلا شاباً فقال: يا رسول الله قد تباكيت فما قطرت عيني، قال: «إني معيد عليكم فمن تباكى فله الجنة» فأعاد عليهم فبكى القوم وتباكى الفتى فدخلوا الجنة جميعاً^(٣).

والذي يتلجلج في صدري هو الارتياح من ترك هذه السنة في الأوساط الإسلامية، أعني البكاء الجماعي من خوف الله سبحانه بقراءة

(١) روضة الواعظين: ٥٠٦.

(٢) البحار ٨: ٢٧ ح ٢٩.

(٣) أمالي الصدوق: ٤٣٧ ح ١٠، والآية في سورة الزمر: ٧١.

آيات القرآن التي تذكر بالنار والجنة والموت والذنوب وعواقبها، أو سماع المواعظ المخيفة.

ومنها: البكاء العاطفي، أو بكاء الرحمة بتعبير أدق، كبكائه عليه السلام على أمه آمنة حينما زار قبرها، وعلى أولاده حين ماتوا وهم القاسم والظاهر وإبراهيم، أو على بعض أصحابه، بل إلكاء الناس حينما قال: «ولكن حمزة لا بواكي له»^(١). فكان يسأل عن أمثال ذلك البكاء فيقول: «أدركتني رحمته»^(٢) أو «إنما هو رحمة ولا نقول ما يسخط الرب»^(٣).

ومنها: البكاء السياسي المزوج بالعاطفة، وهو بكاءه على ما سيصيب أهل بيته عليهم السلام بعد موته، فقد روي عن علي عليه السلام قال: «بيننا أنا وفاطمة والحسن والحسين عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا التفت إلينا فبكي، فقلت: ما يبكيك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: أبكي مما يصنع بكم بعدي، فقلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: أبكي من ضربتك على القرن، ولطم فاطمة خدها، وطعنة الحسن في الفخذ، والسم الذي يسقى، وقتل الحسين قال: فبكي أهل البيت جميعاً...»^(٤).

فإنما بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن هؤلاء هم أحبائه فتألم لما سيصيبهم، والأهم من ذلك أنه بكى ليبرهن أنهم على حق، وأعمالهم وأقوالهم صدق، يفلح متبعهم، ويكون البكاء عليهم سنة باقية، وهي عملية تنفر من كل ظلم، وأمر يخلق روح الفداء من أجل الحق.

ويبقى أن هناك بكاءً هو تذكرة، فقد روي أن النبي وقف مع جماعة

(١) كمال الدين: ٧٣، شرح الأخبار ٣: ٢٣١، ذخائر العقبى: ١٨٣.

(٢) البحار ١٥: ١٦٢.

(٣) الكافي ٣: ٢٦٣ ح ٤٥، دعائم الإسلام ١: ٢٢٤.

(٤) الأمالي للصدوق: ١٩٧.

من أصحابه في مقبرة، ثم مر، ثم وقف، ثم مر، فقيل له: وما وقوفك؟ فبكى ثم قال: «هؤلاء يعدّون في قبورهم، فدعوت الله أن يخفف عنهم ففعل، فلو صاموا من رجب وقاموا ليله ما عدّوا في قبورهم»^(١).
على أن الذاكر لهذا العنوان هو ابن شهر آشوب رحمه الله^(٢).

٤٨٣. صاحب التوكل والقناعة

من الحقائق التي تعتمد عليها الديانات السماوية في تحقيق أهدافها وإثبات صدقها وحقيقة أمرها هو التوكل والقناعة بتقدير الأرزاق، وكفاية المتوكل، وبلوغ الرزق لا محالة.

فالتوكل هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، والعلم بأن ما يصيب الإنسان من الضر والشدائد لم يكن ليخطئه، وما أخطئه لم يكن ليصيبه، والعلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق، وجماعه أن لا يخاف الإنسان مع الله أحداً، بل لا يخاف مع الله شيئاً، ويفوض الأمر إلى الله سبحانه، ويسلم لأمره ويرضى بقضائه.

والمراد أن الإنسان إذا توكل على الله سبحانه واعتمد عليه ووثق به دون من عداه كفاه وأمنه، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٣) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٤).

بخلاف ما إذا اعتمد على إنسان أو رجا مخلوقاً فقد لا يبلغ ما يؤمله، ولا يحصل على ما يريد، على أن من اعتمد على الله ووثق به أدرك صحته

(١) الدعوات: ٢٨٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) الأحزاب: ٣.

(٤) الطلاق: ٣.

ذلك، وأحسن بوجود المدبر، واليد المقدر، فينزاح عن صفحة ذهنه الخوف من المخلوقين، ولا يتوهم بعدها قدرة البشر على إيصال الشر إليه، وسوف يعلم أن الأمر موكل إليه.

ثم إن للتوكل نتائج أخرى، فإن العبد إذا علم بذلك لم يعمل لأحد سوى الله سبحانه، ولم يرج ولم يخف سوى الله، ولم يطمع في أحد سواه.

هذا بصورة كلية، وأما في خصوص الرزق فإن الأمر أكد، إذ أن الشرائع جاءت لتؤكد حتمية الرزق وتقديره حسب مصالح العباد: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾^(١) ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ﴿وَاللَّهُ فَضْلٌ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْذِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣)

وجامع ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

ولذلك إذا تتبع الإنسان أمر الرزق ولاحظ مداخله ومخارجه عرف صحة ذلك وصدق مدعيه، فليس الرزق بلجتهاد المجتهدين، ولا جدية الجلادين، بل إن الأكثرين عملاً والأكثرين جهداً هم الأقلون أرزاقاً، كالعمل والكلحين، كل ذلك يدعو إلى العلم بوجود المدبر والمقدر.

(١) العنكبوت: ٦٢.

(٢) الشورى: ٢٧.

(٣) النحل: ٧١.

(٤) فاطر: ٢.

وبعد حصول التوكّل على الله والاعتقاد بذلك تحصل عند الإنسان حالة اطمئنان واستقرار يستطيع معها أن ينصرف إلى طاعة الله سبحانه وكذا التضحية في سبيل الله.

وإذا كان النبي ﷺ هو صاحب التوكّل فهو من ناحيتين:

الناحية الأولى: هي ترسية قواعد الدعوة على أساس هذا الاعتقاد بعد توليده، فإنه كما ذكرنا يساهم في تطويع الأذهان لقبولها ثم الاستجابة للأوامر والنواهي الصادرة من دونه، ومن دونه لا يمكن تحقيق أي شيء من ذلك، ولا يتوفر اقتناع الناس بمجابهة الصعاب والأمور العظيمة، ولا يصرفهم عن طلب الدنيا شيء.

والناحية الثانية: فإن النبي ﷺ نفسه كان أكثر الناس توكلاً، وهو أجلى مصاديق أصحاب التوكّل، بل هو الفرد المنحصر إذا أُريد المعنى الكامل للتوكّل وأعلى مراتبه، وهو التوكّل على الله في جميع أموره، ورضاه بما فعل به، وعلمه بأنه لا يألوه خيراً وفضلاً، ويعلم أن الحكم في كل ذلك له تعالى، ودليل ذلك عدم تخوّفه ولا تردده ﷺ في سوح القتال ولا في ميادين الكرم.

وأعطى ﷺ لرجل غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال لهم: أسلموا فإن عمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر^(١).

وأما القناعة فهو ركن آخر وسبب آخر لحمل الناس على مطاوعة الدين والاعتقاد، وإلا فلجشع وعدم القناعة لا يدع الإنسان يلتفت إلى آخرته ودينه واعتقاده، ولذا صرف النبي ﷺ أنظار الناس عن الدنيا، فزيتهم بلباس القناعة.

وكان هو أقنعهم إذ لم يأكل خبز الحنطة ولم يشبع من خبز الشعير،

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد بلي ثوبه فحمل إليه اثني عشر درهماً، فقال: «يا علي خذ هذه الدراهم فاشتر لي ثوباً ألبسه».

قال علي عليه السلام: «فجئت إلى السوق فاشتريت له قميصاً باثني عشر درهماً، وجئت به إلى رسول الله ﷺ فنظر إليه فقال: يا علي غير هذا أحب إلي، أترى أن صاحبه يقيننا؟ فقلت: لا أدري فقال: انظر».

فجئت إلى صاحبه فقلت: إن رسول الله ﷺ قد كره هذا يريد ثوباً دونه، فأقلنا فيه، فرد عليّ الدراهم وجئت به إلى رسول الله ﷺ، فمشى معي إلى السوق... فاشترى قميصاً بأربعة دراهم ولبسه وحمد الله، وخرج فرأى رجلاً عربياً يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنة، فخلع رسول الله ﷺ قميصه الذي اشتراه وكساه السائل، ثم رجع إلى السوق فاشترى بالأربعة التي بقيت قميصاً آخر فلبسه وحمد الله، ورجع إلى منزله^(١).

ونقل أنه كان ينام على الحصير ويجلس على الأرض ويأكل على الأرض وغير ذلك من آيات القناعة، فمن ثم ذكر ابن شهر آشوب القاب النبي ﷺ فعد فيها صاحب التوكل والقناعة^(٢).

٤٨٤. صاحب الجبين الأزهر

تقدم أن رسول الله ﷺ أزهر اللون - بمعنى أنه نير اللون - ويتلألأ وجهه تلألؤ القمر، ويشرق كإشراقه، فهو أزهر الوجه وليس خصوص الجبين، وإنما ذكر الجبين بخصوصه لما تقدم من أنه صلت الجبين، أي في جبينه سعة وعرض مما يجعل نوره أكثر، ويكون له ظهور وبروز للرائي أكثر من غيره، فكانت هي صفته المشخصة وعلامته الواضحة، ولذا لما سأل عيسى عليه السلام ربه عن النبي الذي يأتي من بعده فقال اسمه أحمد... دو

(١) البحار ١٦: ٢١٤ ح ١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

الوجه الأقرم، والجبين الأزهر^(١).

كما يبدو أن نور جبينه أكثر من سائر وجهه وله ظهور وبروز وسعة،
أوجب ذكر نور جبينه بعد ذكر وجهه الأقرم.

وقدم رجل على رسول الله ﷺ فأناخ ناقته على باب المسجد
ودخل وسلم وأحسن التسليم ثم سأل عن النبي ﷺ فوثب سلمان
الفارسي - رضي الله عنه - فقال: يا أبا العرب، أما ترى صاحب الوجه
الأقرم والجبين الأزهر^(٢)!؟

فهو يدل على أن نور جبينه ﷺ مما يغني عن السؤال عنه، ولذا
اعترض سلمان على سؤال ذلك الرجل وأراد القول: إن نور وجهه
وخصوصاً جبينه ﷺ يغنيك عن السؤال عنه، ومن أجل ذلك عد ذلك
ابن شهر آشوب من ألقابه ﷺ^(٣).

٤٨٥ . صاحب الجمع

قال أمير المؤمنين: «كنا نوراً واحداً، صار رسول الله ﷺ محمد
المصطفى، وصرت أنا وصيه المرتضى، وصار محمد الناطق، وصرت أنا
الصامت...» ثم ضرب بيده على الأخرى وقال: «صار محمد صاحب الجمع،
وصرت أنا صاحب النشر، وصار محمد صاحب الجنة، وصرت أنا صاحب
النار أقول لها: خلني هذا وذري هذا»^(٤) الحديث.

كما يبدو أن المراد من الجمع هو جمع الأولين والآخرين والملائكة

(١) إقبال الأعمال للسيد بن طاووس ٢: ٣٤٠.

(٢) الثاقب في المناقب: ١٢٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٤) البحار ٢٦: ٤.

والناس في صعيد واحد في يوم الجمع وهو يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّنَابُثِ﴾^(١). فيكون الرسول ﷺ أول محشور فيه يأتي راكباً على البراق ويحشر الناس على أثره حفاة عراة فيوقفون في المحشر.

ثم يغشاهم ظلمة ويعرقون عرقاً شديداً، ثم ينادي منادٍ من تلقاء العرش: أين النبي الأمي؟ أين نبي الرحمة محمد بن عبد الله؟ فيقوم رسول الله ﷺ فيتقدم أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى يمين العرش ويكسى حلة خضراء من حلال الجنة، ثم ينصب له منبر من نور فيخطب الناس، ثم يوكل إليه حساب الخلق^(٢)، فيكون النبي ﷺ هو صاحب القيامة وصاحب الجمع كما جاء في الخبر المار.

وأما النشر المذكور فيه فالقصد به نشران، أحدهما: يوم ينشر الناس من قبورهم، ويوم تنشر الكتب فيكون الإمام علي عليه السلام هو صاحب النشر أي الناشر لها.

٤٨٦. صاحب الجمل

لم يكن الله سبحانه وتعالى ليترك عبده حيارى تائهين خصوصاً أولئك الذين هم أتباع النبي عيسى عليه السلام آخر الأنبياء قبل النبي الخاتم ﷺ، من الذين كانوا قريبي العهد بالإيمان فأخذت المذاهب بهم يمنة ويسرة وتصرفت بهم أيدي المضلّين، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يعرفهم أنّ النبوة اللاحقة لا تكون في بيت المقدس كما اعتاد ذلك الأمم السابقة، لكي لا يلتبس عليهم الأمر فنقل أذهانهم إلى الجزيرة العربية القاحلة بصحاريها، وعرف النبي اللاحق ووصفه بأنه صاحب الجمل.

(١) التناثين: ٩.

(٢) أنظر البحار ٨: ٧٠١.

وأمر نبيه عيسى ﷺ بإبلاغ ذلك قائلاً: يا عيسى جدّ في أمري خذ الكتاب بقوة فسر لأهل سوريا بالسريانية بلغ من بين يديك... صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة وهي التاج والنعلين والمراوة^(١).

وبذلك يكون الله سبحانه وتعالى قد عرف إقليمه وبلاده، وهي التي يغلب فيها ركوب الجمل، ويُلبس فيها العمائم والنعلان، ويؤخذ فيها المراوة.

٤٨٧. صاحب الجمل الأحمر

كرر الله سبحانه وتعالى ذكر الجمل لنبيه عيسى ﷺ فقال له: ثم إنني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين وحببي منهم، أحمد صاحب الجمل الأحمر، والوجه الأقر^(٢).

وقد أفلح هذا التذكير والتبليغ في مصير الكثير من الرهبان إلى الإيمان برسول الله ﷺ والتبشير به ما أمكنهم، وقصص الرهبان الذين أسلموا كثيرة متفرقة في الكتب.

وقبل أن يذكر الله سبحانه ذلك لعيسى ذكره لموسى ﷺ حينما عرفه النبيّين اللاحقين إذ قال: أوصيك يا موسى وصية الشفيق المشفق بابن البتول عيسى بن مريم صاحب الأتان والبرنس والزيت والزيتون والحراب، ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر، الطيب الطاهر المطهر^(٣).

فهذا تعريف ظريف للنبيّين إذ الأولى تظهر في بلاد يغلب فيها

(١) البحار ١٤ : ٢٨٥، تاريخ دمشق ٣ : ٣٩٧، وج ٧٤ : ٣٨١.

(٢) البحار ١٤ : ٢٩٦.

(٣) الكافي ٨ : ٤٣.

ركوب الحمار وهو الأتان المذكور في الحديث، ويكثر فيها الزيت والزيتون ويوجد فيها الحاريب، بينما النبوة التي تليها هي نبوة أرض الجمل، وعلى أساس ذلك سكن اليهود الجزيرة انتظاراً لظهوره، وأسلم الكثير منهم لما عرفوه بصفاته المذكورة عندهم.

٤٨٨. صاحب الجود والسخاء

الجود: هو كثرة العطاء من غير سؤال مأخوذ من قولك: جادت السماء بمطر غزير.

والسخاء: هو أن يلين الإنسان عند السؤال ويسهل مهره أي عطاؤه.

ولا شك أن الجود والكرم من الصفات الحميدة والخلال الكريمة، بل هو أمر جبلي محكوم بحسنه في أصل الفطرة، بحيث تميل النفوس إلى المحسن من دون اختيار، والناس بطبعها مجبولة على حب من أحسن إليها، وليس ذلك إلا تحسين الفطرة لهذا العمل الخير وهذه السماحة.

وأما الدين الإسلامي فإن أحد أسسه الإنفاق والبذل تحت عنوان الزكاة والخمس والصدقة وجميع ألوان الإحسان والكرم حتى جعلها معادلة بأن الكريم لا يدخل النار؛ لأن الكريم المطلق يأبى أن يعامل الكريم المحسن بغير الكرم، والحال أن الخلق هم عيال الله سبحانه، والإحسان إليهم هو إحسان إليه، فلا يرد سبحانه الإحسان بغير الإحسان الأوفى، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(١) وورد ترجيح الكريم المتلبس بالذنوب على البخيل المنزه عنها في الأخبار، وورد أيضاً: البخيل لا يدخل الجنة.

ومع كل ذلك لم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالإنفاق ولم يشدد عليه في ذلك بل حظره ومنعه وأمر بالتوسط فقال له: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

الْبَسْطِ فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿١﴾ .

ويروى في شأن ذلك: أن رسول الله ﷺ كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت امرأة ابناً لها فقالت: انطلق إليه فأسأله فإن قال لك: ليس عندنا شيء فقل: أعطني قميصك، قال: فآخذ قميصه فرمى به إليه وأعطاه، فأدبه الله عز وجل على القصد فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (٢).

وفي رواية أخرى: أنه كانت عنده أوقية من الذهب فكره أن تبيت عنده، فتصدق بها فأصبح وليس عنده شيء، وجاءه من يسأله، فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل، واغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان رحيماً رقيقاً فأدب الله عز وجل نبيه ﷺ بأمره فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ...﴾ يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك؛ فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال (٣)، هذا عن الجود.

وأما سخاء الرسول ﷺ ولينه؛ فإن المشهود أن من يفتح بابه بالعطاء ولو يسيراً يتكالب عليه المحتاجون وغيرهم حتى يضطروه لإغلاقها أو طردهم بنحو أو بآخر، لكثرة الحاجة النفسية عند الناس أو الواقعية.

فكيف إذا كان الشخص لا يردّ أحداً، ولا يقول لسائل: لا، وهو بين أن يعطيه أو يستقرض له أو حتى يشتري له بالثمن المؤجل فيعطيه، وغايته أنه يستنظره ويؤمله.

فمعلوم أن باذلاً كهذا سيتكالب عليه الناس ويقصدونه من كل

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) الكافي ٤: ٥٦ ح ٧، البحار ١٦: ٢٧١ ج ٩٠.

(٣) البحار ٤٧: ٢٣٤.

حذب وصوب، وسيسمع أنواع الكلام والغلظة، فيبدو من الصعب جداً إراءة جانب اللين والحال هذه.

ويشهد لصعوبة هذه المواقف وهذه المواجهات أن الله سبحانه - وعلى خلاف الجود والعطاء الذي حننه فيه - يطلب من رسوله ﷺ أن يلين، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(١) بينما يعدّ تعالى حصول هذه الصفة عنه من منن الله تعالى ورحمته فقل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾^(٢) وإن كان الصحيح أن خطاب ﴿تَنْهَرْ﴾ إنما كان لبعض أصحابه الذي كان يزجر السائل وينهره. فقد ذكر أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال: «ما عندي ما أعطيك، ولكن ابتع عليّ شيئاً، فإذا جهني شيء قضيت» فقال عمر: يا رسول الله قد أعطيت - يعني فيما مضى - فما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقللاً، فتبسّم رسول الله، وعرف التبسّم في وجهه لقول الأنصاري^(٣).

وأوضح من ذلك ما روي أنه جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه فاكسنيها؟ فقال: «نعم»، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً

(١) الضحى: ١٠.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) مجمع الزوائد ١٠: ٢٤٤، الشامل المحمدية: ٢٩٤، مكارم الأخلاق لابن أبي

فيمنعه^(١).

وأما القصص الدالة على أن النبي ﷺ كان يلين للسائل ويجود من دون سؤال فهي كثيرة:

منها: ما روي عن الصادق عليه السلام أن رسول الله ﷺ أقبل إلى الجعرانة فقسم فيها الأموال، وجعل الناس يسألونه فيعطيهم حتى الجؤوه إلى الشجرة، فأخذت برده، وخذشت ظهره حتى جلوه عنها وهم يسألونه فيعطيهم، فقال: «أيها الناس ردوا عليّ بردي والله لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته بينكم، ثم ما ألفتوموني جباناً ولا بجيلاً»^(٢).

فأنت تلاحظ أن النبي ﷺ ليس فقط لم يغلظ على الناس بل هم الذين اغلظوا عليه وخذشوا ظهره.

وأظرف من ذلك أن رجلاً جاء يسأل النبي ﷺ فجبذ رداءه حتى أترت في عاتقه^(٣).

وقال آخر له ﷺ: اعطني من مال الله الذي هو عندك فإنك لا تعطي من مالك ولا مال أبيك فقال: «المال مال الله وأنا عبد الله»^(٤) فهذا من أروع صور اللين والرفق بالأمة التي تمثل أعلى مراتب السخاء والجود.

ويبقى أن امتياز النبي ﷺ على سائر الكرماء في أمور:

الأول: عدم إحساس الأخذ بالفضاضة حتى كأنه غريباً وليس بسائل، أو ابن وهو تعبير أدق؛ بدليل أن النبي هو أبو هذه الأمة.

(١) المعجم الكبير للطبراني ٦: ١٣٣، ٢٠٠، مسند أحمد ٥: ٣٣٣.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٩٨ ح ١٥٩، البحار ١٦: ٢٢٦.

(٣) البداية والنهاية ٦: ٤٣.

(٤) الشفاء ١: ١٠٨.

الثاني: إعطاؤه السائل والمحتاج حتى في حالة عدم الوجدان بأن يقرض للسائل أو يستسلف له، وهذا ما لم يسمع لأكرم الكرماء لأنه إنما يعطي مما عنده وغايته هو أن يعطي كل ما عنده ولا يقرض ويعطي كما يفعل النبي المكرم ﷺ.

الثالث: يعطي السائل بقصد أن يستفيد السائل من المال الذي يعطيه إياه ويقوى دينه واعتقاده بالله سبحانه وبالرسول ﷺ مما سينفعه في الدنيا والآخرة، وأنعم به من عطاء.

ثم إن هذه الصفة - أعني صاحب الجود والسخاء - من الألقاب التي ذكرها ابن شهر آشوب في كتابه لا غير^(١).

٤٨٩. صاحب الحج والزيارة

كل أمة وكل عقيدة يُراد لها أن تتلاحم وتحفظ وحدتها الظاهرة وتصون واقعها من الانحراف والتحريف لا بد لها من مؤتمر أو مؤتمرات يجتمع فيها أبناء الأمة أو ممثلوهم من أجل التبادل الثقافي وتوحيد الطقوس والعبادة.

فإن إقرار الإسلام لسياسة الحج وزيارة البيت يصب في هذا السبيل ويجري في هذا المنحى، فهو مؤتمر قد يشترك مع سائر المؤتمرات السياسية والعلمية في بعض الجهات، غير أنه مؤتمر طبيعي غير مخطط له مسبقاً، ولا يتعين من سيحضره ولا من سيجتمع معه وما هي المواضيع المطروحة.

وأهم ما يتمتع به هذا المؤتمر هو إتاحة الفرصة للمحكومين بأديان الآباء ومذاهبهم ليطلعوا على المذاهب الأخرى وخصوصاً مذهب الحق والصدق، فيفتح أمامهم السبيل لتكميل ما نقص من دينهم واعتقادهم

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ٦: ١٠٦.

بسبب التأثير بالعائلة والمحيط، بالإضافة إلى الاتصال بمحَمَّلة العلم، كالنبي ﷺ والأئمة والعلماء، والاستفادة من فيض علومهم.

فما أحوج الإسلام إلى هذا الاجتماع من أجل تحقيق أهداف الدعوة وتوحيد الصفوف وتقريب النظرات ودراسة المسائل المهمة للأمة والتحسس بالآلام الآخرين ودعمهم الفكري في قضاياهم المصيرية.

هذا بالإضافة إلى تأمين الجانب العبادي لحج البيت الذي استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بالفي عام، فلحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر، الله المنشئ للأرواح والصور على حد تعبير الإمام الصادق عليه السلام ^(١). ولا تنتهي ثمرات هذا الاجتماع العظيم عند ذلك الحد، فإن له فوائد أخرى.

منها: مسألة هامة يسعى الإسلام وراءها على الدوام وهي فترات الاستواء، وبرهات يستوي فيها جميع طبقات الناس الغني والفقير والعالي والوضيع يدخل في جملتها شهر رمضان وفترة الصيام فإن الجميع يشترك في تحمل الجوع، ويكونون في صعيد واحد، وكذا الحج لما يخضع الجميع أنواع اللباس والأزياء ويلبسون زياً موحداً نصف عراة فيكون الجميع في صعيد واحد ومرتبة واحدة ترفع وجوههم الشمس وتعلوهم الغبرة والشعث، لا يعرف منهم الغني من الفقير والشريف من الوضيع، والرئيس والمرؤوس

(١) الكافي ٤: ١٩٨ ح ١، الفقيه ٢: ١٦٢ ح ٧٠١، علل الشرائع: ٤٠٣ ح ٤، أمالي

الصدوق: ٤٩٣ ح ٤، التوحيد للصدوق: ٢٥٣ ح ٤، الوسائل ١١: ١١ ح

ليذكرهم بيوم المحشر والمنتهى والمصدر.

ثم إن في نفس توحيد مواقيت الطقوس فائدة أخرى، فثمة فرق بين من يتعبد لوحده، وبين من يتعبد في زمان يتعبد به جميع الأمة أو طائفة كبيرة منها فإنه سيعطيه إحساس الجزئية وأنه واحد من تلك الأمة الكبيرة مما يزيد في تلاحمها، وخصوصاً الحج الذي يجمع بين لغات عديدة وبلدان متباعدة.

ومن تلك الثمرات أيضاً هو توليد الحيوية والنشاط عند أفراد الأمة، لأن الحج مهما كانت طقوسه هو عبارة عن سفر وقصد وقطع مسافة، تكمن فيه فوائد السفر والسياحة من تجدد الأنشطة والصحة والسلامة.

ومنها: زيادة الرزق، فإن المعتقد عندنا أن الرازق هو الله سبحانه وهو المقدر له، فجعل لزيادته أسباباً منها الحج، فقد ورد عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «حجوا واعتمروا تصحّ أبدانكم، وتتسع أرزاقكم، وتكفون مؤنات عيالكم» وقال: «الحاج مغفور له، وموجب له الجنة، ومستأنف له العمل، ومحفوظ في أهله وماله»^(١).

على أن هناك فوائد وثمرات كثيرة أخرى لا يسع المجال لذكرها، والمهم هو معرفة أن ثمرات الحج العظمى ظهرت بعد دعوة الرسول المصطفى ﷺ وإنما اجتناها الإسلام، فكان الحج محمدي الثمر وإن كان إبراهيمي المولد، وكان الرسول ﷺ هو صاحب الحج والزيارة الحقيقي، وإنما تدخل دعوة النبي إبراهيم عليه السلام في التمهيد لذلك.

فقد نزل جبرئيل على النبي عند عين ليذكر تلك الحقيقة فقال:
السلام عليك يا محمد... السلام عليك يا صاحب الحج والزيارة^(٢).

(١) الكافي ٤: ٢٥٢ ح ١، الوسائل ١١: ٩ ح ١٤١١٣.

(٢) الفضائل لشاذان القمي ٣٣، البحار ١٥: ٣٥١.

٤٩٠. صاحب الحجة والبرهان

البرهان لا يكون إلا قولاً يشهد بصحة الشيء ويقطع حجة الخصم وهو فارسي معرب أصله بر آن، أي اقطع ذلك.

وأما الحجة فهي كل ما يحتاج به على الطرف سواء كان قولاً أو فعلاً أو معجزة أو شخصاً، فهو يشمل كل ما دافع به الخصم والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة.

وقد تقدم أن النبي ﷺ هو «صاحب البرهان» ويبقى الكلام في الحجة، فهي قد تكون بالكلام لتشمل عامة الاستدلال وتأليف الصغرى والكبرى وكل ما يكون وسطاً في القياس وغيره مما يعتمد عليه الدين الإسلامي من الأدلة ومضامين القرآن والأخبار.

وقد تكون هي فعلاً من عامة الأفعال، فإن نفس فعل النبي ﷺ هو حجة على الناس، وذلك كتواضعه وكرمه ورحمته ورأفته وعبادته وعامة أفعاله، فلا يمكن معه أن يتوانى المسلم عن العمل أو يستحقره إذا كان رسول الله ﷺ عمله.

وقد تكون الحجة هي الأشخاص؛ فإن الإنسان المؤمن يكون حجة على غيره بعمله وسلوكه واعتقاده، فلا يستطيع أحد أن يقول: لا يمكن هذا الشيء كالجمع بين الدولة والدين، أو يقول فتنتني شجاعتني أو جمالي أو مالي فيكون الإمام علي عليه السلام حجة عليه لأنه جمع بين الدولة والدين ولم تفتنه شجاعته، ويوسف عليه السلام يكون حجة إذ لم يفتنه جماله، ومريم عليها السلام هي كذلك إذ لم يفتنها جمالها.

فالرسول المصطفى ﷺ هو صاحب الحجة بجميع معانيها المتصورة من الأدلة القولية، والأفعال الحسنة، والمعجزة الخالدة، وكذلك الأولياء والأتقياء الحجج وسيدهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فالنبي ﷺ - كما قال

ابن شهر آشوب في عداد ألقابه عليه السلام - هو صاحب الحجة والبرهان.

٤٩١. صاحب الحسب الأطهر

إن أكثر أهل اللغة يميل إلى أن الحسب هو مرتبة الشخص التي ينالها بفعاله الحسن، كالشجاعة والجلود وحسن الخلق والوفاء، وينمو إذا اُضيف إليه فعال الآباء، على أن أصل الحسب مأخوذ من الحساب إذا حسبوا مناقبهم ومناقب آبائهم، وإن كان الأصل هو مناقب نفس الشخص وفعاله الحسن، فقد أنشد ثعلب: ورب حسيب الأصل غير حسيب.

وقال الملتصق:

ومن كان ذانسب كريم ولم يكن له حسب كان اللثيم المذمماً^(١)

ثم إن الفعال الحسن والمناقب التي تُعدّ وتُحسب تختلف بحسب ما تخفي وراءها من التوايا والقصود والأغراض، فإذا خلصت النية وخلت من شوائب الرياء والدجل والتدبير كان الفعال والحسب طاهراً.

ولا شك أن الرسول المصطفى عليه السلام هو صاحب الحسب معلومة للجميع نواياه الصداقة وأعماله الخالصة بمثابة لا يبلغها أحد، فكان صاحب الحسب الأطهر كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب في عداد ألقابه عليه السلام^(٢).

٤٩٢. صاحب الحق الزاهر

الحق ضد الباطل، والزاهر هو المنير الذي له ضوء ونور يُرى بوضوح، ويبصره القريب والبعيد من دون حاجة إلى تدبر وتعقل.

ومعلوم أنه بعد كل مناقشة وكل مقابلة ومقايسة يكون الحق في

(١) انظر لسان العرب ٣: ١٦١، ١٦٢ - حسب.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

جانب الرسول ﷺ ويكون هو صاحب الحق بأشد وضوح وجلاء، والنتيجة أن جميع أوامر النبي ﷺ وما أتى به من القرآن هو حق، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾^(١).

فإذا قال المشركون: هذه الأصنام هي آلهة تُصيب بخير وشر، وقال الرسول ﷺ: بل هي أحجار لا تعقل ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها، كان الحق بجانبه في غاية الوضوح.

وإذا قال النبي ﷺ: لا إله إلا الله، وقال المشركون: مع الله إله آخر، كان الحق بجانب الرسول ﷺ وكان هو صاحب الحق، لأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، ولعلى بعضهم على بعض، ولذهب كل إله بما خلق.

وإذا قال النصارى: عيسى ابن الله بدليل أنه ولد من غير أب، أو قال اليهود: عزيز ابن الله، وقال الرسول ﷺ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ كان الحق بجانبه، لأن الله خلق آدم عليه السلام من دون أب وأم ولم يكن ابن الله عز وجل.

وهكذا يظل الحق دائماً وأبداً بجانبه ﷺ وفي جميع المواقف، ويكون هو صاحب الحق الزاهر إلى آخر موقف وقفه في غدير خم ليقول: من كنت مولاه فهذا علي مولاه^(٢) ويتلوه نزول قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٣).

فإذا قال الآخرون: المولى فلان وليس هو علي عليه السلام فالحق في جانب

(١) الأنبياء: ١٨.

(٢) فضائل الصحابة: ١٤٠، مسند أحمد ١: ٨٤، سنن الدارمي ١: ٧، سنن ابن ماجه ١

: ٤.

(٣) المائدة: ٣.

النبي ﷺ، وهو صاحب الحق وهو كما قال ﷺ: «علي مع الحق، والحق مع علي»^(١) ليستمر الحق بجانب علي عليه السلام كما كان بجانب الرسول ﷺ، وكان هو صاحب الحق الأزهر بعد رسول الله ﷺ كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(٢).

٤٩٣. صاحب الحق والصواب

الصواب ضد الخطأ، يقال: أصاب السهم الهدف ولم يخطئه، وقيل: الصواب هو المستقيم على الحسن والصدق. فالرسول ﷺ هو صاحب الحق كما علم في العنوان السابق، وصاحب الصواب أي الاستقامة على الحسن والصدق، امثالاً لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(٣).

ما يدل على عدم الريب في استقامة الرسول ﷺ لأنه كلّف بأكثر من ذلك وهو استقامة أصحابه، فإنه كان في غاية المشقة حتى قال رسول الله ﷺ: «شيبني سورة هود»^(٤) التي ورد فيها الأمر بالاستقامة، على أنّ عنوان صاحب الحق والصواب ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقابه ﷺ^(٥).

٤٩٤. صاحب الحق والبيان

إن المعنى العام للحق هو وضع الشيء في موضعه، والمراد هنا هو ما وضع موضعه من الحكمة فلا يكون إلا حسناً.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

(٣) هود: ١١٢.

(٤) البحار ٨٩: ١٩٩ ح ١٠.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

والبيان هو إظهار المعنى للنفس كائناً ما كان، فهو من قبيل القول والكلام، والنبي ﷺ هو صاحب القرآن، وهو البيان، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾^(١).

وأعطي ﷺ من البيان وجوامع الكلام مما لم يعط أحد قبله، فقل ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطها أحد قبلي... أعطيت جوامع الكلم»^(٢) وهي سائر كلمات النبي ﷺ الموجزة المشتملة على حكم عظيمة ومعاني كثيرة.

ولا يخفى على عربي وغير عربي مدى حكمة الرسول ﷺ وقوة بيانه وما انتشر عنه من الكلمات التي لا توزن بشيء، وهي كلمات موجزة تحمل معاني عظيمة مثل قوله ﷺ: «النظافة من الإيمان»^(٣) وقوله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له»^(٤)، وقوله ﷺ: «إن الحياة عقيدة وجهاد»^(٥)، وقوله ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن»^(٦) وغيره مما جمع في كتاب المجازات النبوية وكتاب نهج الفصاحة وغيرهما.

وهذا اللقب أيضاً مما أورده ابن شهر آشوب في عداد ألقابه ﷺ^(٧).

٤٩٥. صاحب الحكمة والفرقان

إنما أخذ المسلمون كلام النبي ﷺ وأودعوه قلوبهم وحفظوه في

(١) آل عمران: ١٣٨.

(٢) أمالي الطوسي: ١٠٥، ١٨٨ ح ٣١٧.

(٣) مستدرک سفينة البحار ٦: ٦٠٥، وج ١٠: ٩٣.

(٤) مكارم الأخلاق: ٤٤٧، البحار ١٦: ٢٦٦ ح ٦٧.

(٥) الكافي ٥: ٥٠١ ح ٣.

(٦) الكافي ٥: ٣٣٢ ح ٤، الفقيه ٣: ٣٩١ ح ٤٣٧٧.

(٧) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

أوعيتها لأن في كلامه ﷺ الحِكم الثمينة المؤثرة، والعلوم النافعة، فلا يخلو أقل مجلس لرسول الله ﷺ ولا أية محادثة مع أحد من أصحابه وغيرهم من حكمة يلقيها في روعه، أو آية من القرآن يذكره بها، بل لم ينفك ﷺ ينطق بالحكمة ويلفت الأنظار إلى خفايا الأمور وغوامضها وأسبابها ومدارجها، تلك التي هي حياة القلوب الميتة، وما زال يجلي بآيات الفرقان أبصار السامعين، ويرمي بالتفسير في مسامعهم، فيغبغبون كؤوس الحكمة بعد الصبوح.

وإنما عُرف النبي ﷺ بأنه صاحب الحكمة والفرقان كما ذكره ابن شهر آشوب^(١) لعدم انفكاكه عن النطق بالحكمة، وعدم خلو كلامه من الحكمة والفرقان، لا لأجل نبت الحكمة في قلبه ﷺ لأنه دار الحكمة كما مر، ومدينة الحكمة التي تصدر منها الحِكم لتنتب في صدور المؤمنين كما سيأتي.

٤٩٦. صاحب الحلّ والحرام

يمثل المشروع الإسلامي في عمقه الحقيقي نظرة واقعية ترنو إلى عمق الأشياء بما تنطوي عليه من مصالح كامنة ومفاسد غامضة ليقسّم الأشياء والأفعال إلى حلال ذي مصلحة وحرام ذي مفسدة، فقد جاء الرسول ﷺ وشرع ببناء الشريعة المتكاملة ووضع لبناتها المتخالفة التي هي عبارة عن بيان حرمة بعض الأشياء وحليّة البعض الآخر، فيقول: هذا حلال وهذا حرام حتى يشتد البناء التشريعي ويتكامل ديناً قيماً مؤلفاً من أحكام لا تخلو منها واقعة.

والمقصود بالحلال ما يشمل الأحكام الأربعة التي هي غير الحرمة أو لا أقل الأحكام الثلاثة التي هي غير الحرمة والكراهة، أعني الواجب

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

والمستحب والمباح، فالجميع هو حلال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾^(١).

وإنما شيد هذا البنيان ليبقى ويدوم، كما قال ﷺ: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»^(٢).

عندها يتجلى أن النبي ﷺ هو صاحب الحل والحرام كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(٣)، الشامل لجميع محرمات الحرم المحيطة بالكعبة وحلال الحل الخارج عن ذلك.

٤٩٧. صاحب الحوض الشريف

ورد التأكيد على الحوض في الأخبار، وكذا التأكيد على احتياج الناس إلى وروده والارتواء منه للتخلص من عطش يوم القيامة وفاقته.

وروي أن الرسول ﷺ قال: «من لم يؤمن بحوضي، فلا أورده الله حوضي»^(٤)، وحينما سئل ﷺ عن الحوض قال: «أما إذا سألتموني عن الحوض فسأخبركم، إنَّ الحوض أكرمني الله به وفضلني على من كان قبلي من الأنبياء، وهو ما بين أيلة وصنعاء، فيه من الأنية عدد نجوم السماء، يسيل فيه خليجان من الماء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل،

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) بصائر الدرجات: ١٦٨، الكافي ١: ٥٨ ح ١٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

(٤) أمالي الصدوق: ٥٦.

حصاه الزمرد والياقوت، بطحاؤه مسك أذفر، شرط مشروط من ربي لا يرده أحد من أمتي إلا النقية قلوبهم، الصحيحة نياتهم، المسلمون لوصيي من بعدي، الذين يعطون ما عليهم في يسر، ولا يأخذون ما لهم في عسر، يذود عنه يوم القيامة من ليس من شيعته، كما يذود الرجل البعير الأجر من إبله، من شرب منه لم يظماً أبداً»^(١).

هذا عن الحوض وقد يعبر عنه بالنهر أو الكوثر.

وأما عن شرفه فقد روي أنه لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىٰكَ الْكُوْثَرَ﴾ قال له علي بن أبي طالب: «ما هو الكوثر يا رسول الله؟ قال: نهر أكرمني الله به، قال علي: إن هذا النهر شريف فأنعته لنا يا رسول الله، قال: نعم يا علي، الكوثر نهر يجري تحت عرش الله تعالى، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، وحصاه الزبرجد...»^(٢).

فقد عرف الإمام علي عليه السلام بمجرد سماع قول النبي ﷺ: «نهر أكرمني الله به» شرف هذا النهر فقال: إن هذا النهر شريف قبل أن يسمع أوصافه، وذلك لأن معنى ذلك الكلام هو أن الكوثر هدية وكرامة من الله الذي لا إله إلا هو إلى أشرف المخلوقات، النبي المكرم ﷺ، فلا بد أن يكون شريفاً، ومن ناحية أخرى فإن نسبه إلى الشريف بل إلى أشرف المخلوقات هو الذي يجعله شريفاً، فهو في الحقيقة يستمد شرفه من شرف الرسول ﷺ بالإضافة إلى أوصافه الشريفة وجريانه تحت العرش.

ثم إن الكلام في صفة الحوض كثير ملخصه أنه طويل ما بين إيلياء

(١) مناقب أمير المؤمنين ١: ٤٠٤، كنز الفوائد: ٢٣٧ أمالي الطوسي: ٢٢٨، البحار ٨

: ٢١ ح ٣٣.

(٢) أمالي المفيد: ٢٩٤، أمالي الطوسي: ٦٩، البحار ٨: ١٨ ح ٢.

الذي هو بيت المقدس - وفي رواية بصرى بئلك إيلياء وهي بالشام من أعمال دمشق معروفة بقصبة كورة حوران - إلى صنعاء عاصمة اليمن^(١)، وفي رواية أخرى ما بين المشرق والمغرب أي عرض الأرض^(٢)، على أن التعبير بذلك لبيان السعة لا التحديد الدقيق مما يبدو أنه أوسع من جميع ذلك.

ومن صفاته وخواصه أنّ الإنسان إذا شرب منه مرة واحدة فإنه سيروى ولا يظمأ أبداً، كما أن شربه يؤدي إلى بياض الوجه ونورانيته، على أنه أحلى من العسل وألين من الزبد مما يدلّ على سهولة سوغه، بالإضافة إلى جمال أرضه وضافه وبداعة أطرافه وأوانيه، وعظمة القصور المشرفة عليه التي هي محالّ الإقامة الموقته، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل أعطاني نهراً في السمء مجراه تحت العرش، عليه ألف ألف قصر، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، حشيشها الزعفران، ورضراضها الدر والياقوت، وأرضها المسك الأبيض، فذلك خير لي ولأمّتي، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾»^(٣).

ويستفاد من مجموع الأخبار أن الشرب من هذا الحوض له شروط أولها: الإيمان به وبوجوده كما هو مستفاد من الرواية الأولى المارة، والشرط الثاني: صفاء النية وسلامة الصدر، والشرط الثالث: وهو المؤكد عليه هو قبول الولاية وحب علي أمير المؤمنين عليه السلام، فقد جاء في كثير من الروايات الواصفة للحوض أن رسول الله ﷺ ضرب يده في جنب علي أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «يا علي إن هذا النهر لي ولك ولحبّيك من بعدي»^(٤) وقال عليه السلام لعلي

-
- (١) البحار ٨: ١٩ ح ٧، وص ٢٤ ح ٢٠.
 (٢) الاحتجاج ١: ٥٦، البحار ٨: ١٨ ح ٣.
 (٣) أمالي المفيد: ٢٩٤، أمالي الطوسي: ٧٠.
 (٤) أمالي المفيد: ٢٩٤، أمالي الطوسي: ٧٠.

أيضاً: «تردُّ شيعتك يوم القيامة رواءً غير عطاش، ويرد عدوك عطاشاً يستسقون فلا يسقون»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إني أيها الناس فرطكم يوم القيامة على الحوض، فإذا جئتم قال الرجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان، فأقول: أما النسب فقد عرفته، ولكنكم أخذتم بعدي ذات الشمال، وارتددتم على أعقابكم القهقري»^(٢).

وفي رواية: «أنا فرطكم على الحوض ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروني بم تخلفوني فيهما»^(٤).

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «يردنّ على الحوض رجلان ممن قد صحبني، فإذا رأيتهما رفعا لي اختلجا دوني»^(٥) ولا شك أن الرجلين هما اللذان غصبا العترة حقها، وأذيا البضعة حتى ماتت وهي واجدة عليهما كما في الخبر الصحيح^(٦).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٦٦، البحار ٨: ٢٠ ح ١٠.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٨، صحيح البخاري ٧: ٢٠٧، ٢٠٨، صحيح مسلم ٧: ٦٨.

(٣) مسند أحمد ١: ٣٨٤، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٢٥، ٤٣٩، ٤٥٣، ٤٥٥، وج ٢: ٣٠٠، ٤٠٨.

(٤) مسند أحمد ٣: ١٨، ٢٦، ٥٩.

(٥) مسند أحمد ١: ١٤٠.

(٦) صحيح البخاري ٤: ٤٢، وج ٥: ٨٢.

ومهما يكن من ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «أنا صاحب الشفاعة والحوض الشريف»^(١).

٤٩٨. صاحب الحوض المورود

ليس ورود الحوض والشرب منه بالسهل اليسير كما يظهر من الأخبار، وإنما له شروط صعبة لا تتوفر إلا في النزر القليل، فلا يرده إلا القليل جداً مما لا يستحق معه أن يسمى - «الحوض المورود» وذلك أن رسول الله ﷺ قال في حديث: «شروط مشروط من ربي لا يردهما إلا الصحيحة نياتهم، النقية قلوبهم، الذين يعطون ما عليهم في يسر، ولا يأخذون ما لهم في عسر، المسلمون للوصي من بعدي، يذود من ليس من شيعته كما يذود الرجل الجمل الأجر ب عن إبله»^(٢).

فمن هذا الحديث وغيره يعلم عدم ورود من لا يؤمن بولاية علي ﷺ ولم يكن من شيعة أهل البيت عليهم السلام وكذا الشيعة لا يرده منهم إلا من كان بتلك المواصفات النادرة، من صحة النوايا، ونقاء القلوب، وأصعب من ذلك الإعراض عما هو حقهم وما تقرّر لهم وهم في عسر وشدة، فليس يفعل ذلك إلا القليل، ومعه كيف يكون الحوض موروداً؟ وكيف نفسر قول جبرئيل حينما نزل على النبي ﷺ عند عين فسلم عليه وقال: السلام عليك يا صاحب الحوض المورود^(٣).

نعم سيكون موروداً ويرده الكثير بركة النبي ﷺ وشفاعته، فقد ورد عن الباقر ﷺ أنه إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد... فيقوم رسول الله ﷺ فيتقدم أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله

(١) إكمال الدين: ١١٥، ١١٦، البحار: ١٦: ٣٦٤.

(٢) مناقب أمير المؤمنين ١: ٤٠٤، البحار ٨: ٢٨ ح ٣٣، أمالي الشيخ الطوسي: ٢٢٨.

(٣) الفضائل: ٣١، ٥٢، البحار ١٥: ٣٥١.

ما بين أيلة وصنعاء فيقف عليه... ثم يؤذن للناس فيمرون» قال أبو جعفر عليه السلام:
«فبين وارد يومئذ وبين مصروف، فإذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من يصرف عنه
من محبينا أهل البيت بكى، وقال: يا رب شيعة علي، يا رب شيعة علي».

إلى أن قال: فيقول الله عز وجل: يا محمد إنني قد وهبتهم لك،
وصفحت لك عن ذنوبهم، وألحقتهم بك وبمن كانوا يتولون من
ذريتك، وجعلتهم من زمرتك، وأوردتهم حوضك، وقبلت شفاعتك
فيهم، وأكرمتك بذلك».

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «فكم من باكٍ يومئذٍ وباكية ينادون يا محمداه
إذا رأوا ذلك» قال: «فلا يبقى أحد يومئذٍ كان يتولانا ويحبنا إلا كان في
حزبنا، ومعنا وروده حوضنا»^(١).

٤٩٩ . صاحب الحوض والكوثر

يوحي هذا العنوان الذي ذكره ابن شهر آشوب من نفسه ^(٢) إلى أن
الكوثر غير الحوض، فقد ورد في الأخبار أن الكوثر نهر يجري تحت العرش
وقواعده تحت العرش، بينما الحوض في اللغة هو مجتمع الماء الذي لا
جريان فيه. ولعل الكوثر هو نهر يصب ماؤه في الحوض كما هو مستفاد
من بعض الأخبار الضعيفة، ولكن عامة الأخبار ظاهرة في الاتحاد، بل هو
صريح بعضها، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أتدرون ما الكوثر؟»
قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خيراً كثيراً، هو
حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة»^(٣).

(١) شرح الأخبار للنعمان ٢: ٤٦٨، البحار ٨: ١٧ ح ١، أمالي المفيد: ٢٩١، أمالي

الطوسي: ٦٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

(٣) البحار ٨: ١٦.

والأظهر أن الحوض يطلق على مجموعة، وهي عبارة عن الحوض الذي هو مجتمع الماء ولوازمه من الأنهار والخلجان التي تصب فيه والقصور المشيدة في أطرافه، فقد سئل رسول الله ﷺ عن الحوض فقال: «أما إذا سألتموني عن الحوض فإني سأخبركم عنه: إن الله تعالى أكرمني به دون الأنبياء، وإنه ما بين أيلة إلى صنعاء، يسيل فيه خليجان من الماء»^(١).

ولابد من الإشارة هنا إلى بعض حقيقة الكوثر والماء، فإن الذي يذهب إليه مفسرونا هو أن الكوثر هي الزهراء فاطمة عليها السلام ونسلها وذريتها بقريته قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ في آخر سورة الكوثر، ومن ناحية أخرى ورد في كثير من الأخبار أن رسول الله ﷺ قال في علي عليه السلام: إنه صاحب حوضي^(٢)، وقال علي عليه السلام: «والله لأزودن بيدي هاتين القصيرتين عن حوض رسول الله ﷺ أعداءنا وليردنه أحباؤنا»^(٣) مع أنه قد تقدم في بعض العناوين أن الماء هو الحامل الأول للعلم والحامل الآخر، فمن غير البعيد أن يكون الحوض هو تجسد لعلوم الزهراء والذرية الطاهرة عليهم السلام فإن الاغتراف منه والانتهاج هو الدليل على السعادة الأبدية الذي لا ظمأ بعده أبداً ولا حاجة معه إلى أي علم آخر، وإنما ينتهل من علومهم من أحبهم وعرفهم ولذا جعلت المحبة هي شرط الشرب من الحوض والانتهاج منه، وتبقى الخلاوة التي هي أحلى من العسل في نفس المحب، فإن محبة الزهراء سلام الله عليها هي في الدنيا أحلى من العسل، بينما تكون القصور وباقي الفوائد هي فوائد ومصالح العمل بذلك العلم^(٤).

(١) أمالي الطوسي: ١٧٢، البحار ٨: ٢٨ ح ٣٣، المسترشد للطبري: ٢٦٥.

(٢) البحار ٨: ١٩.

(٣) البحار ٨: ٢٠ ح ١٢.

(٤) ويؤيد ذلك ما روي من قول فاطمة سلام الله عليها: «أنا مني أنهار الماء واللبن والخمر والعسل في الجنان». الفضائل لشاذان القمي: ٨١.

وإذا كان القيم عليها هو علي بن أبي طالب عليه السلام وهو بعلمها والذائد عنها، كان هو القائم على الحوض في القيامة والذائد عنه. وإذا كان الحوض من مختصات النبي صلى الله عليه وآله فلأنه النبي الوحيد الذي كانت ذريته ولا زالت هي القائمة مقامه والحاملة لعلمه والهادية بعده، مما أكسبه السعة والامتداد وعدم الانحصار.

٥٠٠. صاحب الخاتم

الخاتم هو الطابع الذي يطبع على المكتوب والظرف صيانة له من التصرف وعلامة على عدم فتحه والزيادة فيه أو النقيصة، بينما خاتم النبوة هو طابع يطبع أو ينطبع على كتف النبي أو عضو آخر منه لصيانة النبوة من الزيادة والنقيصة، وذلك أن النبوة أمر محسوب ومحدود ومعين قد انتجب لها أفراد خاصون، فالطابع لأجل أن لا يدعي مدع النبوة فيزيد في عدد الأنبياء، ولا يكذب نبي بالكلية فينقص عدد الأنبياء، فيعود الخاتم علامة على أن المختوم به نبي يجب اتباعه ومؤازرته.

ومن ناحية أخرى تدخل النبوة في الأمور الاعتقادية التي لا مسرح للظن ولا كل مادون العلم فيها، فيأتي الختم على الأنبياء لأجل ترصين اعتقاد المعتقدين وتقويته.

ومن أجل ذلك لما رأى سلمان الفارسي النبي صلى الله عليه وآله بعد ما تحمّل أوصافه وعلاماته من الأحبار والرهبان الذين شاهدتهم وعاش معهم كعدم قبول النبي للصدقة، وقبوله الهدية، وطبق جميع تلك العلامات صار يدور خلف النبي صلى الله عليه وآله ليرى العلامة النهائية، فحانت من النبي صلى الله عليه وآله التفاتة فقال: «يا روزبه - وكان اسم سلمان روزبه - تطلب خاتم النبوة؟» فقال: نعم، فكشف النبي صلى الله عليه وآله عن كتفيه فإذا خاتم النبوة معجون بين كتفيه عليه

شعرات، وعندها سقط سلمان على قدم رسول الله ﷺ يقبلها^(١).

على أن قصص الرهبان والأخبار والكهان وغيرهم ممن قرأ الكتب القديمة من الذين شاهدوا هذه العلامة فآخذهم الإفكل - وهو الرعدة - كثيرة^(٢).

وتظل أصل قصة الختم والخاتم يرويها العباس عم النبي ﷺ ويذكر قصة طويلة وأن آمنة حدثته عن ولادتها وأنها رأت رجلاً شاباً من أمم الناس طولاً وأشدهم بياضاً وأحسنهم ثياباً ظننته عبد المطلب جاء فأخذ المولود وغسله وألبسه وأجرى جميع المراسم التي تعمل للمولود إلى أن قالت: ثم أخرج صرة من حريرة بيضاء ففتحتها فإذا فيها خاتم فضرب على كتفيه، قال العباس: وأنا يومئذ أقرأ فكشفت عن ثوبه فإذا خاتم النبوة بين كتفيه، فلم أزل أكتم شأنه وأنسيت الحديث فلم أذكره إلى يوم إسلامي، حتى ذكرني رسول الله ﷺ^(٣).

وأما شكل الخاتم فقد اختلف فيه، والأكثر على أنه سطران مكتوبان يقرأهما كل عربي، الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله، وقد يضاف إليه كلمات أخرى مثل: توجه حيث شئت فأنت منصور.

ثم إن الأقوال في ظاهر الخاتم مختلفة، منهم من يقول: إن هذين السطرين صارت كالشامة، والآخر يقول: هو غضروف، وثالث يقول: كاهلال، ورابع قال: هو غضروف كتفيه مثل بيض الحمامة، وخامس:

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ١٦٢ - ١٦٥.

(٢) الهداية الكبرى: ٤٩، الخرائج والجرائح: ١، ٧١، ٧٢، وج ٣: ١٠٦٧، البحار: ١٦:

(٣) الخرائج والجرائح: ١، ٧١، كمال الدين: ١٧٦، أمالي الصدوق: ٣٣٦، البحار: ١٥:

بضعة ناشزة، وسادس: شعر مجتمع على كتفيه، أو شيء يغطيه الشعر^(١).

ويذكر أنه لما شك في موت رسول الله ﷺ وضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه، فقالت: قد توفي رسول الله ﷺ قد رفع الخاتم^(٢)، على أنني لا أتحقق صحة هذا الخبر، ولا شيئاً من تلك الأقوال غير أصل وجود الخاتم، فهو مسلم.

وإما ذكر تسمية النبي ﷺ بصاحب الخاتم القاضي عياض^(٣).

٥٠١. صاحب الخد الأقرم

ذكر ابن شهر آشوب ألقاب النبي ﷺ فعدها منها صاحب الوجه الأنور، والخد الأقرم، والجبين الأزهر^(٤). والقمرة هي بياض فيه كدرة، ومنه اشتق اسم القمر لما فيه من الكدرة، بينما الأقرم هو الأبيض الشديد البياض، مما يدل على أن خد رسول الله ﷺ كان أشد بياضاً من سائر أجزاء وجهه وبدنه حتى خصّ التعبير بالأقرم به، كما خصّ التعبير بالأزهر بجبينه لظهوره وبروزه وكثرة نوره.

٥٠٢. صاحب الخشوع والدعاء

كل حدث تاريخي وكل تغيير حاسم لا يحصل إلا باجتياز حاجز الخوف وكسر طوقه وحصول الجرأة أو تحصيلها للوقوف أمام نظام منفور أو الإطاحة به أو إجراء تعديلات عليه، ما خلا التغيير الذي أحدثه النبي ﷺ فإنه قام على أساس تعميق الخوف والخشية، فكان بدو التغيير واستمراره

(١) انظر الفضائل لشاذان: ٣٥، والبحار ١٠: ٥، وج ١٥: ٣٥٣، وج ١٦: ١٧٧.

(٢) البحار ١٦: ١٧٧.

(٣) نقله في البحار ١٦: ١٣١.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

على أساس الفرار من غضب الله تعالى والإشفاق من خشيته، فكلما زاد هذا الخوف واشتد في نفوس المؤمنين حدث تعجيل في عملية التغيير، ومن ثم الاقتراب من ساعة الإطاحة بالنظام الوثني القبلي الحاكم.

على أن الرسول المصطفى ﷺ كان أكثر الناس خشية وخوفاً بحيث كانت خشيته يحدُّ لو ترك وحاله لتعب وهلك وما استطاع من إدامة الطريق. ومن أجل ذلك هوّن عليه الله سبحانه وأعلمه بغفران جميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، فإنه لا وجه لإعلام ذلك وإبدائه إلا التهوين والتخفيف.

ويصبُّ في هذا المصب أيضاً قوله تعالى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١) وما ذاك إلا من أجل تجنبه الشقاء والتعب المفرط.

وليس دليل هذا الخوف والخشية والإشفاق إلا العلم بعظمة الله سبحانه وتعالى ورؤيته بباطن البصيرة لا كرؤية سائر الناس، وكذا الاعتبار من أحوال الأنبياء الماضين والأمم السالفة.

ولما كان الكلام هنا عن خصوص الخشوع وأن النبي ﷺ هو صاحب الخشوع والدعاء كما ذكره ابن شهر آشوب^(٢) تحت تفسير الخشوع وبيان معناه، فإن المتحصل عندي من معنى الخشوع هو ما يتسببه الخوف والخشية من الآثار التي تحل بالقلب وتظهر على ظاهر البدن والوجه والطرف والصوت.

فإن ما يحل بالقلب هو الرعب والاضطراب وبلوغه الحنجرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣)، وقال

(١) طه: ٢-١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) الحديد: ١٦.

تعالى: ﴿وَبَلَغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾^(١).

وأما ما يحلّ في البدن والهيكَل العام فهو الانحناء والانكسار والخضوع قال تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٣).

وأما خشوع الوجه فهو تكدره وإشفاقه قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾^(٤).

وأما خشوع الطرف فهو إغضاؤه وإحلاله وتعكّر أجفانه فيكون كثوب مشقوق على ناكل، قال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾^(٥).

وأما خشوع الصوت فهو تلجلجه وتقطعه وخفوته قال تعالى: ﴿وَخَسَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾^(٦).

وإنما ذكرنا كل ذلك لتعلم كيفية حصول الخشوع ومحل حصوله في الجملة - وإلا فأكثر تلك الأحوال إنما تكون يوم القيامة بعد مشاهدة عظمة الله سبحانه والوقوف أمام الأمر الواقع - في محاولة لتقريب خشوع النبي ﷺ لمشاهدته في هذه الدنيا ما سيشاهده الناس في يوم القيامة، ولا أقل حينما

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) الإسراء: ١٠٩.

(٣) الحشر: ٢١.

(٤) الغاشية: ٢.

(٥) القلم: ٤٣، المعارج: ٤٤.

(٦) طه: ١٠٨.

عرج به إلى السماء فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً»^(١).

وأذكر هنا مشهداً من مشاهد خشوع الرسول ﷺ ودعائه، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان في بيت أم سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش، فدخلها في ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي وهو يقول: «اللهم لا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم لا تشمت بي عدواً ولا حاسداً أبداً، اللهم ولا تردني في سوء استنقذتني منه أبداً، اللهم ولا تكليني إلى نفسي طرفة عين أبداً».

فانصرفت أم سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله ﷺ لبيكائها فقال لها: «ما يبكيك يا أم سلمة؟»

فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ولم لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله، قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر تسأله أن لا يشمت بك عدواً أبداً، وأن لا يردك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع منك صالحاً أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟

فقال: «يا أم سلمة وما يؤمنني؟ وإنما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان»^(٢).

ويعلم من هذا الخبر أن النبي ﷺ كان يتخفى بالتخضع والبكاء والدعاء بالاستعطاف والاسترحام دون غيره من الأدعية.

هذا عن الخشوع، وأما الدعاء فلم ينفك النبي ﷺ من الدعاء للمؤمنين أولاً، ولنفسه ثانياً، في كل كبير وصغير، وكان يكثر الاستعاذة

(١) صحيح البخاري ٨: ١٢٧.

(٢) البحار ١٦: ٢١٧ ح ٦.

والتعوذ من كل صغير وكبير، ويقول: إن الله إذا شاء أن يعظم صغيراً عظمه^(١)، كما كان يتعوذ ويدعو إذا رأى غماماً مقبلاً حذراً من أن يصيبه ما أصاب قوماً قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِنًا﴾ فكان عذاباً^(٢)، وقد أفلحت دعواته في دفع البلايا عن هذه الأمة مما أصاب القرون الأولى، كما أنه ﷺ كان يرى أن الدعاء هو مفتاح كل شيء وعلاج كل داء ومفتاح كل شدة، فينال ما يريد لنفسه وأصحابه به، وللدعاء تفصيل في محل آخر.

٥٠٣. صاحب الخطبة والمنبر

إن أول ما تحتاجه الثورات الثقافية والتغيرات التي تتضمن تحولاً فكرياً واعتقادياً هو وسائل الإعلام العامة، لتوصل عبر تلك الوسائل كلمتها وأهدافها إلى مسامع العموم، وتبين من خلال ذلك ما تهدف إليه من التغيير، وتقوم بالإفصاح عن الأسس الأولى التي تبني عليها النهضة، والقاعدة الفكرية التي تبني عليها البناء الفكري الشامل فيما بعد. وتشتد الحاجة إذا كان ذهن المجتمع بعيداً عن تلك الأفكار والمعتقدات الحديثة، ولم يمتلك الخلفيات اللازمة، أو حتى فكرة إجمالية عن ذلك التغيير.

فإن الإسلام جاء يحمل أصولاً اعتقادية غريبة على أذهان العامة وليس لهم أية إحاطة بها، بل جاءت على خلاف معتقدات الناس آنذاك وعلى خلاف ما هو راسخ في الأذهان، بل يصادم الاعتقادات السائدة والراسخة.

(١) مكارم الأخلاق: ٣٥٧، مستدرک الوسائل ٢: ٨٤ ح ١٤٨٣، الآية في سورة

الأحقاف: ٢٤.

(٢) مسند أحمد ٦: ٦٦، صحيح البخاري ٦: ٤٢، الأحقاف: ٢٤.

ومن ناحية أخرى لم تكن تتوفر وسائل إعلام سوى الخطابة والمنبر والشعر، على أن الخطابة لم تكن وسيلة سياسية أو اعتقادية، وغايته أنها تدارك لزواج أو مقابلة عدو أو مكافحة خسائر بعض الطوائري، ولم يكن لها دور كما صار لها في الإسلام.

نعم كانت تجري في سوق عكاظ تجارات عقائدية وبلاغية لم يكن لها ذلك التأثير.

وجاء النبي ﷺ ليولي هذا الجانب وهذه الوسيلة الإعلامية أكبر الأهمية، ويستفيد منه أعظم الاستفادة، فكان بدء الدعوة العلنية حينما نزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) أنه ﷺ جمع بني عبد المطلب وأولهم ثم خطب فيهم خطبة اعتقادية وسياسية، فقال: «يا بني عبد المطلب إني نذير لكم من الله عز وجل، إني أتيتكم بما لم يأت به أحد من العرب فإن تطيعوني ترشدوا وتفعلوا وتنجحوا...» فكان هذا الجانب الاعتقادي، ثم دخل في الجانب السياسي فقال: «يا بني عبد المطلب إن الله لم يبعث رسولاً إلا جعل له أخاً ووزيراً ووارثاً من أهله...» فعين وزيره وخليفته وهو علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢)، ليدلهم على استمرار الدعوة وعدم انقطاعها بقتله أو وفاته.

وبعد ذلك لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^(٣) يقال إنه قام في الحجر فقال: «يا معشر قريش يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام».

فكان هذا هو الجانب العقائدي، ويليه الجانب السياسي قائلاً:

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) سعد السعود: ١٠٦، البحار: ١٨ - ٢١٥ - ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٥٠.

(٣) الحجر: ٩٤.

«فأجيبوني تملكون بها العرب وتدين لكم العجم، وتكونون ملوكاً في الجنة»^(١).

وجاء أنه قام على الصفا فقال لهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً في سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم أكتنم مصدقي؟» قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط، فقل: «إني نذير لكم من عذاب شديد...»^(٢).

كانت هذه أوائل خطاباته، ثم كثرت وأخذت طابعاً رسمياً بعد هجرته إلى المدينة، فلما خرج من قبا يوم الجمعة فوافى بني سالم عند زوال الشمس، تعرّضت له بنو سالم فقالوا: يا رسول الله هلم إلى الجذ والجذد والحلقة والمنعة، فبركت ناقته عند مسجدهم وقد كانوا بنوا مسجداً قبل قدوم رسول الله ﷺ فنزل في مسجدهم وصلى بهم الظهر وخطبهم، وكان أول مسجد خطب فيه بالجمعة. ليستمر هذا العمل ويتكرر في كل جمعة يخطب فيها النبي ﷺ خطبتين^(٣).

وفي سنة ثمان عمل منبر رسول الله ﷺ فخطب عليه، وكان يخطب إلى جذع فحن الجذع حتى سمع الناس صوته، فنزل إليه فوضع يده عليه فسكن، وهو أول منبر عمل في الإسلام^(٤).

وقال رسول الله ﷺ عنه - ويبدو أنه عمل له منبر آخر كبير - «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على ترعة من ترع الجنة، وقوائم منبري ربت في الجنة»^(٥).

(١) تفسير نور الثقلين ٣: ٣٤.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢: ٣٢٣.

(٣) البحار ١٩: ١٠٨.

(٤) أسد الغابة ١: ٢٣، عيون الأثر ٢: ٣٥٨، سبل الهدى والرشاد ١٢: ٦٨.

(٥) الكافي ٤: ٥٥٣ ح ١، وص ٥٥٤ ح ٣.

وروي أنه لما كان سنة إحدى وأربعين أراد معاوية الحج فأرسل نجاراً وأرسل بالآلة وكتب إلى صاحب المدينة أن يقلع منبر رسول الله ﷺ ويجعلوه على قدر منبره بالشام، فلما نهضوا ليقلعوه انكسفت الشمس وزلزلت الأرض فكفوا وكتبوا إليه فأمرهم بقلعه مرة أخرى فقلعوه^(١).

هذا عن منبر الدنيا، ولكن لرسول الله ﷺ منبر في الآخرة اسمه الوسيلة يغبطه عليه الأنبياء، غير أنني لا أعتقد دخوله في تلقيب النبي ﷺ بصاحب الخطبة والمنبر الذي ذكره ابن شهر آشوب رحمه الله^(٢).

٥٠٤. صاحب الخلق الجلي

الخلق هو الصورة الباطنية للإنسان وسجيته وهي نفسه وأوصافها ومعانيها، كما أن والخلق هو الصورة الظاهرة للإنسان وهو بدنه وأوصافه ومعانيه.

وأما ما يظهر من الأخلاق فهو في الحقيقة آثار ذلك الباطن، وعلائم ذلك المستور، فحسن الكلام وطيبه وظهور التأثير لمعانة الآخرين، وعطاء اليد، والتوسعة للقادم والترحيب به، والبشاشة والابتسام في وجهه ومصافحته كلها علامات على طيب النفس وحسن السجية وكرم الخلق، وسخاوة النفس، ورقة القلب وغيرها.

فهذه الأمور في الحقيقة تشبه الكلام الذي هو علامة على النية والقصد، ولكنه قد يكون كذباً وزوراً لا يكشف عن حقيقة، فكذلك هذه الأعمال هي علامة على حسن الخلق الذي هو باطن وخافٍ، وقد يكون مجرد تصنع، ولا يكشف عن حقيقة في بعض الأحوال.

ولكن خلق الرسول المصطفى ﷺ له آثار كثيرة مما يجعله ظاهراً

(١) الكافي ٤: ٥٥٤ ح ٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

وجلياً في عين أنه باطن بذاته وخفي، وذلك لاطراد آثاره وكثرتها وظهورها واستوائها في جميع الأحوال والظروف.

بينما لا يكون ذلك الاطراد في أخلاق المتصنّع المتكلف، وإنما يتبع مصالحه ومنافعه، وإذا ظهرت أخلاقه في المجالس غابت في السوق، وإذا ظهرت في الحضر غابت في السفر، وإذا ظهرت في لقاء غابت مع طول العشرة.

وعلى العكس من ذلك أخلاق الرسول ﷺ، إذ لم تختلف بين الحضر والسفر، ولا بين السوق والمجلس، وكلما طالت المعاشرة معه تزايد اطلاع العشير على فضائل أخلاقه ﷺ أكثر فأكثر، ولذا تجد أن الناقلين لأخلاقه ﷺ وفضائله مهما تنوعت مواطن عشرتهم يشتركون في طول معاشرتهم للنبي ﷺ وكثرة مخالطتهم له.

بالإضافة إلى أن كل من يلتقي بالرسول ﷺ يلمس الصدق في أعماله وخلقه، وسرعان ما يرى من خلالها صفاء باطنه، وحسن سجيته وسلامة قلبه وصدق نيته.

ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا وصف رسول الله ﷺ قال: «كان أجود الناس كفاً، وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أر مثله قبله ولا بعده»^(١).

ولا شك أن هذه الأوصاف تكشف ما في الباطن بسرعة، لأن الجريء لا يخاف فيخفي شيئاً، وصدق اللهجة لا يدع مجالاً للشك، والوفاء أكبر دليل، ولين العريكة مع الجراءة دليل الرأفة والرحمة، وكرم العشرة ينبئ عن طول المدة والاستمرار، وهيبة الرائي دليل على وقارٍ وسؤدد، ومحبة المخالط

آية صفاء الباطن، وكل ذلك قبس من واقع يكمن في قوله ﷺ: «لم أر مثله قبله ولا بعده» فهو ﷺ صاحب الخلق الجلي كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(١).

٥٠٥. صاحب الخلق العظيم

ليس هناك ما هو أحلى من مغازلة العاشقين، ولا يوجد من هو أكثر عطفاً وأشد ليونة من العاشق الولهان الذي تراه يحتال بكل ما يُحسِن من الكلمات الناعمة والمعاني الجميلة ليؤلف جُملاً تنبع من عميق إحساسه المرهف، ويصوغ أنشودة تنفذ في صم الصخور وعظيمها، ويقف مغرداً متفائلاً مبتهجاً رائعاً ليصنع لحظات خيال يتحسس معها المعشوق أنه في غرف الجنان، على أنه لا يترك أن يذرف دموع العشق لكسب الوداد.

وهو في هذا الحال أسخى ما يكون، وما عنده لذة أعظم من تنفيذ أوامر المحبوب وتلبية رغباته، فيزحف بكل وجوده ليجني زهرة نبتت على سفح وإد عميق، فيقدّمها هدية إلى الأعماق، أو يبذل ما عنده ليشتري ما يلفت نظر الحبيب، ولو تأملته لوجدته في تلك الحال متخلقاً سهلاً وناعماً في غاية السرور.

ولا يزال مجدداً مثابراً ساعياً يطرق كل باب من أجل الوصول إلى محبوبه، فيصنع المعاجز الخالدة والعجائب الباقية كالمعلقات السبعة وغيرها من أجل البلوغ إلى مراده، ويجود بكل ما يجد، ويعطي كل ما يملك من أجل ذلك، ويكون في تلك اللحظات التي هي بين اليأس والرجاء على أحسن الخلق وأتم الكمال.

والرسول المصطفى ﷺ هو سيد أولئك العاشقين، غير أنه حبيب رب العالمين، فهو عاشق ومحب بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وحب حبه

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

لا يتغير ولا يتبدل ولا يفتر بحدٍّ يجعله يتكلم بأجل الكلمات الساحرة، ويصوغ أحلى العبارات الهادئة، ويسعى بكل جهد في تنفيذ مطالب محبوبه، وينصاع لأدنى إشارة منه، ومن أجله يلين لخلقهم، لأنهم خلقه وعباله ويكون بهم في غاية الرأفة ومنتهى الرحمة، ويجود عليهم ويبدل كل ما عنده لأن ذلك مجلبة لودّ الحبيب وتزلفاً إلى جانبه.

فمن الطبيعي جداً أن يكون الرسول ﷺ بعد ذلك الحب على خلق عظيم، وهل يتصور، غير ذلك غير أن ما ظهر للناس من فضائل أخلاقه وأعماله ومكارمه لا يدل على مقدار عظمة ذلك الخلق الباطن؛ لأن الظاهر في الحقيقة هو فرع متفرع من خلق معلول لحب بلا انتهاء، ومن أجل ذلك كان خلق الرسول ﷺ الذي هو صورته الباطنية وأوصافها ومعانيها كما بينا في العنوان السابق غير قابلة للدرك، ولنعماً قال الشاعر:

لا تُجَلُّ في صفات أحمد فكراً فهي الصورة التي لن تراها^(١)

فلا يشك من يقرأ القرآن أن الله سبحانه لا يطلق كلمة عظيم على شيء إلا إذا كان بحد غير قابل للدرك والتصور.

ويدل على جميع ذلك مع غاية البلاغة ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَدَبَ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾»^(٢).

والأقوال في تفسير هذه الآية كثيرة منها أنك على دين عظيم وهو دين الإسلام، ولكن نقول: وهل الدين إلا الحب.

وقيل: الخلق العظيم: الصبر على الحق وسعة البذل، وتدبير الأمور

(١) الأزرية: ٤٣.

(٢) الأصول الستة عشر: ٣٤، والآية في سورة القلم: ٤.

على مقتضى العقل بالصلاح، والرفق والمداراة، وتحمل المكاره في الدعاء إلى الله سبحانه، والتجاوز والعفو، وبذل الجهد في نصرة المؤمنين، وترك الحسد والحرص ونحو ذلك^(١).

ولكن أقول: إذا كنت حلقت معي في سماء تلك المعاني الرقيقة لعلمت أن هذا كله ظاهر الحال، وأن الواقع شيء آخر، وهو أعظم من هذه المعاني وإن عظمت، فلا يسعنا إلا أن نقول: إن النبي ﷺ هو صاحب الخلق العظيم كما قال ابن شهر آشوب وغيره^(٢).

٥٠٦. صاحب الخوف والرجاء

للحب مراتب وله شدة وضعف، فإنه يضعف إذا وصل العاشق إلى مراده واستيقن من بلوغ مقصوده ولم يبق ما يتأمله ويرجوه، وكذا إذا يأس وتعذر الوصول بالكلية وانقطعت الأسباب وتمادت الأيام وفقد الأمل.

ولكن أقوى مراتب الحب وأحلاها إذا كان الحب بين الخوف والرجاء، وبذلك قال الشاعر:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه حنانيك فهو الدهر يرجو ويتقي

ويروى أنّ جبرئيل جاء إلى النبي ﷺ وهو قاطب، وقد كان قبل ذلك يجيء وهو متبسم فقال رسول الله: يا جبرئيل جئتني اليوم قاطباً، فقال: يا محمد قد وضعت منافخ النار، فقال: وما منافخ النار يا جبرئيل؟ فقال: يا محمد إن الله عز وجل أمر بالنار فنفخ عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى احمرت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودت،

(١) مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٨٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، المزار للمشهدي: ٦٢، مسند أبي يعلى الموصلي: ٢.

فهي سوداء مظلمة لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أن حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها، ولو أن سربالاً من سراويل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه.

فبكى رسول الله ﷺ، وبكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً فقال لهما: إن ربكما يقرؤكما السلام ويقول: قد أمنتكما أن تذبنا ذنباً أعذبكما عليه، ولكن كونا كذلك^(١).

ومعلوم أن قوله تعالى: كونا كذلك، يعني كونا خائفين وجلين باكيين رغم الرجاء الذي ترجوانه بأمانتي الذي أمنتكما.

وقد تقدّم في حديث أم سلمة قول رسول الله ﷺ: «وما يؤمنني؟ وإنا وكلّ الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان»^(٢).

ثم إن في القرآن آيات كثيرة تدل على لزوم الخشية والخوف من الله سبحانه وتعالى وعدم الأمن من مكره سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣).

وهكذا يكون الرسول ﷺ هو الخائف الراجي، وهو الأمر أمته بذلك، فهو صاحب الخوف والرجاء كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(٤).

٥٠٧. صاحب الدعوة

تعتبر المهمة الأولى لكل نبي من الأنبياء عليهم السلام هي الدعوة،

(١) حلية الأبرار للبحراني ١: ٢٦٦، البحار ٨: ٢٨٠.

(٢) البحار ١٦: ٢١٨ ح ٦.

(٣) الأعراف: ٩٩.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

على أنها واحدة باقية، وهي دعوة الله سبحانه وتعالى عباده إلى الإيمان به وحده، ولم تزل هذه الدعوة تأتي وتظهر في الأرض مع أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم على مر العصور وبألسن مختلفة وفي بقاع متفرقة، والجميع هم أهل دعوة الحق، أمرهم مستقيم وطريقهم واضح ودعوتهم بيّنة ولا فرقة بينهم ولا اختلاف، فكانت الرسل عليهم السلام إذا بلغوا رسالات ربهم واحتجوا لله تبارك وتعالى على عباده بحجته وأقاموا معالم الدين، قبضهم الله عز وجل إليه عند انقضاء آجالهم ومنتهى مدتهم.

على أن يكون كل رسول ﷺ هو صاحب الدعوة إلى حين إرسال الرسول الذي يليه، فيكون هذا الآخر صاحب الدعوة، حتى إذا أرسل الله سبحانه خاتم رسله محمداً ﷺ قال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾^(١)، فكان ﷺ صاحب الدعوة إلى الأبد.

وأول ما دعا إليه الرسول ﷺ هو الإيمان بالله الواحد ابتداءً بالدعوة العائلية السرية، فاكتم أمره بمكة متخفياً خائفاً خمس سنوات أو ثلاث سنوات على اختلاف الرواية، واكتمت معه علي عليه السلام وخديجة، وكان ابتداء ذلك أن رسول الله ﷺ لما دعاها قال: «يا علي ويا خديجة أسلمتما لله وسلمتما له» وقال: «إن جبرئيل عندي يدعوكما إلى بيعة الإسلام فأسلما تسلما، وأطيعا تهديا» فقالا: فعلنا وأطعنا يا رسول الله، فقال: «إن جبرئيل عندي يقول لكما إن للإسلام شروطاً وعهوداً ومواثيق فابتدءاه بما شرط الله عليكما لنفسه ولرسوله أن تقولوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه لم يتخذ ولداً ولم يتخذ صاحبة، لهاً واحداً مخلصاً، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الناس كافة بين يدي الساعة...»^(٢).

(١) الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.

(٢) الطرف: ٤-٦، البحار: ١٨: ٢٣٣ ح ٧٥.

فاكتتم بعد دعوتهما لا يعلن دعوته لاشتداد الأمر عليه، وقيل: إنه كان لا يدعو في تلك الحال إلا أحاداً ممن يرجو منهم الإيمان يدعوهم خفية ويسرّ إليهم الدعوة حتى أذن له ربه في ذلك، وأمره بإنذار عشيرته وقومه فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) فعمل لبني عبد المطلب طعاماً ودعاهم ثلاثة أيام فقال في الثالثة: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جله قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على أمري فيكون أخي ووزيري... فقال علي: أنا»^(٢).

وقال تعالى يأمره بإظهار الدعوة لعامة قريش: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرَضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٣) حيث ختم بذلك الدعوة السرية، ليفتح فاتحة الدعوة العلنية، فخرج رسول الله ﷺ فقام على الحجر فقال: «يا معشر قريش يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام فأجيبوني...»^(٤).

ثم عمم الله سبحانه دعوته لجميع أهل المشرق والمغرب فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٥) وأهل السماء والأرض من الجن والإنس، فاستمع إليه نفر من الجن وراحوا إلى عالمهم فقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) البحار: ١٨: ١٩١ ح ٢٧.

(٣) الحجر: ٩٤، ٩٥.

(٤) تفسير الصافي ٣: ١٢٤، البحار: ١٨: ١٨٠ ح ١٠.

(٥) سبأ: ٢٨.

دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ ﴿١١﴾.

كما صار المدعو إليه يتوسّع ليشمل جميع أحكام الدين الإسلامي وقوانينه وسننه، أي أن الدعوة صارت للمؤمنين بعد ما كانت إلى الإيمان، يدعوهم إلى الدين بالحكمة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ (١٢) وسبيل الله هو دينه الحق، وأخيراً الدعوة إلى الحياة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (١٣)، والحياة المرادة إما الجهاد الذي فيه حياة الأمة والحياة الأبدية التي يحظى بها الشهداء، أو العلم الذي هو حياة أخرى وفيه البقاء، فالتناس موتى وأهل العلم أحياء، وأنهم هم الباقون، وأخيراً يحتمل قوياً إرادة الحياة الأخروية وأن الآخرة هي الحيوان.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «صار محمد صاحب الدعوة، وصرت أنا صاحب السيف» (١٤).

٥٠٨ . صاحب الدعوة والجواب

الدعوة هي دعوة الله سبحانه وتعالى عباده إلى نفسه، وإنما الأنبياء هم الذين حملوا تلك الدعوة وتحملوا مشاق إبلاغها، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ (١٥).

(١) الأحقاف: ٣١.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) الأنفال: ٢٤.

(٤) البحار: ٢٦: ٥.

(٥) إبراهيم: ٤٤.

فالأنبيا هم المرسلون بتلك الدعوة، وهم أول من أجاب، فكانوا أصحاب الدعوة لأنهم قاموا بتبليغها، وكانوا هم أول من أجاب ولبي فكانوا هم أصحاب الدعوة والجواب.

ومن ناحية أخرى فإن الرسول المصطفى ﷺ كان كما دعا الناس إلى الله سبحانه وإلى ما يحييهم، كذلك دعاهم إلى تجدة الدين والاتحاد والألفة والسلام والتحابب والإحسان والعفو والعطاء، ودعاهم لأخذ حقوقهم المقررة لهم، كما ودعاهم إلى طعامه إذا حضره طعام، فإن كان قليلاً حلت به البركة حتى يأكل القوم ويأخذوا منه إلى أهاليهم.

وفي المقابل كان الرسول ﷺ يجيب كل من يدعوه، فقد روي أنه كان يجيب دعوة المملوك ويردfe خلفه^(١)، وكان يوصي بإجابة الدعوة ويقول: «أوصي الشاهد من أمتي والغائب أن يجيب دعوة المسلم ولو على خمسة أميال فإن ذلك من الدين»^(٢).

وكان ﷺ يقول: «ولو دُعيت إلى ذراع شاة لأجبت»^(٣).

ومن ناحية ثالثة هو صاحب الجواب عن كل سؤال، فهو بين أن يلقنه الله سبحانه الجواب فيقول له: يسألونك عن كذا، قل كذا، وبين أن يجيب بما أعطاه الله سبحانه من علم الأولين والآخرين، فإن الرهبان والأحبار كانوا مولعين بالسؤال منه عن غرائب ما يعلمون ليختبروه، كالسؤال عن علة شباهة الولد بأعمامه وأخواله وعن أول ما يأكل أهل الجنة وما شرابهم، وعن أرض المحشر وغيرها^(٤)، وعن هذا الطريق كان

(١) المحاسن ٢: ٤١٠، مكارم الأخلاق: ٢٩.

(٢) المحاسن ٢: ٤١١، الكافي ٦: ٢٧٤.

(٣) المحاسن ٢: ٤١١ ح ١٤٤.

(٤) علل الشرائع ١: ٩٦ ح ٥.

يؤمن الكثير منهم.

ومن أجل ذلك وأمثاله عد ابن شهر آشوب «صاحب الدعوة والجواب» من ألقاب النبي ﷺ^(١).

٥٠٩. صاحب الدلالات

الدلالة في هذا المورد يراد بها ما خرج من العادة، وفي الغالب يستعمل في الإخبار بالمغيبات وما اشتملت عليه الأنفس، وخصوصاً ما سيحدث فيما بعد ويتفق وقوعه.

وقد تستعمل كلمة الدلالة في المعجزة، فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلى حنين، فإذا نحن بواد يشخب، فقد رناه فإذا هو أربعة عشر قامة، فقالوا: يا رسول الله العدو من ورائنا والوادي أمامنا، كما قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^(٢) فنزل رسول الله ثم قال: اللهم إنك جعلت لكل مرسل دلالة، فأرني قدرتك، وركب صلوات الله عليه، فعبرت الخيل لا تندي حوافرها، والإبل لا تندي أخفافها، فرجعنا فكان فتحنا»^(٣).

وأنا أذكر من تلك الدلالات - أي بالمعنى الأول - ما هو مشهود اليوم ومعروف منها قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ونحن نجد أن ذكر النبي ﷺ مرفوع على المنائر والمآذن، وتبثه الإذاعات في كل يوم عدة مرات، فهذه دلالة على صدق نبوته.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في آخر سورة

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٢) الشعراء: ٦١.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ١: ٣٢٤.

الكوثر، المفسر بالنسل الكثير بقريته قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي المنقطع العقب، فالملاحظ أن نسل النبي كثير ومنتشر في جميع بقاع العالم.

ومن تلك الدلالات: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(١) وهذا يشمل من كان في زمانه ﷺ وهم خمسة نفر من قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلائفة، والأسود بن الحارث، فقتل الله خمستهم، قد قتل كل واحد منهم بغير قتلة صاحبه في يوم واحد، ولقتل كل واحد منهم قصة^(٢).

كما يشمل من جاء بعد زمانه، فلا يجترئ أحد بعده على ذلك، ولا يشاد به إلا بالتعظيم في جميع الأمم، وإذا استهزأ به أحد فإنه يلقي مصيراً مخزياً، وهو مشهود.

ومن تلك الدلالات قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٣)، فرُوي أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية قال لحراس من أصحابه كانوا يحرسونه منهم سعد وحذيفة: «الحقوا بملاحقكم فإن الله سبحانه عصمني من الناس» وفي هذا دلالة على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه أخبر بالشيء قبل كونه، فوجد على ما أخبر به^(٤).

وقال الطبرسي - رحمه الله - في قوله: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(٥) معناه:

(١) الحجر: ٩٥.

(٢) انظر البحار ٨: ٤٨، وص ٥٥ ح ٩.

(٣) المائدة: ٦٧.

(٤) البحار ١٧: ١٧٦.

(٥) المائدة: ٦٤.

جعلوا بخلاء وألزموا البخل فهم أبخل قوم، فلم يُلقَ يهودي أبداً غير لثيم بخيل.
وكذا قوله تعالى في اليهود: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا
اللَّهُ﴾^(١) أي لحرب النبي محمد ﷺ وفي هذا دلالة ومعجزة لأن الله أخبر
فوافق خبره المخبر، فقد كانت اليهود أشد أهل الحجاز بأساً، وأمنعهم داراً
حتى أن قريشاً تعتصد بهم، والأوس والخزرج تستيق إلى مخالفتهم وتتكثّر
بنصرتهم، فأباد الله خضراءهم، واستأصل شأفتهم، واجتث أصلهم، فأجلى
النبي ﷺ بني النضير وبني قينقاع، وقتل بني قريظة، وشرّد أهل خيبر،
وغلب على فذك، ودان أهل وادي القرى، فمحا الله سبحانه آثارهم
صاغرين^(٢).

هذا نموذج من الدلالات على نبوة النبي ﷺ وصدقه، وبذلك كان
كما قال علي رضي الله عنه في حديث: «صار محمد صاحب الدلالات، وصرت أنا
صاحب المعجزات»^(٣).

٥١٠. صاحب الدين الرضي

هل إن من الواجب قبول تعدد الأديان وتصحيح الجوّ الاعتقادي
السائد في الأرض، أو أن الصحيح هو الالتزام بوجود دين ومعتقد صحيح
واحد، والباقي محكوم بالخطأ؟

إن الشيء المتفق عليه في الساحة العملية هو صحة معتقدٍ واحد مع
تخطئة باقي المعتقدات، لأن الناس هم ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: أرباب الديانات المختلفة سماوية وغير سماوية وإن كان

(١) المائة: ٦٤.

(٢) مجمع البيان ٣: ٢٢١.

(٣) البحار ٢٦: ٤.

أكثر الديانات بلحاظ أتباعها هي سماوية كالمسيحية والإسلام واليهودية وحتى البوذية لها خيوط سماوية على الأرجح وإن لم يعلم بذلك أتباعها اليوم، والظاهر أن كل واحد من أرباب هذه الديانات يعتقد بصحة دينه دون ما عداه، أو لا أقل رجحانه وإلا ما اتبعه.

الصنف الثاني: هو من يعتقد بصحة جميع الأديان والاعتقادات.

الصنف الثالث: هو المعتقد بعدم صحة جميع الاعتقادات والديانات. ولو تأملت الصنف الثاني والثالث عرفت أن كل واحد منهما هو اعتقاد يضاف إلى الاعتقادات السابقة وأنه واحد من المعتقدات في الحقيقة، وكل واحد منهما يعتقد بصحة اعتقاده لا محالة.

والنتيجة أنك لا تواجه إنساناً لا يرجح اعتقاده أو لا يصححه ويخطئ الآخرين؛ لأن من يصحح جميع الاعتقادات لا يصحح عقيدة المسيحي في رجحان عقيدته، وكذا لا يوافق المسلم في تصحيح عقيدته وترجيحها على سائر العقائد، فهذه في الحقيقة هي عقيدة أخرى. والنتيجة هي وجود عقيدة لكل إنسان، وكل إنسان يرى صحة اعتقاده وترجيحه وإلا لما اعتقد به. فالكل يشتركون في نقطة واحدة وهي صحة اعتقاد واحد.

وبعد اتفاق البشرية برمتها على تصحيح اعتقاد واحد فلا وجه لانكار ذلك، بل لا يمكن فرض الاعتقاد بصحة أكثر من عقيدة واحدة كما بينا.

ومع قبول صحة عقيدة واحدة نستعرض تقسيم المعتقدات، فهي بين أن يكون سماوياً يعتقد بالبعث والحشر بعد الموت ووجود الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وبين من لا يعتقد بذلك ويرى أن كل ما هو موجود هي هذه الحياة الدنيا.

وعند ذلك يكون المرضي للعقل هو القسم الأول، باعتبار أن مخالفة

الاعتقاد من القسم الثاني لا تضره ضرراً يعتد به، فإذا مات الإنسان فإن كان هناك جنة ونار نفعه ما عمله في الدنيا في سبيل الوصول إلى الجنة، وإن لم يكن هناك جنة ولا نار لم تضره أعماله في الدنيا ولا اعتقاده بوجود الجنة والنار، وعلى العكس من ذلك القسم الأول؛ فإن قبول الاعتقاد من القسم الثاني سيكون مضرراً إذا كان هنالك جنة ونار وعقاب وكان الأمر كما يراه أرباب القسم الأول.

وإذا كان المرضي هو القسم الأول - أعني الأديان الإلهية - كان المرضي بحسب العقل هو الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ لوجوه عديدة:

الأول: أنه آخر الأديان الإلهية وآخر القوانين السماوية، ومعلوم أن آخر قوانين كل مُقَنَّ هي المرادة له.

الثاني: قبول الإسلام لجميع الأنبياء والمرسلين، بينما يرتضي أرباب الديانات الأخرى بعض الأنبياء دون بعض، مع أن جميع الأنبياء يشتركون بنقل أتباعهم ظهور المعجز على أيديهم، فما الداعي إلى التبعيض، وما هو الوجه في ذلك، فمن يقبل النبي عيسى عليه السلام ولا يقبل النبي محمد ﷺ قد لا يكون معذوراً، بينما يعذر من يقبلهما معاً.

الثالث: جامعية الإسلام وأكملته وشموله لنظام الحياة والعيش في الدنيا بالإضافة إلى طرق الوصول إلى السعادة الأبدية، مع أكملية عباداته وأتميتها.

الرابع: مواكبته للأدوار التاريخية والتحوّلات العلمية والصناعية وغيرها.

الخامس: عدم ثبوت نفي الأديان الأخرى لصحة الدين الإسلامي لعدم وجود نبيهم في زمان النبي محمد ﷺ حتى يعلم أنه ينفي صحة دعواه

أو يدعي نسخ دينه أو لا، على العكس في ذلك الدين الإسلامي فهو يدعي نسخ باقي الأديان وعدم بقائها قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، ومعه لا تأمين إلا مع الاعتقاد بالدين الإسلامي.

السادس: إن كون دين من الأديان هو الدين المرضي هو عبارة أخرى عن تزايد ونموه وتوسّعه وبقاء تمسك أتباعه به، وهذا هو الملحوظ في الدين الإسلامي دون سائر الأديان، فإن المسيحية مثلاً لم يبق منها بين أتباعها سوى الاسم، وصاروا يرفضونه في الساحة العملية، بينما الإسلام يتزايد وينمو ويشهد الاعتقاد به شيئاً فشيئاً.

هذه بعض الإشارات لبعض المرجحات، وإلا فالكلام في تصحيح الدين الإسلامي وإثبات أنه الدين المرضي يحتاج إلى تفصيل أكثر يتكفل ببيانه كتب الاعتقاد.

قال تعالى في محكم كتابه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) وبهذا يثبت عند كل مسلم أن الدين الإسلامي هو الدين المرضي، والرسول ﷺ هو صاحب الدين المرضي كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(٣).

٥١١. صاحب الدين الأظهر

إن أظهيرية الدين الإسلامي على سائر الأديان هو وعد إلهي بأن يظهر الدين الإسلامي ويجعله الظاهر والمتقدّم على جميع الأديان والغالب

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) المائة: ٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

عليها، والذي سيفوقها عدداً وتمسكاً واعتقاداً، بل سيكون هو الدين الحاكم على الدنيا، بظهور مهدي هذه الأمة الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً وفساداً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلِنُكْرِهٍ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وما ذاك إلا لأن الدين الإسلامي هو الدين الحق، والحق ظاهر لا محالة، ولأجل أن التعاليم التي جاء بها النبي ﷺ والطرق التي سلكها لا بد أنها ستنتهي في انتشار الإسلام بالنتيجة ليشمل جميع الأرض، وذلك إذا طلب الناس الحق، وأزعجتهم أبواق الباطل وطبوله، وعرفوا زيف الحكام والرؤساء، فما يعزل حاكم وينتخب آخر إلا وكان التالي أشد فساداً من الأول، فلا يبقى انتخاب سوى انتخاب الحق، وهنالك يقبل الناس الإسلام، ويظهر المهدي المنتظر (عج).

ولذلك لما عدّ ابن شهر آشوب ألقاب الرسول ﷺ عدّ منها لقب صاحب الدين الأظهر^(٢).

٥١٢. صاحب الدين الظاهر

الظاهر هو الواضح، وإنما صار الإسلام ديناً واضحاً لموافقة أصوله للفترة السليمة، كالاتقاد بالله سبحانه: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣)، والإيمان بالرسول الذين ظهرت المعاجز على أيديهم وهم الدعاة إلى الله سبحانه، وموافقة الحس بيوم الجزاء، وهو يوم يجازى فيه

(١) الصف: ٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) إبراهيم: ١٠.

الظالم ويثاب فيه المحسن وغيرها.

وقال تعالى: ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(١).

وكذا رجوع أحكام هذا الدين إلى المصالح والمفاسد العائدة للبشر أنفسهم، التي تستكشف فوائدها شيئاً فشيئاً، فما زالت حِكْمَ ما جاء به الدين الحنيف تبلغنا من شرق الأرض وغربها، كفوائد السواك والطهارة والاستحمام والصوم وغيرها من المطلوبات في الشرع، وكذا مضار الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الدم والميتة ولحم الخنزير وغيرها من المنهيات، حيث ذكرنا شيئاً منها في كتاب دراسة في طب الرسول المصطفى ﷺ.

وبهذا تظهر أحقية هذا الدين وحقائقه كلما تطور العلم وتقدم البشر ليبلغوا في النهاية إلى ما أوصى به الشرع المبين وأمر به ونهى عنه، مما سيجعله الظاهر على جميع الأديان بمعنى الغالب من هذه الجهة وغيرها، ويكون الرسول المبعوث به هو صاحب الدين الظاهر كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب في مقام عد ألقاب النبي ﷺ^(٢).

٥١٣. صاحب الدين القويم

القويم هو المستقيم مع ملاحظة آثاره وامتيازاته، وهي الدقة في الإيصال إلى الهدف المرسوم بالإضافة إلى السرعة في الوصول إليه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، بخلاف المعوج المنحرف، فالرمح المعوج أضعف في إصابة الهدف وأقل دقة، والخط المنحرف والمنحني أبعد في الوصول.

(١) الروم: ٣٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

والمراد هنا من الدين القويم والاستقامة والأقربية في الإيصال إلى الهدف هو ملاحظة الملائكات الواقعية والحقيقية الصحيحة السهلة والخالية من العوج والامت في جميع أحكام هذا الدين.

وليس كذلك سائر الأديان، فبعنوان المثال: إن الرهينة في الديانة المسيحية مفروضة ومطلوبة، وهي أمر مبتدع التزموا بها من دون أن يؤمروا بها ولم تفرض عليهم، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(١) وفي خبر عن النبي ﷺ: «فَمَا رَعَاهَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ حَقَّ رِعَايَتِهَا»^(٢)

وكذا بعض أحكام الديانة اليهودية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾^(٣) ومعلوم أن الدين الذي تكون أحكامه هي مجرد عقوبة أو نتيجة الابتداع لا يكون هو الدين القويم، وإنما الدين القويم هو الذي لم تلاحظ فيه غير نفس المصالح والملائكات الواقعية ولم تلاحظ فيه البدعة والظلم.

وبهذا صار من القاب النبي ﷺ هو صاحب الدين القويم على ما ذكره ابن شهر آشوب^(٤).

كما ويمكن الإشارة هنا إلى نكتة تُعدّ من الأسرار التي لا يحتملها إلا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، فقد ورد في بعض زيارات أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام عليك يا دين الله القويم وصراطه المستقيم، السلام عليك أيها

(١) الحديد: ٢٧.

(٢) البحار ٦٥: ٣٠٩.

(٣) النساء: ١٦٠.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون وعنه يسألون»^(١) ومعه لا بعد في أن يكون المراد بصاحب الدين القيم، هو أن أصحابه عليهم السلام فيهم من هو دين قيم، وهو أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ددنا الإشارة إلى ذلك من دون تفصيل لأن له محلاً آخر.

٥١٤. صاحب الدين والإسلام

الدين هو الاعتقاد، والإسلام هو التسليم، والني عليه السلام هو صاحب الاعتقاد الراسخ والتسليم والانقياد.

وإذا كان الدين هو المعتقد فإنه يراد منه الجنس، أي صاحب كل دين، لأن دينه جامع لجميع ما جاءت به الأديان، ويزيد عليها؛ لأنه الدين الكامل، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) فلم يكتمل الدين إلا في هذه الشريعة التي هي الإسلام، فهو صاحب الدين بمعناه الكامل التام، وهو أجلى مصاديقه، أعني دين الإسلام، ذكر هذا اللقب ابن شهر آشوب^(٣).

٥١٥. صاحب الدين والطاعة

لا شك أن الرسول عليه السلام هو أول مطيع وأول مسلم، وأول من قال بلى حينما قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٤) فهو صاحب الدين أي الاعتقاد الجازم والطاعة والامتثال.

(١) المزار للمشهدي: ٢٦٤، البحار ٩٧: ٣٦٠.

(٢) المائة: ٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١١٦: ١٠٦.

(٤) الأعراف: ١٧٢.

كما أنه صاحب الدين الكامل التام والدين القويم، وله الطاعة الواجبة بمقتضى العقل؛ لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وبصريح القرآن الكريم الذي هو المعجزة الخالدة والتحدّي الباقي على مر العصور، المتضمن للأمر بإطاعة الرسول، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(١). ذكر هذا اللقب أيضاً ابن شهر آشوب^(٢).

٥١٦. صاحب الذكر الحكيم

الذكر في اللغة هو ما يجري على اللسان، ولكن المعروف المشهور أن الذكر المطلق والذكر الحكيم هو القرآن، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾^(٣) والأخبار مشحونة في تسمية القرآن بالذكر وتفسير الذكر بالقرآن، منها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أتاني جبرئيل فقال: يا محمد سيكون في أمك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خبر... وهو الذكر الحكيم»^(٤).

وروي عن أبي جعفر الطوسي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قال: «الذكر القرآن ونحن قومه»^(٥).

وعلى أساس ذلك وأمثاله ذكر اللغويون معنى آخر للذكر: وهو الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل، وكل كتاب من الأنبياء عليهم السلام.

(١) النساء: ٥٩، التور: ٥٤، ٥٦، محمد: ٣٣، التغابن: ١٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) آل عمران: ٥٨.

(٤) تفسير العياشي ١: ٣.

(٥) بصائر الدرجات: ٥٧.

هذا عن الذكر وأما الحكيم، فهو المصيب في كل كلماته، وأصل الحكمة هي حَكْمَة اللجام التي تمنع الفرس من الجري الشديد والفساد، فالحِكْمَة أيضاً تمنع من التماذي والفساد، والقرآن بما فيه من الحكمة والإنذار والتخويف يمنع ويزجر من التماذي والفساد.

وأيضاً لما فيه من ملاحظة الأحوال الاجتماعية العامة التي فيها من المرونة مما يجعلها صالحة وصائبة وموافقة للحكمة في كل زمان ومكان، بالإضافة إلى أنها تفتح أبواب العمل في الدنيا والآخرة وترتقي بالروح وتحفظ الجسد وتتضمن جميع ما فيه مصلحة عائدة للناس، ولذلك كان هو الحكمة بعينها، ويمكن القول إنه ليس لإنسان أن ينال من الكرامة عند الله فوق ما نص عليه القرآن.

ولو قطعنا النظر عن ذلك بات من الممكن تفسير الذكر الحكيم بعلم الله سبحانه، أي ما قدر للإنسان فلا يعدوه ولا يقصر عنه، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ بأنه الذي يكتب به الذكر الحكيم الذي عند رب العالمين^(١).

وانطلاقاً من ذلك يكون الرسول ﷺ صاحب علم الله وكل ما يجري على اللسان أو يخط على اللوح مما يشتمل على الحكمة.

ويتعمم بذلك معنى ما ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقاب النبي ﷺ، وتسميته بصاحب الذكر الحكيم^(٢).

٥١٧. صاحب الرأي المصيب

يحدثنا التاريخ أن النبي ﷺ كلما رأى رأياً وخالفه عليه آخزون كان

(١) تفسير فرات الكوفي: ٤٩٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

رأيه هو المصيب، وقد ظهر ذلك لقريش في مواطن عديدة منها لما سافر الرسول ﷺ إلى الشام بمتاع خديجة للتجارة، فقال في مبتدأ السفر قائل: يا قوم إنكم سائرون إلى أرض كثيرة المهامه والأوعار، وليس لكم مقدّم تشيرون به وترجعون إلى أمره، والرأي عندي أنكم تقدّمون عليكم رجلاً لتستندوا إلى رأيه، وترجعوا إلى أمره عن المنازع والمخالف.

قالوا: نعم ما أشرتَ به، فذكرت كل قبيلة رجلاً، وقال ميسرة خادم خديجة: والله ما نقدّم علينا إلا سيدنا محمد بن عبد الله، وقال بنو هاشم: ونحن أيضاً نقدم علينا محمداً.

فقال أبو جهل: لأن قدّمتم علينا محمداً لأضعن هذا السيف في بطني وأخرجه من ظهري، فقبض حمزة على سيفه وقال: يا وغد الرجال، وبنا نذل الأفعال، والله ما أريد إلا أن يقطع الله يديك ورجليك، ويعمي عينيك.

فقال له النبي ﷺ: اغمد سيفك يا عماء، ولا تستفتحووا سفركم بالشر، دعوهم يسيرون أول النهار، ونحن نسير آخره، فإن التقدّم لقريش، وكان ﷺ أول من تكلم بهذه الكلمة، وسار أبو جهل ومن يلوذ به وقد استغنم من بني هاشم الفرصة، وهو ينشد ويقول:

لقد ضلت حلوم بني قصي وقد زعموا بتسييد اليتيم

ثم إن القوم ساروا إلى أن بعدوا عن مكة فنزلوا بواد يقال له: واد الأمواه، لأنه مجتمع السيول وأنهار الشام، ومنه تنبع عيون الحجاز، فنزل به القوم وحطوا رحالهم وإذا بالسحاب قد اجتمع، فقال النبي ﷺ: «ما أخوفني على أهل هذا الوادي أن يدهمهم السيل فيذهب بجميع أموالهم، والرأي عندي أن نستند إلى هذا الجبل» قال له العباس: نعم ما رأيت يا بن أخي، فأمر النبي ﷺ أن ينادى في القافلة أن ينقلوا رحالهم إلى نحو الجبل مخافة السيل، ففعلوا إلا رجلاً من بني جمح يقال له مصعب، وكان له مال كثير، فأبى أن يتغير من مكانه، وقال: يا قوم ما أضعف قلوبكم؟

تنهزمون عن شيء لم تروه ولم تعاینوه؟! فما استتم كلامه إلا وقد ترادفت السحاب والبرق ونزل السيل وامتأ الوادي من الحافة إلى الحافة، وأصبح الجمحي وأمواله كأنه لم يكن.

وتستمر هذه القصة في إصابة رأي النبي ﷺ كلما اختلفت الآراء، حتى نزلوا بأرض الشام وخطوا رحالهم فبادر أهل المدينة واشتروا بضاعتهم، وباعت قريش بضائعها بأعلى الأثمان في أحسن بيع.

وأما ما كان من النبي ﷺ فإنه لم يبع شيئاً من بضاعته، فقال أبو جهل: والله ما رأت خديجة سفرة أشأم من هذه، لم يبع من بضاعتها شيئاً، فلما أصبح الصباح تنادى العرب، فلما أقبلت من كل جانب ومكان يريدون البضائع، فلم يجدوا إلا بضائع خديجة، فباعها النبي ﷺ بأضعاف ما باعت قريش، فاغتم أبو جهل لذلك غمماً شديداً^(١).

ثم إن القصص في تصويب رأي النبي ﷺ كثيرة، منها قصة وضع الحجر في موضعه لما اختلفت قريش في ذلك وأرادت كل قبيلة أن تتشرف بوضعه، فحكّموا النبي ﷺ فأرشدهم إلى وضعه في رداء وأن تأخذ كل قبيلة جانباً منه ثم يرفعه، فصاروا إلى رأيه ورفعوا الحجر فأخذه وقبله ووضعوه في موضعه، على أن ذلك كله قبل بعثته ﷺ ونزول الوحي عليه، وإلا فبعده لا كلام في ذلك، ولا شك أنه صاحب الرأي المصيب كما ذكر ابن شهر آشوب^(٢).

٥١٨. صاحب الرجفة

يبدو أن الرجفة والراجفة نوع من أنواع الزلزلة والاضطراب وزعزعة الأرض تحت القدم، وهي تمتاز بشدتها وانشقاق الأرض فيها،

(١) انظر البحار ١٦: ٣١، ٤٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

وقيل: هي الصيحة التي ترجف منها القلوب، وقد تضاف الصيحة إلى صفات تلك الزلزلة التي تسمى الرجفة.

ثم إن هذه الرجفة كانت في ابتداء الحلقة لما ورد في الخبر: «أعذك أيها الإنسان بما أعاذ الله عز وجل به عرشه وملائكته يوم الرجفة والزلازل»^(١). وستكون في انتهاء عمر الدنيا، وهي النفخة الأولى حين تهب ريح الفناء فتتسف الأرض نسفاً وحققت القيامة عندها.

وهناك رجفات بين هاتين إحداها التي أصابت قوم شعيب لما طففوا المكيال، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنَّ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّا إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ﴾^(٢).

والثانية: التي أصابت قوم صالح لما عقروا الناقة: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ﴾^(٣).

والثالثة: لما اتهم بنو اسرائيل موسى بقتل أخيه هارون أو حينما سألوا الرؤية: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَمَلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَنَّهُلِكُنَا بَعَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^(٤). وهناك رجفات أخرى مذكورة في الأخبار وقعت في المدينة وغيرها.

(١) الكافي ٢: ٥٦٨.

(٢) الأعراف: ٩٠ - ٩١.

(٣) الأعراف: ٧٨.

(٤) الأعراف: ١٥٥.

ومهما يكن من أمر فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صار محمد صاحب الرجفة وأنا صاحب الهدة»^(١)، والهدة هي صوت وقع الخائط ونحوه والهدم، فيكون المراد أن أصل الحركة والاضطراب من رسول الله صلى الله عليه وآله، بينما الهدم مباشرة أمير المؤمنين عليه السلام، فكان الحديث عن أصل دعوة النبي صلى الله عليه وآله التي أحدثت الاضطراب والصيحة بين المشركين أو بين العرب، وباتت مهمة هدم معاقل الكفر بيد علي بن أبي طالب عليه السلام، لأن الهدم في الزلزلة هو سبب الموت، وعلي عليه السلام هو سبب موت الكفار، وهو الذي باشر قتلهم بسيفه، وبهذا كان النبي صلى الله عليه وآله صاحب الرجفة وعلي عليه السلام صاحب الهدة.

ولا نترك أن نحتمل إرادة الرجفة التي فيها فناء الخلق، وكان النبي صلى الله عليه وآله صاحبها باعتبار قرب عهده منها وعدم مجيء نبي بعده إلى زمان وقوعها، فكان صاحب الرجفة كما قلنا سابقاً: إنه صلى الله عليه وآله الساعة، أو هو صاحب الساعة.

٥١٩. صاحب الركن والحطيم

المراد بالركن هو الركن الموضوع فيه الحجر، وهو يمين الله في خلقه يصافحهم بها مصافحة العبد أو الرجل، وهو يشهد لمن استلمه بالموافاة.

والحجر جوهرة أخرجت من الجنة إلى آدم عليه السلام فوضعت في ذلك الركن لعله الميثاق، وذلك أنه لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم حين أخذ الله عليهم الميثاق في ذلك المكان، وصار يُستلم تجديداً لذلك العهد والميثاق وتجديداً للبيعة، وليؤدوا إليه العهد الذي أخذ الله عليهم في الميثاق، فيأتوه في كل سنة ويؤدوا إليه ذلك العهد والأمانة الذين أخذوا عليهم ألا ترى أنك تقول عنده: أمانتي أدبتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة.

وروي أن الحجر كان ملكاً من عظماء الملائكة عند الله، فلما أخذ الله

من الملائكة الميثاق كان أول من آمن به، وأقر ذلك الملك فاتخذ الله أميناً على جميع خلقه فألقمه الميثاق وأودعه عنده واستعبد الخلق أن يجددوا عنده في كل سنة الإقرار بالميثاق والعهد الذي أخذه الله عز وجل عليهم ثم جعله الله مع آدم في الجنة يذكره الميثاق ويجدد عنده الإقرار في كل سنة، فلما عصى آدم وأخرج من الجنة أنساه الله العهد والميثاق الذي أخذه الله عليه وعلى ولده محمد ﷺ فرماه من الجنة إلى آدم ﷺ وهو بأرض الهند، فلما رآه وكلمه وذكر الميثاق وبكى وخضع له وقبله وجدّد الإقرار بالعهد والميثاق ثم حوله الله درة بيضاء، فحمله آدم ﷺ على عاتقه إجلالاً له وتعظيماً حتى وافى به مكة، فما زال يأنس به بمكة ويجدد الإقرار عنده، ثم إن الله عز وجل لما بنا الكعبة وضع الحجر في ذلك المكان لأنه تبارك وتعالى حين أخذ الميثاق من ولد آدم أخذه في ذلك المكان، وفي ذلك المكان ألقم الملك الميثاق، ولذلك وضع في ذلك الركن^(١).

ولما كان الركن هو موضع أخذ الميثاق لنبينا محمد ﷺ وكان الحجر ملقماً بذلك الميثاق المأخوذ للنبي كيف لا يكون النبي ﷺ هو صاحب الركن، ومن يكون صاحب الركن إذن؟

ومن ناحية أخرى فإن المروي أن رسول الله ﷺ ساهم قريشاً في بناء البيت فصار لرسول الله ﷺ من باب الكعبة إلى النصف ما بين الركن اليماني إلى الحجر الأسود^(٢)، وعند ما تنازعت قريش في وضع الحجر في موضعه، وضعه في ثوب وقال: «ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوا جميعاً» فرفعه ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه ذلك^(٣)، ليتأكد أن الرسول ﷺ هو صاحب الركن.

(١) انظر الكافي ٤: ١٨٥.

(٢) الكافي ٤: ٢١٨.

(٣) البحار ١٥: ٤١٢.

وأما الحطيم فهو في المسجد الحرام ما بين الركن الأسود والباب إلى مقام إبراهيم وقيل: هو حجر الكعبة الذي فيه الميزاب، والمروي أنه سمي بذلك لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً هناك^(١)، وقيل: لأنهم كانوا يخلفون عنده في الجاهلية فيحطم الكاذب، وقيل: لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً، وقيل غير ذلك.

والمهم أن الحطيم - كما روي - هو أفضل بقعة على وجه الأرض، وهو الموضع الذي تاب الله فيه على آدم عليه السلام، وإذا كان الرسول ﷺ هو صاحب الركن والحطيم كما ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقابه ﷺ^(٢)، فلكثرته عهده به، وأنه أول من صلى فيه موحداً.

٥٢٠. صاحب الركن والمشعر

جاء في خبر المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: «ثم إنني أخبرك أن الدين وأصل الدين هو رجل، وذلك الرجل هو اليقين وهو الإيمان، وهو إمام أمته وأهل زمانه، فمن عرفه عرف الله، ومن أنكره أنكر الله ودينه، ومن جهله جهل الله ودينه وحدوده وشرائعه»^(٣).

إلى أن قال: «وأخبرك أنني لو قلت إن الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام والمشعر الحرام والطهور والاعتسال من الجنابة وكل فريضة كان ذلك هو النبي الذي جاء به من عند ربه لصدقت، إن ذلك كله إنما يعرف بالنبي، ولولا معرفة ذلك النبي ﷺ والإيمان به والتسليم له ما عرف ذلك، فذلك من من الله على من يمين عليه، لولا ذلك لم يعرف شيئاً من هذا»^(٤).

(١) الكافي ٤: ٥٢٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٣) مجمع الزوائد ٢: ١٩٤.

(٤) بصائر الدرجات: ٥٤٩ - ٥٥٠.

ومن هذا الحديث يعرف معنى أن النبي ﷺ هو صاحب المشعر أو صاحب الركن والمقام وغيرها، فقد ذكر ابن شهر آشوب من ألقاب النبي ﷺ صاحب الركن والمشعر^(١)، على أن المشعر هو المسمى بالمزدلفة وجمع.

٥٢١. صاحب الركن والمقام

المقام هو مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، فهو في الحقيقة الحجر الذي قام عليه وموضع الحجر، فإن الله سبحانه جعل الحجر تحت قدمه كالطين حتى دخلت قدمه فيه فكان ذلك معجزة له.

ويروى أنه أحد الأحجار التي نزلت من الجنة استودعه الله إبراهيم عليه السلام حجراً أبيض وكان أشد بياضاً من القراطيس فاسود من خطايا بني آدم^(٢) وهو أحد الآيات التي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٤) فكان أول من صلى عنده هو رسول الله ﷺ، فكان كما روي عن أبي الحسن الأول عليه السلام عن الصلاة بمكة في أي موضع أفضل؟ قال: «عند مقام إبراهيم الأول؛ فإنه مقام إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ»^(٥).

ويستفاد منه أن محل المقام قد غير، ولذا قال الصدوق: كان لازقاً

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٠٦.

(٢) انظر الهداية للصدوق: ٢٣٤، والكافي ٤: ٢٢٣، والبحار ١٢: ٨٤.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) البقرة: ١٢٥.

(٥) البحار ٩٦: ٢٣١.

باليبيت فحوّله عمر^(١).

وبعدما أوجب النبي ﷺ الصلاة عند المقام صار له وجود في الأذهان، فكان ﷺ من أجل كل ذلك صاحب الركن والمقام، حتى أنه ﷺ لما قعد عند عين نزل عليه جبرئيل وقال: «السلام عليك يا صاحب الركن والمقام»^(٢).

٥٢٢. صاحب الرمح الطاعن

الرمح آلة حربية تمتاز على سائر السلاح بأنها تنفذ إلى الجوف وتبدده، والأمر بين أن يكون لرسول الله ﷺ رمح يقاتل به فيكون صاحب الرمح الطاعن ولا يسلم من يطعنه كما ذكر في قصة أبي بن خلف، إذ قال له النبي ﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله» فطعنه النبي ﷺ يوم أحد في عنقه، وخذشه فتدهدى عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور، فقالوا له في ذلك، فقال: لو كانت الطعنة بريبعة ومضر لقتلهم، أليس قال لي أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة قتلتني، فمات بعد يوم^(٣).

وبين أن يكون المراد بالرمح الجنس أي رماح أصحابه المقاتلين معه، وخصوصاً علي بن أبي طالب عليه السلام.

وبين أن يكون من المجازات والكناية عن الدلائل الواضحة والحجج القوية المبددة للوهم، النافذة إلى أعماق هيكل الكفر المبددة له، كما أن الرمح ينفذ ويبدد الجوف، فهو المناسب لأن يسلم عليه به جبرائيل ويقول: السلام عليك يا صاحب الرمح الطاعن^(٤).

(١) الهداية: ٢٣٤.

(٢) الفضائل: ٣١، ٥٢ البحار ١٥: ٣٥١.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٢، البحار ١٨: ٧٤.

(٤) الفضائل: ٣٦، ٥٢، البحار ١٥: ٣٥١.

٥٢٣. صاحب الزمان

إنَّ الحدث الأكثر أهمية بعد بعثة النبي ﷺ هو صعود الثقافة الإسلامية إلى الساحة بكل ما تنطوي عليه من قيم روحية ومادية ومنظومات علمية تشكل مصدراً لحضارة شاملة.

والمراد بالصعود هو انتشار الثقافة الإسلامية في كل البلاد الإسلامية وهيمنتها على كل العقول والنفوس ثم تحكّمها بكل ما يظهر من الانتاج الثقافي والنشاط الروحي في كل تلك البلدان. بالإضافة إلى تحولها إلى ثقافة تغذي القيم الإنسانية جمعاء، وتظل تترك آثارها في كل مناحي الحياة في البلدان الأخرى، حتى شكل هذا النفوذ بالتدرّج ثورة حقيقية في الرؤية والمفاهيم والمبادئ للجماعات البشرية.

وبذلك كان ﷺ بعلمه وتعاليمه صاحب الزمان الذي تدور كل نواحي الحياة الإنسانية بمحوريته العلمية والثقافية.

ولكن السؤال المطروح على شاشة العالم اليوم هو مدى توفيق الحضارة الغربية الجديدة والانقلاب العلمي الصناعي في سلب تلك المحورية، وهل أدّت إلى أن يكون صاحب الزمان هو الثقافة الغربية وانزواء الثقافة الإسلامية؟ فقد يتصوّر البعض أن تولّد الثقافة الغربية أزال تلك المحورية ونفاها نفيّاً باتاً، ولكن الأمر ليس كما تصور هؤلاء، فإن تعميم الأجواء وتصويت الأبواق والطبول أخفى وراءه كثيراً من الحقائق.

ولا أحسبني سأفتح الأفاق أمام القارئ بصورة كاملة في هذا المختصر، غير أنني أقول: إن الثقافة الغربية - فارغاً عن ظواهر الحال - تحوم حول الثقافة الإسلامية الصحيحة، فليس اكتشاف العلماء لأضرار الزنا واللواط مثلاً إلا وهو عبارة أخرى عن تحريم الإسلام لهما، وكذا حظر السكرى من السياقة ومزاولة مهام الأمور والتعرّض للآخرين والتحديد

عليهم والتحذير من مضار الخمر إلا ويعدّ خطوة نحو تحريم الإسلام للخمر، وكذا سعي علماء الاجتماع وراء تقوية أواصر المجتمع والحد من الجرائم والتخلفات أو التفكير في تقوية بناء الأسرة إلا وهو تقدم نحو قانون إسلامي طالما نجح في توفير تلك المتطلبات.

ونحن إذ نقول للإنسان الغربي لماذا لا يقتلك جارك ويأخذ أموالك لتتضاعف ثروته ويعيش حياة أكثر رفاهية، ويتخلّص من كثير من المعاناة والحرمان؟ فإنه سيقول: إنه يخشى القانون والشرطي، ولكن سنعاود السؤال ونقول: لماذا لا يقتلك الشرطي ويأخذ أموالك، وبالنتيجة سنتوصل إلى أن بقاء النوع البشري يرجع إلى تعاليم عيسى عليه السلام ورواسب المسيحية أو غيرها من الأديان في الأذهان والضمانات الأخروية، بينما يمتلك الإسلام ضمانات أخروية أكمل وأتم، بالإضافة إلى ضمانات دنيوية كالقصاص والحدود.

ومن ناحية أخرى فإنه لا يمكن تفسير رجوع البشر من التداوي بالأدوية الكيماوية إلى التداوي بالأعشاب وقبول تأثير الدعاء والقرآن في حصول الشفاء إلا بأنه خطوة نحو الطب الأفضل، أعني الطب الإسلامي.

والحقيقة أن مساحات كبيرة من التقدم أخذت أصولها من الدين الإسلامي إلا أنهم لم يصرحوا بذلك، بينما كان الأفضل الاعتراف بهذه الحقيقة لأجل اختصار الطريق على الباحثين الجُدد الصاعدين في سبيل تطوير العلوم.

والنتيجة أن إنكار تقدّم العالم نحو الإسلام الصحيح شيئاً فشيئاً مع العلم بما يبلغ من أطراف العالم مما يصحح النظريات الإسلامية في مجال الطب والاجتماع والاقتصاد والقضاء يُعدّ جريمة في حق البشرية.

وأخيراً فهذه النوافذ الضيقة التي تحتاج إلى توسعة بل فتح نوافذ جديدة توصلنا إلى أن الرسول المصطفى ﷺ لا يزال هو صاحب الزمان

الذي تدور العصور على محورية علومه وتعاليمه، وإن كان قد يتفاوت بحسب الظاهر شدة وضعفًا.

ولا يكاد ينقضي تعجبي من جريان هذا الوصف الشامخ - أعني صاحب الزمان - على لسان حمزة عم النبي، غير أنني أظن ظناً قوياً أنه أخذ عن أسلافه عن الأنبياء السابقين.

فكان فيما قاله يوم زواج النبي ﷺ من خديجة وقد باتت مكة تغلي بأهلها لتدارك أمر الزواج وأقبلت الطوائف والأكابر، وعلت الأصوات وجاء النبي ﷺ ليدخل قال حمزة: يا أهل مكة الزموا الأدب، وقللوا الكلام، وانهضوا على الأقدام، ودعوا الكبر، فإنه جاءكم صاحب الزمان، محمد المختار من الملك الجبار، المتوج بالأنوار، صاحب الهيبة والوقار^(١).

٥٢٤. صاحب الزمان الباهر

باعترادي أن الحوم حول محورية الإسلام والاقتراب منه شيئاً فشيئاً عفواً أو قصداً لا يقدر له أن يبقى كذلك، بل سيصل بالنتيجة إلى منحدر الإسلام الذي تسقط فيه كل الاتجاهات الفكرية، وتنتهي إليه كل الثقافات الحديثة وبتبعها التقليدية، فتشكل نقطة عطف في تاريخ البشرية يحلّ عندها زمان باهر وعصر زاهر تخضر فيه الأرض بالعدل بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وتتقارب فيه الرؤى والأفكار بعد تشتتها.

فالزمن الباهر هو الزمان الذي تصبح فيه محورية الرسول المصطفى ﷺ عالمية وشاملة، تشمل جميع البلدان، وجميع بقاع الأرض. وذلك بعد فشل جميع الأنظمة الحاكمة في تأمين الأمن والعدالة، وعندما تطلب البشرية التغيير الجاد المقيم للعدل.

فلا تتصور أن تناوب اليمين واليسار على السلطة بعد الفشل

المتكرر الذي يصيب كل منهما ستظل له تلك الحيوية والجاذبية، بل يدلنا تناقص عدد الناخبين في بلدان العالم المختلفة شيئاً فشيئاً ليحكي عن فقدان الاعتماد بالأطراف المتصارعة على مقاعد الحكم، بل جامع النظام الحاكم بألوانه، حتى لا يبقى مدع يدعي القدرة على إقامة العدل وإقرار الأمن وتفشل جميع التجارب، فعندها يطلب الناس المصلح والمنقذ الإلهي، ليأسهم من المنقذ الأرضي، ولكن الذي سيسهم في تسريع ذلك الطلب هو تقارب الأفكار بتقدم وسائل الاتصال الجماعية.

وليس المقصود بالزمان الباهر هو زمان حياة النبي ﷺ الذي كانت تحكم فيه الامبراطوريتان الفارسية والرومية، والمسلمون جديده عهد بالإسلام لم يتحملوا من العلم سوى الفاظ مع فقدانهم للاعتقاد الراسخ الصحيح بدليل انقلابهم على أعقابهم بعد الرسول ﷺ بصريح القرآن.

وبهذا يعلم أن ما ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقاب النبي ﷺ أعني صاحب الزمان الباهر^(١) يراد به الزمان الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن بعدما نص عليه في زبور داود قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢).

٥٢٥. صاحب السكينة

السكينة لها معاني عديدة، أحدها: فعل نفس الإنسان وكونه في حالة خاصة مطلوبة من الوقار واستقرار الأعضاء وطمأنينتها، مندوب إليها في أحوال كثيرة، كحال دخول مكة، وفي طريق الذهاب إلى مسجد من المساجد للصلاة يوم الجمعة، وعند دخول المشاهد المشرفة والعتبات المقدسة، وهي

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

حالة تكاد تكون طبيعية تحصل عفواً عند القصد إلى كل عظيم.

والمعنى الثاني: هو أمانة واطمئنان القلب وعدم اضطرابه وثباته في أصعب المواقف، وأشد الشدائد.

وتختلف الأولى عن الثانية بأن الأولى من فعل نفس العبد، ولأجل ذلك أمر بها وطُلبت منه في تلك المواضع، وهي لا تخرج عن كونها عارضة تظهر في البدن وتكون كاللباس له، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «تجلببوا السكينة»^(١) وجاء في الأخبار والسنن: أخرج وعليك السكينة، فقد روي: «أن من أسبغ وضوءه في بيته وتمشط وتطيب ثم مشى من بيته غير مستعجل وعليه السكينة والوقار إلى مصلاه رغبة في جماعة المسلمين لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى إلا كتبت له حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة»^(٢).

وأما السكينة بالمعنى الثاني: فهي حالة شريفة وأمانة ليست من فعل نفس العبد، وإنما هي من فعل الله سبحانه ينزلها على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين في حالات خاصة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) مما يبدو أن السكينة تنزل أولاً على النبي ﷺ وتسري منه إلى سائر المؤمنين، ويسكنون بسكينته.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾^(٤) ومما يؤيد أن السكينة تنزل على القلب وأنها من سنخ الإيمان، ولذا قال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ وروي في أكثر من رواية في قوله تعالى: ﴿هُوَ

(١) نهج البلاغة ١: ١١٤.

(٢) الأصول الستة عشر: ٤٦.

(٣) التوبة: ٢٦.

(٤) الفتح: ٤.

الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ قال: «هو الإيمان»^(١).

والمهم أننا عرفنا أن النبي ﷺ هو صاحب السكينة الأول بمعنى أنه مطمئن القلب، وسكينته تمنح السكينة للآخرين كالتابوت لبني اسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢).

ثم إن هنا كنيات جميلة عن السكينة منها ما ورد: «أن السكينة هي ريح تخرج من الجنة لها صورة كصورة الإنسان، ورائحة طيبة، وهي التي أنزلت على إبراهيم صلوات الله عليه فأقبلت تدور حول أركان البيت وهو يضع الأساطين»^(٣) وروي غير ذلك، وأظن أن رائحة السكينة الطيبة هي رائحة البقاء والحياة بعد الموت.

ويدلنا على عِظَم هذه الحالة أن زيارة النبي ﷺ في الغالب تستفتح بالقول: «السلام على صاحب السكينة، السلام على المدفون بالمدينة، السلام على المنصور المؤيد، السلام على أبي القاسم محمد»^(٤).

٥٢٦. صاحب السهم النافذ

إن الحضارة الإسلامية ودعوة الرسول ﷺ لما لم تتحدّد بإطار الزمان والمكان، ولم تبق بمعزل عن الدول البعيدة والجماعات والثقافات القائمة والتي ستقوم فيما بعد، بل نفذت تلك الدعوة عبر الزمن لتعبر البلدان وتنفذ في كيان الجوسية وتبدها إلى الأبد، وستنفذ إلى الرومية والثقافة

(١) الكافي ٢: ١٥.

(٢) البقرة: ٢٤٨.

(٣) الكافي ٣: ٤٧١، قرب الإسناد: ٣٧٣.

(٤) المزار للشهيد الأول: ٣٧، البحار ٩٧: ١٤٩.

الغربية وتبدها بعد القرون المتمادية، فلا يصح الاكتفاء بالتعبير عنها بالرمح الطاعن فقط كما مر، لأن الرمح يطعن في نفس المكان والزمان، وناسب التعبير عن تلك الدعوة وحالها بالنسبة للحضارات المجوسية والأوربية وغيرها بالسهم النافذ؛ لأن طبيعة السهم هي نفوذه وتبديده بعد قطع مسافة وفي مكان آخر، وبعد استغراق مدة أي في زمان آخر.

فالرسالة المحمدية والدعوة التوحيدية هي رمح طاعن للوثنية، وسهم نافذ للمجوسية والثقافات الأخرى، الشرقية والغربية.

وبذلك يكون هذا الوصف والتوصيف - أعني صاحب السهم النافذ - أبداع تصوير لامتداد دعوة النبي ﷺ وتأثيرها في البلدان البعيدة والأزمنة القادمة، ولا يصدر إلا من حكيم ناظر إلى أقطار الأرض وأعمدة الزمان بنظرة واحدة، فلما قعد النبي ﷺ عند عين نزل جبرئيل في ذلك الموضع، وميكائيل وإسرافيل ودردائيل، فقال جبرئيل: السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا صاحب الرمح الطاعن السلام عليك يا صاحب السهم النافذ^(١).

٥٢٧. صاحب السيف القاطع

لم تنفك دعوة نبي من الأنبياء من التكذيب والأذى الذي يوصله إليه قومه والمحيطون به، فلا يبرحوا حتى يقتلوا نبيهم أو يعاجلهم الله سبحانه بالعذاب والمصير المخزي.

غير أن شروع تلك المواجهات تكون فردية أو سلطوية لا يجتمع عليه القوم، وبيجامعهم واتفاقهم يستحقون العذاب الإلهي، وإنما تخيم بذلك الاتفاق والإطباق وبالتالي نزول العذاب.

ولكن مواجهة قريش وسائر العرب واليهود لرسول الله ﷺ كانت

(١) الفضائل: ٣١، ٥٢، البحار: ١٥: ٣٥١.

جماعية من اليوم الأول، وسرعان ما تكاثفت قوى الشرك والكفر وتعاضدت لتصبح ثعباناً عظيماً يريد أن ينكز النبي ﷺ وكل من آمن به واتبعه، في كل حال.

ولما كانت الضراوة والسّم القاتل في رأس ذلك الثعبان المتمثل برؤوس قريش واليهود وسائر العرب، يظل الأمر بين أن يبقى الرسول ﷺ على دعوته السلمية حتى يُقتل ويتفرق أصحابه ولا يبقى موحد يعبد الله سبحانه في الأرض، ويطبق الجميع على الكفر والظلم، وعندها يأخذ الله سبحانه أهل الأرض أخذ عزيز مقتدر بأن يضرب الأرض حجر فيفنى جميع من عليها.

وبين أن يتقلد ذلك النبي ﷺ السيف الذي يُعدّ لقطع الرؤوس عادة، فيقطع رأس ذلك الثعبان ويتبدد بدنه ويضمحل.

ومن ناحية أخرى فإن رأس ذلك الثعبان يحتمل بقدرتين، أحدهما قدرة السيوف المجردة والرماح المشرعة المعدة للفتك، والثانية القدرة الإعلامية التمويهية المتمثلة بقدرة البيان ولذاقة اللسان وشعر الشعراء، وعندما صار النبي ﷺ أمام مواجهة صعبة لمكافحة جميع تلك التحديات، حتم عليه تقلد السيف القاطع بالإضافة إلى التسلح بالحجج القوية والبراهين الساطعة والعلوم النافعة، ليضرب رؤوس الكفر وصناديد الشرك وينزل سيف حججه القاطعة على هامة اعتقاداتهم.

ومن هنا تحمّل النبي ﷺ السيف الموسوم بـ «ذي الفقار» وغيره بالإضافة إلى تلك الحجج، وحمل المسلمون السلاح لخوض المعارك الواحدة تلو الأخرى لتسقط الرؤوس وتتداعى شيئاً فشيئاً حتى أُتيح للرسول ﷺ قطع رأس الكفر، فكان النبي ﷺ هو صاحب السيف القاطع.

ولما جاء جبرئيل ليسلم على النبي ﷺ وهو قاعد عند العين، فقال

له: السلام عليك يا صاحب السيف القاطع^(١).

٥٢٨. صاحب الشريعة المرضية

إن الأحكام التي تتداولها الشرائع السماوية والقيم التي تغذي بها المنظومات الأخلاقية تشترك في مساحات عريضة، وليس هناك اختلاف في الموضوع الكلي لها، وإنما الخلاف في المصاديق وبعض المحمولات.

فلو فصلنا المشتركات التي تشترك فيها الأديان السماوية لألفينا أن المفترقات هي عبارة عن أحكام تابعة لظروف خاصة وطوارئ قاضية بذلك.

فلو تقدم البعض بالسؤال عن سبب تعدد الأنبياء والرسل وسبب اختلاف الشرائع مع اتحاد مصدر الجميع وهو الله الحكيم الذي وضع تلك الشرائع على أساس الحكمة والمصلحة، فما يكون الجواب عن التفاوت سوى اقتضاء الظروف لذلك، واختلاف وجوه المصلحة باختلاف الأزمان والزمانيات والظرف وطبيعة المظروف، ومع هذا الوصف لا يبقى أي اختلاف جوهري بين الشرائع ولا تنفي كل واحدة منها الأخرى.

فإذا جاءت الديانة المسيحية عقيب الديانة اليهودية، واختلفت معها بعض الاختلاف كان ذلك الاختلاف هو ما تقتضيه متطلبات ذلك الظرف، ومعه لا يكون بين الشريعتين اختلاف في الروح، رغم أن اليهودية بمفترقاتها لم تعد صالحة في فترة ظهور النبي عيسى عليه السلام ولا نافعة، وإذا ظل اليهود على اليهودية ولم يستقبلوا المسيحية فلأنهم وجدوا آباءهم على أمة وهم على آثارهم مقتدون، ومن ناحية أخرى فهم اعتادوا تلك الديانة واسسوا على أساسها قواعد اقتصادية ومناصب خيالية لا تسمح أنفسهم بالتخلي عنها، ولا ترك ما هو معتاد للتخلف عن التشكيلات القائمة.

(١) الفضائل: ٣١ - ٥٢، البحار: ١٥: ٣٥١.

ولاً فكل إنسان عاقل يريد التخلي عن التعصب وما اقتضته العادة لا يرتضي سوى آخر الديانات السماوية، ولا يحكم عقله بحصول القرب عند رب الشرائع إلا إذا طبّق آخر القوانين المقننة مع الالتفات إلى أن نسخ القانون المتأخر للسابق أمر طبيعي لا يتردد فيه أحد، وبهذا تكون الشريعة الإسلامية هي الشريعة المرضية بطبيعة الحال.

وهذا بحسب ظاهر الحال، وأما لو وضعت الشرائع في موازين نقد دقيقة ونظرنا إلى دقائق كل شريعة بمنظار العلم الحديث والفترة السليمة فإن الذي سيخرج ظاهراً من بين تلك الديانات هو الإسلام، لسقوط النظريات العلمية الحديثة في مصبه بشكل ملحوظ، بالإضافة إلى توفيقه الظاهر في مجال التطبيق في الساحة العملية وانتشاره وعالميته، بينما ظلت اليهودية محصورة في بني إسرائيل، والمسيحية مهجورة في واقع الحال وإن كان لها أتباع في الظاهر.

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، وبهذا كان الرسول المصطفى ﷺ هو صاحب الشريعة المرضية لله سبحانه، كما أنها مرضية بطبعها للبشر والفترة السليمة، ومن ثم ذكر ابن شهر آشوب هذا اللقب في عداد ألقاب النبي^(٢).

٥٢٩. صاحب الشفاعة

الشفاعة هي التقدّم في حوائج الآخرين لقضائها، والمقصود هنا الذنوب والخطايا - بل كلّ حزاة وتكذّر - لتغفر وتمحى أو تغسل ليرتب عليها رضوان الله سبحانه ودخول الجنة.

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

ولا شك أن الشفاعة لا تتصور من مذنب أو مقصر أو حتى من يكون بينه وبين المشفوع عنده أقلّ تكذّر أو هنات، بل المتحتم هو أن يحافظ على روابطه معه وتعميقها على الدوام، ويلزم قبل ذلك وجود الحب من الطرفين، وأن يكون وجه الشافع مرغوباً ومقبولاً لدى المشفوع عنده.

وكلما كان المشفوع فيه أجل وأعظم احتاج توفيقه إلى روابط أعمق وحب أشد، حتى يصل إلى الشفاعة في أمر جميع الخلائق الذين أبغوا وتمردوا على مولاهم الحق وخرجوا عن طوق طاعته، وتجروا على معصيته ومخالفته في أمور عظيمة وذنوب كبيرة وصغيرة، فهنا الشفاعة لا تفلح إلا إذا كان الشافع أقرب المقربين من رب العالمين سبحانه وتعالى.

وليس ذلك سوى الرسول المصطفى ﷺ الذي استطاع أن يحتفظ بروابطه مع الله سبحانه وتعالى على أتمّ كمالها، ولم يتسبب في تكذّر تلك الروابط أو ضعفها.

ولا يلزم أن يكون السبب في فتور تلك الروابط هو عمل نفس النبي والشافع، فقد يكون السبب هو عمل الأمة وسفهاها، كمطالبة أمة موسى عليه السلام بالرؤية وادعاء أمة عيسى عليه السلام الابنية وأنه ثالث ثلاثة.

كما لا نريد القول إن أمة الرسول المصطفى ﷺ لم تنجح إلى ارتكاب القبائح أو فعل الكبائر، مع وجود من نافق عليه عليه السلام في زمانه، وانقلب على عقبيه بعد وفاته، غير أن تلك الأفعال كانت له عليه السلام لا عليه، وأهمها قتل سبطه ووصيه بين النواويس وكربلاء، فلا مجال للائمة عليه بأن يقال: لماذا قتلوا سبطك وحبيبك، أو لماذا عزلوا وصيك، بينما يعقل أن يقال لعيسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(١).

أو قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي... وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾^(١) فسقوط موسى عليه السلام مغشياً عليه نوع عتاب، بينما يكون الرسول صلى الله عليه وآله فدى ربه ودينه بنفسه وأهل بيته، وماتوا دون توحيده.

وجاء في خبر خثيمة الجعفي عن الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة حشر الله الخلائق في صعيدٍ واحدٍ حفاةٍ عُراةٍ غرلاً».

فقلت: جعلت فداك ما الغرل؟

قال: «كما خلقوا أول مرة، فيقفون حتى يلجمهم العرق، فيقولون: ليت الله يحكم بيننا ولو إلى النار - يرون أن النار راحة فيما هم فيه - ثم يأتون آدم فيقولون: أنت أبونا، وأنت نبي فاسأل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار، فيقول آدم: لست بصاحبكم، خلقتني ربي بيده، وحلني على عرشه، وأسجد لي ملائكته، ثم أمرني فعصيته، ولكني أدلكم على ابني الصديق الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وكلما كذبوا اشتد تصديقه».

قال: فيأتون نوحاً فيقولون: سل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار، قال فيقول: لست بصاحبكم، إني قلت: إن ابني من أهلي، ولكني أدلكم على من اتخذ الله خليلاً في دار الدنيا، أتوا إبراهيم.

قال: فيأتون إبراهيم فيقول: لست بصاحبكم، إني قلت: إني سقيم، ولكني أدلكم على من كلم الله تكليماً.

قال: فيأتون موسى فيقولون له، فيقول: لست بصاحبكم، إني قتلت نفساً، ولكني أدلكم على من كان يخلق بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، فيأتونه، فيقول: لست بصاحبكم، ولكني أدلكم على من بشرتكم به في دار الدنيا».

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من نبي ولد من آدم إلى محمد صلوات الله عليهم إلا وهم تحت لواء محمد، قال: فيأتونه فيقولون: يا محمد سل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار، قال فيقول: نعم أنا صاحبكم، فيأتي دار الرحمن وهي عدن وإن بابها سعته ما بين المشرق والمغرب، فيحرك حلقة من الخلق، فيقال: من هذا - وهو أعلم به - فيقول: أنا محمد، فيقال: افتحوا له، قال: فيفتح لي فإذا نظرت إلى ربي مجدته تمجيداً لم يمجده أحد كان قبلي ولا يمجده أحد كان بعدي ثم أخرج ساجداً، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع قولك، واشفع تشفع وسل تعط.»

ويتكرر هذا السجود والتمجيد والكلام ثلاثاً ثم يأمره أن يأتي المقام المحمود ويقضي عليه ^(١).

وتقدم أن لكل نبي دعوة مستجابة قدمها جميع الأنبياء في حياتهم وأدّخرها الرسول ﷺ لشفاعة المذنبين.

وفي رواية أخرى عن الرسول ﷺ: قال: «يا بني عبد المطلب إن الصدقة لا تحل لي ولكم ولكني وعدت الشفاعة.»

(١) قد يناقش في بعض مواد هذه الرواية المروية في البحار ٨: ٤٥ ح ٤٦ عن تفسير العياشي ٢: ٣١١ ولكن أصل مفادها مروى بطرق مختلفة ومنها ما هو معتبر، كالمروى في تفسير القمي عن أبيه عن ابن محبوب عن زرعة عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام وفيه يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا عند ربه، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا عند ربك، فيقول: إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح، فيأتون نوحاً فيردهم إلى من يليه، ويردهم كل نبي إلى من يليه حتى ينتهون إلى عيسى، فيقول: عليكم بمحمد رسول الله ﷺ... نقله في البحار ٨: ٣٥ ح ٧. وهذا يدل على نقلها في الموردين بالضمون، فلا يأمن الزيادة والنقص.

قال الصادق عليه السلام: «إن الجن والإنس يجلسون يوم القيامة في صعيد واحد، فإذا طال بهم الموقف طلبوا الشفاعة، فيقولون: إلى من؟ فيأتون نوحاً فيسألونه الشفاعة، فقال: هيهات قد رفعت حاجتي، فيقولون: إلى من؟ فيقال: إلى إبراهيم فيسألونه الشفاعة، فيقول: هيهات قد رفعت حاجتي، فيقولون: إلى من؟ فيقال: ابتوا موسى، فيأتونه ويسألونه الشفاعة، فيقول: هيهات قد رفعت حاجتي، فيقولون: إلى من؟

فيقال: ابتوا محمداً، فيأتونه ويسألونه الشفاعة، فيقوم مدلاً حتى يأتي باب الجنة، فيأخذ بحلقة الباب ثم يقرعه، فيقال: من هذا؟ فيقول: أحمد، فيرحبون به ويفتحون الباب، فإذا نظر إلى الجنة خرّ ساجداً يمجّد ربه بالعظمة، فيأتيه ملك فيقول: ارفع رأسك وسل تعط، واشفع تشفع، فيرفع رأسه فيدخل من باب الجنة فيخرّ ساجداً ويمجّد ربه ويعظمه، فيأتيه ملك فيقول: ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، فيقوم فما يسأل شيئاً إلا أعطاه إياه»^(١).

ودعماً لجميع ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا سيد من خلق الله، وأنا خير من جبرائيل وإسرافيل وحملة العرش وجميع الملائكة المقربين وأنبياء الله المرسلين، وأنا صاحب الشفاعة، والحوض الشريف»^(٢).

٥٣٠. صاحب الشفاعة الكبرى

بعد التأكيد على الشفاعة كسمة من سمات الرسول صلى الله عليه وآله المنحصرة، فهو لا يعني عدم شفاعة سائر الأنبياء في أممهم وأتباعهم، كيف ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون: الأنبياء، ثم

(١) تفسير العياشي ٢: ٣١٤، البحار ٨: ٤٧ ح ٤٨.

(٢) إكمال الدين: ١٥١، ١٥٢، البحار ١٦: ٣٦٤.

العلماء، ثم الشهداء^(١) وإنما المراد من الشفاعة المنحصرة هي الشفاعة الكبرى، وهي الشفاعة في جميع البشر؛ فإن الروايات المارة في العنوان السابق إذا دلت على الانحصار فهي تدل عليه في خصوص الشفاعة لجميع الخلائق، أعني الشفاعة في تعجيل الحساب ولو إلى النار، فهي الشفاعة الكبرى.

فإذا كان النبي ﷺ هو صاحب الشفاعة الوحيد، فالمقصود به هو الشفاعة الكبرى، فإن من الطبيعي أن يشفع أفضل الخلق في أمر جميع الخلق، ولا يشفع غيره ولا يكون له هذا المقام.

ومن الطبيعي أيضاً أن يشفع كل نبي في أمته؛ لأنه أفضلهم، وكذا كل إمام أو عالم أو شهيد.

ولذا تجد أن الرسول ﷺ قيد كلامه في موضع آخر وقال: «أنا وديعة الله، أنا كنز الله، أنا صاحب الشفاعة الكبرى، أنا صاحب الكوثر واللوى»^(٢)

٥٣١. صاحب الصلاة والصيام

الوظائف العبادية والثقافية تتبدل من ديانة إلى ديانة بحسب الصورة وإيلاء الأهمية، ويتغير مضمونها ووظائفها مع تغير حقل العلاقات الاجتماعية والثقافية القائمة في المجتمع الجديد.

ومن تلك الوظائف هي الصلاة والصيام اللتان صار لهما أهمية عظمى في الدين الإسلامي وتغيرت صورتها لتأخذ طابعاً جماعياً مع شيء من المرونة لإقامتها بشكل فردي في كل نقطة من النقاط، سواء المسجد أو الدار أو السوق والصحراء وحتى في الماء والفضاء وأعماق الأرض وعنان

(١) الخصال: ٥٦، ح ١٩٦، البحار: ٨: ٣٤ ح ٢.

(٢) نهج الإيمان: ٤١٥.

السموات، بينما تتحدد إقامة الشعائر في الديانات الأخرى في خصوص الكنيسة والصومعة ودور العبادة.

ثم إن أول ما يتبادر إلى ذهن كل إنسان له أقل اطلاع عن الإسلام والمسلمين هو الصلاة التي يصلّيها المسلمون بشكل فردي أو جماعي ينحنون معاً ويسقطون على الأرض ويقومون وينصتون أو يقرؤون، والشيء الآخر هو الصوم وحلول شهر رمضان، ثم حلول العيد السعيد الذي تنثال فيه التبريكات من جميع أقطار الأرض على الأمة الإسلامية.

فلو سئل إنسان عن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ وماذا يتضمنه من الوظائف كان الجواب «بأنه ما يتضمن الصلاة والصوم» طبيعياً جداً.

كما لا يشك المطالع لحياة الرسول ﷺ وكلماته في محورية الصلاة في هذا الدين وشدة أهميتها وعظم شأنها، خصوصاً بعد ملاحظة قول الرسول ﷺ: «الصلاة عمود الدين»^(١) وروي أيضاً: «إن قُبلت قبل ما سواها»^(٢) وكذا الحكم على تارك الصلاة بأنه كافر، وغير ذلك من التأكيدات.

وكذا جانب التزامه ﷺ الشخصي بالصلاة وقوله: «جعل قرّة عيني في الصلاة»^(٣) وجلوسه لانتظارها، وقوله ﷺ لبلال: «أرحنا يا بلال»^(٤) إذا حلّ وقتها.

على أنه ما ترك الخروج إلى الجماعة حتى في أشد الظروف، وما استخلف أحداً على الصلاة في حياته، وحتى في أيام مرضه الأخير، خرج

(١) المحاسن ١: ٢٨٦ ح ٤٣٠، التهذيب ٢: ٢٣٧ ح ٩٣٦.

(٢) الكافي ٣: ٢٦٨ ح ٤.

(٣) الكافي ٥: ٣٢١ ح ٦.

(٤) تفسير الصافي ١: ١٢٦.

متكئاً على علي والعباس فنحى أبا بكر الذي تصدّى للإمامة بالمصلين من عند نفسه أو بإيعاز من عائشة.

وأما الصوم فيأتي في المرتبة الثانية بعد الصلاة، وقد تكون له معروفة وصدى أكثر في سائر الأمم، وحتى بعض المسلمين يترك الصلاة ولا يترك الصوم نتيجة لتأكيد النبي ﷺ على ذلك وقوله ﷺ: «الصوم جنة من النار»^(١) و«صوموا تصحوا»^(٢).

على أنه نفسه لم يترك الصوم، بل كان يصوم حتى قيل: ما يفطر، ثم صام صوم داود يوماً ويوماً لا، ثم آل أمره إلى صيام ثلاثة أيام في الشهر^(٣). وبهذا كان تلقب النبي ﷺ بأنه صاحب الصلاة والصوم كما ذكره ابن شهر آشوب^(٤) طبيعياً جداً.

٥٣٢. صاحب الضياء والنور

الضياء هو ما يتخلل الهواء من أجزاء النور وأعمدته فيتوهج وبييض، وبعبارة أدق وأكثر علمية «يتأجج»؛ فإن النور المنساب في الفضاء الخالي لا يكون له تأجج، ويكون نور الشمس فيه كنور القمر ترى عنده النجوم وظلمة السماء، وإنما يتأجج إذا وصل إلى الغلاف الجوي فيكون ضياءً ساطعاً تخفى عنده نجوم السماء، وتنجاب فيه الظلمات، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وأجج ضياء الشمس بنور تبلجه»^(٥).

(١) المحاسن ١: ٢٨٧ ح ٤٣٠، الكافي ٢: ١٩ ح ٥.

(٢) مستدرک الوسائل ٧: ٥٠١ ح ٨٧ ٤٤، عوالي اللئالي ١: ٢٦٨ ح ٧٠.

(٣) انظر الوسائل ١٠: ٤١٥ ب ٧ أبواب الصوم المندوب.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٥) البحار ٨٤: ٣٤٠.

فإذا كان الرسول ﷺ هو صاحب الضياء، فهو يعني أن له نور متأجج، وهذا ما يحتاج إلى مؤونة بيان وذلك أن التأجج هو الانتشار والانعكاسات الكثيرة الشديدة، ونور النبي ﷺ هو علمه ودعوته وتعاليمه، فهي عمود نور أخذه عنه أهل بيته وأصحابه والعلماء من أمته، فصاروا يعكسونه لكل من يشاهدونه ومن لا يشاهدونه من الأجيال القادمة، وكذا قاموا بترجمته إلى لغات كثيرة وإيصاله إلى البلاد النائية، حتى صار له انعكاسات كثير بصحبة اعتقاد شديد يجعل ذلك الانعكاس أشد نوراً، وبهذا التأجج والتوهج انجابت الظلمة عن ربوع واسعة من الأرض غابت عنده كل علوم الكهان وكل نجوم الأرض القليلة النور، وستغيب عنده كل الديانات، ويكون الدين واحداً والضياء واحداً، وهو ضياء النبي العربي ﷺ.

وبذلك لم يكن الرسول ﷺ هو صاحب النور فحسب، بل كان صاحب الضياء والنور على حد تعبير ابن شهر آشوب رحمه الله^(١).

٥٣٣. صاحب العترة

إحدى مميزات الرسول المصطفى ﷺ التي يتميز بها على سائر الأنبياء هي عدم توقف الأفضلية والخيرية فيه وفي صفاته، بل شملت كثيراً من أطرافه وما يحيط به، فأتمته خير الأمم بتمسكها بدينها واعتقادها والتزامها بالأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢).

وعترته خير العتر، وهم من خلفهم وتركهم من أهل بيته وذريته، المنحصرين في وصيه خير الوصيين، وابنته سيدة نساء العالمين فاطمة

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٢) آل عمران: ١١٠.

الزهراء سلام الله عليها، وابناها الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة. صارت لهم تلك السيادة من شدة تمسكهم بالدين، وإذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم بإرادة الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

ومن ذلك يعلم أنّ عترة النبي ﷺ هي حسنة وحسنية، ولذا عدّ ابن شهر آشوب من ألقاب النبي ﷺ أنه صاحب العترة الحسنة والحسنية^(٢).

ثم إن كلمة «سيدة نساء العالمين» هي كلمة في اللسان، ولكنها لا تتناهى في البيان وعالم المعاني الحقيقية.

وكذا كلمة «سيّدا شباب أهل الجنة» فهي الأخرى لا يمكن الإحاطة بها ولا يفسّر جزءاً منها كل الدموع التي جرت من عيون الشيعة الإمامية وغيرهم على الحسن والحسين عليهما السلام عبر القرون المتمادية، لأن من يريد الله تطهيره وإذهاب الرجس عنه لا يبقى فيه ذرة من الرجس ولا يبقى في شيء من أعماله غير طاهر، لعدم توسط إرادة غيره في البين، ولا تكون هناك إرادة كإرادة الله سبحانه.

وكذا أبناء الحسن والحسين عليهما السلام فالمعصومون منهم بمنزلة الحسين عليهما السلام وغيرهم رسخت في قلوبهم العقيدة واستشعروا حرارة الإيمان حتى أنّ أحدهم يخرج بمفرده إلى جيش جرار من جيوش الظلم فيقتحمه ويخرج من الجانب الآخر ويلوح بسيفه ليبرهن عن إيمان عميق يلين عنده الحديد.

وأما وصي النبي ﷺ وخليفته فهو خير الأوصياء، لأنه من أهل بيته

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

الذين أذهب الله عنهم الرجس ومن العترة التي خلفها النبي ﷺ بعد ذهابه وهو وزيره الذي وزّره يوم أعلن الدعوة، وهو نفس النبي ﷺ الذي عرف له ذلك يوم قال الله سبحانه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾^(١).

وهو أخوه يوم آخى بين المسلمين وصاحب لوائه، والباثت على فراشه وزوج ابنته سيدة النساء، والذاب عنه يوم هرب المسلمون في أحد، ومجدّل الأبطال في بدر وغيرها، وهو العابد الذي لا تبلغ عبادة أحد عبادته، ذاك الذي عدلت ضربته يوم الخندق عبادة الثقلين، وهو وصيه وخليفته، هذا هو المنقول المأثور في التاريخ وكتب الحديث.

ولو فرغنا من كل ذلك ولاحظنا آثار الماضين ممن صحب النبي ﷺ فلا نجد لغيره أثراً ولا كلمة ولا موعظة ولا ديناً ولا عقيدة ولا علماً، بينما كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه المجموعة في كتاب نهج البلاغة وغيره دليل على روح معنوية مدعومة بأنوار قدسية صاغتها يد رحمانية وتوفيقات إلهية لا تكون لبشر عجن بالشهوات وما عصم عن الخطايا.

فهو عليه السلام ذائب في الله سبحانه وفي رسوله ﷺ لا تأخذه لومة لائم، ضلت الأمة إذ عدلوا إلى سواه، فإنهم في الحقيقة عدلوا عن نفس الرسول ﷺ، وتاهوا عندما ولّوها الأغيار الذين لا يؤمن أن يكونوا من أولئك الذين دحرجوا لناقة رسول الله ﷺ الدباب، أو من الذين تصفهم بعض سور القرآن، والحديث في ذلك طويل له محل آخر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعزّ الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناه، عترته خير العتر،

وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر^(١).

٥٣٤. صاحب العز الأبدي

كم هو عظيم ومُدْهش مشاهدة رئيس أكبر الدول في العالم وهو يخرج من قصره الرئاسي الضخم وعليه الملابس الفاخرة، وتحيط به عصابة من المحافظين والمستخدمين يتراكمون أمامه وبأيديهم أجهزة الاتصال المتطورة ليزيحون الموانع، ويبعدون الناس المجتمعين لرؤيته ولو بلحظة واحدة، وصوتت صفارات الإنذار وتقدم الركبان والحرس قد سيطروا على جميع المناطق المحيطة وهم مدججون بالأسلحة التكتيكية، فيجيب ويركب أفخر الحوافل البراقة ضمن وفد طويل وعريض، ثم يأتي ليرتقي منصة أُقيمت له وقد احتشد أمامها الجماهير المشتعلة بالتأييد والنصرة، تتعالى صيحاتهم وهتافهم بحياته ومجده، كي يشهد الجميع استعراضاً عسكرياً ضخماً تمر من أمامهم أفواج الأبطال وأنواع البطاريات الحربية والماكنة القتالية، وتخلق فوقهم جميع الطائرات الحربية بأعمدة الدخان وهو يحيي الجميع.

فلو شاهدت ذلك لرأيت مجداً وعزاً، وعظمة وفخراً، فهو عز لا يتصور فوقه عز، ومجد ليس مثله مجد.

نعم ذلك عز، ولكنه منقطع ليس له دوام واستمرار، تجده بين عشية وضحاها قد نُحِّي من منصبه وطرد إلى جزيرة قد دَهِش وفقد عقله وعزه، أو ميت ينقل إلى دار الأموات، وما تتصرم الأيام إلا وهو عظام بالية تطوُّها الأقدام، وتشمئز منها النفوس.

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم غلب الرجال فما اغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفراً يا بشما نزلوا

(١) نهج البلاغة ١: ٢٠١، البحار ١٦: ٣٧٩ ح ٩١.

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل
 أين الوجوه التي كانت من دونها تضرب الأستار والكلل
 فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه باتت عليها الدود يقتتل^(١)

فإذا مجل كل ذلك بهم لأنهم قصدوا العز من طريق التجبر والقدرة،
 والزهو والكبرياء، وقد نازعوا الله سبحانه لباسه، فأعفى آثارهم، وأبطل
 أعمالهم، ونزع كبرياءهم، فتركهم عبراً وأخباراً وقصصاً.

وهذا لا يعني أن العز مذموم، بل هو مطلوب، ولا ينبغي لمؤمن أن ينذل
 نفسه، والله سبحانه وتعالى يريد للمؤمن العز، ولكن لا عن طريق التجبر
 والاستكبار، ولا عن طريق جمع الأموال والاعتزاز بالعشيرة والقبيلة، فقد ورد
 عن أبي عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا، وَلَمْ يَفُوضْ إِلَيْهِ أَنْ
 يَنْذِلَ نَفْسَهُ، أَلَمْ تَسْمَعْ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾
 فالمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً»^(٢).

وإنما أراد العز بالتواضع لله سبحانه، فإن من تواضع لله رفعه الله
 سبحانه، على أن هناك أسباباً عديدة لحصول العز المطلوب نذكر منها
 أموراً:

١. ترك المعاصي والركون إلى طاعة الله سبحانه، فقد ورد: «من أراد
 عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى
 عز طاعته»^(٣).

٢. إنصاف الناس من نفسه، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له:

(١) الأنوار البهية للقمي: ٢٩٥.

(٢) الكافي ٥: ٦٣ ح ٢. والآية في سورة المنافقون: ٨.

(٣) الخصال: ١٦٩ ح ٢٢٢.

- «ألا من ينصف الناس من نفسه لم يزد الله إلا عزاً»^(١).
٣. العفو عند المقدرة، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالعفو؛ فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله»^(٢).
٤. الصّحح عمن ظلمه وإعطاء من حرمه والصلة لمن قطعه، فقد ورد عن أبي جعفر الطوسي قال: «ثلاث لا يزيد الله بهن المرء المسلم إلا عزاً، الصّحح عمن ظلمه، وإعطاء من حرمه، والصلة لمن قطعه»^(٣).
٥. تقوى الله سبحانه وتعالى والخشية منه، قال علي الطبرسي: «لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى»^(٤).
٦. الصبر على المصيبة، فقد ورد عن أبي جعفر الطوسي: «من صبر على مصيبة زاده الله عزاً على عزّه»^(٥).
٧. الإسلام، فقد أسلمت امرأة فقال أمير المؤمنين الطوسي لزوجها: «أسلم» فأبى زوجها أن يسلم، ففضى لها عليه نصف الصداق، وقال: «لم يزد لها الإسلام إلا عزاً»^(٦).
٨. الإيمان؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

(١) الكافي: ٢: ١٤٤.

(٢) الكافي: ٢: ١٠٨.

(٣) الكافي: ٢: ١٠٩.

(٤) نهج البلاغة: ٤: ٨٧.

(٥) ثواب الأعمال: ١٩٨.

(٦) الكافي: ٥: ٤٣٦.

(٧) المنافقون: ٨.

ويبقى دليل بقاء العز وعدم بقائه فهو يتبع ما يتقوم به، فإذا تقوّم بالملك والمال والعشيرة والأتباع أو الانتساب إلى عظيم أو ملك، فهو يزول بزوال تلك الأمور، فلا يبقى إذا سلب منه الملك أو سلبت أمواله، أو مات وترك جميع تلك المعززات.

ونلاحظ أن فقدان العز في الحياة هي أسوأ حالة تمر بالإنسان، ولذا يعمل ذوو العز من الملوك والرؤساء كل عمل شنيع من أجل بقاءه، وحتى أن الرسول ﷺ هوّن على مثل ذلك الشخص فقال: «أكرموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر، وعلماً ضاع في زمان جهال»^(١)، هذا عن العز الفاني.

وأما العز الباقي فهو المتقوم بما هو باق لا يزول، فمن كان عزّه متقوم بعز الله سبحانه وتعالى، ونسب نفسه إليه، فهو عزيز عزّه لا يزول ولا يحول؛ لأنه منتسب إلى عزيز بذاته، الله الذي خص نفسه بالعز والرفعة، فأولياؤه بعزه يعتزون، والكل خاضع ذليل لعزته، كما ورد في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام^(٢).

ورود عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سمعت آبائي يحدثون: كانت لقريش كاهنة يقال لها: جرهمانية... فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ جاءت إليها تابعتها وقالت لها جرهمانية: حيل بيني وبينك، جاء النور الممدود الذي من دخل في نوره نجا، ومن تخلف عن نوره هلك، أحمد صاحب اللواء الأكبر والعز الأبدي»^(٣).

٥٣٥. صاحب العزم والشريعة

ورد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «سمي أولو العزم لأنهم كانوا

(١) قرب الإسناد: ٦٦، الكافي ٨: ١٥٠ ح ١٣١.

(٢) البحار ٨٣: ٢٢٦.

(٣) العدد القوية: ١٢٥، البحار ١٥: ٢٩٧.

أصحاب العزائم والشرائع وذلك أن كل نبي كان بعد نوح ﷺ كان على شريعته ومنهجه، وتابِعاً لكتابه إلى زمان إبراهيم الخليل ﷺ وكل نبي كان في أيام إبراهيم وبعده كان على شريعة إبراهيم ومنهجه وتابِعاً لكتابه إلى زمن موسى ﷺ وكل نبي كان في زمن موسى ﷺ وبعده كان على شريعة موسى ومنهجه وتابِعاً لكتابه إلى أيام عيسى ﷺ وكل نبي كان في أيام عيسى ﷺ وبعده كان على منهج عيسى وشريعته وتابِعاً لكتابه إلى زمن نبينا محمد ﷺ، الخمسة هم أولو العزم، وهم أفضل الأنبياء والرسل ﷺ وشريعة محمد لا تنسخ إلى يوم القيامة، ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمن ادَّعى بعد نبينا أو أتى بعد القرآن بكتاب قدمه مباح لكل من سمع ذلك منه^(١).

والعزيمة هي الاسم من العزم، وهو التصميم على فعل شيء لا ينثني عنه ولا يتردد فيه، قال تعالى: ﴿أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢) أي الذين عزموا على طاعة الله سبحانه والإقرار بما أقرهم به من بنود الميثاق المأخوذ عليهم الذي آخره المهدي الذي ينتصر به لدينه ويظهر به دولة الحق وينتقم به من أعدائه فيعبد به طوعاً وكرهاً، فأقر هؤلاء الخمسة ولم يكن لآدم عزم على الإقرار به، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٣).

وبهذا كان الأنبياء الخمسة هم أولو العزم، وهم أصحاب العزائم أي التصميم على الطاعة والإقرار بما أقرهم الله سبحانه، وهم أصحاب شرائع لعامة الناس حتى الأنبياء، وتبقى شريعة النبي ﷺ هي الشريعة

(١) علل الشرائع ١: ١٢٢، البحار ١١: ٣٥.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) انظر الكافي ٢: ٨، والآية في سورة طه: ١١٥.

الباقية التي لا تنسخ، وبذلك تمتاز على سائر الشرائع، فكان المصدق الأجلى لصاحب العزم والشريعة.

٥٣٦. صاحب الغرة الحجلاء

إن التدبير السائد في الكون دقيق جداً وإن غفل عنه السابقون، ولكن علماء اليوم يعلمون جيداً أن كل ما يحدث وكل فعل وانفعال وحركة وكل وجود وعدم يسير وفق حكمة وتدبير مسبق يجيء في غاية الظرافة.

ولا يعدم هذا التدبير إرسال الرسل وبعث الأنبياء الطاهرين من الرجس والفحشاء والعهر والسفاح وبالأخص خاتم الرسل وخير الأولين والآخرين، فإنه يمتاز بتدبير أعقد؛ لخطورة مهمته وعظمتها، فلا تظن بعد قبول أصل فكرة الرسل وأنهم مبعوثون من قِبَل الله سبحانه أن لا يكون هناك تدبير مقدم وتحفظات وتمهيدات لتحقيقه.

فكان من تلك التمهيدات لبعثة الرسول المصطفى ﷺ هو منح كل واحد من آبائه ميزة وعلامة يُتفأل بها، وتُنظر بمنظار القداسة حتى تكون نتيجتها الطبيعية هي إحجام ذلك الأب عن الإقدام على فعل القبائح ليستمر خيط الطهارة الأصلية والعرقية للنبي ﷺ.

والعلامة التي منح بها آباء النبي ﷺ عبارة عن غرة وبياض ونور بين عيني كل واحد من آبائه قابل للرؤية واللحاظ خصوصاً في ساعة الولادة، فكان كلما وُلِدَ واحد من آباء النبي ﷺ رُوِيَ في وجهه نور يزهر ليعلم أنه أريد لأمر خطير وحدث عظيم، حتى ولد أبو النبي عبد الله، فقد حدّث العباس عم النبي ﷺ فقال: ولد لأبي عبد المطلب عبد الله فرأينا في وجهه نوراً يزهر كنور الشمس، فقال أبي: إن لهذا الغلام شأنًا عظيمًا، قال: فلما مات عبد الله وولدت أمنة رسول الله ﷺ أتيت فرأيت النور بين عينيه

يزهر^(١).

على أن الصاحب الحقيقي لذلك النور والغرة التي رؤيت في آباءه هو النبي ﷺ.

ولأجل هذا لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ جاءت إلى جرهمانية الكاهنة تابعتها، وقالت لها: حيل بيني وبينك، جاء النور الممدود أحمد، فقالت: ويحك ومن أحمد؟ قالت: ابن عبد الله بن عبد المطلب يتيم قريش صاحب الغرة الحجلاء^١ علماً بأن الغرة هي الجبهة أو موضع منها، والحجلاء هي البيضاء النيرة، والتابعة هي من الجن الذين كانوا يقعدون مقاعد للسمع واستراق أخبار السماء، وقد منعوا من ذلك بعد ولادة النبي ﷺ.

ومع كل ذلك لا تسوغ الغفلة عن إرادة الحجاز والكنائيات في هذه الموارد، فيحتمل قوياً إرادة الجلاء والمعروفية في الأذهان، بيد أن الغرة الحجلاء هي بياض في الجبهة تميز صاحبها من قريب ومن بعيد، أي تكون صورته متجلية في أذهان القريبيين والبعيدين عنه مكاناً وزماناً، لعظيم ما جاء به، واتساع التغيير الذي أحدثه، ذلك التغيير الذي حرف مسيرة التاريخ، فيكون معروفاً واضحاً، وهذا حال جميع مشاهير العالم الخيرين، فإن لهم بياض في الأذهان، ونور في صفحات النفوس.

٥٣٧. صاحب الفرقان والخطاب

لا يمكن أن يدّعي أحد أن الإنسان قادر على تشخيص الأصلح في الساحة العملية، وليس هناك أي قانون للوقاية من أهواء النفس ومغريات الواقع، ولكن لا يعني لزوم تمسك الإنسان بثقافته وديانته، فنحن نشترك مع الغربيين في عدم وفاء الديانة المسيحية في الساحة العملية ولا بد من

(١) البحار ١٥: ٢٥٦ ح ٨.

التغيير الجاد فيها.

وهذا بعينه مما أراه الله سبحانه أيضاً لهذه الديانة، غير أن المسيحيين أنفسهم أخطأوا ورفضوا ذلك، وإلا فالمسيحية نُسخَت وانتهى أمدُها من يوم مجئ الإسلام، ولم تبق كل تعاليمها بل حدث التغيير والنسخ، غير أن الغربيين أعادوا الخطأ مرة أخرى لما انتهوا إلى العقل والقوانين الوضعية في تمييز الحق من الباطل، وقد ذكرنا قصوره وعدم وجود الوقاية الكافية من المزالق التي تحيط به.

بينما جعل الله سبحانه وتعالى الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل والصالح والفساد، والصالح والأصلح هو آيات القرآن المحكّمة وما أوجب العمل به لجميع فترة ما بعد بعثة الرسول المصطفى ﷺ، فلم يكف لهم رجوع القوانين المقننة شيئاً فشيئاً إلى الإسلام في وعي ذلك، لإحداث طفرة نحو عالم إسلامي كما أراد الله سبحانه.

وليس المراد بالخطاب في هذا العنوان هو كل خطاب، وإنما المراد فصل الخطاب، أي الخطاب الفاصل بين الحق والباطل، الذي يتمثل بكلمات النبي ﷺ محكمها وما كان العمل به واجباً.

وبذلك ذهبت كل ظنون العالمين هباءً حينما ظنوا أن الفرقان وفصل الخطاب عند غير الرسول ﷺ من المنظرين لكل الأمم، بينما كان النبي ﷺ هو صاحب الفرقان والخطاب فقط، لأنه مبعوث من قبَل الله سبحانه لهذه الفترة ولهذه البرهة، مع تمتع القوانين التي جاء بها بالوقاية الكافية؛ لأن خالق البشر هو العالم بما يصلحهم ويفسدهم.

على أن هذا اللقب ذكره ابن شهر آشوب في عداد ألقاب النبي ﷺ^(١).

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

٥٣٨. صاحب الفصاحة والبراعة

فصاحة الرسول ﷺ هي مقياس الفصاحة، وليس هناك مقياس آخر حتى تُقاس به فصاحته وتوزن، بيد أنه أفصح العرب وقد تقدم الكلام في دليل ذلك وعلله في عناوين سابقة كعنوان أفصح العرب.

ولما كانت فصاحته ﷺ هي المقياس والميزان ناسب الإشارة هنا إلى أن الأحاديث المروية عنه وكلماته المنقولة في الأخبار ليست هي مقياس فصاحته، وذلك لأكثرية النقل بالمعنى، وأكثر منه الوضع، فلا نزيد في هذا الموضوع على إعطاء مقياس صحيح لفصاحته ﷺ حتى يقاس عليه كل فصاحة.

والميزان هو كلماته المنقولة من طريق أهل البيت عليهم السلام برواية الثقات، وذلك لأن لغة كل إنسان في الغالب هي لغة أبويه، ونحن نعلم أن أم العترة الطاهرة هي الزهراء فاطمة عليها السلام، ولغتها تحاكي لغة أبيها بإقرار حتى المناوئين ولهجتها هي لهجته.

وأما أبو العترة علي أمير المؤمنين عليه السلام فهو الآخر قد ربي في حجر الرسول ﷺ وترعرع في داره وليست فصاحته بالتي تخفى على أحد بعد جمع دُرر خطبه وكلماته في كتاب نهج البلاغة الذي يفوق كلام المخلوقين.

ومن الطبيعي جداً أن يأخذ أولادهم عنهم ذلك، وهو مشهود في المنقول من كلام الحسين عليهما السلام والصحيفة السجادية، وروايات الصادقين ومن جاء بعدهم عليهم السلام، بالإضافة إلى طهارتهم وصدقهم واهتمامهم الجاد بكلمات جدهم وموروثه.

ومع ذلك لا وجه للتشريق والتغريب والناس لغات شتى وأهواء أشت، وقد باشر الوضعون للحديث عملهم بمجرد وفاة الرسول ﷺ، وذلك حينما حدثوا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا

نورث ما تركناه صدقة» كذّبه قوله تعالى: ﴿وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُودَ﴾^(١) على أن ندع التعصب وتأويلات وتوجيهات المتعصبين والحكام الطامعين.

ومع ذلك لا يتيسر معرفة فصاحة الرسول ﷺ، ولا تحديد أي مقياس للفصاحة من كلام البشر سوى دراسة الكلمات الواصلة عنه ﷺ بالطريق المذكور، وتقنين الفصاحة على أساسه، ليقاس عليه غيره من الكلمات المنقولة عنه، ويكون طريقاً مبتكراً لتمييز الأحاديث الموضوعية بين سائر الأخبار المروية عنه من غيرها، وليعلم أن النبي ﷺ هو صاحب الفصاحة حقاً، فيزول الانطباع السائد عن فصاحته التي عكسته كتب الحديث المتداولة بتضاربها واضطرابها وركاكتها؛ وهي تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً.

هذا عن الفصاحة، وأما البراعة، فهي بمعنى تفوّقه ﷺ على جميع أصحابه في العلم، على أن المقصود بهم من كان في رديفه وهم الأنبياء العظام والأوصياء الكرام عليهم السلام، وليس المخيطين به لعدم قياسهم به.

وهذا اللقب هو الآخر من ألقاب النبي ﷺ التي سطرها ابن شهر آشوب^(٢).

٥٣٩. صاحب الفضل والإحسان

كم لرسول الله ﷺ من الفضل على البشرية؟ وما هو مبلغ أياديه في الإحسان إلى النوع، بعد مسلمية أصل ذلك؟

تتوقف معرفة شيء منه على دراسة استقصائية لحالي البشر قبل وبعد بعثته ﷺ في جميع المناحي، علمية وثقافية واقتصادية واجتماعية

(١) التمل: ١٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

وسياسية وغيرها.

ولا يمكننا دراسة ذلك في هذا المختصر، ولكن لا نترك الإشارة إلى أن الانقلاب العلمي الذي حدث في الساحة الإسلامية وما أعقبه من الانقلابات في السوح الأخرى مدين بشكل وبأخر لتدبيره، فبعد ما كان العرب والمحيط بهم من الأقوام فاقدين لملامح العلم في شتى أنواع التخصصات صار المسلمون منهم ومن غيرهم نواة انتشر عنهم العلم إلى سائر البلاد، فهذا جانب من فضل الرسول.

والجانب الآخر أن فضله ﷺ في تخفيف وطأة الأنانية وتشديد التعاطف بين الناس ليرحم القوي الضعيف ويعطف الغني على الفقير، بعد ما قام بسن القوانين المتعددة لإحداث التوازن بين طبقات الناس المختلفة، وذلك بالأخذ من الطبقة المرفهة، وصرفه في مصالح العموم وخصوص الطبقات المسحوقة كقانون دولي شامل، أخذ عنه جميع مقننو القوانين الوضعية القائمة اليوم وقبل اليوم مع تغيير الاسم، فالإسلام يسميه الزكاة والخراج والمقاسمة، والقوانين تسميه بالضرائب والحقوق.

وفي مقابل ذلك العطاء وفر الأمن اللازم للمرفه وغيره بسن القوانين الجزائية المناسبة لاستئصال الجرائم ومعالجتها جذرياً، بحيث لا يفلح أي قانون في تأمين ذلك بشكل مناسب أبداً.

كما جاء بشعار سواسية البشر لتخفيف التطبيقية والقضاء على الرقية والاستعباد بطرق تدريجية مرنة انتهت عند محوها من الساحة الإسلامية بالكلية، فأخذها عنهم سائر الشعوب الأخرى.

كما أحدث تغييراً في دواعي الجهاد وجامع التحركات العسكرية وصبها في مصب رفع الظلم والتجاوز، بينما كانت تخضع لمطامع اقتصادية وتوسعية وانتقامية فقط.

ولو تيسر لنا دراسة كل تغيير واختلاف في نمط الحياة الصحيحة، مما هو موجود بين الفترتين، أعني الفترة السابقة على البعثة واللاحقة لها فإنه سوف يعلم بالتحديد أن الأساس في ذلك التغيير هو الرسول المصطفى ﷺ ويتجلى من خلال ذلك بعض بركات الرسول ﷺ وكم كان صاحب الفضل والإحسان هذه الفترة، وتظل أياديه وإحسانه باقيةً متزايدةً مدى الدهر مما لا نعلمه أو نحتمله.

ونعود مرة أخرى إلى ابن شهر آشوب لننقل عنه هذا اللقب للرسول ﷺ^(١).

٥٤٠. صاحب الفضل والعطاء

ليس عطاء الرسول ﷺ كعطاء السحاب الممطر في الأرض الميتة عطشاً، فتهتز وتربى وتخضر وتحيى، فتشبع أنعام، ويدرّ لبن، وترتوي كباد حرّى، بيد أن السحاب يبرق ويرعد ويخيف ويرهب، والغيث الهاطل يصيب السائر ويزعج الراحل ويوحل طريقاً معبّدةً للسرى.

ولا هو كعطاء الأرض التي تنبت زرعاً فتسد رمقاً وتشبع بطوناً غرثى، وتزِيل ضعفاً وتمنح طاقة عظمى، وهي أيضاً تقيم شجراً وتصنع ريحاناً فتخلق منظراً رائعاً يسحر العيون ويستحوذ على القلوب، ويترك خشباً يصنعه الصانع أثنائاً وتحفاً، ويجرقه المتشّتي فيتفكّه ويدفأ، بيد أن عطاء الأرض فيه انتظار وعمل شاق وحرث وسقي، وهي تنبت إلى جنب الرياحين شوكةً يؤلم المجتني ويخدش المار، وترفع بعض الشجر بثمارها فما هم بالغوه إلا بشق الأنفس.

فإن عطاء المصطفى ﷺ عطاء كثير يخفض جناح ناعم من جانب لين ومن دون إصابة بأية أذى، وليس فيه شوكة ولا يترفع بما عنده، بل هو خير

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

محض قريب، يهب به قبل أن يمد المحتاج إليه يداً.

فلا يزال ينفق على المؤمنين من مخازن علومه النافعة، ويحترق ليضيئ دروباً داجية، وينفق كل ما عنده وما ليس عنده على المحتاجين الضعفاء، ويقسم بينهم بالسوية، وهو شغله الدائم، وليس له عمل بينهم غير العطاء.

على أن عطاء الرسول ﷺ ليس كعطاء أهل زماننا ولا هو معاملة وأخذ وعطاء، فقد يصعب على إنسان اليوم وخصوصاً في البلدان المتطورة تصور معنى الفضل والعطاء بمعنى العطاء لا في مقابل، والفضل للنسيان من دون رد.

والعرب القدماء وإن كان فيهم المعطاء صاحب الفضل، ولكن هو الآخر لا يعطي من دون ثمن، وثمنه هو الفخر والاعتزاز، على أننا لا ننكر وجود سخي الطبع الذي يُعطي من غير شاهد ولا ناقل، وهي من خصوصيات العرب التي أهلتهم لنزول الرسالة في ربوعهم ومن بينهم.

ولكن لا يوجد من يوقف عمره على ذلك ولا يتم ذلك المعنى بكل حذافيره إلا في وجود الرسول المصطفى ﷺ الذي كان يعطي عطاءً من دون أخذ، ويتفضل لينسى ولا يرد، فكان يعطي ليقول له الأخذ: ما أحسنت ولا أجملت، وكان يعطي حتى من ينافق عليه، ويقترض ليعطي السائل فيسمع من المقرض بعض التعريض.

ومن ناحية أخرى لم يدع أن يكون لغيره عليه فضل، بل كان هو صاحب الفضل على الدوام وله اليد العليا، وأهدى إليه رجل من أصحابه دابة يهاجر عليها فلم يقبلها إلا بثمن، فلما بلغ المدينة أعطاه ثمنها وقد بات هذا الإحساس عند كل من رآه موجوداً، وبكل وضوح خصوصاً عند من عاشر النبي ﷺ وخالطه. وكذا كل من جاء بعده من المسلمين،

فعدّ ابن شهر آشوب من ألقابه عليه السلام صاحب الفضل والعطاء^(١).

٥٤١. صاحب الفناء الرحيب

الفناء هو أمام الدار وحدودها، سميت بذلك لأنها تفتى عنده وتنتهي، والرحيب هو الواسع ولكن لم تكن دار الرسول عليه السلام بتلك السعة، غير أن ذلك كناية عن استقباله لكل قادم بحيث يشعر أن له في صدر الرسول عليه السلام متسع، وفي مسجده وبيته محل وموضع.

وهذا شيء يذكر باللسان، وإلا فأصعب ما يواجهه الرؤساء هو كثرة المراجعين والاستماع إلى كلامهم، ولذلك اتخذوا الحجاب الذين يمنعون الناس من الدخول عليهم وتقديم حوائجهم وبيان مظالمهم، والإدلاء بأرائهم.

بينما كان الرسول عليه السلام شديد الاهتمام بالقادم والسائل وكل من له حاجة، فكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه وقال: «ألك حاجة؟»، ولا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته ويظل يصابره حتى يكون هو المنصرف.

وإذا قدم إليه أحد كان هو الذي يبذره بالسلام، ويأخذ يده فيصافحه فلا يرسل يده حتى يرسلها، ويهّمّ عندها بإكرامه واحترامه حتى ربما بسط ثوبه له، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويقدم له كل ما عنده ويبذل له ما يملك.

فليس صاحب الفناء الرحيب من كان له دار واسعة وقصر مشيد إذا كان يُرى القادم نفرة، وحتى مجرد عدم الارتياح، أو يريه جانب الغلظة والسخرية بحيث تضيق تلك الدار الواسعة بعينه ولا يجد لجلسه أقل متسع، وتكون الدار الرحبية هي التي يجد فيها القادم رحباً وسعة واستقبالاً، وفرح

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

أهلها بقدمه وإن كانت قليلة المساحة، وكذا قصور الرؤساء وأفئدتهم فهي ضيقة ليس فيها متسع، وذلك للغلظة على المحتاجين فيها والتمادي في الاستهانة بهم، بينما كان الرسول ﷺ هو صاحب الفناء الرحيب كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(١).

٥٤٢. صاحب القبر

إنّ دفن الرسول ﷺ في داره التي صارت ضمن مسجده بعد ذلك كان على أساس حكمة، وهي بقاء الرسول ﷺ في الأذهان وصعوبة إنكاره؛ فإنه لو لم يكن له قبر معروف، وقيل: كان هناك رسول يعمل كذا، وظهرت على يده من المعاجز كذا، وقد توفي ولا يعلم قبره، فإن هذا الكلام يكون أقرب إلى الخيال، ومجرد أسطورة يسهل إنكارها والتشكيك فيها.

بينما إذا كان قبره معلوماً يُزار ويقصد فلا يمكن إنكاره بوجه من الوجوه، وخرج عن كونه أسطورة ومجرد خيال، ويكون له وجود مستمر يشار إليه، فإذا قيل: من هو هذا النبي الذي ظهرت على يده المعاجز، وكان يتخلق بكل هذه الأخلاق الفاضلة، فإن الجواب يسهل عندها، ويقال: هو صاحب هذا القبر، أو هذا صاحب القبر.

وما زالت كلمة صاحب القبر مستعملة في لسان المسلمين لمدة طويلة يقسمون به ويستشهدون.

ومن هذا الكلام وأمثاله تعلم الحكمة في سن زيارة القبور، وخصوصاً قبر النبي ﷺ ليبقى خالداً في الأذهان، ويتحسس وجوده الأجيال التي لم تره، ويكون ذلك شاهداً على وجوده.

بالإضافة إلى الانتفاع بهذا الوجود بالاستشفاع به وطلب الخوائج

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

عنده ويكون هو الوساطة بين الله وخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١).

فإن المعتقد أن الرسول ﷺ حي عند ربه مرزوق يسمع الكلام ويرد السلام، كما أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، فيشفع لكل من استشفعه واستغفر عنده، فيغفر الله سبحانه له بشفاغة الرسول ﷺ، والحال أن الاستغفار وطلب المغفرة هو أهم الحوائج، ويقضى غيره من المطالب بطريق أولى.

فإذا يمنع البعض الناس من ذلك، فإنهم يجرمونهم من ذلك بجهالة وسفاهة ما أنزل الله بها من سلطان، ألا بعداً للقوم الظالمين.

وروي أن أبا بكر قال قبل التسليم في الصلاة: يا خالد لا تفعل ما أمرتك، فقال أمير المؤمنين: «ما الذي أمرك به؟» فقال: أمرني بضرب عنقك، قال: «أَوَ كُنْتَ فاعلاً؟» قال: إي والله، لو لا أنه قال لي: لا تقتله قبل التسليم لقتلتك، فأخذ علي فجلد به الأرض، فاجتمع الناس عليه، فقال عمر: يقتله ورب الكعبة، فقال الناس: يا أبا الحسن الله الله بحق صاحب القبر، فخلى عنه^(٢).

. ونقل أن موسى بن عيسى أحد كبار العباسيين قال: الملك عقيم لو أن صاحب القبر - يعني النبي ﷺ - نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف^(٣). كل ذلك يحكي عن تحسس وجود النبي ﷺ بوجود قبره.

(١) النساء: ٦٤.

(٢) الاحتجاج ١: ١٢٧.

(٣) مقاتل الطالبين: ٣٠١.

٥٤٣ . صاحب القبلة اليمانية

قبلة أكثر الأنبياء الذين جاؤوا قبل النبي محمد ﷺ هي بيت المقدس، وكان هو قبلته ﷺ في بادئ بدء، ثم صرفه الله سبحانه وتعالى إلى المسجد الحرام.

والفرق بين بيت المقدس والكعبة هو أن الأول يكون منه الحشر والعروج إلى السماء، فمن المحتمل أن يكون فوقه نقطة صالحة لذلك أعني العروج الروحي، وقد تنفع كل من أراد النفوذ من أقطار السماوات، ومعه ينتفع المصلي إليه بمحصول الأُنس بذلك الطريق، فلا يستوحش إذا سلكه، وهو تذكرة للحشر.

وأما الكعبة فهي مصممة تحت البيت المعمور الذي في السماء الخامسة بحيث لو سقط لسقط عليها، والبيت المعمور هو بيت التوبة، تطوف فيه الملائكة توبة، وكذا البيت الحرام هو بيت التوبة، يغفر لمن طاف به وعليه أن يستأنف العمل، والصلاة إليه تصب في ذلك المصب.

ومهما يكن من ذلك فإن النبي ﷺ يمتاز على سائر الأنبياء بأنه صاحب القبلة اليمانية وإنما سميت يمانية لأن مكة هي جهة من جهات اليمن ومَقْضَى إلى ذلك الشق والسمت، وقيل: إن مكة من تهامة، وتهامة من أرض اليمن. ويحتمل أن الكعبة سميت يمانية لأجل ظهور الإيمان من مكة.

ذكر هذا اللقب لرسول الله ﷺ ابن شهر آشوب في عداد ألقاب النبي ﷺ^(١).

٥٤٤ . صاحب القرآن والناقة

القرآن هو كلام الله سبحانه الذي خاطب به خلقه، وهو الكتاب

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

المنزل على النبي الأمي، فهو في بادئ الأمر كتاب سماوي معروف عند أهل السماء وبين الملائكة الكرام والنبي ﷺ معروف به، وأنه صاحب القرآن، بينما النبي موسى ﷺ هو صاحب التوراة والنبي عيسى ﷺ هو صاحب الإنجيل، وكثيراً ما يعرف الشخص بكتابه أو بعض ما يملكه، بأن يقال هذا صاحب الكتاب الفلاني، أو صاحب القصر الفلاني، وهكذا.

ولا شك أن كلام الله سبحانه له اسم ومعروفية في السماء، كما أن الناقة هي المشخصة للنبي الخاتم وطبيعة الأرض التي يسكنها وأنها أرض صحراوية وعرة على ما مر، وليس هي أرض الشام حتى لا يلتبس الأمر على أهل الملل السابقة، فالقرآن هو المميز للنبي ﷺ عند أهل السماوات، والناقة هي الميزة للنبي ﷺ عند أهل الأرض، ولأجل ذلك لما نزل جبرئيل مسلماً على النبي ﷺ كان فيما قال: السلام عليك يا صاحب القرآن والناقة^(١).

٥٤٥. صاحب القضيبي العجيب

عندما يكون الحديث عن القضيبي الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ، وخصوصاً مع تقييده بكونه عجيباً لا يمكن أن يكون هراوة عادية، ولا حتى سيفاً لطيفاً ودقيقاً الذي هو أحد معاني القضيبي، ورغم أنه كان لرسول الله ﷺ سيف اسمه القضيبي، وهو أول سيف حمله ﷺ^(٢) إلا أنه يبعد أن يكون هو المراد.

فإذن المقصود بالقضيبي العجيب أحد أمرين، الأول: قضيبي يكون في الجنة حدث النبي ﷺ عنه فقال: «مَنْ سرّه أن ينظر إلى القضيبي الأحمر الذي غرسه الله بيده ويكون متمسكاً به، فليتولّ علياً والأئمة من ولده،

(١) الفضائل: ٣١، ٥٢، البحار ١٥: ٣٥١.

(٢) البحار ١٦: ١١٢.

فإنهم خيرة الله عز وجل وصفوته^(١) والأخبار بهذا المعنى كثيرة^(٢).

الثاني: هو قضيب موروث من الأنبياء السابقين عليهم السلام ويكون له دلائل كعصا موسى ﷺ، ولذلك لما ذكروا دخول النبي ﷺ بيت خديجة قالوا: جاء وهو معتم بعمامة سوداء يلوح ضياء جبينه من تحتها، وعليه قميص عبد المطلب، وبردة إلباس، وفي رجلاه نعلان لجدّه عبد المطلب، وفي يده قضيب إبراهيم الخليل^(٣).

فهذا قضيب موروث يمكن أن يكون هو القضيب الذي ورثه الأئمة عليهم السلام من بعده^(٤)، وظهرت له معاجز منها ما روي أن رجلاً من العرب وافى أمير المؤمنين ﷺ فسلم عليه، وقال: أنا رجل لي على رسول الله ﷺ وعد، وقد سألت عن قاضي دينه، ومنجز وعده بعد وفاته فأرشدت إليك، فهل الأمر كما قيل لي؟

فقال أمير المؤمنين ﷺ: «نعم أنا منجز وعده، وقاضي دينه من بعده، فما الذي وعدك به؟».

قال: مائة ناقة حمراء وقال: «إذا أنا قبضتُ فأتِ قاضي ديني، وخليفتي من بعدي، فإنه يدفعها إليك» وما كذب ﷺ فإن يكن ما ادعيته حقاً فعجل عليّ بها - ولم يكن النبي ﷺ خلفها ولا بعضها - فأطرق أمير المؤمنين ﷺ ملياً، ثم قال: «يا حسن، قم» فنهض إليه فقال له: «اذهب فخذ قضيب رسول الله ﷺ الفلاني، وصر إلى البقيع فاقرع به الصخرة الفلانية

(١) أمالي الصدوق: ٦٧٩، البحار ٢٥: ١٩٣.

(٢) انظر بصائر الدرجات: ٦٨، ٦٩، الإمامة والتبصرة: ٤٢.

(٣) البحار ١٦: ٦٧.

(٤) الكافي ٨: ٢٢٥ عن تراث رسول الله ﷺ قال: سيف رسول الله ودرعه وعمامته

وبرده وقضيبه ورايته.

ثلاث قرعات، وانظر ما يخرج منها فادفعه إلى هذا الرجل وقل له يكتم ما رأى» فصار الحسن عليه السلام إلى الموضع والقضيب معه ففعل ما أمره، فطلع من الصخرة رأس ناقة بزمامها، فجذبه الحسن عليه السلام فظهرت الناقة، ثم ما زال يتبعها ناقة ثم ناقة حتى انقطع القطار على مائة^(١).

وروي بعدة طرق أن أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً في جامع الكوفة فشكوا إليه زيادة الفرات وطغيان الماء فنهض معهم وسار حتى انتهى إلى الفرات، فنزل وأخذ قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله ففرغ الفرات قرعة واحدة فانزجر الماء^(٢).

ويحتمل أن يكون هذا القضيب هو المذكور في الكتب السماوية، فقد جاء في الإنجيل: صدقوا النبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة والتاج والنعلين والهاوذة وهي القضيب^(٣).

ومهما يكن من أمر فقد ذكر هذا اللقب ابن شهر آشوب في المناقب أيضاً^(٤).

٥٤٦. صاحب القضيب والرداء

الكلام هنا عن القضيب المطلق، والقضيب في اللغة يأتي بمعنيين، المعنى الأول: هو الغصن يُقضب أي يقطع، ولا يسمى قبل القطع قضيباً، فهذا هو المعنى الأصلي للقضيب، والمعنى الآخر هو السيف اللطيف الدقيق، وإذا قيل للرسول صلى الله عليه وآله: إنه صاحب القضيب فيمكن إرادة كل

(١) خصائص الأئمة للشريف الرضي: ٤٩.

(٢) مدينة المعاجز ٢: ١٠٩.

(٣) كمال الدين: ١٥٩.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

واحد من المعنيين.

أما القضيبي بالمعنى الأول فقد ذكروا أن الرسول ﷺ كان له قضيبي شوحط اسمه «المشوق» والشوحط شجر يتخذ منه القسي كالنبيذ^(١)، على أنه ﷺ كان يمسكه بيده كثيراً، فقد فسّر ابن الأثير قول سطیح الكاهن: «وخرج صاحب الهراوة» فقال: أراد به النبي ﷺ لأنه كان يمسك القضيبي بيده كثيراً وكان يمشي بالعصا بين يديه، وتُغرّز له فيصلي إليها^(٢).

حتى إذا كان آخر حياة النبي ﷺ قام فخطب خطبة قال فيها: «إن ربي حكم، وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشدتكم بالله أي رجل منكم كانت له قبيل محمد مظلمة إلا قام فليقتصر منهُ، فالقصاص في دار الدنيا أحب إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء».

فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له: سودة بن قيس، فقال له: فذاك أبي وأمي يا رسول الله، إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء، وبيدك القضيبي المشوق، فرفعت القضيبي وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فلا أدري عمداً أو خطأ.

فقال: «معاذ الله أن أكون تعمّدت» ثم قال: يا بلال قم إلى منزل فاطمة فائتني بالقضيبي المشوق، فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة، فهذا محمد يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة.

وطرّق بلال الباب على فاطمة عليها السلام وهو يقول: يا فاطمة قومي فوالدك يريد القضيبي المشوق... فناولت بلالاً القضيبي، فخرج حتى ناوله رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أين الشيخ؟».

(١) البحار ١٦: ١٢٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٥: ٢٦١.

فقال الشيخ: ها أنا ذا يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فقال: «تعال فاقصص منِّي حتى ترضى» فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف ﷺ عن بطنه، فقال الشيخ: يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟

فأذن له، فقال: أعود بموضع القصص من بطن رسول الله من النار يوم النار، فقال رسول الله ﷺ: «يا سودة بن قيس أتعفو أم تقتص؟» فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال ﷺ: «اللهم اعف عن سودة بن قيس»^(١).

وأما القضيب بمعنى السيف فقد رجَّح البعض إرادة السيف من تلقيبه ﷺ بـ «صاحب القضيب» فقال: إنه وصف بصاحب القضيب بهذا المعنى، واستدل على ذلك بتفسيره في الإنجيل، إذ جاء فيه: معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمه كذلك^(٢). ويؤيده أن له ﷺ سيفاً اسمه القضيب.

ولكن الحق أن هذا لا ينفي ذلك المعنى الأول؛ لأن هذا الكلام مقيد وغيره مطلق، ولذا احتل نفس هذا القائل إرادة القضيب المشوق الذي كان يمسكه ﷺ.

هذا كله عن القضيب، وأما الرداء فهو الآخر يتحتم فيه أن يكون رداءً خاصاً، ولعله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لما أسري بي إلى السماء ودخلت الجنة رأيت قصرأ من ياقوتة حمراء فاستفتح لي جبرئيل بابه، فدخلت القصر فرأيت فيها بيتاً من درة بيضاء، فدخلت البيت فرأيت في وسطه صندوقاً من نور، فقلت يا جبرئيل ما هذا الصندوق؟ وما فيه؟ فقال جبرئيل: يا حبيب الله فيه سر لا يعطيه إلا لمن يحب، فقلت افتح لي بابه، فقال: أنا عبد مأمور فسئل ربك حتى يأذن في فتحه، فسألت الله، فإذا

(١) أمالي الصدوق: ٧٣٤، البحار ٢٢: ٥٠٨.

(٢) البحار ١٦: ١٣١.

النداء من قبل الله: يا جبرئيل افتح له بابه، ففتحه فرأيت فيه الفقر والمرقة، فقلت: يا سيدي ومولاي ما هذا المرقع والفقر؟ فنوديت: يا محمد هذان اخترتهما لك ولأمتك من الوقت الذي خلقتهما ولا أعطيتهما إلا لمن أحب، وما خلقت شيئاً أعز منهما.

ثم قال ﷺ: «قد اختار لي الفقر والمرقع، وأنهما أعز شيء عنده، فلبسها النبي ﷺ وتوجه الله بها، فلما رجع من المعراج ألبسها علياً ﷺ بإذن الله وأمره، فكان يلبسها ويرقعها بيده رقعة رقعة، حتى قال: والله رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها...»^(١).

كما وجاء التعبير بالرداء واللباس عن النساء في الأخبار والكتاب، فيكون معنى صاحب الرداء أنه ﷺ صاحب نساء، وهو أيضاً غير بعيد.

٥٤٧. صاحب القلب الشاكر

بين التشاؤم من الحياة وكل المقدرات فيها الذي يجتمع مع النظر إلى الأعلى، وبين التفاؤل وتعظيم النعم فوارق وآثار يختص بها كل نمط من هذين النمطين في الحياة.

فإن المتشائم يعيش دائماً متكدراً متألماً ناقماً على مجتمعه وقومه وحتى على نفسه، ويعيش في ضيق أبداً، لأنه يفسر كل حدث وحتى كل نعمة بما هو شر ونقص، ولا يرى سوى عيوب الأشياء ونقصها، أو يصنع لها من نفسه عيوباً ونقائص، وهو يحاول ما لا يمكن ويطلب ما لا يتحقق، إذ أنه يطلب دنياً لا نقص فيها وهي لم تُخلق بعد، فهو يعيش في تعب، ويتعب كل من يعيش معه.

وأما المتفاؤل المعظم للنعم والذي لا يرى سوى محاسن الأمور،

(١) عوالي اللئالي ٤: ١٣٠ ح ٢٢٤.

وَيُعْرَضُ عَنْ مَعَايِبِهَا، وَيَعْتَلِّلُ نَفْسَهُ دَائِماً بِمَا بَقِيَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَضَى، فَهُوَ يَرْضَى بِمَا قَدَّرَ وَقَضَى بِمَعْنَى الْقَبُولِ وَالِاسْتِقْبَالِ.

فمن النحو الأول ما يجسده قول أبي العلاء المعري:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدّي إن دهرك هازل
وقوله أيضاً:

تحطّمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ومن النوع الثاني ما روي أن موسى عليه السلام قال: أرني أحب خلقك إليك وأكثرهم لك عبادة، فأمره الله تعالى أن ينتهي إلى قرية على ساحل البحر وأخبره أنه ليجدّه في مكان، فوقع على رجل مجذوم مقعد أبرص يسبح الله تعالى.

فقال موسى: يا جبرائيل أي الرجل الذي سألت ربي أن يريني إياه؟

فقال جبرئيل: هو يا كليم الله هذا، فقال: يا جبرئيل إنني كنت أحب أن أراه صواماً قواماً!

فقال جبرئيل: هذا أحب إلى الله تعالى وأعبد له من الصوام والقوام، وقد أمرت بإذهاب كرميته - أي عينيه - فاسمع ما يقول.

فأشار جبرئيل إلى عينيه فسالتا على خذيه، فقال: متعتني بهما حيث شئت، وسلبتني إياهما حيث شئت، وأبقيت لي فيك طول الأمل يا بار ويا وصول.

فقال له موسى: يا عبد الله إنني رجل مجاب الدعوة، فإن أحببت أن أدعو لك الله تعالى يرد عليك ما ذهب من جوارحك وبيريك من العلة فعلت؟ فقال: لا أريد شيئاً من ذلك، اختياره لي أحب إليّ من اختياري لنفسي، وهذا هو الرضا المغض كما ترى.

فقال له موسى سمعتك تقول: يا بار يا وصول، ما هذا البر والصلة الواصلان إليك من ربك. فقال: ما أحد في هذا البلد يعرفه غيري - أو قال يعبه غيري - فراح متعجباً، وقال هذا أعبد أهل الدنيا^(١).

وروي أن عيسى ﷺ مر والحواريون على جيفة كلب، فقال الحواريون: ما أنتن ربح هذا الكلب فقال عيسى ﷺ: ما أشد بياض أسنانه^(٢).

وإنما ذكرت هاتين القصتين بطولهما، لأنني رأيت شباب اليوم قد نزحوا إلى عيشة متشائمة ساخطة، مملوءة بالاعتراض والانتقاد، ولم يرتضوا شيئاً منها مهما كانت مرفهة، بل الأمر بالعكس كلما ازداد الرفاه ازداد السخط والاعتراض.

حتى أن كلمة الشكر التي هي من الآثار الطبيعية لتعظيم النعم صارت لا تسمع إلا من الشيوخ والعجائز، والباقي ساخط ومعترض وناقد ومغتم، شعارهم إن الحياة ذميمة، وكل ذلك يحدث متزامناً مع اشتداد الرغبات، وكثرة الطلبات، وعدم القناعة بمستوى من مستويات الحياة.

ولقد كان ولا يزال لهم أسوة برسول الله ﷺ حسنة، إذ لم يسمع منه كلمة اعتراض ولا حتى سؤال لماذا كان كذا، ولماذا لم يكن كذلك مما سمع من بعض الأنبياء السابقين، بل كان دائم الشكر، بل هو مسجول ومطبوع على تعظيم النعم وأداء شكرها مهما أمكنه ومهما قلت.

وقال علي ﷺ: «إن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره وجوفه أزيز كأزيز المرجل على الأثافي من شدة البكاء، وقد أمنه الله

(١) مستدرك سفينة البحار ٤: ١٥١.

(٢) مجموعة ورام: ١١٧، مستدرك الوسائل ٩: ١٢٠ ح ١٠٤١٧.

عز وجل من عقابه فأراد أن يتخضع لربه ببكائه ويكون إماماً لمن اقتدى به... ولقد كان يبكي حتى يغشى عليه، فقيل له: يا رسول الله أليس الله عز وجل قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «بلى، أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(١).

وروي أن رسول الله ﷺ كان عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقد من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً؟»^(٢).

ومعلوم أن هذا الشكر ليس لسانياً فقط، بل هو قلبي نابع من سجلة وطبع شاكر يعظم النعم، لأنه يستمر حتى في أشد الأحوال والظروف، فقد دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو موقود أو محموم، فقال له عمر: يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر وأنت تجتهد هذا الاجتهاد؟! فقال: «يا عمر أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٣).

وأما عند تجدد النعم، أو حصول الظفر فكان يكثر شكر الله سبحانه وتعالى، فلما طالت محاصرة الأحزاب ورأى تخوّف أصحابه قام ﷺ ونادى: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين اكشف همي وغمي وكرهبي قد ترى حالي وحال أصحابي» فبعث الله عليهم ريحاً من السماء فيها حصى قلعت خيامهم فهزمهم، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرسل عينيه ثم قال: «شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي»^(٤).

(١) البحار ١٠ : ٤٠ .

(٢) الكافي ٢ : ٩٥ ح ٦ .

(٣) البحار ١٦ : ٢٢٢ .

(٤) الكافي ٨ : ٢٧٨ .

وقد بلغ أشده حينما عرج به إلى السماء، فكان يكثر الشكر في قلبه، فيقول الله سبحانه: يا محمد قطعت حمدي أو قطعت ذكري، وبأمره بالإعادة^(١).

وعندها نذكر أن ابن شهر آشوب عدّ ألقاب النبي ﷺ فذكر منها «صاحب القلب الشاكر»^(٢).

وأخيراً ننبه أنّ الشكر يكون للخالق والمخلوق، فقد ورد عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «إن الله يحب كل قلب حزين، ويحب كل عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا رب، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره» ثم قال: «أشكركم الله أشكركم للناس»^(٣).

٥٤٨. صاحب قول لا إله إلا الله

بعث النبي ﷺ والبشر يعبدون آلهة متعددة، حتى كان في كل بيت من بيوت العرب صنم مصغر يعبدونه ويعكفون عليه بالإضافة إلى الأصنام التي كانت في الكعبة وعليها، حتى إذا تفرقت قريش في طلب المعاش صار كل واحد يعبد حجراً رآه فأعجبه فعبده أو شجرة كذلك، والمسيح قالوا بألوهية عيسى وأمه كما ذكر ذلك القرآن، واليهود قالوا عزير ابن الله، والبرهمنيون يعكفون على صنم بودا وأصنام أخرى، والمجوس يعبدون النار، وغيرهم غيره.

فلا شك أنّ النبي ﷺ إذا أراد أن يهدي البشر إلى التوحيد، فأول ما يدعو إليه هو نبذ جميع تلك الآلهة ونفيها ليليه إثبات وجود إله واحد

(١) علل الشرائع: ٢: ٣١٤، البحار: ١٨: ٣٥٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار: ١٦: ١٠٧.

(٣) الكافي ٢: ٩٩ ح ٣٠.

والبرهنة عليه، على أن نفي كل تلك الألهة ومحو تلك المعتقدات ليس بالأمر السهل، بل وحتى غير ممكن؛ لأن قبول فكرة إله واحد بعد الغرق في أفكار الشرك غير يسيرة، فقد سمعتُ أحد أساتذة الجوامع الذين أسلموا وهو يقول: احتجت إلى فترة أربع سنوات من البحث والفكر لتعقل وجود إله واحد.

يوقفنا ذلك وأمثاله على عظمة مهمة الرسول ﷺ وكم كانت تحتاج إليه من التدرج والتمهيد، فلذا كان أول ما طلبه وندب إليه هو الإقرار القولي بنفي الألهة ثم الإقرار بإله واحد فقال: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» على أن هذا القول من منفردات النبي ﷺ، ولم يسمع به في الأمم السالفة ولا ما يعادله، ولهذا لما نزل جبرائيل وسلم على النبي ﷺ قال: «السلام عليك يا صاحب قول لا إله إلا الله»^(١).

٥٤٩. صاحب قول محمد رسول الله

لما كانت رسالة النبي محمد ﷺ جاءت لتبقى إلى آخر الدهر وتشمل جميع العالم، احتاجت هذه الرسالة إلى نداءات تنفذ في أعماق الزمن ويكون لها صدى وتردد في جميع أقطار الأرض، فكان من تلك النداءات والشعارات هو قول محمد رسول الله، والآخر هو الصلاة على النبي ﷺ، وهذه الشعارات ما سُمعت نظائرها في الأمم السالفة لأحد من الأنبياء، بل لم تكن مطلوبة؛ لقصر مدة نبوة كل واحد منهم وسرعة نسخ شريعته مع عدم خلو الزمان الذي يليه من الأنبياء التابعين، على خلاف رسالة النبي الذي لا نبي بعده، فكان ذلك القول الذي يُقال على المآذن مطلوباً لها للغاية، وصار من سميات هذه الرسالة؛ ولذا كان سلام جبرائيل الآخر

(١) الفضائل: ٣١، ٥٢، البحار: ١٥، ٣٥١.

حينما نزل عليه وهو قاعد عند عين أن قال: السلام عليك يا صاحب قول محمد رسول الله^(١).

٥٥٠. صاحب الكتاب البهي

الكتاب هو القرآن، وهو المعجزة الخالدة للرسول ﷺ، التي تحدت كل الفصحاء والبلغاء والعلماء ولا زالت تتحدى، فإن القوى العظمى المتكبرة خاضت ولا زالت تخوض مع المسلمين حروباً دامية وتتبع أدق التدابير السياسية وأحذق الأنظمة الجاسوسية، بينما كان يكفيها إبطال كتاب المسلمين والغلبة على هذا التحدي العظيم، وذلك بالإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله فتضعف الأمة الإسلامية وتندرس بما هي أمة إسلامية، ويكون حالها حال بقية الأمم الراضخة.

ولكن تركهم لهذا العمل والخوض في حروب مدمرة والتدبير المستمر للسلطة على المسلمين وعدم الإتيان بسورة من مثله هو أدل دليل على عدم إمكان ذلك فهو المعجزة الباقية.

والمضحك أنهم خلصوا إلى أشأم الحلول وأخسها، إذ أخذوا يبرزون ويظهرون عورات نساتهم وتجاويف أبدانهم لشباب المسلمين عبر وسائل الارتباط وغيرها لكي يسلبوا روح الإباء من نفوسهم وكان بإمكانهم أن يسترها ويحتفظون بها لأنفسهم ويأتون بسورة من مثل القرآن.

ومن ناحية أخرى لا نجد من تدبر القرآن إلا عظم في نفسه وملا عينه وأخذ بأنياط قلبه وسخر عقله واستحوذ على لبه وهو معنى البهي.

ولا بأس بذكر قصة في هذا الصدد، وهي قصة الوليد بن المغيرة

المخزومي:

(١) الفضائل: ٣١، ٥٢، البحار: ١٥: ٣٥١.

اجتمعت قريش في دار الندوة فقال لهم الوليد: إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر مختلف، فاجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل؟

قالوا: نقول إنه شاعر، فعبس عندها وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر.

فقالوا: نقول إنه كاهن، قال: إذا تأتونه فلا تجدونہ يحدث بما يحدث الكهنة.

قالوا: نقول إنه مجنون، فقال: إذا تأتونه فلا تجدونہ مجنوناً.

قالوا: نقول إنه ساحر، قال: وما الساحر، فقالوا بشر يحبون بين المتباغضين، ويبغضون بين المتحابين، قال: فهو ساحر.

فخرجوا فكان لا يلقي أحد منهم النبي ﷺ إلا قال: يا ساحر يا ساحر واشتد عليه ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(١)

ويروى أن النبي ﷺ لما أنزل عليه: ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾^(٢) قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمشر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صباً والله الوليد، والله لتصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة

(١) المدثر: ١.

(٢) غافر: ٣.

قريش.

فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جانب الوليد حزيناً. فقال له: مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال: أتزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ فقالوا: اللهم لا... فقالت قريش: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس، فقال: ما هو إلا ساحر، ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر^(١).

ونذكر أن هذا الوصف الذي وصف الوليد به القرآن وقوله: إن له لحلاوة وعليه طلاوة... من بليغ الكلام الذي لم يتمكن أحد من البشر أن يصف به القرآن ولا أظن أن يتمكن أحد من مثله، وهو يكشف عن مقدرة الوليد العالية وبلاغته وفصاحته ومن أجل ذلك سمي ربحانة قريش، فهو مع هذا الوصف عجز عن أن يأتي بسورة وقال: هو سحر يؤثر، فلا وجه لأن يحلم أحد بأن يأتي بمثله.

على أن هذا اللقب هو الآخر ذكره ابن شهر آشوب رحمه الله^(٢).

٥٥١. صاحب الكرّ والشجاعة

لم تكن معارك رسول الله ﷺ وحروبه تابعة لقوانين الحروب الطبيعية، ولا فيها شيء من صفاتها، لأنها لم تكن لتعتمد على السلاح والعدّة والعدد والموقع، حتى يعلم الظافر من حساب قوة الطرفين، ويعلم من هو أقوى وأكثر علة وعدداً فيكون هو الغالب، على أن التفاوت دائماً

(١) انظر مجمع البيان ١٠: ٥٨٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣: البحار ١٦: ١٠٦.

كان كثيراً.

أما من ناحية العُنة والعدد فقد ورد في وصف معركة بدر أن النبي ﷺ عباً أصحابه فكان في عسكره فرسان وسبعون رجلاً، وكان في عسكر قريش مائتا فارس على أقل تقدير، والمشركون هم ثلاثة أضعاف المسلمين في العدد، فلما نظرت قريش إلى قلة أصحاب النبي ﷺ، قال عتبة بن ربيعة: أتري لهم كميناً أو مدداً، فبعثوا عمر بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً، فجال يفرسه حتى طاف عسكر رسول الله ﷺ ثم رجع فقال: ما لهم كمين ولا مدد، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، أما ترونهم خرساً لا يكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم ما أراهم يولّون حتى يقتلوا، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم^(١).

وبعد مقالة هذا الشخص البصير بأمر الحرب لا يكون سبب هزيمة قريش هو مجرد استقلال المسلمين والاستخفاف بهم، بل السبب الأكبر فيه هو استبسال المسلمين وشجاعتهم.

ثم إنّ الدوافع كانت قوية من الطرفين وليس في طرف المسلمين فقط، فقد قال أبو جهل يومها: اللهم ربنا ديننا القديم، ودين محمد الحديث، فأبي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله.

يثبت من هذا القول أن المشركين يدافعون عن عقيدة ودين، لأن أبا جهل لا يريد من كلامه هذا أن دين محمد ﷺ أرضى من دينه، بل أن دينه هو الأرضى^(٢)، هذا بالإضافة إلى وقوع تجارة المشركين في خطر؛ لوقوع المدينة على خط التجارة مع الشام.

كما أن السبب أيضاً لم يكن هو شجاعة المسلمين وقوة أبدانهم، بل

(١) البحار ١٩ : ٢٢٤.

(٢) البحار ١٩ : ٢٢٩.

المعروف أن الشجاعة في رجالات قريش، وكل من آمن ولحق بالنبي ﷺ هم من الضعفاء ولم تسمع في المدينة من الشجاعة ما سمعت لقريش.

فلم يبق إلا شجاعة النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام، فإن الجرأة التي كان يمتلكها النبي ﷺ والشجاعة التي يتحلى بها هي التي كانت تشد ذلك الجمع الضعيف وتتألفه فتجعل منه قدرة عظيمة تبدد صفوف المشركين. فالسؤال الأول أنه من جاء بذلك الجمع إلى بدر؟ جوابه: هو الرسول ﷺ، والسؤال الآخر هل أنه كان يرى قلة عدد المسلمين وضعف أسلحتهم وعُددهم؟ وجوابه: نعم حتماً. والسؤال الأخير هل يتمكن أن يعمل هذا العمل من في قلبه ذرة خوف أو ترديد؟ وجوابه الطبيعي: لا.

ولذا قال الإمام علي عليه السلام المعروف بالكرار: «ولقد رأيتني يوم بدر نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان أشد الناس يومئذ بأساً»^(١).

وقال عليه السلام أيضاً: «كنا إذا احمرّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد أقرب إلى العدو منه»^(٢) ومعنى ذلك أنه كان إذا عظم الخوف من العدو واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى رسول الله ﷺ وركنوا إلى قتاله بنفسه، فينزل الله تعالى النصر عليهم به، ويأمنون ما كانوا يخافونه بمكانه، وقوله: «إذا احمرّ البأس» كناية عن اشتداد الأمر.

وبعد ذلك تتجلى شجاعة النبي ﷺ ومعنى كرهه في المواطن التي ينهزم فيها المسلمون والمعروف منها معركة أحد، وغزوة حنين.

فأما غزوة أحد، فقد انهزم المسلمون هزيمة نكراء، وفي الحقيقة هم كفروا عندها وعلم الصادق بإيمانه، فما زال عليه السلام عن مكانه ولا تحرك من

(١) البحار ١٦: ٢٣٢.

(٢) البحار ١٦: ٢٣٢.

موضعه شبراً واحداً، وما زال في وجه العدو تثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه أخرى، وهو قائم يرمي حتى تحاجزوا، فلم يثبت معه سوى نفر يسير لا يزيدون على أربعة عشر نفر، بل لم يبق معه في بعض الأحوال سوى علي بن أبي طالب عليه السلام حتى أن الصحابة ليس فيهم من يحتشم من ذكره الفرار لشدة وطأة الكافرين، ومع ذلك لم يتراجع النبي صلى الله عليه وآله ولا علي بن أبي طالب عليه السلام حتى توارت جيوش المشركين ^(١).

وأما في حنين فإن مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وذراريهم ليقاتل كل امرئ عن نفسه وماله وأهله، وقال لهم: اكسروا جفون سيوفكم واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي الشجر، فإذا كان في غيبش الصبح فاحملوا حملة رجل واحد وهدّوا القوم، فإن محمداً لم يلقَ أحداً يحسن الحرب، قال: فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله الغداة المحدر في وادي حنين وهو وادٍ له الحدار بعيد، فاحدر إليهم المشركون الحدار السيل، وانهزم المسلمون، فلم يبق أحد إلا انهزم، ومر المنهزمون برسول الله صلى الله عليه وآله لا يلوون على شيء، فأقبل النبي صلى الله عليه وآله يقول قُدماً:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ^(٢)

ومن هذا الكلام يعلم أن سبب غلبة الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن هو الخطط العسكرية وحدها؛ لأن العدو انصبَّ على المسلمين من فوقهم.

ولم يُجعل الظفر للمسلمين إلا لأن الرسول كَرَّ بنفسه على العدو، وأن شجاعته صلى الله عليه وآله وشجاعة أمير المؤمنين عليه السلام هي التي شدت جموع المسلمين، فعطفوا ورجعوا وصاروا كرجل واحد.

ولهذا وأمثاله عد ابن شهر آشوب أحد ألقاب النبي صلى الله عليه وآله هو صاحب

(١) البحار ٢٠: ١٣٧.

(٢) مجمع الزوائد ٦: ١٨٢.

الكر والشجاعة.

٥٥٢. صاحب الكرم والامتنان

إن كرم النبي ﷺ وامتنانه على الأمة، بل على البشرية جمعاء لا يوصف، ولكن يمكن الإشارة إلى كلياته وسرد بعض القصص والوقائع:

فمن تلك الكليات، بذله وعطاؤه المستمر والمتناوب، فالمستمر هو سن الزكاة والخمس والصدقات والخراج والمقاسمة لتؤخذ من الأغنياء وتقسم بين الفقراء أو عامة المسلمين، والمتناوب هو عطاءاته وأيديه في سبيل تأليف الأمة وجمعهم وتوحيدهم ويأتي الإشارة إلى بعضها.

ومنها: عفوه عن الذين أساؤا إليه وآذوه وحاربوه وقتلوا أصحابه وأقرباءه، وهو أيضاً عام وخاص، فالعام نظير عفوه عن أهل مكة، حيث قال لهم: «أنتم الطلقاء» وأما الخاص فهو لا يحصى وسيأتي ذكر بعضه.

ومنها: التأليف بين المسلمين وبين العرب والسعي في رفع الشحناء والتباغض وإطفاء نائرة الحروب القبلية، فإن له ﷺ يد طولى في هذا الجانب، أدت إلى حقن دماء العرب وقوة شوكتهم.

ومنها: تعليم الناس وتشويقهم على تعلم القراءة والكتابة، واستيعاب الأخلاق الفاضلة والآداب الكريمة، وحتى حرر أسرى بدر شريطة أن يعلموا المسلمين القراءة والكتابة.

هذا بعض تلك الكليات، وأما الموارد الخاصة فقصص عطائه وبذله في الموارد الخاصة فكثيرة، ومنها: ما يصب في مجازاته لكل من أحسن إليه، فقد ورد أن رسول الله ﷺ كان نزل على رجل بالطائف قبل الإسلام فأكرمه، فلما أن بعث الله محمداً ﷺ إلى الناس، قدم الرجل على رسول الله ﷺ فسلم عليه وأسلم، ثم قال له: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: «ومن أنت؟» قال: أنا رب المنزل الذي نزلت به بالطائف في الجاهلية يوم كذا

وكذا فأكرمتهك. فقال له رسول الله ﷺ: «مرحباً بك، سل حاجتك» فقال: أسألك مائتي شاة برعاتها، فأمر له رسول الله ﷺ بما سأل، ثم قل: «ما كان على هذا الرجل أن يسألني سؤال عجزوز بني اسرائيل لموسى» أراد الجنة^(١).

وروي أن سائلاً جاء إلى النبي ﷺ يسأله، فقال رسول الله ﷺ: «هل عند أحد سلف؟» فقام رجل من الأنصار فقال: عندي يا رسول الله، فقال: «اعط هذا السائل أربعة أوساق من تمر» فأعطاه.

ثم جاء الأنصاري بعد إلى النبي ﷺ متقاضياً فقال: «يكون إن شاء الله» ثم عاد إليه فقال: «يكون إن شاء الله» ثم عاد إليه الثالثة، فقال: «يكون إن شاء الله»، فقال قد أكثرت يا رسول الله ﷺ من قول يكون إن شاء الله.

فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هل من رجل عنده سلف؟» قال: فقام رجل فقال: عندي يا رسول الله، قال: «وكم عندك؟» قال: ما شئت، قال: «فأعط هذا ثمانية أوسق من تمر» فقال الأنصاري: إنما لي أربعة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وأربعة أيضاً»^(٢). والقصص بهذا المعنى كثيرة حاصلها أن الرسول ﷺ لم يدع أن يكون لأحدٍ عليه يد ولا منة، ويكون هو صاحب الامتتان على الدوام.

ومنها: العطاء للتأليف، فقد أعطى يوم حنين أبا سفيان بن حرب مائة بعير، ومعاوية ابنه مائة بعير، وحكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مثلها، والحارث بن هشام من بني مخزوم كذلك، وغيرهم، وأعطى العباس بن مرداس أربعة، فتسخطها وأنشأ يقول:

أجعل نهبي ونهب العبيد بسين عيينة والأقصر

فقال رسول الله لعلي: «يا علي قم إليه فاقطع لسانه» فأخذ علي بيده

(١) الكافي ٨: ١٥٥ ح ١٤٤.

(٢) قرب الإسناد: ٤٤، الوسائل ٩: ٤٣٥.

فانطلق به، فقال له: يا علي إنك لقاطع لساني؟ قال: إني عمضي فيك ما أمرت، حتى أدخله الحظائر، فقال: اعقل ما بين أربعة إلى مائة - يعني خذ من الإبل من أربعة إلى مائة - فقال: بأبي أنتم وأمي ما أكرمكم وأحلمكم وأجملكم وأعلمكم، ثم إنه رضي بما قسم له رسول الله ﷺ^(١).

فإنما أعطى كل هؤلاء ليتألفهم بالمال والعطاء لكي يحسن إسلامهم ويثبتوا على دينهم الذي دخلوا فيه وأقروا به، فإنهم رؤساء العرب من قريش وسائر مضر.

وأما قصص العفو فهي كثيرة منها: أن معاوية بن المغيرة في معركة أحد جدد أنف حمزة ومثل به مع من مثل به، وكان قد أخطأ الطريق، فلما أصبح أتى دار عثمان بن عفان، فلما قال له عثمان: أهلكني وأهلكت نفسك، فقال: أنت أقربهم مني رحماً وقد جئتك لتجيرني، فأدخله عثمان داره وصيَّره في ناحية منها، ثم خرج إلى النبي ﷺ ليأخذ له منه أماناً، فسمع رسول الله ﷺ يقول: «إن معاوية في المدينة وقد أصبح بها فاطلبوه» فقال بعضهم: ما كان ليعدو منزل عثمان فاطلبوه، فدخلوا منزل عثمان، فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيَّره فيه، فاستخرجوه من تحت حمارة لهم، فانطلقوا به إلى النبي ﷺ، فقال عثمان: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان فهبه لي، فوهبه له، وأجله ثلاثة أيام، وأقسم لئن وجد بعدها يمشي في أرض المدينة وما حولها ليقتلته، فخرج عثمان فجهَّزه واشترى له بعيراً ثم قال له: ارتحل^(٢).

ومنها: أن رسول الله ﷺ جلس في بعض حروبه في ظل شجرة بعيداً عن أصحابه فبصر به أحد المشركين، واسمه غورث بن الحارث المخاربي، فقال له أصحابه: يا غورث هذا محمد قد انقطع من أصحابه، فقال: قتلتني الله

(١) البحار ٢١: ١٧٠.

(٢) البحار ٢٠: ١٧٥.

إن لم أقتله، وانحدر من الجبل ومعه السيف، ولم يشعر به رسول الله ﷺ إلا وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سلّه من غمده، وقال: يا محمد من يعصمك مني الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله» فانكب عدوّ الله لوجهه، فقام رسول الله ﷺ فأخذ سيفه، وقال: «يا غورث من يمنعك مني الآن؟» قال: لا أحد، قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله وأني عبد الله ورسوله؟» قال: لا، ولكنني أعهد أن لا أقاتلك أبداً، ولا أعين عليك عدواً، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال له غورث: والله لأنت خير مني، قال ﷺ: «إني أحق بذلك»^(١).

ومنها: الاثنا عشر من المنافقين الذي وقفوا على الشنية فجعلوا حجارة في دباب فدحرجوها من فوق لينفروا الناقة برسول الله ﷺ لتقع في المهوى الذي يهول الناظر النظر إليه من بعده، فلما قربت الدباب من ناقة رسول الله ﷺ أذن الله تعالى فارتفعت ارتفاعاً عظيماً فجاوزت ناقة رسول الله ﷺ ثم سقطت في المهوى، ومع ذلك تركهم رسول الله ﷺ إلا أنه قال في حذيفة وأمير المؤمنين عليه السلام: إنهما أعلم الناس بالمنافقين، لأن حذيفة كان قد رآهم حينما صعّدوا^(٢).

وقصص عفوهُ ﷺ كثيرة جداً، ومهما يكن من أمر فهو صاحب الكرم والامتنان كما قال ابن شهر آشوب^(٣).

٥٥٣. صاحب اللسان الذّاكر

من أحب شيئاً ذكره وأكثر ذكره، فلا يكون له حديث سواه ولا مقصد مما عداه، فيظل يجتلس الفرصة في الحديث عنه ما سمح له السامعون

(١) البحار ٢٠: ١٧٥.

(٢) البحار ٢١: ٢٣١.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١٣٣.

في الحديث، فإذا فقدهم صار يرأسه كلما وجد رسولاً يتجه إليه حتى الهواء يكلمه ويطلب منه أن يوصل سلامه إلى حبيبه، فإذا بُعد ونأى وتفرد وخلا ناداه وكلمه من بعيد فلا يدع ذكره حتى في أشد الحالات، ويرضي الهوى في حبه حتى عند التحام القتال.

وكذلك تتداعى المعاني في خلنه، فكلما أبصر شيئاً شبهه بما رآه عند المحبوب، فيتأثر من ذلك ويكون كما قال الشاعر:

وما شرقي بالماء إلا تذكراً لماء به بيت الحبيب نزول

بل يضطرب وينتفض ويهتز بدنه متى ما ذكره، فيكون كما قال الشاعر:

وإني لتعروني لذكراك رعدة كما انتفض العصفور بلله الفطر

على أن الذكر والذكرى هي حاجة الحب لا المحبوب، لأنه يخفف عليه آلامه ويسليه في أيامه، ويشفع له في منامه، وكما قال الشاعر:

تذكرت والذكرى تهيج لذي الهوى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

كل ذلك لمن لا يسمع المحبوب كلامه، ولا يشاهد اضطرابه، لأنه إذا كان يسمع كلامه ويرى اضطرابه كان له حال أخرى يفقد فيها عقله ويطيش حلمه وتضطرب أعضاؤه ولا يقر له قرار، ويقولون لقد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم.

فالذكر بطبعه الأول هو علامة لذلك الحب وشدة الاهتمام، وهو الحرارة المنبعثة من تلك النار المتوهجة، وهيب القلب المتضرم.

فالرسول المصطفى ﷺ محب وعاشق يظهر كل ما ذكرناه على لسانه ووجناته وسائر أعضائه، مشهود له ذلك الاضطراب وترك القرار، وكثرة

الذكر واللهجة، حتى قالت قريش إن محمداً ليردد اسم ربه ترداداً^(١).

بل هو شهيد حب مذهل وأسير عشق لا يوصف يجعله يذكر ربه ذكراً كثيراً فيقوم على قدميه ذاكراً وينحني فيذكر ويسقط على الأرض بذكره، ويسبح الله سبحانه بالعشي والإبكار وآناء الليل وإدبار النجوم وعند الزوال، وفي أيام معدودات، وفي آخر شهر رمضان يطوي فراشه فيظل مسبحاً ذاكراً سبحاً طويلاً، وفي كل عيد له ولولة ونجيج وأزيز.

على أن لذكره مواطن كثيرة بل في كل موطن يرى أن الأرض كلها مسجداً أينما أدركته الصلاة ذكر ربه فصلى، وعند المشعر الحرام وفي عرفات والمسجد الحرام ومقام إبراهيم وبيت المقدس والبيت المعمور، ولما دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى.

وكذلك عند كل عمل، لا يشرع إلا باسمه، عند الأكل والنوم وعند الذبح ونحر الإبل يذكر اسم الله عليها صواف، وعندما يقرب النساء، أو يمشي على الماء، وغير ذلك مما لا يحصى.

ومع ذلك لا يحصل أي ترديد فيما ذكره ابن شهر آشوب من ألقاب النبي ﷺ من أنه صاحب اللسان الذاكِر^(٢).

٥٥٤. صاحب اللسان الذكور

الذكور صفة مشبهة تلك على ملازمة العمل والذكر واستمراره حتى يكون صفة له، وتختلط مع حقيقته، فالرسول المصطفى ﷺ هو صاحب اللسان الذكور، أي خالط الذكر لسانه فصار ملتصقاً بحقيقته،

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٩٥ ح ٨٥، البحار ٨٢: ٧٣ ح ٣، مستدرک الوسائل ٤:

١٨٤ ح ٤٤٤٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

ممزوجاً بماهيته، كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب^(١).

٥٥٥. صاحب اللواء الأكبر

اللواء هو الراية يمسك بها صاحب الجيش عادة لتجتمع حولها الأجناد ولا تتفرق، ويكون له علامة يشهر بها في الناس ويميز بها عن غيره، ومنه لواء الأمير، وعلم كل دولة من الدول اليوم.

ولما خاض رسول الله ﷺ الحروب وجهز الجيوش، فمن الطبيعي أن يكون له لواء يتميز به، ويحمل له في الحروب ليلتف حول المسلمون فلا يحصل التفرق والتشتت، ويكون علامة على قدرتهم ما دام مشرعاً.

ويبدو أن الجماعة التي تلوذ به كلما كبرت لزم أن يكون اللواء أكبر، حتى لا يفقده من كان في أطرافهم فلا يراه، وبهذا يكون عظم اللواء كناية عن عظم الجيش.

ولما كان النظام السائد في الجزيرة هو النظام القبلي، فهو يشكّل ألوية صغيرة لا تبلغ ألوية واحدة من الدول مهما صغرت، بينما قام النبي ﷺ بتشكيل دولة الإسلام وصار له جيش كبير، فهو إذن صاحب اللواء الأكبر، ثم توسعت رقعة الإسلام ليكون جيشها أكبر جيش في العالم، وذلك ما تنبأت به الكاهنة جرهمانية، وما أنبأتها به تابعتها من الجن التي جاءت إليها في الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ فقالت لها: جرهمانية! حيل بيني وبينك، وجاء النور الممدود... أحمد صاحب اللواء الأكبر^(٢).

وأما الكلام عن لوائه ﷺ يوم القيامة واسمه لواء الحمد فهو الآخر أكبر الألوية؛ لأكثرية أمته وأتباعه يومها كما تقدم.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٧.

(٢) البحار ١٥: ٢٩٧.

ولواء الحمد هذا لواء خاص يتميز به الرسول المصطفى ﷺ يوم القيامة، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أتاني جبرئيل ويده لواء الحمد وهو سبعون شقة، الشقة أوسع من الشمس والقمر فيدفعه إليّ، فأخذه وأدفعه إلى علي بن أبي طالب»^(١).

ويروى إعطاء النبي ﷺ أربعة ألوية يوم القيامة، يكون لواء الحمد بيده، ويدفع ﷺ لواء التهليل لعلي فيوجهه في أول فوج، وهم الذين يحاسبون حساباً يسيراً ويدخلون الجنة بغير حساب عليهم، ويدفع لواء التكبير إلى حمزة ويوجهه في الفوج الثاني، ويدفع لواء التسبيح إلى جعفر ويوجهه في الفوج الثالث، ثم يقيم هو ﷺ على أمته حتى يشفع لهم^(٢).

ويستفاد من بعض الأخبار أن هذا اللواء من نور، فقد جاء فيه: «إذا كان يوم القيامة عقد لواء من نور أبيض»^(٣).

وأظن أن النور هو ما اجتمع من نور التحميد، وكلما قال مسلم من المسلمين الحمد لله فهو لا يضيع ويكون محفوظاً ليجتمع يوم القيامة ويكون علامة لهذه الأمة تتميز به عما سواها، لأن سائر الأمم تشترك مع الأمة الإسلامية في التوحيد والتنزيه والتسبيح، وتتميز الأمة الإسلامية بأنها تكثر حمد الله، فقد بينا سابقاً دليل ذلك ووجهه ويكفي فيه حمد كل مسلم في كل يوم سبعة عشر مرة عدد الركعات المفروضة وغيرها.

٥٥٦. صاحب المحبة والعرفان

كل فعال النبي ﷺ وكل حركاته وسكناته ما هي إلا انفعالات حب شديد معذب وعرفان حقيقة تُنكر؛ بيد أن آثار شوقه إلى الله سبحانه قد

(١) البحار ٨: ٢ ح ٢.

(٢) البحار ٨: ٧ ح ١١.

(٣) البحار ٨: ٤ ح ٦.

ترسخت في حدائق صدره، وأخذت لوعة محبته بمجامع قلبه المفعم، وإحساسه المرهف، فهو يأوي إلى أوكار الأفكار العميقة، ويرتع في رياض القرب والمكاشفة، ويكرع من حياض المحبة بكأس الملاطفة، ويردُّ شرائع المصافاة في كل حين.

فقد كُشف الغطاء عن بصره فهو ينظر بعين، وانجلي الريب عن عقائده وضميره، وانتفت مخالجة الشك عن قلبه وسريرته فصار إلى يقين، وانشرح بتحقيق العرفان صدره وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممه، وعذب شربه في معين المعاملة، وطاب سره في مجلس الأنس، وأمن سربه في موطن المخافة، واطمأنت نفسه بالرجوع إلى رب العالمين، وتيقنت روحه بالفوز والفلاح، وقرت عيناه بالنظر إلى محبوبه، ثم استقر قراره بإدراك السؤل ونيل المأمول، ورحمت تجارته في بيع الدنيا بالآخرة.

هذا عن محبة الله وعرفانه، وأما المحبة على الإطلاق، فالإسلام والدين الذي جاء به يدور على رحي ترسية قواعد المحبة والمؤاخاة بين المسلمين، بحيث جعلته ﷺ يكرّس كل الجهود من أجل تشييدها وتشديدها في قلوب المؤمنين، الذين آخى بينهم؛ لأن الإخاء بطبعه يولد المحبة الراسخة، وعدل بينهم في الكلام والنظر والصحبة والصفح لكي لا تتولد الضغائن.

وأمر ﷺ بإفشاء السلام والمصافحة والمزاح والملاطفة والبشر بين المسلمين لزرع بذور المحبة، وأكد على التهادي والوليمة وإجابة الدعوة وزيارة المرضى، بل مطلق التزاور وتشجيع الجنائز، واستقبال القادم، وتفقد الغائب، وتكثير الأصدقاء وتقليل الأعداء، وكان هو السبّاق في جميع ذلك. ثم علّم خواصه السلوك والأعمال التي تكسب محبة الآخرين ومودتهم، ونحن نذكرها في نقاط:

١. الصمت إلا من حق، فقد ورد: «إن الصمت يكسب محبة، وهو

دليل على الخير^(١) ليدل على أن كثرة الكلام مكذّرة لا محالة، والصمت علامة وقار وهيبة وعقل، وورد: «الزموا الصمت إلا من حقّ تحمدوا»^(٢).

٢. الفضل، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العقل غطاء ستير، والفضل جمال ظاهر، فاستر خلل خلقك بفضلك، وقاتل هواك بعقلك تسلم لك المودة، وتظهر لك المحبة»^(٣).

٣. المعروف والبشر، فقد ورد: «صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة»^(٤).

٤. ترك الحسد، فقد ورد: «من ترك الحسد كانت له المحبة عند الناس»^(٥).

٥. التواضع، فقد ورد: «ثلاثة تورث المحبة: الدين، والتواضع، والبذل»^(٦).

وهناك أمور أخرى تكسب المحبة كالإحسان، لأن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، وبذل المحبة للناس والعطف والحنان، وكذا تحسين الظاهر وغيرها.

وأما العرفان، فهو مصدر عَرَفَ، يراد به معرفة الله سبحانه، كمعرفة أسمائه وصفاته، وبالجملة هو استدلال أو سلوك لمعرفة، فله طريقتان، الأول: هو الاستدلال بالأثر على المؤثر، وبالفعل على الصفة، وبالصفات على

(١) قرب الإسناد: ٣٦٩ ح ١٣٢١.

(٢) كمال الدين: ٥٦٨.

(٣) الكافي ١: ٢٠ ح ١٣.

(٤) الكافي ٢: ١٠٣ ح ٥.

(٥) تحف العقول: ٩٩.

(٦) تحف العقول: ٣١٦.

الذات، وهو طريق العلماء.

والطريق الآخر: هو تصفية الباطن وتخليته مما عده سبحانه، وفي المقابل تخليته بالفضائل.

ولعل الثاني هو طريق الأنبياء والأولياء والعرفاء، فهذه المعرفة عن طريق الكشف والشهود لا تيسر إلا عن طريق المجذوب المطلق، ويمكن تحصيلها في الطاعة والعبادة الهيكلية والنفسية والقلبية والروحية السرية والخفية، على أن هذه الحقيقة هي التي يكمن فيها الهدف من خلقه العالم.

بينما يعتقد العرفاء أن الوصول إلى الحق والحقيقة لا ييسر إلا بطي مراحل ومنازل حتى تنهياً النفس لكسب المعرفة، والبلوغ إلى أعلى مراتب العرفان، لسنا بصدد التعرض لها.

ولكن الكلام الأول الذي ذكرناه يتضمن معاني أدق وأعمق من هذا الذي ذكرناه أخيراً، على أن المجموع مجرد جذوة أمل لدرك بعض حقائق معنى ما ذكره ابن شهر آشوب من تلقيب النبي ﷺ بصاحب المحبة والعرفان^(١).

٥٥٧. صاحب المدرعة

المدرعة ضرب من الثياب التي كانت تلبس في الجزيرة العربية في زمن الرسول ﷺ، وقد يشترط في تسميتها بالمدرعة نسجها من الصوف، والظاهر أنها مشقوقة الوسط يتدرعها أو يتمدرعها اللابس، وفي حديث علي عليه السلام: «ولقد رقت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، فقال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: اعزب عني، فعند الصباح يحمد الناس

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

السرى»^(١).

وروي أن عيسى عليه السلام لم يترك إلا مدرعة صوف ومخدفة.

ويروى أن في الإنجيل: يا عيسى جدّ في أمري.. صدقوا النبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة والتاج^(٢).

٥٥٨. صاحب المساعي

المسعاة هي «كل عمل خير يُوليه الساعي اهتماماً بالغاً ويكون جاداً فيه كما يجتهد في كسبه ومشاغله، ويتعب نفسه ويبذل مجهوده فيه» ويجمع على مساعي.

وقال ابن منظور: المساعي هي مآثر أهل الشرف والفضل، واحداً مسعاة لسعيهم فيها كأنها مكاسبهم وأعمالهم التي أعنوا فيها أنفسهم^(٣).

وأما الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن جميع مشاغله هي مساعي على أشدها، مصبوبة في سبيل هداية الناس وإسعادهم، وما زال يختار لهم التسهيل ولنفسه أشد الأمرين ما ترك له الاختيار.

ويضاف إلى سعيه الدائب في سبيل هداية الناس، مساعيه المختلفة في سبيل حياتهم وسعادتهم، ونشير هنا إلى سعيه في رفع الضغائن وإيقاع الصلح بين العشائر المتعادية، وسعيه في التآليف بين المسلمين وتوحيد كلمتهم، وتوفير الأمن لهم، فقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبيل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقهم وهو يقول: «لن تراعوا» وهو

(١) نهج البلاغة ٢: ٧٦.

(٢) كمال الدين: ٩٥، ٩٦، أمالي الصدوق: ١٦٣، البحار ١٦: ١٤٤.

(٣) لسان العرب ٦: ٢٧٢ (سعا).

على فرس لأبي طلحة وفي عنقه السيف^(١).

ثم سعيه في حوائجهم الشخصية، كتزويج الشباب، وتحرير العبيد، وإطعام الجائعين، وشفاعة المذنبين، فيروى أنه نظر إلى جارية قاعدة على الطريق تبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما شأنك؟» قالت: يا رسول الله إن أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجة فضاعت فلا أجسر أن أرجع إليهم، فأعطاها رسول الله ﷺ أربعة دراهم، وقال: «ارجعي إلى أهلك...» قالت: يا رسول الله إني قد أبطأت عليهم وأخاف أن يضربوني، فقال رسول الله ﷺ: «مرّي بين يدي ودلّيني على أهلك» فجاء رسول الله ﷺ حتى وقف على باب دارهم، ثم قال: «السلام عليكم يا أهل الدار» فلم يجيبوه، فأعاد السلام فلم يجيبوه، فأعاد السلام، فقالوا: عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال لهم: «ما لكم تركتم إجابتي في أول السلام والثاني؟» قالوا: يا رسول الله سمعنا سلامك فأحببنا أن تستكثر منه، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه الجارية قد أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها» فقالوا: يا رسول الله هي حرة لمشاك^(٢).

هذا كله بالإضافة إلى أمره ﷺ بالسعي إلى صلاة الجمعة: ﴿فَامْسَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣)، وبين الصفا والمروة، والسعي في طلب الرزق: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾^(٤)، والسعي في قضاء حوائج الإخوان، وسعي العبيد للتحرير، وسعي الجباة لأخذ الصدقة وتسميتهم السعاة.

وأخيراً جعل ميزان الثواب هو السعي دون الانتاج والنتيجة على

(١) البحار ١٦: ٢٣٢.

(٢) البحار ١٦: ٢١٤ ح ١.

(٣) الجمعة: ٩.

(٤) الملك: ١٥.

خلاف باقي القوانين الوضعية، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١).
وبعد كل ذلك ينزل عليه جبرائيل ليسلم عليه، فيقول: السلام عليك يا محمد... السلام عليك يا صاحب المساعي^(٢).

٥٥٩. صاحب المقام المحمود

هل إن المقام المحمود الذي وعد الله سبحانه وتعالى رسوله به فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٣) هو مجرد موضع ومحل إقامة كما هو مستفاد مما ورد في وصف مواطن القيامة: «ثم يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمد ﷺ وهو المقام المحمود فيثني على الله بما لم يثن عليه أحد قبله»^(٤)؟

أو هو منبر أو منصة يرتفع عليها كما هو مستفاد من قوله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نصب لي منبر له ألف درجة فأصعد حتى أعلو فوقه، فيأتيني جبرئيل عليه السلام بلواء الحمد فيضعه في يدي ويقول: يا محمد هذا المقام المحمود الذي وعدك الله تعالى»^(٥)؟

أو هو مقام ومنصب له علو وارتفاع اعتباري يمتلك معه نفوذ وسلطة لتمشية أمور البشر، يُعبر عنه بمقام الشفاعة، أو الشفاعة الكبرى، بمعنى الطلب من الله سبحانه والشفاعة للمذنبين، وهو بالمقام الذي تُسمع دعوته ويجاب طلبه، فهذا ما أطبق المفسرون على تفسير المقام المحمود به^(٦).

(١) النجم: ٣٩.

(٢) الفضائل لشاذان: ٣٣، البحار ١٥: ٣٥١.

(٣) الإسراء: ٧٩.

(٤) الاحتجاج للطبرسي ١: ٣٦١، التوحيد للصدوق: ٢٦١.

(٥) البحار ٧: ٣٣٥ ح ٢١.

(٦) انظر مجمع البيان ٦: ٦٧١.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي، فيشفعني الله فيهم»^(١)؟

أو هو إعطاء قدرة ووسائل وقاعدة عظيمة مهمتها حمل الذين انقطعت بهم السبل وقصرت بهم وقود أعمالهم عن الوصول إلى الجنان كما هو مستفاد من الروايات المارة في عنوان الشافع؟

والحق أن كل ذلك محتمل كما يحتمل غيره مما لا تبلغه عقولنا، على أن اجتماع تلك الاحتمالات غير ضائر، فلا منافاة بين الشفاعة وارتفاع المقام والموضع، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «وقد قمت على المقام المحمود لشفعت في أبي وأمي وعمي وأخ كان لي في الجاهلية» مما يدل على أن المقام موضع مرتفع بقريته قوله: «قمت على المقام»^(٢) بالإضافة إلى أنه منصب ورتبة يتمكن معه من الشفاعة وطلب تمشية أمور الآخرين، كما لا بُد في كون المسئول هو إعطاء القدرة، ويكون المعطى هو وسائل ومعدات لدفع عجلة الحساب أو إيصال القاصرين إلى غرفات الجنان كما مر.

ويفيد وصفه بالمحمود من دون تقييد أنه مقام يحمله الكل، ولا يحمله الكل ولا يثنون عليه إلا إذا استحسنوه وانتفعوا به، يجعلنا كل ذلك إذا فسّرنا المقام بالشفاعة لا بد من تقييده بالشفاعة الكبرى، أي التي ينتفع بها الجميع.

ثم إن كلمة المقام المحمود واردة في كثير من الأدعية خصوصاً الدعاء المعروف: «اللهم ابعثه المقام المحمود الذي وعدته...»^(٣). وكذلك تلقيبه بصاحب المقام المحمود المذكور في روايات كثيرة منها ما روي عن سلمان حينما ذكر أوصاف النبي ﷺ لبعض العرب فعد منها صاحب المقام

(١) أمالي الصدوق: ٣٧٠، روضة الواعظين: ٢٧٣.

(٢) الفقيه ٤: ٣٦٨.

(٣) الصحيفة السجادية: ٢٩١.

٥٦٠. صاحب الملة الحنيفية

كانت الديانات السماوية وغير السماوية متعايشة ومتآلفة فيما بينها قبل ظهور الإسلام، وكان أرباب هذه الديانات وأتباعها يعيشون مع البعض بسلام، ولا أقل من عدم وجود التنافر والتدبير لحق شيء منها الآخر، فلا الوثني يسمى للخص المسيحية واليهودية والمجوسية، ولا اليهودي يسمى للخص الوثنية أو المسيحية، ولم نسمع بينهم سوى التحالف والتعاقد.

فلما انبثق الإسلام وتولّد هذا الدين الجديد وصار يصعد إلى الساحة الاعتقادية، قام الجميع للخصه وتفنيده فتولّد في جموعهم إحساس التنفّر من هذا الدين الصاعد، فكأنني بمقولة مفادها إذا شئت الوثنية فهو الدين الحاكم، وإذا شئت ديناً سماوياً فهذه اليهودية أو المسيحية فما لك وللدين الجديد، وكأن اليهود يقولون كن مشركاً وثنياً ولا تكن مسلماً موحداً، واسجد للحجر ولا تسجد لله سبحانه وتعالى.

ويمكن تفسير توافق تلك الديانات المتباعدة بحسب الظاهر في نفي الدين الجديد بأحد أمور:

الأول: هو القاعدة الكلية في نفي كل جديد لعدم ألفته في الأذهان.

الثاني: توافق تلك الأديان بحسب الجوهر وهو الشرك، رغم اختلافها بحسب الظاهر، فإن الجميع سلّم لشريك وإن اختلف مصداقه، فهذا يعتقد بالصنم، وذاك يعتقد بالولد، أو يؤلّه الأحرار والرهبان، وغيرهم يعتقد

(١) الثاقب في المناقب لابن حمزة: ١٢٧، وانظر البحار ١٦: ١٣٠، ونظم درر

بالنار، فتكون بطبيعتها منافية للدعوة التوحيدية التي تضادها بحسب الجوهر.

الثالث: نفي الإسلام لباقي الأديان، وما يتمتع به من خصوصية محاربة الأديان وهدم قواعدها وإخبار الرهبان والكهنة بظهور نبي بدين يعلمو على سائر الأديان؛ فاحس الجميع بالخطر، وقاموا لمناهضته.

الرابع: العزل السياسية والاقتصادية، كالتحالف السابق والخضوع لذي الشوكة أعني القوة المشتركة، ومن ناحية أخرى فإن لكل ديانة رؤساؤها وزعمائها ولهم مداخلهم ومخارجهم وطرق متبعة لانتزاع ما في أيدي الناس حيث خافوا فوات كل ذلك عند بسط الإسلام سيطرته، وصناعة أمة قوية متماسكة، فهم يرون حياتهم ببقاء النظام القبلي الحاكم وإحساسهم الأمن في ظل تمزق عرب الجزيرة وتصارعهم.

ومن أجل كل ذلك وأمثاله وقعت الصيحة بين الناس: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، فجابهم الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ كُلُّ مِلَّةٍ إِبرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) وذلك لأن الحنيفية هي المستقيمة التي لم تمل إلى الشرك، ولم تنحرف انحراف المسيحية واليهودية، ولم تتشكل وتتحزب وتتصلب على معتقداتها صحيحة وباطلة، وكذلك لم تتعقد وتصبح ممارسة عباداتها مختصة بطائفة خاصة من الناس كالرهبنة، فهي سمحة سهلة مستقيمة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٢).

وقد ورد التأكيد في القرآن على ملة إبراهيم وفي مواضع عديدة

(١) البقرة: ١٣٥.

(٢) الأنعام: ١٦١.

للتنبية على أمور كالإجابة على دعوى أرباب تلك الملل بعدم فلاح من لم يكن يهودياً أو نصرانياً أبداً، وأنه لا يدخل الجنة من لم يكن من أهل تلك الديانات، ولا دين عند الله سبحانه سواهما، فأجابهم الله سبحانه على لسان نبيه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾^(١) فكيف يدعي هؤلاء عدم فلاح من لم يكن يهودياً أو نصرانياً والحال أن إبراهيم لم يكن كذلك.

ولما تنزّلوا إلى المفاضلة وتقديم دياناتهم على الإسلام أجابهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٢) ليدل على أن أرباب تلك الديانات بالإضافة إلى ميلهم إلى الشرك والتعميد نسوا الإحسان وعلّت أيديهم، بينما يمتاز الدين الإسلامي بأنه دين البذل والإحسان والعطف.

ثم نبّه على أن الحنيفية هي دين الفطرة السليمة المقبولة للعقل، المطابقة للمصالح الواقعية، وليس هو عقاب أو تشديد مبتدع، فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(٣).

والنتيجة أن الأديان إذا كان ينسخ بعضها البعض، فالإسلام هو الناسخ لجميع الأديان لأنه آخر الأديان، وإذا لم ينسخ بعضها البعض وصار الجميع في معرض نقد واحد فالحنيفية هي الأفضل لأجل تلك الوجوه وغيرها، وبها أمر النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٤).

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) النساء: ١٢٥.

(٣) الروم: ٣٠.

(٤) النساء: ١٢٥.

وبذلك وأمثاله يُعلم الوجه في تلقيب ابن شهر آشوب الرسول المصطفى ﷺ بأنه صاحب الملة الحنيفية^(١).

٥٦١. صاحب الملحمة

إن حقيقة الدين والاعتقاد والأعمال الصالحة هي أسواق ومعاملات وأثمان وبيع وشراء، فأول الأثمان هي الاعتقادات الجازمة بوجود الله سبحانه وتوحيده وعدله وأنبيائه ورسله وأوليائه، ثم الاعتقاد بالمعاد على أنه يوم تصفية حساب تلك المعاملات.

والثاني: الأفعال كالصلاة والصوم والحج والأخلاق الحميدة وصدق الحديث والأمانة وغيرها.

والثالث: الأموال، أي الزكاة والصدقة والخمس والبذل لنشر الدين ونصرته، ومساعدة الفقراء وغيرها.

والرابع: عزيز النفوس، فهي المعاملة الكبرى يشتري بها الله سبحانه من المؤمنين أنفسهم.

وأما المثمن والمقابل فهي أمور عديدة منها المصالح العائدة لنفس البشر من آثار تلك الأعمال كاستتباب الأمن وسلامة البدن واستقرار النظام وتحسّن الوضع الاقتصادي واطمئنان النفس والشعور بالهدفية.

والأهم من ذلك ثواب الآخرة الذي هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وما تشتبهه الأنفس وتلدّ الأعين، فإنّ من الواضح جداً أن الذي خلق العالم وخلق الإنسان وجميع أحواله بما فيها لحظات السرور والظفر لقادر على أن يخلق أرضاً عالية فيها نعيم أكمل من نعيم الأرض الدانية وسرور دائم لا يزول، بل هي موجودة الآن ليس سوى أنهم ينقلون إليها،

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

وإنما يُنقل إليها من تعبد له وأحبه وتقرّب إليه ولم يعصه، ونفع عباده وما أضر بأحد حتى بذل نفسه في سبيله عز وجل.

فالخصيلة هي أن القتال المفروض هو أكبر سوق وأهمه؛ لأن المتبادل فيه هو أعلى السلع وأعلما قيمة، فلا يملك الإنسان أعلى من نفسه ولا يتوقع لها ثمناً أكثر من بلوغه إلى جميع ما يشتهيه ويؤمله والسرور الدائم والهيجان المستمر ورضوان من الله أكبر.

وإذا تقرر أن الإنسان يموت لا محالة ويبلى جسده، فما أفضل من أن يبيع نفسه بذلك الثمن الباهض^(١). وإذا تقرر أن التواجد على الأرض هو مجرد الامتحان والاختبار فليس هناك أدق من هذا الامتحان ولا أصعب منه، يختبر الله سبحانه من أحبه وأراده فيميز عن نفاق أو شكك وأخفى وتخلّف ليكون القتل شهيداً وشاهداً بتضحيته.

وأما من الناحية السياسية فإن طبع الإنسان كلما بذل وصرف طوعاً شيئاً مما يملك في مشروع من المشاريع تمسك به ولم يتخلّ عنه، وكلما كان المصروف أثن استبطاً الصارف في التخلي عنه أكثر، وذلك كمن يبني داراً ينفق فيها جميع ما يملك فإنه لا يتصور أن يتخلّى عنها في يوم من الأيام ولا ساعة من الساعات، وكذا إذا بذل ابنه الأمة أموالهم وأحباهم في مشروع سياسي ونظام منشود لا يتركونه ولا يتخلّون عنه ويتحسّون بسهمهم فيه.

(١) قال تعالى: **وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِبُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تَأْتُونَنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَكُمْ لِي كُنتُمْ تَقْلُونَ يَنْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَتَسْكُنُ فِيهَا فِي جَنَّاتٍ عَذْنِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٠﴾**

هذا عن قتلى المسلمين ولحومهم التي تجتمع في ميادين القتال، وأما قتلى الكفار ولحومهم التي تجتمع في تلك الميادين فإن مسار الأحداث كشف عن أن تلك الأبدان بحياتها لم تكن سوى سدود أمام قبول العمة للإسلام والمصير إلى الإيمان بالله الواحد فهي في الحقيقة حائل دون استتباب الأمن والتماسك بعد التمزق، فقد كان العرب يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً، فأصبحوا بعد رفع تلك الموانع والسدود أمة واحدة، فكانت إراقة دماء هؤلاء النفر وتقطيع أعضائهم مقدمة لتلاحم أمة وتماسكها وحفظ عمة أبنائها، على أن القتال يقل القتلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾^(١).

هذا بالإضافة إلى ما يقال من أن قتلهم تخفيف لهم؛ لأنه يجنبهم عن إكثار المعاصي وأنواع الظلم والتعدي.

ولما كانت الملحمة هي الواقعة العظيمة القتل أو موضع القتال، وإثما قيل لها ملحمة لكثرة لحوم القتلى، أو لأنهم يقطعون لحوم بعضهم. فكان يقف الرسول المصطفى ﷺ في ملحمة بعد ملحمة من الوقائع التي سبقت بدر الكبرى إلى آخر غزوة من غزواته، وذلك بشعار يا منصور أمت، ولكن لم يكن ليقاتل أحداً حتى يدعو إلى الإسلام، فكانت الغزوات التي حضرها بنفسه ست وعشرون غزوة، أولها غزوة بدر التي أمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقلب أن تعور ثم أمر بالقتل فطرحوا فيها ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلاً رجلاً: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، بنس القوم كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وأواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس» فقالوا: يا رسول الله أتنادي قوماً قد ماتوا؟! فقل: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»^(٢).

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) البحار: ١٩: ٣٤٦.

ولما كانت الملاحم التي صنعها الرسول ﷺ لم تقتصر على قتال الوثنيين وشملت بعض أهل الكتاب كفتح خيبر وقاتله لبني النضير وقتله لزعماء بني قريظة كان تحذير الأنبياء أهمهم من التورط في قتاله وتعريفه بأنه صاحب الملحمة ضرورياً ولذا نقلوا أن ذلك هو كنيته ﷺ في التوراة^(١).

على أن هذا اللقب لم يغفل عنه ابن شهر آشوب ونقله في عداد ألقابه ﷺ^(٢).

٥٦٢. صاحب المنشور والكتاب

المنشور هو الكتاب الذي لا يُختم ويكون مفتوحاً من كتب السلطان والحاكم، يكتب ليقرأه كل من أراد قراءته ويعرف بـ «الفرمان»، بخلاف الكتاب المختوم الذي يكتب ليقرأه واحد أو جماعة خاصة.

وتطلق كلمة المنشور في الغالب على كتب الملوك والرؤساء غير المختومة التي تعطى لبعض الأشخاص كأمان أو توصية وتأييد لكي لا يتعرض لهم أحد، فعندما يقال: عند فلان منشور، يفيد أن عنده مكتوباً يقويه ويؤيده^(٣).

ولما تتبعنا كلمة المنشور لاحظنا أنها تستعمل في موارد:

أحدها: الكتاب الذي يعطى المؤمن يوم القيامة، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن المؤمن يعطى يوم القيامة كتاباً منشوراً مكتوب فيه: كتاب الله العزيز، أدخلوا فلاناً الجنة»^(٤).

(١) إعلام الوري للطبرسي ١: ٥١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، البحار ١٦: ١٠٤.

(٣) انظر الفروق اللغوية للعسكري: ٥١٦.

(٤) كتاب الزهد للكوفي: ٩٢.

وهو بهذا المعنى قريب من المعنى اللغوي الذي ذكرناه لكلمة المنشور.

الثاني: ما أقسم به الله سبحانه وتعالى فقال عز من قائل في أول سورة الطور: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾^(١) ذكروا في تفسيره أموراً، منها ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كتاب كتبه الله عز وجل في ورقة آس ووضع على عرشه قبل خلق الخلق بألفي عام: يا شيعة آل محمد إني أنا الله أحببتكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني»^(٢).

ومنها: أنه الكتاب الذي كتبه الله إلى خلقه من الملائكة في السماء يقرؤون فيه ما كان وما يكون.

ومنها: أنه القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ وقيل: هو صحائف الأعمال وقيل: هو التوراة كتبها الله لموسى في الألواح، وقيل: إنه القرآن يكتبه المؤمنون في رق وينشرونه لقراءته، وقيل: هو ما في قلوب أولياء الله سبحانه من المعارف والحكم، أو ما تكتبه الحفظة في رق منشور^(٣).

الثالث: علي بن أبي طالب عليه السلام لما روي أنه عليه السلام قال لفاطمة عليها السلام: «أنا الرق المنشور» فقالت: «وأنا البيت المعمور»^(٤). وهو يدخل في الكنايات والمجاز؛ لأن المراد إما حب أمير المؤمنين عليه السلام أو ولايته التي هي أمان وذريعة للمؤمن يوم القيامة ويكون في قلبه يتقوى به كما يكون منشور السلطان كذلك، أو أنه عليه السلام يعطي شيعته منشوراً، أو أن المعالم والعلوم قد ثبتت في

(١) الطور: ١ - ٣.

(٢) البحر: ٢٧ : ١٣٨.

(٣) انظر التبيان: ٩ : ٤٠٢، ومجمع البيان: ٩ : ٢٧١، والبحار: ٧ : ٢٧، وج: ٥٤ : ٣٦٠.

(٤) الفضائل لشاذان القمي: ٨٢.

قلبه كما تثبت في الكتاب المنشور.

الرابع: كلمة المنشور تأتي صفة للكتاب، فيكون بمعنى مبسوط ومفتوح ومبروز، قال تعالى: ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾^(١) وهي صحيفة الأعمال التي يتقوى بها المؤمن ويخزي بها الكافر، فيقول المؤمن: ﴿هاؤمُ اقرؤوا كتابي﴾^(٢).

وإذا قيل إن الرسول ﷺ هو صاحب المنشور والكتاب فلا أظن أن المراد به شيء من تلك المعاني، ولا بد من إرادة منشور وكتاب مصيري له أثر عظيم، ولا يمكن أن يكون المراد سوى المنشور الذي يحمله المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه يتقوى به وتتم الحجة به على الناس، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ أنه الكتاب الذي كتبه علي بن أبي طالب عليه السلام والرَّقَّ المنشور الذي أخرجه رسول الله ﷺ من حجرة إزاره، وفي هذا الخبر أن رسول الله أمر علياً عليه السلام أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من الله ومن رسوله ومن علي بن أبي طالب لفلان بن فلان باسمه واسم أبيه»^(٣).

وورد في خبر آخر عن أبي جعفر عليه السلام: أن القائم يهبط من ثنية ذي طوى في عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، حتى يسند ظهره إلى الحجر الأسود، فقال: «كتاب منشور»^(٤).

ولعل ما ذكرناه من المعاني يفسر ما ذكره ابن شهر آشوب من ألقاب

(١) الإسراء: ١٣.

(٢) الحاقة: ١٩.

(٣) دلائل الإمامة: ٤٧٨، مستدرک سفينة البحار ٦: ٥٧٨.

(٤) كتاب الغيبة للنعمانى: ٣١٥.

النبي ﷺ أعني صاحب المنشور والكتاب.^(١)

٥٦٣. صاحب الناقة العضباء

كان لرسول الله ﷺ في طول فترة حياته عدّة نوق يركب عليها ولكل ناقة اسم خاص، كالقصوى أو القصواء والصبهاء والديباح والجدعاء، ويبدو أنّ أكثر ناقة لزمها رسول الله ﷺ هي العضباء، وله عليها مواقف ومشاهد كثيرة وعظيمة.

ولكن هل كانت هذه الناقة لرسول الله ﷺ من السابق وقبل الهجرة، وهل هاجر عليها، أو أنها غنيمة حرب؟

فقد نقلوا أنها كانت لرجل من بني عقيل وكانت من سوابق الحاج فأسر الرجل وأخذت العضباء معه^(٢)، وذكروا أيضاً أنه ﷺ لم يهاجر عليها وإنما هاجر على ناقة اسمها القصواء اشتراها من أبي بكر بأربعمائة درهم وهاجر عليها نفقت عنده^(٣).

وهناك روايات تدلّ على خلاف ذلك وأنها كانت موجودة عنده قبل معركة بدر، بل هي التي هاجر ﷺ عليها، فقد ورد في حديث الهجرة أن رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «فديتك يا أبا الحسن اخرج لي ناقتي العضباء حتى أركب عليها وأخرج إلى الله تعالى هارباً من مشركي قريش وافعل بنفسك ما تشاء، والله خليفتي عليك»^(٤).

ومهما يكن من ذلك فقد سميت بذلك لنجاتها، أو هو مجرد اسم

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، بحار الأنوار ١٦: ١٠٦.

(٢) مسند أحمد ٤: ٤٣٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٤٦، ونفقت يعني ماتت.

(٤) الهداية الكبرى للخصيبي: ٨٣.

عَلِمَ لها، ولا يقصد به إلى معنى؛ لأن معنى العضباء هي المشقوقة الأذن، والعضباء لم تكن كذلك^(١).

وأهم صفة لهذه الناقة أنها كانت لا تسبق كلما خرجوا لسفر أو أجريت مسابقة، ومنها أن رسول الله ﷺ أجرى الإبل مقبلة من تبوك فسبقت العضباء وعليها أسامة، فجعل الناس يقولون: سبق رسول الله ﷺ ورسول الله يقول: «سبق أسامة»^(٢).

ومن صفاتها أيضاً أنها كانت داجناً لا تمنع من حوض ولا علف، ومن أجل ذلك لما أغار المشركون على سرح المدينة فذهبوا بها وكانت العضباء فيه وأسروا امرأة من المسلمين فكانوا إذا نزلوا أراحوا إبلهم بأفئنتهم فقامت المرأة ذات ليلة بعد ما نَوْمُوا فجعلت كلما أتت على بعير رغا حتى أتت على العضباء فأنتت على ناقة ذلول مجرسة^(٣).

ثم إن العضباء ظلت بتلك المواصفات مدة طويلة حتى جاء أعرابي على قعود له فسابق بها فسبقها فشق ذلك على الصحابة، فقال النبي ﷺ: «حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»^(٤) وفي رواية أخرى عن سعيد بن المسيب قال: كان لرسول الله ﷺ ناقة يقال لها العضباء إذا تسابقنا سبقت، فجاء أعرابي على بكر فسبقها، فاغتم المسلمون، فقيل: يا رسول الله سُبقت العضباء! فقال: «حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً في الأرض إلا وضعه»^(٥).

(١) انظر المجازات النبوية: ٣٦٩، الفارات للثقفى ٢: ٣٨.

(٢) قرب الإسناد: ١٣٤.

(٣) مسند أحمد ٤: ٤٣.

(٤) البحار ٦٠: ١٤.

(٥) عوالي اللئالي ٣: ٢٦٥ ح ٣.

وفي رواية نسبة ذلك إلى تأثير العين وقول رسول الله ﷺ: «ما رفع الناس أبصارهم إلى شيء إلا وضعه الله»^(١).

وتبقى المواقف والمشاهد التي أشرنا إليها أولاً وهي عديدة:

منها: روي أن رسول الله ﷺ طاف على ناقته العضباء وجعل يستلم الأركان بمحجنه ويقبل المحجن^(٢).

ومنها: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة، تلقاه رسول الله ﷺ على غلوة من معرسة بخير، فلما رآه جعفر أسرع إليه هرولة، فاعتنقه رسول الله ﷺ وحادثه شيئاً ثم ركب العضباء وأردفه، فلما انبعثت بهما الراحلة أقبل عليه، فقال: «يا جعفر يا أخ ألا أحبوك؟ ألا أعطيك؟ ألا أصطفيك؟» فظن الناس أنه يعطي جعفرأ عظيماً من المال - وذلك لما فتح الله على نبيه خير وغنمه أرضها وأمواها وأهلها - فقال جعفر: بلى فذاك أبي وأمي، فعلمه صلاة التسبيح^(٣)، وهي المعروفة بصلاة جعفر الطيار.

ومنها: خطبته وهو ﷺ على الناقة، فقد روي عن أنس قال: خطبنا رسول الله ﷺ على ناقته العضباء فقال: «أيها الناس كأن الموت على غيرنا كتب...»^(٤) وفي موضع آخر نعى نفسه ﷺ عليها، منها أنه خطب يوم النحر بمنى في حجة الوداع وهو على ناقته العضباء، فقال: «أيها الناس إنني خشيت أني لا ألقاكم بعد موقفي هذا بعد عامي...»^(٥)، وروي أنه قال:

(١) نوادر الراوندي: ١٧.

(٢) الكافي ٤: ٤٢٩ ح ١٦. المحجن: خشبة في طرفها اعوجاج.

(٣) البحار ٨٨: ١٩٣.

(٤) البحار ٧٤: ١٧٥.

(٥) مستدرک الوسائل ١٧: ٨٧ ح ٢٠٨١٦.

«إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(١).
ومنها: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث بها أبا بكر،
دعا علي بن أبي طالب عليه السلام وبعثه في أثره على ناقته العضباء وأمره أن
يأخذها منه ويقرأها على الناس ويؤذن في الناس يوم النحر أنه لا يدخل
الجنة كافر ولا ينج بعد العام مشرك.. وقال ﷺ: «لا يؤدي عني إلا رجل من
أهل بيتي»^(٢).

ثم إن الناقة ظلت عنده وكانت من موروثه ﷺ ولكن روي أنها لم
تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت.

ويذكر أن النبي ﷺ كان يلقب بـ «صاحب الناقة العضباء» كما ذكره
ابن شهر آشوب^(٣)، وكانت الجن تعرفه بذلك أيضاً، فقد ذكر البعض أنه
لما رجع الناس من الأحزاب بينا أنا في إبلي بطرف العقيق من ذات عرق
راقداً سمعت صوتاً، وإذا أنا برجل على جناح نعامة وهو يقول: النور الذي
وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء في ديار إخوان بني العنقاء،
فلجابه هاتف من شماله وهو يقول:

بشّر الجن وأبلاسها أن وضعت المطي أحلاسها^(٤)

والروايات متواترة في جميع العضباء يوم القيامة وإن اختلفت
الروايات فيمن سيركبها اختلافاً شديداً، والأصح أنها فاطمة الزهراء عليها السلام،
فقد روي أن النبي ﷺ قال: «يا معشر بني هاشم، يا معشر بني عبد المطلب
أنا محمد، أنا رسول الله، إلا أنني خلقت من طينة مرحومة في أربعة من

(١) البحار ٢٣: ١١٨ ح ٣٥.

(٢) وانظر سيرة ابن هشام ٤: ٩٧٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

(٤) البداية والنهاية ٢: ٤١٧.

أهل بيتي أنا وعلي وحمة وجعفر» فقال قائل: يا رسول الله هؤلاء معك ركبنا يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتك أمك إنه لن يركب يومئذٍ إلا أربعة أنا وعلي وفاطمة وصالح نبي الله، فأما أنا فعلى البراق، وأما فاطمة ابنتي فعلى ناقتي العضباء، وأما صالح فعلى ناقة الله التي عُقرت، وأما علي فعلى ناقة من نوق الجنة...»^(١).

وروي أنه ﷺ قال: «بيعت الله صالحاً على ناقته» قيل: يا رسول الله، وأنت يومئذٍ على العضباء؟ قال: «لا، ابنتي فاطمة على العضباء، وأحشر أنا على البراق»^(٢).

٥٦٤. صاحب النسب الأشهر

افتخر النعمان بن المنذر عند كسرى عظيم الفرس فقال: أما الأمم التي ذكرت، فأبي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها.
قال كسرى: بماذا.

قال: بعزتها ومنعتها وبأسها وسخائها، وحسن وجوها، وحكمة ألسنتها ووفائها وأحسابها وأنسابها... وأما أحسابها وأنسابها، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت أصولها، وكثيراً من أولها وآخرها، حتى أن أحدهم يسأل عما وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا يدعى لغير أبيه^(٣).

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل اصطفى من ولد

(١) الخصال: ٢٠٤، أمالي الصدوق: ٢٧٥.

(٢) كنز العمال ١١: ٤٩٩ ح ٣٢٣٤٠.

(٣) شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: ٣٦٨.

إبراهيم إسماعيل، واصطفي من بني كنانة قريشاً، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم^(١).

ومهما يكن من أمر فإن نسب الرسول ﷺ إلى النبي إبراهيم مشهور منقول متفق على أكثره، وليس هناك نسب أشهر منه، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن خزيمه بن مدركة بن إلياس النبي بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن زيد بن يقدد بن يقدم بن الميسع بن نبت بن قيثار بن إسماعيل.

ثم إن العرب إذا كانت لها أنساب محفوظة وآباء معروفة صارت أنسابها تضع بمجور الأزمان ليصدق قوله ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسيبي»^(٢). فقد ظلّ محفوظاً ومكتوباً في ذريته وأبنائه، وهم السادة الحسينيون والحسينيون، ومن شاء فليراجع كتب الأنساب مثل كتاب المجدي، بالإضافة إلى احتفاظ أكثر السادة والذرية بشجرتهم.

وإنما تنفع معرفة الأنساب بصورة كلية لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية كمطلوبية صلة الأرحام والموارث والحقوق، وفي خصوص نسب النبي ﷺ ليضاف إليه مطلوبية احترامهم ووصول نصف الخمس إليهم، بل حتى الولاية لما روي من قول النبي ﷺ: «الأئمة من قريش من أهل البيت عليهم السلام»^(٣)، وإن ضيّع الظالمون كلمة من أهل البيت.

ومن هنا انبرى ابن شهر آشوب فعد من ألقاب النبي ﷺ صاحب

(١) البحار ١٥ : ١٢٠.

(٢) شرح الأخبار للقاضي نعمان ٢ : ٥٠٦، وج ٣ : ٥ ح ٩٢٠، مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٧.

(٣) المعجم الصغير للطبراني ١ : ٣٧، مناقب ابن المغازلي: ١٠١ ح ١٤٤، مناقب

الخوارزمي: ٦٢، بيان الشافعي: ٤٨٦، ذخائر العقبى: ٤٤.

النسب الأشهر^(١)، وهو أوضح من أن يخفى.

٥٦٥. صاحب النعلين

يُذكر أنه جاء في الإنجيل: يا عيسى جد في أمري ولا تهزل، واسمع وأطع... صدقوا النبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة والتاج - وهي العمامة - والنعلين والمراوة، وهي القضيب، الأجل العينين، الصلت الجبين^(٢).

فقد أعطى الله سبحانه وتعالى مواصفات النبي ﷺ ومشخصاته الظاهرية، كما إذا أراد شخص أن يصف النبي ﷺ وهو أمامه واقف أو راكب، فماذا يرى وماذا سيقول عنه.

لا بد أنه سيذكر مركوبه وثيابه ولبسه للنعل وإمساكه المراوة ثم يذكر أوصاف بدنه الدقيقة.

ولا أظن أن تسميته بصاحب النعلين أكثر من كونها وصفاً داخلاً في مجموع أوصافه إلا أن يفرض امتياز للنبي ﷺ بذلك أو تفرده بهذا العمل أو شدة حرصه على ذلك من بين الناس، وإلا فأول من لبس النعلين هو النبي إبراهيم عليه السلام كما جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ^(٣) وتبعه سائر الأنبياء عليهم السلام أو أنه هبة الله ابن آدم واسمه شيث كما يستفاد من الكلام القادم.

نعم بين مواريث الأنبياء التي كانت عند النبي ﷺ نعلا عبدالمطلب التي يحتمل أن تكونا نعلي شيث عليه السلام التي ورثها هاشم كما في الخبر^(٤).

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

(٢) كمال الدين: ١٥٩، تاريخ دمشق ٣: ٣٩٧، قصص الأنبياء لابن كثير ٢: ٤١٧.

(٣) علل الشرائع ٢: ٥٩٦، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٢.

(٤) البحار ١٥: ٣٨، وانظر البحار ١٦: ٦٧.

ولما كان العرب لا يلبسون النعل عادة، بل ظلت هذه الحالة سائدة حتى بعد النبي ﷺ، فكون النبي ﷺ صاحب جمل - أي عربي - يلبس النعلين، ويحرص على ذلك ويواظب عليه كان ذلك له ﷺ صفة مشخصة. بالإضافة إلى تأكيده على لبس النعلين واستجداتهما ولبسهما من جلوس مع تقديم اليمنى، وما جاء عنه وعن أهل بيته عليهم السلام من فوائده من كونه وقاية للبدن، وزيادة في ضوء البصر، وأماناً من السل، وعوناً على الصلاة والطهور.

وورد التأكيد على النعل البيضاء والصفراء وكراهة السوداء وأنها تورث الغم والتكبر وكذا كراهة اللبس من قيام، واستحباب الابتداء باليمين وغير ذلك^(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾^(٢) أي انزع حبا أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة. فهي تدل على أن النعلين كناية عن الزوجة، ويكون توصيف النبي ﷺ بصاحب النعلين ﷺ صاحب زواج ونساء، فيدخل في تنبيه النصارى على عدم إشكالية إكثار الرسول ﷺ اختيار النساء فيكون رادعاً لهم عن قبول دعوته كما نبههم بأنه صاحب السيف والتاج يعني الحرب والملك وغيرهما.

٥٦٦. صاحب النور الساطع

الساطع هو المنتشر والمرتفع، ويقال للصبح إذا طلع ضوءه في السماء قد سطع يسطع سطوعاً أول ما ينشق مستطياً، وكذلك البرق يسطع في السماء، وكذلك ذنب السرحان مستطياً في السماء قبل أن ينتشر في

(١) انظر الوسائل ٥: ٦١ ب ٣٣ - ٤٤ أبواب أحكام الملابس.

(٢) طه: ١٢.

الأفق، أي الصبح الكاذب^(١). وحتى مثل نور الشهاب، فقد ورد عن علي عليه السلام يصف رسول الله ﷺ قائلاً «شهاب سَطَعَ نوره»^(٢).

فيعلم من جميع ذلك أن عنوان صاحب النور الساطع يشبه الرسول ﷺ بجرم سماوي نوراني سَطَعَ في ليل داجٍ ولاح في الأفق.

أما أنه سماوي فلأنه كان نوراً حول العرش يسبِّح الله تعالى فأهدي إلى أهل الأرض، وأما الليل فهو ظلمة الشرك المطبقة على الأرض والجهل المقبع عليها، وأما نورانيته ﷺ فهي هديه وعلمه الذي ظهر في الجزيرة لينتشر ويشمل جميع الأرض بمرور الأيام.

وبذلك يكون وجه الفرق بينه وبين الشمس أن الشمس ينتشر ضوءها سريعاً خلال دقائق، بينما انتشار نور النبي ﷺ يستغرق فترة طويلة وحتى قرون، غير أنه ﷺ يمتاز عليها بعدم غروبه واختفائه، والشمس تغرب وتطلع. ويختلف عن البرق والشهاب بقلة ضيائهما وكثرة ضيائه، وقلة عمرهما وطول عمره وبقائه، وإخافتهما وهو ﷺ أمانة لأهل الأرض.

ويتباين مع الصبح الكاذب، لأنه ﷺ هو الصبح الصادق، والدليل الصائب، والعلم الصالح.

قال أبو جعفر عليه السلام: «سمعت أبيائي يحدثون: كانت لقريش كاهنة يقال لها جرهمانية ولها تابعة من الجن... قالت لها: جرهمانية حيل بيني وبينك، جاء النور الممدود... أحمد... فقالت: ويحك ومن أحمد؟ قالت: ابن عبد الله بن عبد المطلب يتيم قريش صاحب الغرة الحجلاء والنور الساطع»^(٣).

(١) لسان العرب ٦: ٢٥٨ «سطع».

(٢) نهج البلاغة ١: ١٨٥.

(٣) البحار ١٥: ٢٩٧.

٥٦٧. صاحب النور المضيئ

تقدم الكلام عن نور رسول الله ﷺ في عناوين كثيرة، وأظن أن المراد به في هذا الموضع هو نور وجهه الذي يُرى في الليلة الظلماء، فقد ذكر هند بن أبي هالة أن رسول الله ﷺ كان فحماً مفحماً يتلألأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، وإن كان المحتمل إرادة النور المضيئ في الأذهان، أو يوم القيامة كما مر، على أن هذا اللقب ذكره ابن شهر آشوب أيضاً^(١).

٥٦٨. صاحب النور والضياء

الفرق بين النور والضياء هو أن الضياء ما يتخلل الهواء من أجزاء النور فيتأجج ويبيض بذلك، والشاهد أنهم يقولون: ضياء النهار، ولا يقولون: نور النهار.

بينما النور لمطلق المنشعب من الشمس والسراج وكل ما كان منكشفاً بنفسه كاشفاً لغيره ومظهِراً له.

فالنبي ﷺ بالمرحلة الأولى هو صاحب النور الذي انشعب منه فكشف عن حقيقة التوحيد وكرامة الإنسان، ولكنه سرعان ما تأجج في أذهان المؤمنين وصار ضياءً. وهكذا فإن هدي الرسول ﷺ اليوم هو نور في ذهن كل من عرفه وعرف دعوته، ولكن متى ما آمن منهم أحد تأجج في ذهنه هذا النور فصار ضياءً أبيض كضياء الصبح، ولذا عدّ ابن شهر آشوب من ألقابه ﷺ صاحب النور والضياء^(٢).

٥٦٩. صاحب الهراوة والنعلين

الهراوة هي القضيب، وإمساكها من مشخصاته التي تقدم الكلام

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

عنها مراراً تحت عنوان صاحب القضييب وصاحب النعلين وغيرهما.

وإنما كان يمسك الأنبياء الهراوة لأن الغالب في عملهم الرعي، فلما قال الله سبحانه وتعالى لموسى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾^(١).

وإنما كان الغالب في عملهم الرعي لكي يتعلموا سياسة العباد وتمشيتهم ورعيهم في طريق صلاحهم ومنجاتهم، بالإضافة إلى الفوائد التي تكون في حمل الهراوة في التوكؤ عليها المساور للتواضع والانحناء، والمآرب الأخرى هي دفع الهوام والوحوش والسترة في البراري عند الصلاة وإبعاد الشيطان، وإناحة النوق واستنهاضها وغيره.

والرسول المصطفى ﷺ لم ينشأ وما أن بلغه ستان نظر إلى حليلة وقل لها: «مالي لا أرى إختوتي بالنهار وأراهم بالليل؟» فقالت له: سألتني عن إختوتك وهم يخرجون في النهار إلى الرعاء، فقل لها النبي ﷺ: «يا أمه أحب أن أخرج معهم إلى الرعله وأنظر إلى البر والسهل والجبل وأنظر إلى الإبل كيف تشرب اللبن...» فلما أصبحوا اليوم الثاني بعثته مع أولادها وأوصت به^(٢).

فلا يغرب بعد ذلك وصف النبي بأنه صاحب الهراوة عن الأذهان، وقد تقدم نقله عن الإنجيل، وبعده عدّ القاضي عياض من أسماء النبي ﷺ صاحب الهراوة والنعلين، على أن الكلام في النعلين قد تقدم^(٣).

٥٧٠. صاحب الهيبة والوقار

الهيبة هي الإجلال والخافة، فيكون صاحب الهيبة بحالته إذا رآه الرائي

(١) طه: ١٧ - ١٨.

(٢) البحار ١٥: ٣٤٩.

(٣) الشفا ١: ٢٣٤، وانظر نظم درر السمطين: ٣٧، والبحار ١٦: ١٣٠.

عظمه وخافه وتهباً أمامه يجمع الشتات والتوقر وسكون الأعضاء.

والوقار هو الحلم والرزانة والسكون عند هيجان الشهوة وغيرها، بل سكون النفس بالله وعدم اضطرابها لشيء سواه.

وجاء التعبير عن الهيبة - في الأخبار - بالرداء، فقد ورد: «أن الله أكرم نبيه بستة كرامات: ألبسه قميص الرضا، ورداه برداء الهيبة، وتوجه بتاج الهداية...»^(١) فالتعبير بالرداء تعبير ظريف؛ لأن الرجل إذا هاب الشخص ونظر جلاله ستر ذلك ضعفه، ولم يتجرأ عليه أحد فيستخفه، فتكون الهيبة له رداءً يستره ويزينه ويظهره بالمنظر اللائق، فكان من لا هيبة له عارٍ ومستصغر.

وجاء التعبير عن الوقار بالتاج والزينة، فقد ورد فيه عنه: «أن الله ألبسه تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار...»^(٢) وهو تعبير ظريف أيضاً معزواً إلى الملازمة بينهما، فمتى يضع الملك التاج على رأسه كلّفه ذلك قلة الحركة وسكون الأعضاء والرزانة كي لا يسقط التاج ويزول عزّه ومجده.

ولا شك أن الهيبة والوقار زينة كما أن الرداء والتاج زينة اللابس، ولذلك قال علي بن الحسين عليه السلام في بعض دعائه: «يا سيدي أنت أنقذت أوليائك من حيرة الشكوك، وأوصلت إلى نفوسهم حبرة الملوك، وزينتهم بحلية الوقار والهيبة»^(٣).

ثم إن للوقار والهيبة أسباباً وعللاً يأتي الإشارة إليها تختلف عن دلائل هيبة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ووقاره، فإن هيئته ووقاره بالإضافة إلى أنه موروث من أجداد كرام كهاشم وعبد المطلب فهو منحة الله سبحانه وتعالى،

(١) الخصال: ٤٨٣، معاني الأخبار: ٣٠٨.

(٢) الكافي ١: ٢٠٣.

(٣) الصحيفة السجادية: ٤٦٥.

وهو الذي أكرمه بالهبة وزينه بالوقار؛ لأنه ﷺ رسوله والمنتسب إليه حتى قال ﷺ: «أعطيت الهبة والوقار، وأعطي علي الشرف والفخار»^(١) وقد مرَّ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ردَّاه برداء الهبة وألبسه تاج الوقار وزينه به.

وورد: «أن الله سبحانه وتعالى وضع خمسة أنوار في خمسة مواضع فأثمرت خمسة أشياء: في عارض إبراهيم فأثمر الرحمة، وفي وجه يوسف فأثمر الحبة، وفي يد موسى فأثمر المعجزة، وفي جبين محمد ﷺ فأثمر الهبة، وفي ساعد علي فأثمر الإسلام»^(٢). وهي تدل على أنَّ السبب في هيبته ﷺ النور الذي في جبينه بحيث يراه الرائي ويلحظه، ذلك النور الذي طالما تكلمنا عنه.

ويبقى الكلام في كيفية اجتماع تلك المهابة والخوف مع حب المسلمين للنبي ﷺ واقترابهم منه وإكثار السؤال والإلحاح عليه وحتى الاعتراض عليه، فإن هذا ما يفسره كلام أمير المؤمنين عليه السلام: حينما وصف النبي ﷺ فقال: «من رآه بديهته هابه، ومن خالطه أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله»^(٣) فهو يريد أن من رآه أول مرة وفجأة وبغته ولقيه قبل الاختلاط به هابه وخافه وقاراً وهيبته، ولكن نفس هذا الشخص إذا خالطه وجالسه بانَّ له حُسن خلقه ولين عريكته فأحبه حباً بليغاً وأنس به، ولأجل اجتماع تلك المهابة مع الحب وغير ذلك من صفاته الحسنة يعجز واصفه عن وصفه فيقول: لم أر قبله ولا بعده مثله أو من يساويه صورة وسيرة.

هذا كله عن هيبة الناس له، وأما هيبته لله سبحانه وتعالى وخوفه منه، فهو صعيد آخر، وله أسباب ترجع إلى ابتداء خلقه وإدخاله في الحجب والأنوار، الواحد بعد الآخر، حتى أدخله في حجاب هيبته وهو يقول:

(١) نهج الإيمان: ٤١٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٧.

(٣) الغارات ١: ١٦٨، أمالي الطوسي: ٣٤١، مكارم الأخلاق: ١٨.

«سبحان من هو غني لا يفتقر» تسعة آلاف سنة^(١)، فحصل له عند ذلك كمال الانكسار والخوف الشديد.

ولا غرو أن الوقار والهيبة أمر مطلوب لعامة المؤمنين، ورد الأمر به في أخبار عديدة منها قولهم: «ليكن شيمتك الوقار، فمن كثر خرقة استرذله»^(٢)، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام عريان، فلباسه الحياء، وزينته الوقار...»^(٣).

على أن الحلم والصمت هو السبب في حصول الوقار، وبالوقار تكثر الهيبة، بينما كثرة المزاح تسقطها وتوهنها.

وأما موهنات خصوص الوقار فهي كثيرة جامعها أنواع السكر والغرور، الأمر الذي يحتم على العاقل أن يحترس من سكر المال وسكر القدرة وسكر العلم وسكر المدح وسكر الشباب، فإن لكل ذلك ريحاً خبيثة تسلب العقل وتستخف الوقار كما جاء في الخبر^(٤).

ولا شك أن الرسول ﷺ يتمتع بكل مؤهلات الهيبة التي تكون لكل مهاب بالإضافة إلى ما ذكرناه من الأسباب والعلل المختصة به وما تفرّد بها، تجلّى كل ذلك يوم دخوله على خديجة حيث كانت مكة ترتج بأهلها وكثر الكلام وحمزة عم النبي قائم وهو يقول: يا أهل مكة الزموا الأدب، وقللوا الكلام... فإنه قد جاءكم صاحب الزمان محمد المختار من الملك الجبار، المتوجّج بالأنوار، صاحب الهيبة والوقار^(٥).

(١) البحار ١٥: ٢٨.

(٢) مستدرک الوسائل ١٢: ٧٣.

(٣) الكافي ٢: ٤٦ ح ٢.

(٤) عيون الحكم والمواعظ: ٥٥٢.

(٥) البحار ١٦: ٦٧.

٥٧١. صاحب الوسيلة

كان رسول الله ﷺ يقول: «إذا سألتم الله، فاسألوا لي الوسيلة» وهي في الأصل المنزلة عند الملك والدرجة والقربة لديه، فيقال: توسّل الشخص إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، فالوسيلة هي المقرب في الواقع، وقيل: هي الشفاعة يوم القيامة، ويمكن الجمع بجعل الشفاعة في المذنبين هي عمل مقرب من الله سبحانه، لأن الله سبحانه يحب حب الخير للآخرين.

ولكن الرسول ﷺ لما سئل عن الوسيلة قال: «هي درجتي في الجنة» والجنة لها درجات يستقر فيها أهلها بحسب مراتبهم وأعمالهم، وأعلى درجاتها منازل الأنبياء والأوصياء، وأعلى درجاتهم نبينا وأوصياؤه عليهم السلام، والظاهر أن المراد هو العلو المكاني؛ لأن النبي ﷺ قال: «وهي ألف مرقة جوهر إلى مرقة زبرجد إلى مرقة لؤلؤة إلى مرقة ذهب إلى مرقة فضة، فيؤتى بها يوم القيامة حتى تنصب مع درجة النبيين، فهي في درجة النبيين كالقمر بين الكواكب، فلا يبقى يومئذ نبي ولا شهيد ولا صديق إلا قال: طوبى لمن كانت هذه درجته، فينادي المنادي ويسمع النداء جميع النبيين والصديقين والشهداء والمؤمنين: هذه درجة محمد ﷺ»^(١).

وفي خبر آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه خطب خطبة الوسيلة فقال فيها: «أيها الناس إن الله تعالى وعد نبيه محمداً ﷺ ووعدته حق، ولن يخلف الله وعده، إلا وإن الوسيلة أعلى دَرَج الجنة وذروة ذوائب الزلقة، ونهاية غاية الأمانة حتى تتمنى لها ألف مرقة ما بين المرقة إلى المرقة حضر الفرس الجواد مائة عام، وهي ما بين مرقة درة إلى مرقة جوهر، إلى مرقة زبرجدة، إلى مرقة لؤلؤة، إلى مرقة ياقوتة، إلى مرقة زمردة، إلى مرقة مرجانة إلى مرقة كافور، إلى مرقة عنبر، إلى مرقة بلنجوج»^(٢)، إلى مرقة ذهب، إلى مرقة غمام،

(١) البحار ٧: ٣٢٦.

(٢) البلنجوج: عود جيد.

إلى مرقاة هواء، إلى مرقاة نور، قد أنافت على كل الجنان، ورسول الله ﷺ يومئذ قاعد عليها مرتد بريطتين، ربطة من رحمة الله، وريطة من نور الله، عليه تاج النبوة وإكليل الرسالة قد أشرق بنوره الموقف، وأنا يومئذ على الدرجة الرفيعة وهي دون درجته...^(١)

وهذا الخبر الأخير أقرب إلى الارتفاع المعنوي والذهني، فهو تمثيل لإدراك غاية الأمنية إذا كانت أمانى البشر لا تنتهي عند حد، وهو يريد أن يلتذ بكل الملاذ التي منها لذة الجوهر ولذة الدر ولذة العنبر والمسك والتحليق في الغمام، فهو يريد إدراك جميع الملاذ بالقرب من الله سبحانه، مما يؤيد قوله ﷺ: حتى تمنى لها ألف مرقاة مما تفقده الرواية السابقة، فليست هي ألف مرقاة بل تمنى لها ألف مرقاة، بمعنى ألف نوع من أنواع الأمانى المحصورة بهذا العدد من الأنواع بما لا تزيد عليه.

ومهما يكن من أمر فقد جاء في بعض زيارات النبي ﷺ: جئتك يا رسول الله زائراً، وقصدتك راغباً، متوسلاً إلى الله سبحانه، وأنت صاحب الوسيلة والمرتبة الجليلة، والشفاعة المقبولة، والدعوة المسموعة...^(٢)

٥٧٢. صاحب الوجه الأحمر

قدم أبو الصمصام العبيسي على رسول الله ﷺ وأناخ ناقته على باب المسجد، ودخل وسلم وأحسن التسليم ثم قال: أيكم الفتى الغوي الذي يزعم أنه نبي؟

فوثب سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال: يا أبا العرب، أما ترى صاحب الوجه الأحمر، والجبين الأزهر...^(٣)

(١) الكافي ٨ : ٢٤.

(٢) المزار للمشهدي: ٧٢، البحار ٩٧ : ١٧١.

(٣) الثاقب في المناقب لابن حمزة الطوسي: ١٢٧.

فالمستفاد من هذه الرواية أن الأعرابي لما سمع بظهور النبي ﷺ وعلم بدعوته إلى الإسلام جذبته ما جاء به النبي ﷺ من الدين بعض الجذب بحيث لم يتمكن من أن يترك الهجره إليه وكان في نفسه باعثاً حثيثاً يدفعه إلى قبول الدعوة مهما كان ذلك الدافع، ولولم يكن يهجمه ظهور النبي ﷺ أو لا يحتمل صدقه بتاتاً فما الذي جاء به، ولماذا أحسن التسليم؟

وأما تلفظه بكلمة الغوي فهي كلمة كانت منتشرة بين غير المسلمين من العرب لعلها تدخل في صلاقة العرب، أو أنه قالها ليحرز مطالب في نفسه ويستنزف كل ما عند الرسول ﷺ من الحجج ليكذبه بتاتاً أو يصدقه ويؤمن به كذلك.

وهنا يأتي دور سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ليرجع كفة التصديق وإن كان ظاهر عمله وكلامه هو الدلالة على شخص النبي ﷺ ولكن حقيقته هي الدلالة على نبوته بنور وجهه فقال له: أما ترى صاحب الوجه الأحمر، فهو يعني أن سؤالك يا أعرابي في غير محله، نوره الذي يدلك عليه، وترديدك وشكك ليس في محله، فنوره دليل صدقه ودليل نبوته، وتستمر هذه القصة لتنتهي في إسلام هذا الأعرابي بعد ما سأل من النبي ﷺ مسائل بل جاء بشمانين من قومه أسلموا جميعهم.

ومن هنا يعلم مقدار أهمية هذه الصفة لرسول الله ﷺ، ومدى تأثيرها في إيمان الكثير ممن رآه.

ويؤكد أهميتها ورودها في الإنجيل، فإن في المفتاح الرابع منه: من الوحي إلى المسيح أن قل لبني اسرائيل: ما أجهلكم تطيبون بالطيب لتطيبوا به في الدنيا عند أهلها وأهلكم، وأجوافكم عندي كالجيفة المنتنة، يا بني اسرائيل آمنوا برسولي النبي الأمي الذي يكون في آخر الزمان

صاحب الوجه الأقرم والجمال الأحمر المشرب بالنور^(١).

فهو الآخر يدل على كفاية نور وجهه ﷺ لمعرفته والاستدلال على نبوته، مما يدخل في مقام بيان صفته التي تُعرفه لبني إسرائيل، ومشخصته التي تغني عن كل مشخصة وهي نور وجهه وركوبه الجميل.

وكذا يؤكد أهمية هذه الصفة ما جاء في بعض زياراته ﷺ: السلام عليك يا ذا الوجه الأقرم، والجبين الأزهر، والطرف الأحور، والحوض والكوثر...^(٢).

٥٧٣. صاحب الوجه الأنور

إن نور الوجه من آثار العبادة والطاعة خصوصاً التهجد وقيام الليل، معلل بذلك في الأخبار التي منها الخبر المروي عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: لما سئل: ما بال المهجدين من أحسن الناس وجهاً؟ فقال: «لأنهم خلّو بالله سبحانه، فكساهم من نوره»^(٣).

ومن هذا الحديث وأمثاله يعلم أن نور الوجه غير مختص بالنيبي ﷺ وأن المؤمن المهجد يكون في وجهه بعض النور، وكذلك المتعبدون والنسك فإن لهم نوراً مشهوداً.

وأما نور وجه الأئمة فهو ذائع والأخبار في ذلك كثيرة منها ما رواه هلال بن نافع في الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: ما رأيت أحسن منه، وقد شغلني نور وجهه وجمال هيئته عن الفكرة في قتله^(٤).

(١) الاختصاص للشيخ المفيد: ١١٣.

(٢) الزار للمشهدي: ٥٩.

(٣) أمالي الشيخ الطوسي: ٦٨٢، عنة الداعي: ١٩٣.

(٤) مشير الأحزان لابن نما الحلبي: ٥٧.

وقال سعد بن عبد الله القمي بعد ما زار الإمام أبا محمد ﷺ: فما شَبَّهت وجه مولانا أبي محمد ﷺ حين غشينا نور وجهه إلا ببدر قد استوفى من لياليه أربعاً بعد عشر^(١).

وجاء عن علي ﷺ في وصف الإمام المهدي: أن نور وجهه يعلو سواد شعر لحيته^(٢).

ولكن مع كل ذلك فإن نور وجه رسول الله ﷺ أشد، وأنه صاحب الوجه الأنور كما ذكر ذلك ابن شهر آشوب في عداد ألقابه ﷺ^(٣)، فقد روى الكليني عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «كان رسول الله إذا رُئي في الليلة الظلماء رُئي له نور كأنه شقة قمر»^(٤).

وروي أيضاً: أن نور وجهه يرى على الخائط في الليل^(٥).

كما يروى أن عائشة فقدت إبرة ليلة ولم يكن في المنزل سراج فدخل النبي ﷺ فوجدت الإبرة بنور وجهه^(٦).

هذا كله إذا كان المراد نور الوجه الذي يظهر للعيان، وأما النور المتجلي في الأذهان فلا شك أن الرسول ﷺ هو صاحب الوجه الأنور، خصوصاً بعد العلم بأنه خير خلق الله سبحانه وتعالى^(٧).

(١) كمال الدين: ٤٥٧.

(٢) روضة الواعظين: ٢٦٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار ١٦: ١٠٦.

(٤) الكافي ١: ٤٤٦ ح ٢٠.

(٥) شرح أصول الكافي ٧: ١٧٦.

(٦) الكافي ١: ٤٤٦ ح ٢٠.

(٧) مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٧.

٥٧٤. صاحب اليمن والسرور

كيف لا يكون الرسول ﷺ صاحب اليمن والسرور، وبيمينه رزق الوري، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء، واتسق أمر المسلمين، وذهبت الضغائن والإحن، ورتق الفتق، وأسكن التناصر والتواصل والمودة والمحبة قلوب المؤمنين فأصبحت بيمينه وحفظه وبركته وبره وصلته أيديهم واحدة وكلمتهم جامعة وأهواؤهم متفقة، وبيمينه فاقت هذه الشريعة شرائع السلف، فهي كالدرة والباقي صدف، وبيمينه رفعت الأصار، وبيمينه قبلت توبة آدم عليه السلام من قبل، ونجا نوح من الغرق وكذلك وغيرهما من الأنبياء.

وأما سرور الناس وسعادتهم فهو همه، والهدف الأقصى من جميع أعماله، على أنه سروران، الأول: السرور في الدنيا، والثاني: السرور في الآخرة.

أما السرور في الدنيا فقد تحقق بفعله مرة وبأمره أخرى، فالأول بإشباعه بطوناً غرثى إذ كان يأخذ الصدقات من الأغنياء فيطعم بها الفقراء وينامون ملاء مسرورين وهانئين، ويناام هو جائعاً يترقب، ويكسو الجنوب العارية رياشاً وستراً ودفتاً فتسرّ وترضى، كما قام أيضاً بتوفير الأمن وإطفاء نائرة الحروب والغارات، فصار الجميع ينامون وأبوابهم مفتحة مسرورين آمنين، وأفضل من ذلك تعليمهم الالتذاذ والسرور بالمنجاة والقرب والزلفى إلى الله سبحانه وتعالى.

ولا ينفك مع ذلك عن ملاطفة المهوم ومزاحه مع المكروب وتسلية المصاب، وتذكيره بالأجر وفائدة الصبر، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: «كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟» قال، قلت: قليلاً، قال: «هلا تفعلوا؛ فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على

أخيك، ولقد كان النبي ﷺ يداعب الرجل يريد به أن يسره»^(١).

وأما أمره ﷺ بذلك، فقد روي أنه ﷺ قال: «من سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ الله»^(٢).

وورد عن الصادق عليه السلام: «من أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على أخيه المؤمن من إشباع جوعته، أو تنفيس كربته، أو قضاء دينه»^(٣).

وفي خبر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تبسّم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرف القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»^(٤) فهذه الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ، وهذه سنته وطريقته في الدنيا.

وأما السرور في الآخرة فهو كل همه وكل عزمه، ولا همّ له سوى سعادة البشر في الآخرة وسرورهم بدخول الجنة، فقد ناجى علي عليه السلام رسول الله ﷺ عشر مرات قدّمها عشر صدقات، فكان فيما سأل في الأول: «ما السرور؟ قال: الجنة، قال: وما الراحة؟ قال: لقيه الله تعالى»^(٥).

فهو ﷺ إنما يعدّ المؤمنين لتسرع أرواحهم في العلى، وتخطوا همهم في عزّ الورى، فلم تزل قلوبهم والهة طائرة، حتى ينيخوا في رياض النعيم، ويجنون من ثمار النسيم، ويشربون بكأس العيش، ويجوضون لجة السرور، ويجوضون في بحر الحياة، وهو مضمون ما قاله سيد الساجدين عليه السلام^(٦).

(١) الكافي ٢: ٦٦٣ ح ٣، البحار ١٦: ٢٨٩ ح ٢.

(٢) الكافي ٢: ١٨٨.

(٣) المحاسن ٢: ٣٨٨ ح ١١، كتاب المؤمن: ٥١.

(٤) الكافي ٢: ١٨٨.

(٥) البحار ٣٥: ٣٨٣.

(٦) الصحيفة السجادية: ٣٧١.

وأما سرور نفس النبي ﷺ فله مواطن خاصة، وموارد تصب في بوتقة وصول الخير إلى الآخرين فبينما رسول الله ﷺ مع أصحابه راكب على دابته إذ نزل فخرٌ سلجداً، فقيل له: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئاً لم تك تصنعه قبل اليوم، فقال: «أتاني ملك من عند ربي فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: يا محمد إني أسرك في أمتك، فلم يكن عندي مال أصدّق به، ولا عبد أعتقه فسجدت لله شكراً»^(١) والمراد أن الله سبحانه سيعطيه في أمته من حق الشفاعة وغيره مما يسره، فيكون الذي يسره بحجة الأمة بشفاعته مثلاً.

والمورد الآخر هو إدخال السرور على المؤمنين، لأنه قال: «من سر مؤمناً فقد سرنى» وخصوصاً ابنته وأهل بيته عليهم السلام.

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فسأله فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضينا» قال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، قال: فكره النبي ﷺ، فقال الرجل: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقللاً، فتبسم النبي ﷺ وعُرف السرور في وجهه^(٢).

ولم ينقل من سرور النبي ﷺ الخاص سوى ما نقل أنه حينما كلمته خديجة في أمر الزواج وقالت له: قم إلى عمومتك وقل لهم يخطبوني لك من أبي ولا تخف من كثرة المهر فهو عندي وأنا أقوم لك بالهدايا والمصانعات، فسرَّ وأحسين الظن فيمن أحسن بك الظن، فخرج النبي ﷺ من عندها ودخل على عمه أبي طالب والسرور في وجهه..^(٣) مع العلم أن ما ترتب على هذا القران المبارك من الخير الواصل إلى الأمة مما لا يحصى ولا يعد.

(١) الأصول الستة عشر: ٣٧.

(٢) البحار ١٦: ٣٢٣.

(٣) البحار ١٦: ٥٦.

ومهما يكن من ذلك فإن ابن شهر آشوب عدّ من ألقاب النبي ﷺ صاحب اليمن والسرور^(١)، أملين اتضاح شيء من معانيه بتطلع البيان السابق.

٥٧٥. الصدع

الصدع هو الشق في الشيء الصلب كالزجاجة والحائط؛ ولا شك أنّ اعتقادات المشركين وأبواقهم وتعصّبهم وتلاحمهم يشكّل سداً منيعاً وجداراً عالياً أمام رؤية الحقائق التي طالما ظلّت مستورة وراء ذلك التزييف والتعتيم والجهل الذي لا يتيسر إزاحته وهدمه بسهولة خصوصاً في المرحلة الأولى التي لا يمكن فيها سوى إيجاد الصدع والشق أو الثلثة في هذا الجدار بما يتيح للرائي أن يرى شيئاً من الحقائق ولو من منظار ضيق، وليتوسع بمرور الأيام هذا الخرق ويؤدي إلى هدم ذلك الجدار بالكلية.

فكان الصدع في الحقيقة في الكيان القائم آنذاك وفي صفّ قريش والعرب بأن يُسلم البعض فيشكلون صدعاً يتوسع بإسلام الآخرين حتى ينتهي بانهدام ذلك الكيان وتمزّق ذلك الصف، ومن ثم تشكيل صفّ توحيدى آخر، وبناء جدار إسلامي صحيح.

غير أن أكثر المفسرين لما تعرّضوا لتفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قالوا: معناه أظهر وأعلن وصرّح بما أمرت به، أو فاجهر به وأظهره^(٢)، ولكن هذا لا ينافي ما ذكرناه فإن الإجهار بالدعوة وإظهار ما أمر به وإعلانه في الحقيقة هو الصدع أو هو ما يوجد الصدع والشق في صفوف

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣، البحار: ١٠٧.

(٢) التبيان ٦: ٣٥٥، تفسير مجمع البيان ٦: ١٣٢، جوامع الجامع ٢: ٣١١، تفسير

الصافي ٣: ١٢٤، والآية في سورة الحجر: ٩٤.

قريش والعرب بل عموم المشركين، فيكون الإظهار وسيلة للصدع، وليس هو معنى الصدع.

ويذكر أن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه ﴿فَاصْذُعْ بِمَا تُمَرُّ﴾ خرج وقام على الحجر وقال: يا معشر قريش يا معشر العرب أدعوكم إلى عبادة الله وخلع الأنداد والأصنام وأدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فأجيبوني تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، وتكونون ملوكاً، فاستهزؤوا منه وضحكوا وقالوا: جن محمد بن عبد الله وآذوه بألسنتهم، وكان من يسمع من خبره ما سمع من أهل الكتب يسلمون ويؤمنون به، وفي هذا الحال يجذب عليه عمه أبو طالب، فلما رأت قريش من يدخل في الإسلام جزعوا من ذلك ومشوا إلى أبي طالب وقالوا: إما تكفه عنا وإما أن نخلي بيننا وبينه فهددوه، فقال له أبو طالب: امض لأمرك فوالله لا أخذك أبداً، ثم أنشأ يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصح	فلقد صدقت وكنت قدماً أميناً
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية ديناً
لولا المخافة أن يكون معرفة	لوجدتني سمحاً بذاك ميبناً ^(١)

والقصة طويلة الجانب إنما ذكرنا بعض جوانبها لبيان كيفية حصول الصدع والشق في صفوف قريش والعرب، فليس إيمان أولئك الذين سمعوا خبره من أهل الكتاب، وكذا الحياز أبي طالب إليه وإيمانه به وإيمان من آمن من قريش وبني هاشم إلا هو الصدع والفرقة والشق في صفوف

(١) انظر البحار ١٨ : ١٨٥، وج ٣٥ : ٨٦. والبيت الأخير يدل على أن أبا طالب

ماترك من إسلامه سوى الإجهار به وتبليغه بقرينة قوله ميبناً.

قريش والعرب بعينه، وهذا الصدع توسع بعد ذلك ليهدم جدار الشرك المانع من معاينة الحقائق.

وبذلك عد ابن شهر آشوب الصادع من أسماء النبي ﷺ استلهاماً من قوله تعالى: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾^(١).

٥٧٦. الصادع بأمر الله

لما كان الصدع وإيجاد الشق في الصف الواحد يتوقف على وجود مصالح كثيرة وفوائد عظيمة؛ لأن نفس إيجاد الشق في نفسه غير محبذ ولا محبوب، لأجل ذلك لم يقم الرسول ﷺ بإيجاد ذلك الصدع من نفسه وظل متخفياً بالدعوة طيلة ثلاث أو خمس سنوات ليس يظهر أمره، وعليه ﷺ اكتتم معه وخديجة ﷺ حتى أمره الله سبحانه وتعالى أن يصدع بما أمر به، فكان صادعاً بأمر الله سبحانه.

وتعود نسبة شيء إلى الله سبحانه وتعالى دالة على وجود علل وأسباب وحكم وفوائد كثيرة في إيجاد هذا الصدع لا يعلمها ولا يحيط بها إلا الله سبحانه، كما أن نسبته إلى الله سبحانه يجعل ذلك الأمر غير المحبذ بنفسه محبذاً ومحبوياً للغاية.

ومن أجل ذلك قال سيد الساجدين: «اللهم وصل على محمد عبدك ورسولك وخيرتك من خلقك، وأمينك على وحيك، الموفى بعهدك، الصادع بأمرك...» ومثله ما في كتاب المزار^(٢).

٥٧٧. الصادق

الأمر التي ساهمت في إنجاح مهمة الرسول المصطفى ﷺ عديدة

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣١.

(٢) الصحيفة السجادية: ٣٠٨، المزار للمشهدي: ٦٧.

يدخل في مجموعها تبشير الرسل السابقين وبيانهم لأوصاف النبي ﷺ وتحديد موطنه ومحلّه وحدود زمانه، فحمّله عنهم الرهبان والأخبار وعمامة أهل الكتب، الأمر الذي ساهم في إيجاد أول صدع في جدار الشرك وحائله، ليليه في الأهمية اشتهاه النبي ﷺ بالصادق الأمين مما حالّ دون تكذيبه فكانوا إذا كذبوه في دعوته وقعوا في تناقض، بينما هم يسمّونه في الأمس بالصادق الأمين، واليوم يقولون هو كذاب إنه لشيء عجاب.

وبهذا كان كل من يحاول تكذيبه يجد نفسه أمام تناقضٍ سافرٍ وحرَجٍ شديدٍ يكون إذا كذبه فقد كذب نفسه بتسميته ﷺ بالصادق الأمين.

وينقل أن أبا جهل طاف بالبيت ليلةٍ ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدّثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إنني لأعلم أنه لصادق، فقال له: مه! ما ذلك على ذلك؟! قال: يا أبا عبد شمس، كنّا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمّ عقله وكمل رشده نسّميه الكذاب الخائن!! والله إنني لأعلم أنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟! قال: تتحدّث عني بنات قريش أنني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعت أبدأ^(١).

ويعلم من هذه القصة أن صدق النبي ﷺ بطبعه مقتضٍ لتصديقه والإيمان به، وإنما منع أبا جهل غروره ومكائنه في قريش ومنزلته بينهم وارتفاعه خصوصاً في قلوب بنات قريش، فخاف أن يفقد ذلك العز وتلك المنزلة التي توصله إلى ملافة.

والحق أن تسليم الرؤوس والرؤساء أصعب من تسليم غيرهم، وإلا فمن لا يتمتع بتلك الأوصاف لا مانع عنده من تصديق النبي ﷺ والإيمان به بعد معرفته بالصدق وتسميته بالصادق.

(١) تفسير القرطبي ١٦: ١٧٠.

ولم يغفل النبي ﷺ عن هذا الزخم حتى اعتمد عليه في أوائل دعوته حينما صعد على الصفا فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ فقال: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(١). فهذه شهادة من عامة قريش بأنه الصادق، وفي رواية قالوا: لم نجرب عليك كذباً.

ثم إن هذا الاسم والعنوان جعل المكذبين له في حيرة واختلافوا في طرق تكذيبه، فواحد يقول: هو مجنون، وآخر يقول: شاعر، وثالث يقول: كاهن، ورابع: ساحر، فصار هذا التشتت نقطة ضعف حقيقية عند المشركين جعلتهم في معرض السخرية حتى استنقذهم الوليد بن المغيرة لما أتى مجلس قومه فقال: أتزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال أتزعمون أنه كاهن، فهل رأيت عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللهم لا، قال: أتزعمون أنه كذاب، فهل جريتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللهم لا وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر^(٢).

والحق أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يمكن أن يوصف بالكذب بعد ما انفجرت سيول الحكمة على لسانه، وانتشر عنه من العلم والدلائل الصادقة. فلو جُمع كلام أي عربي مهما بلغ من الحكمة واللباقة بل كلام كل العرب فوضع إلى جانب بعض كلمات النبي ﷺ لا يساويه ولا يوزن به، فكيف يمكن أن يأتي كاذب بكل هذه الحكيم والعلوم والدلائل الصادقة من نفسه؟! وإني لفي عجب ولا ينقضي عجيبي كيف يساور الشك واحداً

(١) تفسير السيوطي ٥: ٩٦، سنن الترمذي ٩٢: ٢٥٩، وانظر البحار ١٨: ١٦٤.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠: ١٧٨، تفسير القرطبي ١٩: ٧٥.

من أبناء هذا العالم إذا سمع كلماته وعرف موطنه وكيف يتردد في تصديقه ومتابعته.

وكيف لا يعتقد أن محمداً ﷺ هو الصادق في كل أقواله، الحق في كل فعاله، الشريف في كل خلاله كما جاء في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عليه السلام) ^(١).

وتبقى علة اشتهار النبي ﷺ بالصادق وتسميته بذلك، فهو يرجع إلى وجود خصوصية في صدقه، تدور حول لهجته ولحن كلامه لأنه كان أصدق الناس لهجة، وكان منطقته بحيث يظهر عليه الصدق بل كان مولعاً بالصدق ومعتاداً له من دون تكلف وتعمد، ولذا روي عن عائشة أنها قالت: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدتها ﷺ ^(٢).

وقام رسول الله ﷺ فقال: «إنا أهل البيت طهرنا الله من كل نجس، فنحن الصادقون إذا نطقوا، العالمون إذا سئلوا، الحافظون لما استودعوا» ^(٣).

فقد جعل ﷺ صدقه وصدق أهل بيته فرعاً لإذهاب الرجس عنهم وتطهير الله سبحانه لهم، ومعه تكون العلة في صدقهم هي عصمتهم من قبيل الله سبحانه من الكذب، فهو عامل آخر، على أنه لا يتصور فيه التخلف والانفكاك أبداً فيعود قهرياً لا محالة بعد ما كان اختيارياً طوعياً.

٥٧٨. الصالح

إنما يُستدلّ على الصالحين بما يجري الله لهم على السن عباده في حقهم ويقدر زهدهم في الدنيا، وصفاء قلوبهم، وصلاح عملهم، وطيب كسبهم،

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عليه السلام): ٦١٢.

(٢) ذخائر العقبى: ٤٤، حلية الأولياء: ٢: ٤٢.

(٣) تفسير فرات: ١١٠، البحار: ١٦: ٣٧٦.

وصلاح جميع أمورهم^(١).

ولم يبلغ أحد من الصالحين ما بلغه الرسول المصطفى ﷺ مما جرى على ألسن العباد من الثناء والذكر بالصلاح والعمل الصالح وصفاء القلب وصلاح العمل والزهد في الدنيا، يشهد لذلك كل عنوان من عناوين هذا الكتاب، وكل الكتب الناقلة لذكر فضائل النبي ﷺ وأعماله الصالحة، فليس هناك نبي ولا غير نبي كُتِبَ في فضائله وصلاح أعماله بالحد الذي دُوِّنَ في نبينا وفضائله. وكذا لم يمر من المدح والثناء لنبي على لسان الأنبياء السابقين الذين عرفوا بالصلاح والصدق مثل ما جرى لنبينا، يدل ذلك عليه ما نقله عن التوراة والإنجيل والزبور وغيرها في الكتب السماوية من صفات النبي ﷺ الحسنة وأعماله الصالحة.

ويدلك على صلاحه أيضاً زهده في الدنيا وشده لحجر المجاعة ونومه على الخضيف وأكله وجلوسه على الأرض ولبسه القميص بأربعة دراهم، وهو يقسم بين المسلمين والضعفاء والفقراء ما لا يحصى من الأموال، حتى كان يعطي على الإسلام مائة مائة من الإبل، وغنماً بين جبلين وغير ذلك. ويدلك على ذلك استواء حاله في السر والعلن، بل ترجيح سره على علانيته حتى صار أكثر ناقل من مناقبه هم المحيطون به وكل من يعاشره ويخالطه.

ويدلك على صلاحه عدم إمكانية إحصاء أعماله الصالحة من إشباع الجوع وكسوة العراة وقضاء حوائج الناس وما سأل أحد شيئاً عنده فقال لا، بالإضافة إلى طاعته لله سبحانه وعباداته والتزامه بقيام الليل والحفاظة على الصلوات ومواظبته على الصيام وغير ذلك مما لا يمكن إحصاؤه لو

(١) قال رسول الله ﷺ في حديث: «أما علامة الصالح فأربعة: يصفى قلبه، ويصلح

عمله، ويصلح كسبه، ويصلح أموره كله» البحار ١: ١٢٠.

كانت جميع الأشجار أقلاماً والبحار مداداً والخلائق كتاباً ما نفذت صفاته وفضائله وأفعاله الحسنة صلوات الله عليه وعلى آله.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «بينما أنا في الحجر إذا أتاني جبرئيل فهمزني برجلي فاستيقظت... فأخذ بضبعي فوضعني في شيء كوكر الطير، فلما طرقت ببصري طرفة فرجعت إليّ وأنا في مكان، فقال: هذا بيت المقدس بيت الله الأقصى فيه المحشر والمنشر، ثم قام جبرئيل فأذن... فبرق نور من السماء فتحت به قبور الأنبياء فأقبلوا من كل أوب يلبون دعوة جبرئيل، فوافى أربعة آلاف وأربعمائة نبي وأربعة عشر نبياً فأخذوا مصافهم ولا أشك أن جبرئيل سيتقدمنا، فلما استواوا على مصافهم أخذ جبرئيل بضبعي ثم قال لي: يا محمد تقدم فصلّ بإخوانك، فالخاتم أولى من المختوم، فالتفت وإذا أنا بأبي إبراهيم عليه السلام عليه حلتان خضراوان... فلما انقضت الصلاة قمت إلى إبراهيم عليه السلام فقام إليّ فصافحني، وأخذ بيميني بكلتا يديه وقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح والمبعوث الصالح في الزمان الصالح»^(١).

وفي رواية أخرى للمعراج قال عليه السلام: «فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى السمء الدنيا وعليها ملك يُقال له اسماعيل وهو صاحب الخطفة... فسلمت عليه وسلم عليّ، واستغفرت له واستغفر لي: وقال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح...»

قال: «ثم صعدنا إلى السمء الثانية، فإذا فيها رجلان متشابهان، فقلت: من هذان يا جبرئيل؟ فقال لي: ابنا الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام، فسلمت عليهما وسلمنا علي واستغفرت لهما: واستغفرا لي وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح»^(٢).

(١) تفسير القمي ٢: ٦، البحار ١٨: ٣١٧ ح ٣٢.

(٢) البحار ١٨: ٣٢١.

وروي عن الصادق عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(١) قال: «والصالحون هم النبي والأئمة صلوات الله عليهم الأخذون عن الله أمره ونهيه» ^(٢).

ويبقى الإشارة إلى بعض الأفعال التي تجر إلى الصلاح، فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام يرغب المؤمنين في الحذو حذو الصالحين، فقال: «ويحذون فيها على مثال الصالحين ليحل فيها ربقاً، ويعتق ربقاً، ويصدع شعباً، ويشعب صدعاً في سترة الناس» ^(٣). ويضاف إلى ذلك مجالسة الصالحين، فقد ورد عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح» ^(٤).

وكذلك صلاة الليل، فقد ورد عن الصادق عليه السلام قال: «عليكم بصلاة الليل فإنه سنة نبيكم، وأدب الصالحين قبلكم...» ^(٥). وقبل كل شيء محبة أمير المؤمنين عليه السلام، فقد روي: «أنه ينادي منادٍ يوم القيامة: أين محبو علي بن أبي طالب؟ فيقوم قوم من الصالحين، فيقال لهم: خذوا بأيدي من شئتم من عرصات القيامة فأدخلوهم الجنة» ^(٦).

٥٧٩. صانجي

قال ابن شهر آشوب أن كل أمة تسمى النبي وخير الخلق باسم، والتُّرك يسمونه صانجي ^(٧).

(١) البقرة: ١٣٠.

(٢) الخصال ١: ١٤٦، ١٤٩، البحار ١٢: ٦٩.

(٣) نهج البلاغة ٢: ٣٥.

(٤) البحار ١: ١٤١.

(٥) الفقيه ١: ٤٧٢.

(٦) البحار ٤٢: ٢٨.

(٧) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، البحار ١٦: ١٠٤.

٥٨٠. الصبر

سأل سلمان علياً عليه السلام فقال: يا أبا رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أقام الصلاة أقام ولايتك؟ قال: «نعم يا سلمان، تصديق ذلك قوله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر رسول الله صلى الله عليه وآله والصلاة إقامة ولايتي، فمنها قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ولم يقل: وإنهما لكبيرة، لأن الولاية كبيرة حملها إلا على الخاشعين، والخاشعون هم الشيعة المستبصرون»^(١).

٥٨١. صخرة الميزان

روي أن أبا جعفر عليه السلام قال: «رسول الله الصخرة ونحن الميزان، وذلك قول الله في الإمام: ﴿لَيَقْوَمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾»^(٢). والصخرة هي الحجر الذي يوضع في الكفة المقابلة، ليقدر بها وزن الشيء ومقداره، ولا أظن إرادة وزن الناس وأعمالهم به صلى الله عليه وآله لأنه لا يوزن به أحد، فيظل ذلك المعنى في الأسرار.

٥٨٢. الصدوق

قال علي عليه السلام: «إن يحيى بن زكريا كان في عصر لا أوثان فيه ولا جاهلية، ومحمد صلى الله عليه وآله أوتي الحكم والفهم صبيّاً بين عبدة الأوثان وحزب الشيطان ولم يرغب لهم في صنم قط، ولم ينشط لأعيادهم، ولم ير منه كذب قط، وكان... صدوقاً»^(٣).

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) مستدرک سفینه البحار للنمازي ٦: ١٥٧.

(٣) بصائر الدرجات: ٩٠، البحار ٢٤: ٣٩٦، والآية في سورة الحديد: ٢٥.

(٤) الاحتجاج للطبرسي: ١١١، البحار ١٠: ٤٤.

٥٨٣. الصديق في العرب

الصديق هو الذي صدق بكل أمر الله لا يتخالجه في شيء منه شك، والصديق هو المبالغ في الصديق، وقد ثبت هذا الوصف بمعنييه للرسول المصطفى ﷺ، فهو الذي صدق بكل أمر الله سبحانه لا يتخالجه منه شك لأنه رأى الوحي وسمع النداء وعرف المصلحة ووعى الأسرار فلا معنى للتشكيك مع الرؤية، ولما عُرج به إلى السماء عين وشاهد عظمة ربه وكل ما وعده وأعد له وللمطيعين من عباد الله. غير أنّ المراد بهذا العنوان هو المعنى الثاني، أي المبالغة في الصديق، حيث كان صدقه لهجة وجبلة واعتياد بل هو عصمة من رب الأرباب وتطهير واضطرار بعد اختيار.

وقد عُرف له ذلك بين العرب فسمي بالصادق الأمين، شهد له الكثير بذلك منهم عمه أبو طالب الذي كان يعرف ببيضة البلد لشرفه وكرمه، فقد شهد له في مواطن عديدة آخرها حينما حضرته الوفاة، برواية عن أبي عبد الله عليه السلام أنه لما حضر أبا طالب الوفاة جمع وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، وأنتم خزنة الله في أرضه، وأهل حرمة، فيكم السيد المطاع... وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، الصديق في العرب ^(١).

وقال أيضاً: كاني انظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته ^(٢).

٥٨٤. الصراط المستقيم

الصراط هو الطريق والسبيل بينما المستقيم منه ذاك الذي لا انحرف فيه ولا اعوجاج، والمقصود هنا معنى دقيق جداً، وهو إرادة أكمل الأعمال

(١) روضة الواعظين: ١٢١، البحار: ٣٥: ١٠٧، سبل الهدى والرشاد: ٢: ٤٢٩.

(٢) الدرجات الرفيعة: ٦١.

وأرجحها في كل لحظة وكل آن، لأن اختيار المرجوح بأي نحو كان نحو الحراف وابتعاد، فإذا جاء التعبير عن النبي ﷺ، والأئمة عليهم السلام بأنهم الصراط المستقيم فهو يعني أن عملهم دائماً هو أرحح الأعمال وكل فعل من أفعالهم أرحح الأفعال في سبيل الوصول إلى الجنة ورضوان من الله أكبر، وكل عمل وفعل يغير عملهم ويخالفه فهو ابتعاد عن ذلك السبيل.

وبعبارة أخرى فإن متابعتهم وموالاتهم هي متابعة الصراط المستقيم، بل هي صراط مستقيم آخر، بداهة أن المسير على أثر السائر على الصراط هو صراط مستقيم. فقد روي عن أبي جعفر عليه السلام «هؤلاء أهل البيت... هم الصراط المستقيم»^(١).

وروي عن ابن عباس قال: قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي قولوا معاشر الناس اهدنا الصراط المستقيم، أي إلى ولاية محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم^(٢).

٥٨٥. الصفوة

خلق الله الخلائق لا لحاجة إليهم بدليل أنه خلقهم وفيهم كدرٌ وصافٍ، ومشوب فيه الثفل وخالص لا ثفل فيه، ومطيع منقاد وعاصٍ متمرد، ولو كان خلقهم لحاجة، تحتم خلقهم صفوة بلا شائبة، واستعان بهم لحاجته، وخلق المطيع دون العاصي.

والصفوة منهم الذين خلوا من الشوائب والثفل هم الخالصة من عباده^(٣) وهم الأنبياء والرسل والأئمة الهداة المهديين، أولهم آدم، وآخرهم

(١) تفسير فرات: ٣٩٦، البحار ٢٣: ٢٤٦.

(٢) تأويل الآيات لشرف الدين الحسيني ١: ٢٨.

(٣) قال الجوهري: صفوة الشيء خالصه، ومحمد صفوة الله من خلقه ومصطفاه، قال أبو

عبدة: يقال: له صفوة مالي. الصحاح ٦: ٢٤٠١.

المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، والمراد بالشوائب هي الذنوب والشكوك والأوهام وكل ما لا ينبغي، وكل ما لا فائدة فيه. وأخص الصفوة وأفضلهم أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

ثم إن كل واحد من هؤلاء الصفوة مضاف إلى قومه ويومه، والرسول المصطفى ﷺ هو الصفوة على الإطلاق، وصفوة الله سبحانه وخالسته، خلقه من صفوة نوره، ومن طينة خالصة، وهي صفوة الطين، قال رسول الله ﷺ: «خلقني الله من صفوة نوره ودعاني فأطعت»^(١).

وإنما صار الصفوة اسماً لرسول الله ﷺ لأن الله سبحانه وتعالى قل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني محمداً، وقال لأُمته: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ على ما جاء في الخبر^(٢). فإن الاصطفاء هو الاختيار من الصفوة، والافتعال منه.

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة خطبها: «إن الله ذو الجلال والإكرام لما خلق الخلق واختار خيرة من خلقه، واصطفى صفوة من عباده، وأرسل رسولاً منهم، وأنزل عليه كتابه، وشرع له دينه»^(٣).

وفي خبر آخر: «ثم انتهى الفضل إلى محمد ﷺ؛ لأنه ورث آدم وجميع الأنبياء، ولأنه الاصطفاء الذي ذكره الله عز وجل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فمحمد الصفوة الخالص بحيب النجاة من آل إبراهيم»^(٤).

(١) دلائل الإمامة للطبري: ٤٤٨.

(٢) البحار ٢٢: ٤٤٨.

(٣) البحار ٣٢: ٩٦ ح ٦٧.

(٤) البحار ٥٧: ٣١٥.

٥٨٦. صفوة رب العالمين

الصفوة هي الخالصة، وتعود نسبة ذلك إلى رب العالمين - المدبر لكل شيء - وإضافته إليه لأجل أن الصفوة من كل شيء لها مصطفيها ومن يختارها، فصفوة الماء يصطفيها الظمان والشارب ليشربها، وصفوة الطعام يصطفيها الجائع والطاعم، وصفوة المال يصطفيها الآخذ فتكون صفوته التي اصطفاهما، إلى أن يبلغ إلى صفوة الخلائق جميعهم بل صفوة الخلق وصفوة كل صفوة فإن الذي يصطفيها هو الله سبحانه ويكون صفوة رب العالمين، وهو الرسول المصطفى ﷺ.

ولذا ورد في كيفية زيارته ﷺ: «السلام على محمد رسول الله، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وصفوة رب العالمين»^(١).

٥٨٧. صفوة الله

إن نسبة الصفوة إلى الله سبحانه وإضافتها إليه لا تعني فقط أن المصطفى له هو الله جل جلاله، ويكون لها معاني أخرى منها: أنه لا يعلم حقيقة صفائه وأخلصيته إلا الله سبحانه، ومنها: أن خلوصه وصفائه لله سبحانه وتعالى، ومنها: أن صفائه وخلوصه بالله سبحانه، فهو الذي صاغه وخلقه وخلّصه وطهره، ومنها غير ذلك.

ولما كان لا يعلم أخلصية النبي ﷺ إلا الله سبحانه أخبر سبحانه وتعالى بذلك آدم ليثبت ذلك للنبي ﷺ من اليوم الأول للخلقة، وعاد فذكر ذلك لإدريس عليه السلام في صحفه، فقد قال السيد ابن طاووس في سعد السعود: رأيت في صحف إدريس: ونظر آدم إلى طائفة من ذريته يتلألاً نورهم يسعى، قال آدم: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأنبياء من ذريتك... قال: يا رب فما بال نور هذا الأخير ساطعاً على نورهم جميعاً؟ قال: هذا محمد...

(١) المزار للشهيد الأول: ٦٦، المزار للشهيد: ٢٦٤.

صفوتي^(١).

وعلى أثر ذلك صار هذا الاسم معروفاً لرسول الله ﷺ وأهل بيته، فقد روى الكليني أن بعض الرهبان أسلم عند بعض أهل البيت عليهم السلام فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله حق وأنكم صفوة الله من خلقه^(٢).

وعن ابن عباس: أن أول من يكسى من حلل الجنة إبراهيم لخله، ثم محمد لأنه صفوة الله^(٣).

ولم تنحصر معرفته بذلك بين أهل الأرض فقد دخل أمير المؤمنين ورسول الله نائم ورأسه في حجر جبرائيل وهو بهيئة دحية الكلبي، فقال لعلي: ادن من صفوة الله، فأخذ رأس النبي ﷺ فوضعه في حجره عليه السلام. وينبغي أيضاً أن يعلم بذلك الجميع، فقد ورد في بعض زياراته عليه السلام: السلام عليك يا صفوة الله^(٤). وأخيراً فهو اسمه المكتوب على لواء الحمد يوم القيامة^(٥).

٥٨٨. صفوة الله من خلقه

إن الرسول المصطفى ﷺ هو خالصة الخلق والجزء الأكثر نفعاً منه، كما أن خالصة كل جوهر وعصير كل ثمر هو الأكثر نفعاً فيه، بل هو المقصود الأول والأخير وهو المراد مع أن السبب في إضافته إلى الله سبحانه وتعالى قد علم من العناوين السابقة، وقد تقدم ذكر هذا العنوان في كلام

(١) سعد السعود: ٣٤ - ٣٦، البحار ١١: ١٥١.

(٢) الكافي ١: ٤٨٣.

(٣) ألقاب الرسول وعترته (لمجموعة من قدماء المحدثين): ١٣.

(٤) قرب الإسناد: ٣٨٢، البحار ٨٣: ٢٤.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢.

الراهب، وقال الجوهري وابن منظور: صفوة كل شيء خالصه، ومحمد صفوة الله من خلقه ومصطفاه^(١).

٥٨٩. الصفي

الصفي هو الخالص، وإذا قيل للنبي ﷺ صفي فلاجل عدم دخول أي شائبة في وجوده ولا في أفعاله، ولا في باطنه وسره، فكان خالصاً مخلصاً من كل عيب ونقص وذنب، بل من كل ما لا نفع فيه، فهو حكاية أخرى عن طهارته وإذهاب الرجس والدنس عنه.

والمعروف أن الأشياء مهما خلّصت أو خلّصت يبقى فيها شيء من الشوائب قد لا يعتنى به لقلّته بحيث يكون كالعدوم، والكلام عن النبي ﷺ وخلوصه بميزان رب العالمين الذي يكون الخالص فيه ما لا شائبة فيه حتى بذلك المقدار القليل الذي لا يعتنى به ويُعدّ معدوماً. قال أمير المؤمنين في بعض خطبه: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي، وأمينه الرضي»^(٢)، كما أنه جاء في بعض زياراته ﷺ: «السلام على المهذب الصفي»^(٣).

٥٩٠. صفي الله

لما ذهب النبي موسى ﷺ إلى جانب طور المجد والعظمة، أعني طور سيناء الذي كلمه الله تعالى عنده تكليماً فقال له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ فكم هو مشهد عظيم، اختاره الله سبحانه وتعالى فيه لكلامه ورأى عنده ما يؤهل لمناجاته دون سائر البشر.

(١) الصحاح ٦: ٢٤٠١، لسان العرب ١٤: ٤٦٣.

(٢) نهج البلاغة ٢: ١١٦.

(٣) البحار ٩٧: ٣٠٢.

وعندها قال موسى ﷺ: يا رب إنني أخلصت لك المحبة مني، وغسلت قلبي عن سواك، وكان شديد الحب لأهله، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي انزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة، وقلبك من الميل إلى من سواي مشغولاً^(١).

وهناك مشهد آخر أعظم من ذلك لما عُرج برسول الله ﷺ إلى السماء حتى جاوز السماء السابعة مروراً بأبدع المشاهد وأرهبها وأعظمها بصحبة جبرئيل الذي كان يهون عليه ويعرفه ما يرى ويمر به، ولم يزل يدفع معه من نور إلى ظلمة ومن ظلمة إلى نور حتى وقف على سدة المنتهى، فإذا جبرئيل ينصرف، فقال له: خليلي جبرئيل في مثل هذا المكان تخلفني وتمضي؟ فقال له: والذي بعثك بالحق نبياً إن هذا المسلك ما سلكه نبي مرسل ولا ملك مقرب، أستودعك رب العزة، وما زال واقفاً حتى قُذف في بحار النور، فلم تنزل الأمواج تقذفه من نور إلى ظلمة ومن ظلمة إلى نور، وفي رواية قال ﷺ: إنه نوديت ألف مرة بالدنو في كل مرة قُضيت لي حاجة، حتى أوقفه ربه الموقف الذي أحب أن يوقفه عنده، فكلّمه بكلام طويل وحاوره وقال له: اتخذتك حبيباً، ولكن في كل تلك الأحوال وجميع تلك المراحل وعامة تلك المحاورات لم يقل له اخلع نعليك ولا شيئاً من هذا القبيل، بل كتب اسمه على شجرة طوبى «صفي الله»^(٢) وصفي الرجل هو من أخلص له المودة والحب وصافاه الود، فيكون الرسول ﷺ هو من أخلص لله المحبة وصافاه الود ابتداءً ومن اليوم الأول.

وليكون جميع ما ذكرناه دليلاً على أن النبي ﷺ قد أخلص محبته لله، وأخلص قلبه من الميل إلى من سواه، عرف ذلك ولمسه بيده أقرب الناس إلى النبي ﷺ، بطول العشرة وشدة الدنو والقرب، فقال في بعض خطبه:

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٢٦٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢.

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي، وأمينه الرضي»^(١)، كما عد ابن شهر آشوب من ألقاب النبي ﷺ صفي الله^(٢).

٥٩١. الصفي المقرب

عدّ ابن شهر آشوب ألقاب النبي ﷺ فقال: العبد المؤيد، والرسول المسدد، والنبي المهذب والصفي المقرب...^(٣) والصفي هو الخالص من الشوب، وخلصه قرّبه ربّه فكان أقرب الخلق إليه.

٥٩٢. صلت الجبين

هذه هي صفة بدنه وخصوص جبينه ﷺ الذي تقدّم الكلام عنه مراراً حيث انتهينا إلى أن جبين النبي ﷺ فيه شيء من السعة والظهور، يعزى ذلك إلى النور الذي فيه حيث مرّ أنه ﷺ صاحب الجبين الأزهر، وهي أهم مشخصات بدنه ودلائل نبوته؛ إذ كان هذا النور وديعة عند كل واحد من آبائه ليلبغ إليه ويكون دليلاً على وجود سرّ في هذا الموجود وعلامة أخرى ذكر بها الأنبياء السابقون، وبينه الله سبحانه في بعض كتبهم، كالنبي عيسى عليه السلام لما أمره وقال: صدقوا النبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة وهي التاج والنعلين والهاوذة وهي القضيب، الجعد الرأس، الصلت الجبين المقرون الحاجبين...^(٤)

وفسر الصلت في اللغة بالواسع والأبيض الواضح، وقيل: الصلت

(١) نهج البلاغة ٢: ١١٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٣.

(٤) كمال الدين: ١٥٩، سبل الهدى والرشاد ١: ٩٨، أمالي الصدوق: ١٦٣، البحار

١٦: ١٤٤، تاريخ مدينة دمشق ٣: ٣٩٨، البداية والنهاية ٢: ٩٣.

الأملس، وقيل: البارز، وقيل: أصبح صلت الجبين يبرق، فلا يكون الأسود صلتاً^(١).

ويجمع الكل وضوحه وظهوره وهو أول ما يقع في عين الرائي وذهن الذاكر، ويمكن معرفة النبي من خلاله وتمييزه عن سواه. فليس النبي ﷺ بالأعم الذي نبت شعر رأسه في جيته ولا ضيق الجبهة، بل هو بارز الجبين ظاهره.

٥٩٣. الضال

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾^(٢)، والضال هو الذي ضلّ الطريق فصار في محلّ ومكان لا يعرفه فيه أحد ولا يعرف أحداً، والرسول ﷺ كان بمثابة لا يعرفه أحد ولا يهتدي إليه ولم يتعارف مع واحدٍ من المؤمنين فهده الله سبحانه وأوصله إلى مكان وموطن ومرتبة يعرفه فيها الناس المؤمنون ويعلمون قدره.

ولما لا يخرج الضال من الضلال والتهيه إلا إذا وجد أهله وهدوا إلى موطنه ومحلّه، فيكون معنى فهدي، أي هدى الناس الذين هو منهم وهم منه إليه، أعني المؤمنين.

والاحتمالات المطروحة في تفسير هذه الآية كثيرة:

منها: إرادة الضلال عن النبوة فهدها إليها، أو عن شريعة الإسلام التي نزلت عليه وأمر بتبليغها إلى الخلق.

ومنها: الضلال عن المعيشة، فيقال لمن لا يهتدي طريق معيشته هو ضال لا يدري ما يصنع.

(١) لسان العرب ٢: ٥٣، صلت ٩.

(٢) الضحى: ٧.

ومنها: وجدك ضالاً بين مكة والمدينة عند الهجرة فهذاك وسلّمك من أعدائك.

ومنها: وجدك مضلّولاً عنك في قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك وهو قريب مما ذكرناه.

ومنها: أن الضال بمعنى يُهدى بك الضال فهدى^(١).

وهناك احتمالات أُخرى، على أن الذاكر لهذه الصفة ابن شهر آشوب مستدلاً بالآية^(٢).

(١) انظر البحار ١٧ : ٩١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٣٠ قال الضال أي يهدي به الضال ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾

وانظر البحار ١٦ : ١٠٢.

حرف الضاد

الأسماء المصدرة بحرف الضاد

٥٩٤. الضحاك

الضحك يشمل القهقهة والتبسم، والمراد هنا مجرد الابتسام؛ لأنه ورد أن غاية ضحك الرسول ﷺ التبسم^(١)، وإذا بالغ الراوي قال: فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه، ولم ينقل أحد أنه سمع ضحك رسول الله ﷺ أو قهقهته.

فالنقول أن الرسول ﷺ هو البسام الضحاك، فقد سئلت عائشة: كيف رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: كان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بساماً^(٢).

٥٩٥. الضحوك

إن ضحك الرسول ﷺ وإن كان يدخل في خلقه العظيم ولكنه على الدوام يصدر هادفاً محسوباً يصب في طرق نافعة وله عواقب عظيمة، لمحاول أن نصيها في محاور:

الأول: التأييد والإمضاء، فقد ذكر عن علي رضي الله عنه أن ثلاثة من أهل اليمن أتوا إليه يَخْتَصِمُونَ في امرأة وقعوا عليها ثلاثهم في طهر واحد،

(١) عيون أخبار الرضا (ع) ٢: ٢٨٣.

(٢) البداية والنهاية ٦: ٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤: ٤٦، الطبقات الكبرى ١: ٣٦٥.

فأتت بولد فادعاه كل واحد منهم، ففرع بينهم وجعله للقارع، فبلغ ذلك النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، وقال: «لا أعلم فيها إلا ما قضى علي»^(١).

الثاني: الرضا والاستحباب، فإن رجلاً دخل على رسول الله ﷺ وقد صفر لحيته فقال له: «ما أحسن هذا» ثم دخل عليه بعد هذا وقد أتى بالخناء، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «هذا أحسن من ذاك» ثم دخل عليه بعد ذلك وقد خضب بالسواد، فضحك إليه فقال: «هذا أحسن من ذاك وذاك»^(٢).

الثالث: دفع التهاجم والتحامل بالضحك والابتسام والتهوين على الطرف، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال رسول الله ﷺ: «من عنده سلف؟» فقال بعض المسلمين: عندي، فقال: «أعطه أربعة أوساق من تمر» فأعطاه، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فتقاضاه، فقال: «يكون فأعطيك» ثم عاد فقال: «يكون فأعطيك» فقال: أكثرت يا رسول الله، فضحك وقال: «عند من سلف؟» فقام رجل فقال: عندي، فقال: «كم عندك؟» قال: ما شئت، فقال: «أعطه ثمانية أوساق» فقال الرجل: إنما لي أربعة؟! فقال ﷺ: «وأربعة أيضاً»^(٣).

الرابع: الرد وتسخيف القول، والإشارة على عدم العلم، فقد أتى النبي عليه الصلاة والسلام رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله يحمل السماوات على إصبع، والأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، فضحك ﷺ من قوله، وأنزل الله سبحانه

(١) دعائم الإسلام ٢: ٥٢٣.

(٢) الفقيه ١: ١٢٣ ح ٢٨٢.

(٣) الفقيه ٣: ٢٨٥، قرب الإسناد: ٩١.

عقيب ذلك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١).

الخامس: تعجب واستنكار، لما هاجر ﷺ إلى المدينة أتوه في يوم جمعة، فقالوا: يا رسول الله احتبس القطر، واصفر العود، وتهافت الورق، فرجع يده المباركة ﷺ حتى روي باطن ابطنه وما في السماء سحابة، فما برح حتى سقاه الله عز وجل... فدامت أسبوعاً فأتوه في الجمعة الثانية فقالوا: يا رسول الله قد تهدمت الجدران واحتبست الركب والسفار، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هذه سرعة ملالة ابن آدم» ثم قال: «اللهم حوالينا»^(٢).

السادس: ترسيخ الأمور الخطيرة في الأذهان، فقد طلب علي الزبير بين الصفين في معركة الجمل فقال له: «أما تذكر يا زبير يوم لقيت رسول الله ﷺ في بني ضبة وهو راكب على حمار فضحك إلي وضحكت إليه، فقال: «أتحبه يا زبير؟» فقلت: والله إنني لأحبه، فقال: «أما إنك ستقاتله وإنك له ظالم ولينصرون عليك» فقل: استغفر الله لو ذكرت هذا ما خرجت»^(٣).

السابع: تأييد الله سبحانه له ونصرته له، استسقى رسول الله فجاء أهل البطاح يصيحون يا رسول الله الغرق الغرق، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حوالينا ولا علينا» فلحج السحاب عن السماء فضحك رسول الله ﷺ^(٤).

الثامن: مزاح وإرضاء وتهوين، فقد أبصر رسول الله ﷺ امرأة عجوز درء، فقال ﷺ: «أما أنه لا يدخل الجنة عجوز درء» فبكت، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: يا رسول الله اني درء، فضحك رسول الله ﷺ وقال:

(١) المجازات النبوية: ٣٥٠.

(٢) روضة الواعظين: ٦٢.

(٣) شرح أصول الكافي ٦: ٢٨٢.

(٤) مستدرک الوسائل ٦: ١٩٤.

«لا تدخلين على حالك هذه»^(١) وفي رواية أخرى: «أما سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾»^(٢).

التاسع: للدلالة على عدم العلم بالحال، فقد جاء أعرابي فقال: يا رسول الله بلغنا أن المسيح - يعني الدجال - يأتي الناس بالثريد، وقد هلكوا جميعاً جوعاً، أفترى بأبي أنت وأمي أن أكف من ثريده تعففاً وتزهداً؟! فضحك ﷺ ثم قال: «بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين»^(٣).

العاشر: ذكرى وتمجيد، فقد استسقى رسول الله ﷺ فما رد يده إلى نحوه حتى أهدق السحاب بالمدينة كالإكليل فمطروا، ثم انجاب السحاب، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «الله در أبي طالب لو كان حياً لقرت عيناه، من ينشدها» فقام علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: كأنك أردت يا رسول الله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
فقال ﷺ: «أجل»^(٤).

الحادي عشر: التكذيب والاستغراب، فقد قال أبو سفيان وهو يظهر المزاح لرسول الله ﷺ: والله إن هو إلا تركتك فتركتك العرب، إن انتطحت جاء ولا ذات قرن، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟!»^(٥).

الثاني عشر: تعظيم وتصديق، فقد أذنب رجل ذنباً في حياة

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٤٠٩.

(٢) مستدرك الوسائل ٨: ٤١٠ ح ٩٨٢٥.

(٣) مستدرك الوسائل ٨: ٤٤١ ح ٩٨٢٧.

(٤) مستدرك الوسائل ١٠: ٣٨٨.

(٥) شرح الأخبار للنعمان المغربي ٢: ١٤٦ ج ٤٤٥.

رسول الله ﷺ فطلب فتغيب حتى وجد الحسن والحسين عليهما السلام في طريق خال، فأخذهما، فاحتملهما على عاتقه وأتى بهما إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إني مستجير بالله وبهما، فضحك رسول الله ﷺ حتى رديه إلى فمه ثم قال للرجل: «أذهب فأنت طليق». وما ضحك رسول الله ﷺ إلا لأنه يريد أن يقول: إنك استشفعت بهما ولا تعلم أنك بمن استشفعت؛ فإنهما لو استشفع بهما جميع أهل الأرض لشفعوا^(١).

الثالث عشر: جرأة البعض وشدة عطف الرسول ﷺ: فقد أدرك النبي ﷺ أعرابي فأخذ بردائه فجذبه جذبة شديدة أثرت به ﷺ حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال له: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله ﷺ فضحك وأمر له بعتاء^(٢).

الرابع عشر: شكر وثناء وفرح، جاء رسول الله ﷺ مع علي إلى ابنته فاطمة فقال: «يا فاطمة، فداك أبوك، هل عندك طعام؟» فاستحيت وقالت: نعم، ثم قامت ووصلت، ثم سمعت حساً، فالتفت فإذا صحيفة ملآنة ثريداً ولحماً، فاحتملتها وجاءت بها، وكان علي قد خرج من عندها وليس عندها طعام، فقال: يا بنت رسول الله ﷺ «أنتى لك هذا» قالت: «هو من عند الله» فضحك النبي ﷺ وقال: الحمد لله الذي جعل في أهل بيتي نظير زكريا ومريم^(٣).

وهناك موارد أخرى يضحك فيها الرسول ﷺ ويفرح فيها لانتصار مظلوم، أو التباس الأمر على السامع، أو كان هناك ما يضحك حقاً.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «كان عيسى عليه السلام يبكي ويضحك،

(١) شرح الأخبار للنعمان المغربي ٣: ١١٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٧.

(٣) الثاقب في المناقب: ٢٢٢.

وكان يحيى النبي يبكي ولا يضحك، وكان الذي يفعل عيسى النبي أفضل^(١).

ومهما يكن من أمر فقد ذكروا أن من أسماء الرسول المصطفى ﷺ في التوراة الضحوك^(٢)، فلما جاءت اليهود وقریظة والنضر وقينقاع، فقالوا: يا محمد إلى ما تدعو؟ قال: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله، وإني الذي... أخبركم عالم منكم جاءكم من الشام فقال: تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور، لنبي يبعث في هذه الحرة، مخرجه بمكة ومهاجره ههنا، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم يركب الحمار... وهو الضحوك القتال، يبلغ سلطانه منقطع الخف والخافر»^(٣).

٥٩٦. الضحى

الضحى هو أول ساعة من النهار وذلك إذا ارتفعت الشمس، فإذا كان النهار هو الإسلام، والشرك هو الليل، يكون الضحى هو أول ساعات نهار الإسلام، وهي ساعة ارتفاع شمسه وتعاليتها، وكل ما أعقبه فهو الارتداد والانقلاب على عقب.

ولما كان النهار اثنا عشر ساعة كان نهار الإسلام كذلك من يوم طلوع شمسهِ إلى يوم غياب قائم آل محمد اثنا عشر معصوم، أولهم النبي ﷺ وآخرهم الإمام العسكري، وتكون الغيبة الصغرى فترة سقوط القرص، والكبرى هي غياب الحمرة المشرقية وشروع ليله حتى ينفجر صبح العدالة بظهوره عجل الله تعالى فرجه.

قال ابن شهر آشوب في عداد أسماء النبي ﷺ: الضحى ﴿وَالضُّحَىٰ وَ

(١) مستدرک الوسائل ٨: ٤١٣.

(٢) كشف الغمة ١: ٩.

(٣) إعلام الوری: ٤٢، ٤٧، کمال الدین ١١٤، ١١٥، البحار ١٩: ١١٠.

اللَّيْلِ ﴿^(١) وورد في ذلك أن الله سبحانه أقسم بنبيه: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وأقسم بعلي ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ^(٢).

٥٩٧. ضخم الكراديس

الكردوس كل عظم تام، وكل عظم كثير اللحم، فيكون معنى ضخم الكراديس أن عظامه تامة كبيرة، وبالنتيجة هو ضخم الأعضاء، وقيل: الكراديس رؤوس العظام واحدها كُردوس وكل عظمين التقيا في مفصل فهو كردوس نحو المنكبين والركبتين والوركين، أي ضخم الأعضاء، ذهب إلى ذلك الأكثر ^(٣).

هذا وقد تناقلت الأخبار الكثيرة أن الرسول ﷺ كان ضخم الكراديس ^(٤)، مما يظهر منه وضوح ذلك وانتشاره، ولا يخفى أنه يدخل في تمامية خلقته، وكمال بدنه، واستقامة طبيعته ﷺ.

٥٩٨. ضليع الفم

المعروف أن صغر الفم أجمل، ولكن الظاهر اختصاص ذلك بالنساء، بيد أن المستحسن في الرجال منطقتهم وصفاء قلوبهم، وإنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه.

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٣١.

(٢) البحار ٣٩ : ٧٥.

(٣) انظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٦٢، ولسان العرب ٦ : ١٩٥، البحار ١٦ : ١٦٤.

(٤) معاني الأخبار ٨٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام للكوفي ١ : ١٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام :

١٧٨، ١٧٧، البحار ١٦ : ١٤٩، المصنف لابن أبي شيبه ٧ : ٤٤٦، تحفة الأحوزي

١٠ : ١٨، النهاية في غريب الحديث ٤ : ١٦٢.

فكان المناسب في الرجل أن يكون ضليع الفم أي كبيره وواسعه مما يجعله يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، لأن الشدق جميل مستحسن. وخصوصاً عند الخطابة، فيقال خطيب أهرت الشديق^(١).

ومهما يكن من ذلك فقد قال هند بن أبي هالة وكان وصافاً للنبي ﷺ: كان رسول الله. ضليع الفم^(٢).

وقال الصدوق رحمه الله: سألت أبا أحمد الحسن بن سعيد العسكري في تفسير هذا الخبر فقال: وقوله ضليع الفم معناه كبير الفم، ولم تزل العرب تمدح بكبر الفم، وتهجو بصغره، قال الشاعر يهجو رجلاً:

وإن كان كدي وإقدامي لفي جرد بين العواسج أجني حوله المصع
فغيرهم بصغر الأفواه، بينما مدحوا الخطباء بسعة الأشداق.

وقالت الخنساء ترثي أخاها:

و أحيى من مخبأة حياءً هريت الشدق ريقال إذا ما
وأجرى من أبي ليث هزبر عدا لم ينه عدوته بزجر^(٣)

(١) الأهرت والمهرت: الواسع.

(٢) عيون أخبار الرضا ﷺ: ١٧٦، ١٧٨، البحار ١٦: ١٤٩. مسند أحمد ٥: ٩٧.

(٣) معاني الأخبار: ٣٠، ٣٢ البحار ١٦: ١٥٧، وانظر الفائق في غريب الحديث

للزخشمري ٢: ١٨٨، وفيض التقدير ٥: ٩٦.

حرف الطاء

الأسماء المصدرة بحرف الطاء

٥٩٩. طاب

روي أن النبي ﷺ قال: «أول ما في التوراة مكتوب: محمد رسول الله وهي بالعبرانية طاب»^(١) وقيل في معناه: إنه الطيب، وقيل: معناه أنه ما ذكر بين قوم إلا طاب ذكره بينهم، وبظني ان كلمة طاب هي المقابل لكلمة أحمد بما تحمله من معنى في العربية، أو محمد كما هو مستفاد من الرواية لأنفة الذكر، وهو لا يبعد بكثير عما ذكروا له من المعاني فإن أحمد كما مرّ هو الذي يحمد ويكثر حمده لأنه صفة مبالغة من الحمد، والحمد هو طيب الذكر، وكذا محمد فإنه مبالغة من كثرة الحمد كما سيأتي، ولا أرى وجهاً للتقيّد بمادة اللفظ في موضع الترجمة.

٦٠٠. طاب طاب

يحتمل في هذا العنوان أنه تكرار للعنوان السابق للدلالة على الكثرة، فقد يكون التكرار في العبرية يعني الكثرة كما هو عندنا بمعنى التأكيد، فقد مرّ أن طاب بمعنى الحمد وطيب الذكر، فيكون طاب طاب هو المبالغة في الحمد الذي هو معنى أحمد، أو المبالغة في كثرة الحمد الذي هو معنى محمد.

(١) البحار ٩: ٢٩٤، ٣٠٢، وج ١٣: ٣٣١.

ومهما يكن من ذلك فإن ابن شهر آشوب قال: إن اسمه ﷺ في الإنجيل هو طاب طاب، أي أحمد ويقال: يعني طيب طيب^(١).

وفي رواية سأل يهودي علياً عليه السلام: ما اسم محمد ابن عمك في التوراة، وما اسمك فيها، وما اسم ولديك؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «سل استرشاداً ولا تسأل تعنتاً، عليك بكتاب التوراة، اسم محمد فيه طاب طاب، واسمي إيليا، واسم ولدي شبر وشبير»^(٢).

ثم إن كتابة ذلك الاسم في التوراة والإنجيل لدليل على اشتهاؤه في السماء، وهو كذلك، فقد روي أن النبي ﷺ قعد عند عين فنزل جبرئيل في ذلك الموضع وميكائيل واسرافيل ودردائيل فكان فيما قال جبرئيل: السلام عليك يا طاب طاب^(٣).

٦٠١. طاليثا

قال ابن شهر آشوب: اسم النبي ﷺ في صحف شيث طاليثا^(٤)، وفي رواية: طاليسا^(٥)، وليس بعيداً رجوع الاختلاف إلى استواء تلفظ حرفي الثاء والسين في بعض اللغات، على أن شيث هذا هو هبة الله بن آدم عليه السلام الذي أمر آدم بالوصية له، فهو أول وصي وثاني نبي، أنزل الله عليه خمسين صحيفة^(٦).

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢، وانظر سبل الهدى والرشاد ١: ٤٨٣.

(٢) الثاقب في المناقب: ٢٧٠.

(٣) الفضائل لشاذان: ٣١، ٥٢، البحار ١٥: ٣٥١.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٣٢.

(٥) البحار ١٦: ١٠٤.

(٦) الخصال: ٥٢٤.

٦٠٢. الطاهر

المستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١) أن طهارة النبي وجامعة أهل البيت عليهم السلام إنما هي بإرادة الله سبحانه وتعالى إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم، مع حصر تلك الإرادة فيهم وقصرها عليهم، فلا يكون معنى ذلك إرادة التقوى وترك الشرك؛ لعدم اختصاصه بهم، بل يريد الله سبحانه لجميع عباده، ليلفت نظرنا إلى إرادة طهارة أخرى تختلف اختلافاً كبيراً بقرينة التأكيد بالمصدر.

ومعه لا يحصى عن الالتفات إلى أن الإنسان لا يرتكب الذنب إلا لوجود خبث يتوجد في باطنه وسريته أو هو موجود في أصل طينته وحوامل صفاته، بيد أن حركة الإنسان وفعله الذي يُعدّ ذنباً لا يحصل اعتباراً وحتى الانفعالات النفسية والميل للذنب لا تحصل بمجرد صدفة، وهي في الحقيقة آثار خبث في باطن الإنسان يكون في الغالب من عمل الشيطان بما يسمى الرجس، وذلك الرجس هو المحرك والدافع نحو العمل القبيح، وهو الموجد لاشتياق فعله وإرادة تحقيقه.

فتأتي إرادة الله سبحانه وتعالى لتنفي ذلك المحرك وتعدم بتأثيرها عمل الشيطان في خصوص النبي وآله عليهم السلام، وتذهب الرجس الذي يكون نتيجة لذلك العمل في الغالب، أو الخبث الذي يكون في الطينة وحوامل الصفات بمعنى إرادة عدم تحققه، بحيث لا يوجد باعث لفعل الذنب من الأساس، ولا يكون هناك اشتياق لفعله ولا أية رغبة فيه، ليرتب عليه حصول الطهارة التي يجعلها التأكيد بالمصدر مطلقة غير قابلة للتقييد، فتتعين إرادة العصمة.

(١) الأحزاب: ٣٣.

على أن ذلك التعميق في بيان طهارة النبي ﷺ وأهل بيته لا يعني عدم وجود الطهارة العرفية التي يُنشد بها طهارة القلب وسلامة النفس التي تتجلى بالمعاشرة والمخالطة وحتى في أول لقاء، ولعله هو المعروف لرسول الله ﷺ قبل بعثته، وحينما أرسلت قريش إلى سطيح الكاهن تسأله عن النبي ﷺ فأتاهم وقال: قد أرسلتم إليّ تسألوني عن الحال الظاهر، وعن أمر النبي الطاهر^(١)، فقد عرف طهارة النبي ﷺ قبل بعثته، فإن لم يكن أخذه عن الكتب السماوية تحتم إرادة الطهارة العرفية.

٦٠٣. الطاهر القلب

يجب أن نعرف معنى القلب حتى نعرف معنى طهارته، فإن القلب بمنزلة الإمام من الناس الواجب الطاعة بحيث تكون جميع جوارح الجسد شرطه وتراجعة له، مؤدية عنه الأذنان والعينان والأنف واليدان والرجلان والفرج، فإن القلب إذا هم بالنظر فتح الرجل عينيه، وإذا هم بالاستماع حرك أذنيه وفتح مسامعه فسمع وهكذا، فهي كلها مؤدية عن القلب، وإذا استلمت هذه الجوارح شيئاً وشكت في شيء شتمه أو ذاقته أو سمعته ردته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك، على أن سلطانه على الهواء فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهمه، ويأتي جميع ذلك لأنه مسكن العقل، وبه الذكر والنسيان.

ثم إن القلب له شهوة وإقبال وإدبار وظلمات ونور وملالة وأمراض ومقويات ومحبيات وأمور تحببه وأخرى تميمته، وله دنس وطهارة وبصر وعمى.

فلا بد من إتيان القلب من قبل شهوته وإقباله، لأنه إذا أكره عمى. وما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة، لأن القلب إذا وقع الخطيئة

ما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله.

وأما أمراضه فهي عديدة منها القسوة التي سببها اللهو وطول الأمل، ومنها النفاق الذي سببه ضرب العيدان واستماع الغناء وكذلك إظهار الخشوع والوسواس والبلابل والشك وهو من أحواله، فإنه يأتي على القلب تارات أو ساعات الشك من صباح ليس فيه إيمان ولا كفر شبه الخرقة البالية أو العظم النخر، فإذا تفقدته لا تذكر به خيراً ولا شراً ولا تدري أين هو.

والقلب أيضاً يموت ويحيى، ويميته نسيان الله والجلوس مع الأندال، والحديث مع النساء، والجلوس مع الأغنياء وكذلك كثرة الضحك، ويظلمه ويكدره المعاصي.

ويحييه ويعمره ذكر الله سبحانه، وبه يطمئن فيبدو الإيمان لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة، وهي النكته من البياض، ويجلي ظلماته أنوار الطاعات ولا يكفي ترك المعاصي، لأنه كما يرتفع إلى القلب من كل معصية ظلمة وكدورة يرتفع إليه من الطاعة نور وضياء، فالأولى محو ظلمة كل معصية بنور طاعة تضادها.

على أن لظلمة القلب وجلائه وسروره ارتباط ببعض أنواع الطعام وبعض الأفعال، فالخل يسره، وأكل العدس يرقه، والسفرجل يجلوه ويذهب بطخاء الصدر، وصوم ثلاثة أيام في كل شهر يذهب ببلابله، والريح الطيبة تشده.

فإذا خلا القلب من ظلمات المعاصي وتنور بنور الطاعات، وصفا من الكدر وأنواع الأمراض والمخلع عن أنحاء التعلقات، ضاقت به الأرض حتى يسمو لإدراك المعاني العالية، وانكشفت له أنوار الملكوت فعابن ما ينزل في ليلة القدر فيشق الله بطن ذلك الرجل ثم يؤخذ إلى قلبه ويكتب عليه بمداد النور وذلك جميع العلم.

على أن صاحب القلب الطاهر تنفذ فراسته إلى أسرار النفوس فتستخرجها، ويكون القلب مصحفاً للبصر، فإذا أراد ذلك الرجل علم شيء نظر ببصره وقلبه كأنه ينظر في كتاب، ويلهم الله ذلك الرجل بالقذف في القلب حتى يخيّل إلى الأذن أنه تكلم بما شاء الله علمه، والله واسع عليم.

ولا تتوفر تلك المعاني وإن كانت جزئية إلا في الرسول المصطفى ﷺ كما أنبأ الله سبحانه بذلك عيسى بن مريم، فكان فيما وعظه أن قال له: ثم إنني أوصيك يا بن مريم البكر البتول بسيد المرسلين وحببي منهم أحمد... الطاهر القلب^(١).

٦٠٤. طاهر الميلاد

لما أراد الله أن يخلق محمداً ﷺ أمر جبرئيل وملائكة الصفيح الأعلى وحملة العرش فقبضوا تربة رسول الله ﷺ من موضع ضريحه، وقضى أن يخلقه من التراب، ويميته في التراب ويحشره على التراب، فقبضوا من تربة نفسه الطاهرة قبضة طاهرة لم تمش عليها قدم مشت إلى المعاصي، فعرج بها الأمين جبرئيل فغمسها في عين السلسبيل حتى نقيت كالدرة البيضاء، فكانت تغمس كل يوم في نهر من أنهار الجنة وتعرض على الملائكة فتستقبلها الملائكة بالتحية والإكرام، وكان يطوف بها جبرئيل في صفوف الملائكة قالوا: إلهنا وسيدنا إن أمرتنا بالسجود سجدنا.

فقد اعترفت الملائكة بفضله وشرفه قبل خلق آدم ﷺ، ولما خلق الله آدم ﷺ سمع في ظهره نشيئاً كنشيش الطير، وتسييحاً وتقديساً، فقال آدم يا رب وما هذا؟ فقال: يا آدم هذا تسييح محمد العربي، سيد الأولين والآخرين، فالسعادة لمن اتبعه وأطاعه، والشقاء لمن خالفه، فخذ يا آدم

(١) الكافي ٨: ١٣٩، أمالي الصدوق: ٦١١، البحار ١٤: ٢٩٤.

بعهدي ولا تودعه إلا الأصلاب الطاهرة من الرجال والأرحام من النساء الطاهرات الطيبات العفيفات^(١).

وقال النبي ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم»^(٢). وقال الطبرسي: إن آباء النبي ﷺ إلى آدم كلهم كانوا موحدين، وأجمعت الطائفة على ذلك ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية»^(٣).

وذكر سطيح الكاهن أوصاف النبي ﷺ فعد منها: طاهر الميلاد^(٤).

٦٠٥. الطريق المستقيم

إن الطريق في الحقيقة هو الموصل إلى المقصد، والمؤدي إلى الهدف النهائي، فيكمن في هذا العنوان حقيقة الإيصال والتأدية، غير أن المقصد هنا والغاية هي غاية الغايات ونهاية كل مقصد ألا وهي محبة الله سبحانه ورضوانه وفسيح جناته، فإن المؤدي إلى جميع ذلك والموصل إلى ذلك المقصد هو الرسول المصطفى وأهل بيته عليهم السلام ومتابعتهم.

وتنفع الاستقامة في الطريق من ناحية اختصاره، لأن المستقيم هو أقرب المسافات، وكذلك عدم حصول الضلال والانحراف النهائي، بيد أن الطريق الكثير الانعطاف والانحراف لا يأمن سالكه من التباس الأمر عليه في بعض تقاطعاته وانعطافاته أن يضل الطريق ولا يصل إلى المقصد.

(١) البحار ١٥: ٤٨٤٢٦.

(٢) الاعتقادات: ١١٦، البحار ١٥: ١١٧ ح ٦٣.

(٣) مجمع البيان ٤: ٣٢٢.

(٤) البحار ١٥: ٣٠٧.

ولكن هنا وفي هذا العنوان وإن قيّد بالمستقيم غير أنه لا يعني وجود طريق آخر غير مستقيم يوصل إلى الجنة، بل هو طريق منحصر ومستقيم أيضاً.

فالرسول ﷺ يوصلك إلى الجنة، ومتابعته تؤدي بك إلى غاية الغايات، على أنه ليس هناك طريق غيره، بل هو واحد، تخرج عنه بالمعاصي ثم تؤوب إليه بالتوبة والاستغفار وعمل الخير.

ثم إن معنى الاستقامة فيه من الدقة والظرافة ما قد تتضح للقارئ بعد معرفة أن حقيقة هذا الطريق هي الأحكام والفرائض والحدود وغيرها من التكاليف، وكذلك القصور عن الغلو والارتفاع عن التقصير على أن الخروج عنه يكون باتباع الهوى والأخذ بالأراء الفاسدة.

فمن ذلك وأمثاله يعلم المعنى والمقصود بقول النبي ﷺ في حديث: «نحن الأولون... ونحن الطريق المستقيم»^(١).

٦٠٦. طريق النجاة

علم مما مرّ أن الرسول ﷺ هو الموصل إلى الجنة والمؤدي إلى محبة الله سبحانه ورضوانه، فلا شك في كون دخول الجنة هو النجاة، وغيره الهلاك ودخول النار والخزي يوم القيامة، وأشد منه سخط الله سبحانه وغضب الجبار وإعراضه عن العبد.

ولما كان هذا الطريق هو الموصل الوحيد والطريق المنحصر كما بيّنا صار معناه أن كل ما عداه هو النار، فكان أمره إلى جانب الهاوية وعلى وادي السقوط، بل كان الناس على شفا حفرة من النار فشرع الله سبحانه لهم هذا الطريق ونهج لهم هذا المنهاج في سبيل إنقاذهم ونجاتهم، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(٢)، أي

(١) البحار ٢٥: ٢٣.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

بمحمد وآل محمد عليهم السلام، فكان الأمر كما قال رسول الله ﷺ في الحديث السابق: «وئحن طريق النجاة»^(١).

٦٠٧. طس

اختلفوا في الحروف المعجمة المفتوح بها أول السور اختلافاً شديداً يترجح عندنا أنها مختصرات لكلمات هي عبارة عن أسماء الله سبحانه وصفاته أو أسماء رسوله المصطفى ﷺ أو غير ذلك من المعاني العظيمة التي قد تشكل باجتماعها اسم الله الأعظم وقد لا تشكل.

ومن تلك الحروف ما جاء في أول سورة النمل، أعني «طس» فهي بشخصها مثار للاختلاف وتضارب الأخبار، ففي خبر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه لما سئل عن الحروف المقطعة قال في معرض كلامه: «وأما طس فمعناه أنا الطالب السميع»^(٢) أراد أنهما اسمان من أسماء الله تعالى.

ولكن في رواية عن الواقدي قال: نزل جبرئيل، فقال: السلام عليك يا محمد... السلام عليك يا طس السلام عليك يا طسم^(٣).

غير أن اختلاف الروايات في أكثرها قد يعني أنها مختصرات لمعاني متعددة أو أسماء متعددة أو مشتركة، ولا بُعد فيه ولا ضرورة تنفيه إذا صحت أسناد الروايات.

٦٠٨. طسم

هذه الحروف هي الأخرى مثاراً للبحث والاختلاف وتضارب الروايتين السابقتين فيها، على أن الرواية الأولى تفسره بالطالب المبدئ

(١) البحار ٢٥: ٢٣.

(٢) معاني الأخبار: ٢٢، البحار ٨٩: ٧٧٣.

(٣) الفضائل لشاذان: ٣٣، البحار ١٥: ٣٥١.

المعيد، والثانية تجعله من أسماء النبي التي سلم بها عليه جبرائيل.

٦٠٩. طلق اللسان

أعطى الله سبحانه وتعالى رسوله المصطفى ﷺ جوامع الكلم التي يتوقف بيانها على لسان طلق ذلق يعبر عنها ويفصح بها ويسفر عن حقائقها، والطلق الذلق هو الماضي القول، سريع النطق، عذب المنطق، إذا تكلم المحذر كالسيل من غير تلثم أو تلكؤ، ينبسط إلى السامع في الحديث الصعب الغامض وأعقد العلوم فيخال أنه سهل واضح، وما هو بالسهل ولكن فصاحة اللسان وجاذبية الحديث، وساحرية الأسلوب كل ذلك يجعل السامع يتذوقه ويستسيغه فيحسبه سهلاً.

ولولا تلك الصفة الموروثة عند الرسول المصطفى ﷺ وما منحه الله سبحانه وتعالى من طلاقة اللسان لم يتمكن من تحميل الأمة الأمانة كل تلك العلوم والفنون التي لم يتوصل إلى أكثرها علماء اليوم والمجربون الفنيون، فهو كما وصفه سطیح الكاهن حيث قال: بين كتفيه علامة، على رأسه عمامة... حلو الكلام طلق اللسان^(١).

٦١٠. طه

كان رسول الله ﷺ يقوم على أطراف أصابعه - أو على رجل واحدة - حتى تورمت، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشتقى﴾^(٢) وطه هو اسم من أسماء النبي ﷺ وأظنه اسم دلال وعطف، بدليل ما روي أنه لما زوجت فاطمة الزهراء سلام الله عليها من علي بن أبي طالب عليه السلام أمر الله حور العين بالغناء فيها بسورة طه^(٣) ولا وجه

(١) البحار ١٥: ٣٠٧.

(٢) الكافي ٢: ٩٥، قرب الإسناد: ١٧١، البحار ١٦: ٨٥ ح ٢، وانظر البحار ١٠: ٤٠.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ٤١٤.

للغناء بها في هذه الليلة إذا لم يكن فيها شمة من الحب والدلال والمغازلة، ولا محل لها سوى أول آية منها، فهي عتبا وخطاب مع الحبيب.

ولا ينافي ذلك أن يكون لهذه الكلمة معاني سامية، فقد سئل علي بن الحسين عليه السلام عن الحروف المقطعة فكان فيما قال: «وأما طه فاسم من أسماء النبي صلى الله عليه وآله ومعناه: يا طالب الحق الهادي إليه ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ بل لتسعد به»^(١)، وقيل: إنه يا طاهر يا هادي^(٢).

وهنا احتمالات وتمحلات أخرى منها: أن يكون طه أمراً من وطأ يطأ ثم حذف الألف وزيدت الهاء في الوقت، فيكون المراد طأ الأرض بقدميك جميعاً ولا تقوم على أطراف الأصابع أو على قدم واحدة فتصيبك مشقة وتعب.

ومنها: ما يذهب إليه أكثر المفسرين من أن معناه يا رجل بلسان الحبشية أو النبطية.

ومنها: أنه من أسماء النبي صلى الله عليه وآله.

٦١١. الطهر

المعروف المأنوس في ضبط الكلمة هو صيغة المصدر أو اسم المصدر، ويستعمل المصدر مكان اسم الفاعل فيقال زيد عدل، ليدلّ على شدة طهارته صلى الله عليه وآله وتمحضه حتى كأنه هو الطهر قد تجسّد، وقد تقدّم الكلام في طهارة النبي صلى الله عليه وآله في مواضع عديدة منها عنوان الطاهر، والذي نشير إليه هنا كثرة استعمال الشعراء كلمة الطهر عند وصف النبي صلى الله عليه وآله أو ذكره بنحو من الأحاء.

(١) معاني الأخبار: ٢٢.

(٢) شرح الأخبار للقاضي النعمان ٣: ٧٣.

فقد قال الشيخ حسن الحلبي يصف حال الزهراء عليها السلام:

عصروها بالباب قسراً إلى أن كسروا ضلعها وهدّوا قواها
ألجّوها إلى الجدار فألقت محسناً وهي تندب الطهر طامها
دخلوا الدار وهي حسرى فقادوا بنجداد الحسام حامي حماها^(١)

ومنها ما تمثل به أبو الفضل العباس عليه السلام يوم عاشوراء

لا أرهب الموت إذا الموت رقا حتى أوارى في المصاليب لقا
نفسى لنفس المصطفى الطهروفا إني أنا العباس أعدو بالسقا^(٢)

وقال العوفي وينسب إلى عياش:

سلام على خير الورى خاتم النذر سلام على المستحفظ الطاهر الطهر
سلام وريحان وروح ورحمة على علم الدين المتوج بالفخر^(٣)

وكذلك لا تخلو أكثر الزيارات من التسليم عليه بذلك والقول:
السلام على الطهر الطاهر^(٤).

٦١٢. طويل الزندين

الزندان هما عظما الساعد، أحدهما أدق من الآخر، ورأس الزند
الذي يلي الإبهام يقال له: الكوع، ورأس الزند الذي يلي الخنصر يقال له:
الكرسوع.

ولما ذكر هند بن أبي هالة حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً للنبي ﷺ

(١) شرح الأخبار للقاضي النعمان ٣: ٧٣.

(٢) شرح الأخبار للقاضي النعمان ٣: ١٩٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٧٢.

(٤) إقبال الأعمال لابن طاووس ٣: ١٣٠ المزار: ٢٠٦.

قال: كان رسول الله ﷺ طويل الزندين^(١).

٦١٣. طويل الصمت

لا زال الصمت والسكوت محموداً ومفضلاً حتى إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب؛ لأنه يكسب المحبة وتكون منه الهيبة وبه تكون السلامة، على أنه نعم العون في مواطن كثيرة، ومطرقة للشيطان، وجعلت الصحة في أربعة أحدها قلة الكلام.

ولا يعرف العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه، فهو صفة المؤمن وأول العلم ودليل التفكير وإحدى علامات الفقه، وباب من أبواب الحكمة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من الصمت»^(٢).

وفصل في موضع آخر فقال: «الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق وجف القلم به وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضا الرب وتخفيف الحساب، والصون من الخطايا والزلل، قد جعله الله سترًا على الجاهل، وزيناً للعالم، ومعه عزل الهواء، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروءة والظرف، فاغلق باب لسانك عما لك بد منه، لا سيما إذا لم تجد أهلاً للكلام، والمساعد في المذاكرة لله وفي الله»^(٣).

ومع كل ذلك تبقى هناك أسرار في الصمت لا نعرفها، فقد روي أن آدم عليه السلام لما كثر ولده وولد ولده كانوا يحدثون عنده وهو ساكت، فقالوا: يا أبا مالك لا تتكلم؟ فقال: يا بني إن الله جلّ جلاله لما أخرجني من جواره

(١) البحار ١٦: ١٤٩ ح ٤.

(٢) الخصال: ٣٥.

(٣) مصباح الشريعة: ١٧٢، مستدرك الوسائل ٩: ٢٠ ح ١٠٠٨٨.

عهد إليّ وقال: أقلّ كلامك ترجع إلى جوارِي.

وغاية ما يستفاد من هذه الروايات أن الصمت فيه فوائد للدنيا والآخرة، ولكن الفوائد في كلام الرسل أكثر من صمتهم، بل هم مأمورون بالكلام قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١) وإنما بعثوا مبشرين ومنذرين.

وسئل علي بن الحسين عليه السلام: عن الكلام والسكوت أيهما أفضل؟ فقال عليه السلام: «لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت» قيل: كيف ذلك يا ابن رسول الله ﷺ؟ قال: «لأن الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنما بعثهم بالكلام»^(٢).

فإذا كان الرسول المصطفى ﷺ طلق اللسان كما مر وفصيح بل أفصح العرب، كيف صار طويل الصمت كما جاء وصفه في خبر جابر بن سمرة^(٣)، وكيف كان طويل الصمت والروايات المروية عنه قد ملأت الكتب؟!

نعم كان لا يتكلم إلا إذا كان الكلام راجحاً، ولا يتكلم بفضول الكلام، ويدع الكلام حتى يجد له موضعاً، فرب متكلم في غير موضعه جنى على نفسه بكلامه على حد تعبير الإمام الصادق عليه السلام، فإذا صمت الرسول ﷺ طويلاً عند مجالسة البعض؛ فلأنه لم يجده أهلاً ولا موضعاً للكلام والنصح، ولذا لا نجد هذا الوصف في كلام أمير المؤمنين عليه السلام مع ذكره لأكثر صفات النبي ﷺ الخلقية وعمامة أحواله، وكذا غيره ممن ذكر أوصافه ﷺ كسلمان وهند بن أبي هالة والإمام الحسن عليه السلام وغيرهم.

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) الاحتجاج: ٣١٥، الوسائل ١٢: ١٨٨ ح ١٦٠٤٥.

(٣) سئل جابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم فكان طويل الصمت.

مسند أحمد ٥: ٨٦، السنن الكبرى ٧: ١٧٦.

٦١٤. طويل العنق

لاشك أن طول الرقبة إذا لم يخرج عن المتعارف فهو جمال وكمال للبدن، بخلاف الجنادف وهو القصير الرقبة الذي لصق رأسه بكتفيه، وإن كان طول العنق يكتفى به عن أمور أخرى، منها الطول، فالمروي أن الرسول ﷺ كلما مشى مع أحد كان أطول منه برأس وإن كان طويلاً، مع أنه ﷺ لم يكن بالطويل البائن^(١).

ومنها: الرجاء؛ لأن من يرجو شيئاً طال إليه عنقه.

ومنها: السيادة؛ فإن العرب تصف السادة بطول العنق.

ومنها: الفلاح والنجاح بمعنى أنه مرفوع الرأس.

ومنها: ارتفاع الشأن والاشتهار والامتياز، وقيل غير ذلك ولكن لما كان عد هذا الوصف في عداد أوصاف النبي ﷺ البدنية ترجح إرادة المعنى الأول، لأنه إنما جاء في وصف الإمام الحسن عليه السلام النبي ﷺ للملك الروم فقال: «كث اللحية، عريض الصدر، طويل العنق، عريض الجبهة»^(٢).

وإنما جاءت تلك الاحتمالات والمعاني في قول رسول الله ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة» ومهما كان معناها فهي تدل على حسن هذه الصفة^(٣).

٦١٥. طيب الريح

إلى جانب العلائم التي تدلّ عليه ﷺ وتميّزه عن سواه ومعروف بها في الأمم السابقة طيب ريحه وعطر بدنه ﷺ، الذي له مناشئ وأسباب:

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٧، البحار ١٦: ١٧٦.

(٢) تفسير القمي: ٥٩٨، البحار ١٦: ١٤٦.

(٣) البحار ٨١: ١٠٦ ح ٤.

المنشأ الأول: هو طيب بدنه وعرقه بذاته حتى قال أنس بن مالك: شممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهته^(١) مما يدل على أن هذا العطر غير العطر الموجود والمصنوع.

وأوضح من ذلك ما جاء في الإنجيل على ما يروى: صدقوا النبي الأمي صاحب الجمل والمدرعة... عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفخ منه، لم ير قبله مثله ولا بعده، طيب الريح^(٢). فقد دل على أن هذا العطر هو عطر عرقه.

ولما ذكر الإمام الحسن عليه السلام صفات النبي ﷺ لملك الروم عدّ منها طيب الريح^(٣). الذي بظاهره أن الطيب لعطر النبي ﷺ نفسه، لا لأجل العطر الذي يتطيب به.

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «كان لا يمر في طريق فيمر فيه أحد بعد يومين أو ثلاثة إلا عرف أنه قد مر فيه لطيب عرقه»^(٤) مما يؤكد أن الكلام ليس عن طيب وعطر عادي يباع ويستحصل، وإنما هو عطر خاص به، وهو طيب عرقه الذي له خصوصية بحيث يبقى اليومين والثلاثة أيام، وإلا فالكثير من الناس يستعمل العطر ويتطيب، فكيف يعرف أن النبي ﷺ بخصوصه قد مرّ ذلك الطريق إذا لم يكن ذلك العطر خاص ببدنه الشريف ﷺ.

المنشأ الثاني: مواظبته على استعمال الطيب بأنواعه المسك والعنبر والغالية ويستجمر بالعود الهندي، بحد كان يرى عليه أثر الطيب، ويعرف في الليلة الظلماء بالطيب فيقال: هذا النبي ﷺ.

(١) البحار ١٦ : ٢٣٠.

(٢) أمالي الصدوق: ٣٤٦، البحار ١٦ : ١٤٥ ح ١، كمال الدين: ١٥٩.

(٣) مدينة المعاجز ٣ : ٣٥٢، البحار ١٦ : ١٤٦ ح ٢.

(٤) الكافي ١ : ٤٤٢ ح ١١، البحار ١٦ : ٢٤٩.

وعن الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ ينفق على الطيب أكثر مما ينفق على الطعام» ومع ذلك لا يعرض عليه طيب إلا تطيب به، ويقول: «هو طيب ريحه، خفيف محمله» وإن لم يتطيب وضع اصبعه في ذلك الطيب ثم لعل منه. وهو القائل: «جعل الله لذتي في النسء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة والصوم»^(١).

ولعل سائلاً يسأل: ألم يكن في طيب عرفه غنى عن التطيب واستعمال الطيب والتجمير، فعسى أن يكون الجواب هو حبه لذلك ولذته وولعه به، وجعله سنة لمن يتبعه، مع حصول الالتذاذ بالتنوع، فيكون نوراً على نور.

المنشأ الثالث: شدة مواظبته على استعمال المطهرات والسواك، مع تجنب أقل ما فيه رائحة غير محبوبة من الطعام وغيره، حتى ترك أكل العسل، فإنه ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواصت عائشة وحفصة أيتها دخل عليها النبي ﷺ تقول له: إني أجد منك ريح المغافير، فدخل على إحداهن، فقالت له ذلك، فقال: «بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له» فنزلت ﴿لَمَّا تَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٢) والمغافير صمغ حلو مثل الدبس وله ريح كريهة.

علماً بأن الرسول ﷺ يعلم بأنه شرب عسلاً ولم يشرب المغافير، غير أنه ترك ذلك من أجل دفع التهمة بالريح الكريهة، وتجنب تناقل ذلك وإن كان كاذباً.

هذا كله فضلاً عن البقلة الكريهة الرائحة أعني الثوم والبصل مع وصفه فوائدهما، لكنه كان يتركهما من أجل ذلك ومن أجل الكلام مع

(١) انظر البحار ١٦: ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) سنن أبي داود ٢: ١٩١ ح ٣٧١٤، ٣٧١٥، مستدرک الحاكم ٤: ١٠٥.

٥٢٠..... أسماء الرسول المصطفى ﷺ

الوحي والناس عامة.

قال علي عليه السلام: «كان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل»^(١).

(١) البحار ١٦: ٢٣٧.

حرف الظاء

الأسماء المصدرة بحرف الظاء

٦١٦. الظل

الظل هو حالة تحصل من عدم وصول ضوء الشمس بشكل مستقيم نتيجة لوجود حاجز أو حاجب، فيشمل ظل الإنسان الذي يتحرك بحركته، كما يشمل حالة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فإنها حالة حاصلة من عدم وصول ضوء الشمس بشكل مستقيم نتيجة لوجود حاجب وحاجز وهو الأرض.

على أن خصوصية الظل هي تساوي مقدار النور في أكثر أجزائه أو جميعها، وفي خصوص حالة الفجر تساوي جميع المشمولين له في إمكان الانتفاع به في تلك الحالة، ويكون له سعة وشمول.

وإذا اطلق لفظ الظل على الرسول المصطفى ﷺ فإنه كالفجر ينتفع به الجميع، ويعيشون بظله، قال ابن شهر آشوب: وسماه ظلًّا ﴿الرُّتَرُ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فبنوره يضيئ البلاد، وبظله يعيش العباد^(١).

وكما يحتمل أن تسمية النبي ﷺ بذلك لأجل أنه تابع لإرادة الله سبحانه متخلق بأخلاقه، فهو ظل رحمته على عباده، لأنه أطاع وتبع كما يتبع الظل الإنسان، وخلق الله الخلق ورزقهم فصاروا يعيشون في ظله ﷺ.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٩٨.

ويمكن التحليق إلى معاني أسمى وأدق، بعد ما علمنا أن الله سبحانه وتعالى احتجب عن خلقه بنور عظمته فلم تره العيون ولم تتوهمه الأوهام، فكان محمد ﷺ هو نوره بعد الاحتجاب كما أن الفجر نور الشمس عند احتجابها، غير أن الله سبحانه وتعالى لا يشبه بخلقه، وإنما هي محاولة لتقريب شيء إلى الذهن، واستغفر الله أولاً وآخر. هذا آخر ما أردنا تقييده في الجزء الثاني من كتاب الأسماء؛ مؤكداً على ما أشرنا إليه في الجزء الأول من أن المقصود به هو التبرك والتيمن دون التحقيق وسبر الأغوار، تركناه إشارات ونوافذ وإن صغرت.

وأخيراً نذكر على نقطة هامة بعد ما أخذنا على أنفسنا الاستدلال على معاني الأسماء وإثبات وجودها في النبي ﷺ ولو في الجملة وكانت بعض الأخبار دالة على معاني متعددة منها وصفات مختلفة اضطرننا إلى نقل بعض تلك الأخبار وإيراد نصوصها عدة مرات.

والحمد لله رب العالمين

عباس تبريزيان

١٧ جمادى الآخرة ١٤٢٣ هـ

فهرس المواضسع

الأسماء المصدرة بحرف الخاء

- ٥ ٢٨٤- الخاتم
- ٩ ٢٨٥- خاتم الأنبياء
- ١٠ ٢٨٦- خاتم الرسل
- ١١ ٢٨٧- الخاتم لما سبق
- ١٢ ٢٨٨- خاتم النبوة
- ١٣ ٢٨٩- خاتم النبيين
- ١٤ ٢٩٠- خازن علم الله
- ١٦ ٢٩١- خازن الله في الأرض
- ١٧ ٢٩٢- خازن الله في السماء
- ١٧ ٢٩٣- خاصة الله
- ١٨ ٢٩٤- خافض الطرف
- ٢٠ ٢٩٥- خالصة الله
- ٢١ ٢٩٦- الخبير
- ٢٢ ٢٩٧- الخطيب
- ٢٣ ٢٩٨- خليل الله
- ٢٤ ٢٩٩- خليفة الله في الأرض
- ٢٦ ٣٠٠- خمسان الأخصين
- ٢٧ ٣٠١- الخيار
- ٢٨ ٣٠٢- خير أصحاب اليمين

٥٢٦ أسماء الرسول المصطفى ﷺ

- ٣٠ ٣٠٣- خير الأمم
٣١ ٣٠٤- خير الأنام
٣٢ ٣٠٥- خير الأنبياء
٣٤ ٣٠٦- خير أنبياء الله
٣٤ ٣٠٧- خير الباقيين عند الله
٣٥ ٣٠٨- خير البرية
٣٧ ٣٠٩- خير البشر
٣٨ ٣١٠- خير الخلائق
٣٩ ٣١١- خير الخلق
٤١ ٣١٢- خير خلق الله
٤١ ٣١٣- خير خلقه الله
٤٢ ٣١٤- خير السابقين
٤٣ ٣١٥- خير الناس بيتاً
٤٦ ٣١٦- خير الماضين عند الله
٤٨ ٣١٧- خير من يمشي على الأرض
٤٩ ٣١٨- خير النبيين
٥٢ ٣١٩- خير الورى
٥٣ ٣٢٠- خيرة الله
٥٤ ٣٢١- خيرة الله من خلقه

الأسماء المصدرة بحرف الدال

- ٥٧ ٣٢٢- دائم البشر
٥٨ ٣٢٣- دائم الفكر
٦٠ ٣٢٤- دار الحكمة
٦٣ ٣٢٥- الداعي

٥٢٧	فهرست الموضوعات
٦٤	٣٢٦- الداعي إلى الحق
٦٥	٣٢٧- الداعي إلى كل حق
٦٦	٣٢٨- داعي الله
٦٧	٣٢٩- الداعي إلى الحكمة
٦٩	٣٣٠- دافع جيّشات الأباطيل
٧٠	٣٣١- دافع صولات الأضاليل
٧٠	٣٣٢- دافع هيّشات الأضاليل
٧١	٣٣٣- داني الجبهة
٧١	٣٣٤- دعامة الإسلام
٧٣	٣٣٥- دعوة إبراهيم
٧٥	٣٣٦- دقيق المسربة
٧٦	٣٣٧- الدليل إلى الله
٧٧	٣٣٨- دليل الله
٧٨	٣٣٩- الدمث
٧٩	٣٤٠- الديان
٨١	٣٤١- الدين
٨٢	٣٤٢- دين الله

الاسماء المصدّرة بحرف الذال

٨٥	٣٤٣- ذو وفرة
٨٧	٣٤٤- ذريع المشية
٨٩	٣٤٥- الذكر
٩١	٣٤٦- ذكر الله
٩٢	٣٤٧- ذو الشرف الأصيل
٩٣	٣٤٨- ذو الشرف البلاخ

.....	أسماء الرسول المصطفى ﷺ	٥٢٨
٩٤	٣٤٩- ذو الفضل الشامخ
٩٤	٣٥٠- ذو القوة
٩٧	٣٥١- ذو مرة
٩٨	٣٥٢- ذو النسل القليل

الأسماء المصدرة بحرف الراء

١٠٣	٣٥٣- الرؤوف
١٠٥	٣٥٤- الراتق
١٠٧	٣٥٥- الراضي
١٠٩	٣٥٦- الراعي
١١١	٣٥٧- راعي شمس الله
١١٢	٣٥٨- راكب البراق
١١٥	٣٥٩- راكب الجمل
١١٧	٣٦٠- رَجِل الشعر
١١٩	٣٦١- رحب الراحة
١٢٠	٣٦٢- رحمة العالمين
١٢٣	٣٦٣- رحمة للعالمين
١٢٤	٣٦٤- الرحمة المهداة
١٢٥	٣٦٥- الرحيم
١٣١	٣٦٦- الرسول
١٣٤	٣٦٧- رسول البلاء
١٣٤	٣٦٨- رسول التوبة
١٣٨	٣٦٩- رسول الحمادين
١٣٩	٣٧٠- رسول الراحة
١٤١	٣٧١- رسول رب العالمين

٥٢٩.....	فهرست الموضوعات
١٤٢	٣٧٢- رسول رحمة الله
١٤٣	٣٧٣- رسول الله إلى خلقه
١٤٤	٣٧٤- رسول الملاحم
١٤٦	٣٧٥- رسول الملك الجبار
١٤٧	٣٧٦- رسول الملك الجليل
١٤٨	٣٧٧- رشيقي القامة
١٤٨	٣٧٨- الرقيب على خلق الله
١٥٠	٣٧٩- ركن الدين
١٥٢	٣٨٠- ركن المتواضعين
١٥٦	٣٨١- روح الحق
١٥٧	٣٨٢- روح القدس

الأسماء المصدرة بحرف الزاء

١٦٣	٣٨٣- الزاهد
١٦٦	٣٨٤- الزعيم
١٦٨	٣٨٥- الزكي
١٦٩	٣٨٦- زهرة الملائكة
١٧٠	٣٨٧- زين القيامة

الأسماء المصدرة بحرف السين

١٧٥	٣٨٨- سانس البلاد
١٧٦	٣٨٩- سائل الأطراف
١٧٧	٣٩٠- السابق
١٧٧	٣٩١- السابق إلى طاعة رب العالمين
١٧٨	٣٩٢- سابق ولد آدم
١٧٩	٣٩٣- الساجد

.....	٥٣٠	أسماء الرسول المصطفى ﷺ
١٨١	٣٩٤ سادن غيب الله
١٨٢	٣٩٥ الساعة الموعد
١٨٤	٣٩٦ الساقى
١٨٥	٣٩٧ السبت
١٨٧	٣٩٨ سبط الشعر
١٨٧	٣٩٩ سبط القصب
١٨٨	٤٠٠ السبيل
١٨٩	٤٠١ السبيل الأقوم
١٨٩	٤٠٢ سبيل الله
١٩٠	٤٠٣ سبيل الهدى
١٩١	٤٠٤ سخي الطبع
١٩٤	٤٠٥ السراج
١٩٥	٤٠٦ سراج الأصفياء
١٩٥	٤٠٧ السراج المنير
١٩٨	٤٠٨ سفير الله
٢٠٠	٤٠٩ السفير بين الله وخلقه
٢٠١	٤١٠ سفير وحي الله
٢٠٣	٤١١ السلسيل
٢٠٤	٤١٢ السماء
٢٠٥	٤١٣ السنّة
٢٠٦	٤١٤ سواء البطن والصدر
٢٠٦	٤١٥ السور
٢٠٩	٤١٦ سهل الخدين
٢٠٩	٤١٧ سهل الخلق
٢١١	٤١٨ السيّد

٥٣١ فهرست الموضوعات
٢١٣ ٤١٩- سيد الأئمة
٢١٣ ٤٢٠- السيد الأكبر
٢١٤ ٤٢١- سيد الأمة
٢١٥ ٤٢٢- سيد الأنام
٢١٦ ٤٢٣- سيد الأنبياء
٢١٧ ٤٢٤- سيد أهل السماء والأرض
٢١٧ ٤٢٥- سيد أولي العلم
٢١٩ ٤٢٦- سيد الأولين والآخرين
٢٢١ ٤٢٧- سيد البشر
٢٢١ ٤٢٨- سيد تهامة
٢٢٢ ٤٢٩- سيد خلق الله
٢٢٣ ٤٣٠- سيد رسل الله
٢٢٤ ٤٣١- سيد العالمين
٢٢٥ ٤٣٢- سيد العباد
٢٢٦ ٤٣٣- سيد عباد الله
٢٢٦ ٤٣٤- سيد العرب والعجم
٢٢٧ ٤٣٥- سيد الماضين عند الله
٢٢٨ ٤٣٦- سيد المرسلين
٢٢٩ ٤٣٧- سيد من خلق الله
٢٣٠ ٤٣٨- سيد الناس
٢٣٢ ٤٣٩- سيد النبيين
٢٣٣ ٤٤٠- سيد النجباء
٢٣٣ ٤٤١- سيد النذر
٢٣٧ ٤٤٢- سيد ولد آدم

الأسماء المصدرة بحرف الشين

- ٢٤١ الشافع ٤٤٣-
٢٤٤ الشاهد ٤٤٤-
٢٤٦ الشاهد على الخلق ٤٤٥-
٢٤٧ شيخ الذارعين ٤٤٦-
٢٤٨ شثن الكعبين ٤٤٧-
٢٤٨ شثن الكفين والقلمين ٤٤٨-
٢٤٨ الشجرة الطيبة ٤٤٩-
٢٥٠ شجرة الزيتون ٤٥٠-
٢٥١ شجرة النبوة ٤٥١-
٢٥٢ شديد البأس ٤٥٢-
٢٥٥ شرف الأمة ٤٥٣-
٢٥٦ الشرف الباقي ٤٥٤-
٢٥٦ الشرف في الدنيا والآخرة ٤٥٥-
٢٥٧ الشفيح ٤٥٦-
٢٥٩ شفيح مَنْ في الدارين ٤٥٧-
٢٦٠ شفيح المذنبين ٤٥٨-
٢٦٢ الشمس ٤٥٩-
٢٦٤ شمس بين القمرين ٤٦٠-
٢٦٥ شمس الدنيا ٤٦١-
٢٦٥ شمس القيامة ٤٦٢-
٢٦٧ الشهيد ٤٦٣-
٢٦٨ شهيد الله يوم الدين ٤٦٤-

الأسماء المصدرة بحرف الصاد

- ٢٧٣ الصابر ٤٦٥-

٥٣٣	فهرست الموضوعات
٢٧٨	٤٦٦- الصابر في ذات الله
٢٨١	٤٦٧- صاحب الآباء الأخير
٢٨٢	٤٦٨- صاحب الأصل الطاهر
٢٨٣	٤٦٩- صاحب الأمة المهدي
٢٨٥	٤٧٠- صاحب الأمهات الطواهر
٢٨٦	٤٧١- صاحب الإنابة والصفاء
٢٨٨	٤٧٢- صاحب البدن الصابر
٢٩٠	٤٧٣- صاحب البدن الصبور
٢٩١	٤٧٤- صاحب البركة والحجور
٢٩٢	٤٧٥- صاحب البرهان
٢٩٤	٤٧٦- صاحب البغلة الشهباء
٢٩٦	٤٧٧- صاحب البيت الحرام
٢٩٦	٤٧٨- صاحب البيت المعمور
٢٩٨	٤٧٩- صاحب التاج
٢٩٨	٤٨٠- صاحب التاج والمغفر
٢٩٩	٤٨١- صاحب التاج و الهراوة
٣٠١	٤٨٢- صاحب التذكرة والبكاء
٣٠٤	٤٨٣- صاحب التوكل والقناعة
٣٠٧	٤٨٤- صاحب الجبين الأزهر
٣٠٨	٤٨٥- صاحب الجمع
٣٠٩	٤٨٦- صاحب الجمل
٣١٠	٤٨٧- صاحب الجمل الأحمر
٣١١	٤٨٨- صاحب الجود والسخاء
٣١٥	٤٨٩- صاحب الحج والزيارة
٣١٨	٤٩٠- صاحب الحجّة والبرهان

.....	٥٣٤	أسماء الرسول المصطفى ﷺ
.....	٤٩١	صاحب الحسب الأطهر
.....	٤٩٢	صاحب الحق الزاهر
.....	٤٩٣	صاحب الحق والصواب
.....	٤٩٤	صاحب الحق والبيان
.....	٤٩٥	صاحب الحكمة والفرقان
.....	٤٩٦	صاحب الحل والحرام
.....	٤٩٧	صاحب الحوض الشريف
.....	٤٩٨	صاحب الحوض المورود
.....	٤٩٩	صاحب الحوض والكوثر
.....	٥٠٠	صاحب الخاتم
.....	٥٠١	صاحب الخد الأقر
.....	٥٠٢	صاحب الخشوع والدعاء
.....	٥٠٣	صاحب الخطبة والمنبر
.....	٥٠٤	صاحب الخلق الجلي
.....	٥٠٥	صاحب الخلق العظيم
.....	٥٠٦	صاحب الخوف والرجاء
.....	٥٠٧	صاحب الدعوة
.....	٥٠٨	صاحب الدعوة والجواب
.....	٥٠٩	صاحب الدلالات
.....	٥١٠	صاحب الدين الرضي
.....	٥١١	صاحب الدين الأظهر
.....	٥١٢	صاحب الدين الظاهر
.....	٥١٣	صاحب الدين القويم
.....	٥١٤	صاحب الدين والإسلام
.....	٥١٥	صاحب الدين والطاعة

٥٣٥.....	فهرست الموضوعات
٣٦٠	٥١٦- صاحب الذكر الحكيم
٣٦١	٥١٧- صاحب الرأي المصيب
٣٦٣	٥١٨- صاحب الرجفة
٣٦٥	٥١٩- صاحب الركن والحطيم
٣٦٧	٥٢٠- صاحب الركن والمشعر
٣٦٨	٥٢١- صاحب الركن والمقام
٣٦٩	٥٢٢- صاحب الرمح الطاعن
٣٧٠	٥٢٣- صاحب الزمان
٣٧٢	٥٢٤- صاحب الزمان الباهر
٣٧٣	٥٢٥- صاحب السكينة
٣٧٥	٥٢٦- صاحب السهم النافذ
٣٧٦	٥٢٧- صاحب السيف القاطع
٣٧٨	٥٢٨- صاحب الشريعة المرضية
٣٧٩	٥٢٩- صاحب الشفاعة
٣٨٣	٥٣٠- صاحب الشفاعة الكبرى
٣٨٤	٥٣١- صاحب الصلاة والصيام
٣٦٨	٥٣٢- صاحب الضياء والنور
٣٨٧	٥٣٣- صاحب العترة
٣٩٠	٥٣٤- صاحب العز الأبدي
٣٩٣	٥٣٥- صاحب العزم والشريعة
٣٩٥	٥٣٦- صاحب الغرة الحجلاء
٣٩٦	٥٣٧- صاحب الفرقان والخطاب
٣٩٨	٥٣٨- صاحب الفصاحة والبراعة
٣٩٩	٥٣٩- صاحب الفضل والإحسان
٤٠١	٥٤٠- صاحب الفضل والعطاء

.....	أسماء الرسول المصطفى ﷺ	٥٣٦
.....	صاحب الفناء الرحيب	٥٤١
.....	صاحب القبر	٥٤٢
.....	صاحب القبلة اليمانية	٥٤٣
.....	صاحب القرآن والناقة	٥٤٤
.....	صاحب القضيب العجيب	٥٤٥
.....	صاحب القضيب والرداء	٥٤٦
.....	صاحب القلب الشاكر	٥٤٧
.....	صاحب قول لا إله إلا الله	٥٤٨
.....	صاحب قول محمد رسول الله	٥٤٩
.....	صاحب الكتاب البهي	٥٥٠
.....	صاحب الكر والشجاعة	٥٥١
.....	صاحب الكرم والامتنان	٥٥٢
.....	صاحب اللسان الذاكر	٥٥٣
.....	صاحب اللسان الذكور	٥٥٤
.....	صاحب اللواء الأكبر	٥٥٥
.....	صاحب المحبة والعرفان	٥٥٦
.....	صاحب المدرعة	٥٥٧
.....	صاحب المساعي	٥٥٨
.....	صاحب المقام المحمود	٥٥٩
.....	صاحب الملة الخفيفة	٥٦٠
.....	صاحب الملحمة	٥٦١
.....	صاحب المنشور والكتاب	٥٦٢
.....	صاحب الناقة العضباء	٥٦٣
.....	صاحب النسب الأشهر	٥٦٤
.....	صاحب التعلين	٥٦٥

٥٣٧.....	فهرست الموضوعات
٤٥٥	٥٦٦ - صاحب النور الساطع
٤٥٧	٥٦٧ - صاحب النور المضيئ
٤٥٧	٥٦٨ - صاحب النور والضياء
٤٥٧	٥٦٩ - صاحب الهراوة والنعلين
٤٥٨	٥٧٠ - صاحب الهية والوقار
٤٦٢	٥٧١ - صاحب الوسيلة
٤٦٣	٥٧٢ - صاحب الوجه الأقرم
٤٦٥	٥٧٣ - صاحب الوجه الأنور
٤٦٧	٥٧٤ - صاحب اليمن والسرور
٤٧٠	٥٧٥ - الصادع
٤٧٢	٥٧٦ - الصادع بأمر الله
٤٧٢	٥٧٧ - الصادق
٤٧٥	٥٧٨ - الصالح
٤٧٨	٥٧٩ - صالحى
٤٧٩	٥٨٠ - الصبر
٤٧٩	٥٨١ - صخرة الميزان
٤٧٩	٥٨٢ - الصدوق
٤٨٠	٥٨٣ - الصديق في العرب
٤٨٠	٥٨٤ - الصراط المستقيم
٤٨١	٥٨٥ - الصفوة
٤٨٣	٥٨٦ - صفوة رب العالمين
٤٨٣	٥٨٧ - صفوة الله
٤٨٤	٥٨٨ - صفوة الله من خلقه
٤٨٥	٥٨٩ - الصفي
٤٨٥	٥٩٠ - صفي الله

٥٣٨ أسماء الرسول المصطفى ﷺ

٥٩١ - الصفي المقرَّب ٤٨٧

٥٩٢ - صلت الجبين ٤٨٧

الأسماء المصنَّرة بحرف الضاد

٥٩٣ - الضال ٤٨٨

٥٩٤ - الضحَّاك ٤٩٣

٥٩٥ - الضحوك ٤٩٣

٥٩٦ - الضحى ٤٩٨

٥٩٧ - ضخم الكراديس ٤٩٩

٥٩٨ - ضليع الفم ٤٩٩

الأسماء المصنَّرة بحرف الطاء

٥٩٩ - طاب ٥٠٣

٦٠٠ - طاب طاب ٥٠٣

٦٠١ - طالِثًا ٥٠٤

٦٠٢ - الطاهر ٥٠٥

٦٠٣ - طاهر القلب ٥٠٦

٦٠٤ - طاهر الميلاد ٥٠٨

٦٠٥ - الطريق المستقيم ٥٠٩

٦٠٦ - طريق النجاة ٥١٠

٦٠٧ - طس ٥١١

٦٠٨ - طسم ٥١١

٦٠٩ - طلق اللسان ٥١٢

٦١٠ - طه ٥١٢

٦١١ - الطهر ٥١٣

٦١٢ - طويل الزندين ٥١٤

مكتبة الخزانة العلمية
بمؤسسة السيد هبة الدين الحسيني

- فهرست الموضوعات ٥٣٩
- ٦١٣- طویل الصمت ٥١٥
- ٦١٤- طویل العنق ٥١٧
- ٦١٥- طیب الريح ٥١٧

الأسماء المصدرة بحرف الظاء

- ٦١٦- الظل ٥٢٣

MAWSOUAT AL-RASOOL
AL-MOSTAFA

(2)

Address in Lebanon:

P.O.Box 25/138

Al-Ghobairi-Beirut

Address in Iran:

P.O.Box 91375/4436 Mash had

Fax: 0098-511-2222483

Email: almawsouah@hotmail.com

almawsouah@yahoo.com

Website: www.almawsouah.org

All rights reserved

First print in Beirut 1423 -2002

Second print in Tehran 1423 – 2002

MAWSOUAT AL- RASOOL

AL-MOSTAFA

**A highly informative encyclopedia
of Prophet Mohammad's life**

Administered by: Mohsen-Ahmad Al-Khatami

**NAMES, NICKNAMES AND CHARACTER
TRAITS OF PROPHET MOHAMMAD**

By:Abbas Tabrizian
Assisted by:Hashem Al-Khatami
(Volume Two)